

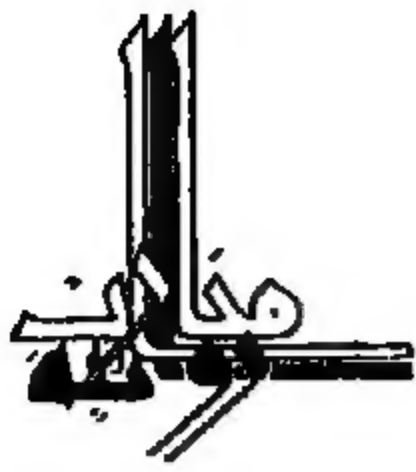
جَابِرِيْل غَارِسِيَا مَارَكِيْز
الحائِز على جَائِزَةِ نُوبَلِ لِلآدَابِ

الْحُبُّ فِي زَمَنِ الْكَوْلِيرَا



مَرْثِيَّة بِيَّوْتَا

الذب في زمن الكوليرا



غابرييل غارسيا ماركيز

الحب في زمن الكوليرا

رواية

ترجمتها عن الإسبانية: صالح عيماخي

دار العودة بيروت



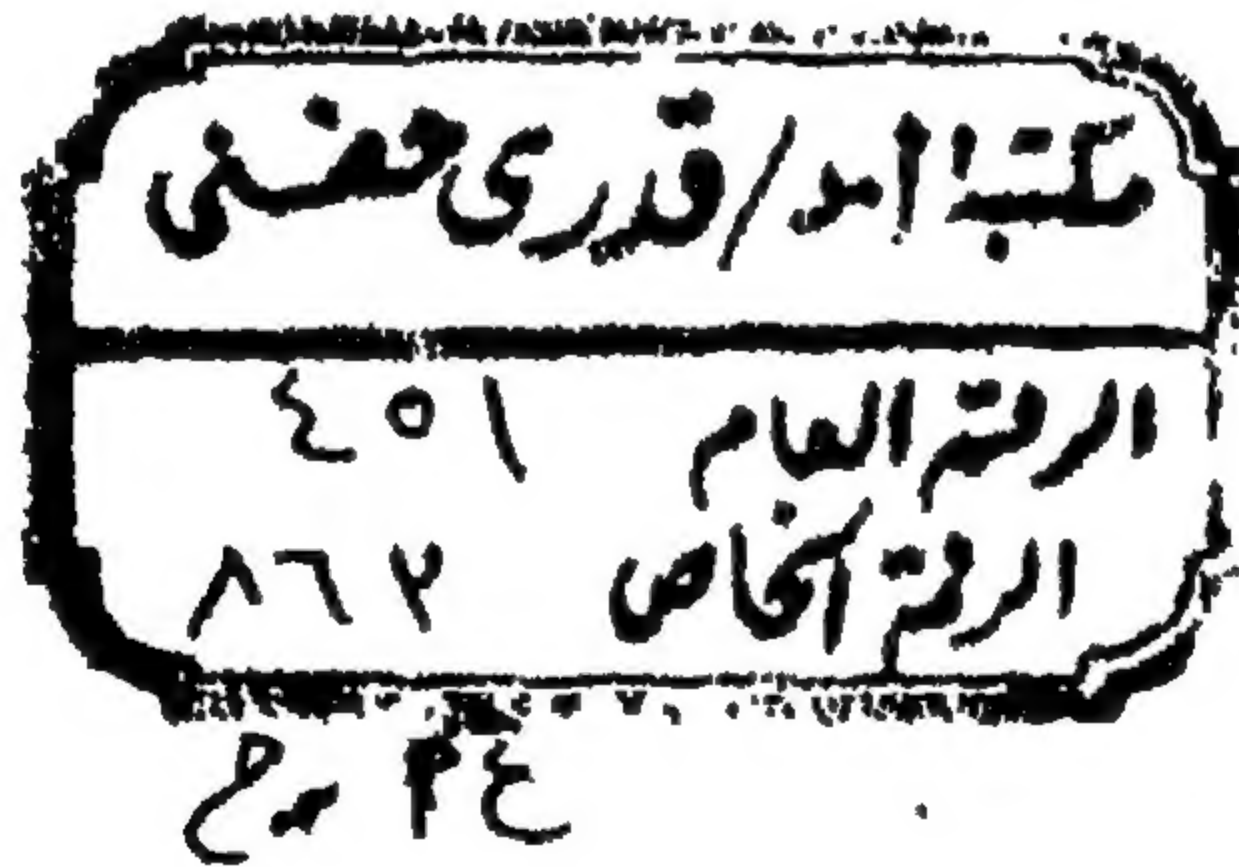
هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

GABRIEL GARCIA MARQUEZ

EL Amor En Los Tiempos Del Colera.

Diciembre 1985

Editorial Bruguera, S.A.



الطبعة العربية الأولى

١٩٨٦

جميع الحقوق محفوظة

دار منارات للنشر

طبعت هذه الطبعة وكميتها الف نسخة

بتاريخ ١٩٨٩ / ٢ / ٢٥

وتطلب من دار العودة

ولد غابرييل غارسيا ماركيز عام ١٩٢٨ في أراكاتاكا، شمال كولومبيا، ودرس في بوغوتا العاصمة في مدرسة يسوعية، ليتقل بعدها إلى الجامعة. عمل صحفياً وجاب كثيراً من بلدان العالم أهمها روما، وباريس (عام ١٩٦٠ حيث كان بلا مال سوى ثمن تذكرة العودة الذي استعاده، فاضطر إلى بيع الزجاجات الفارغة والاشترى مع آخرين من مواطني أميركا اللاتينية في تبادل العظام ليصنعوا منه الحساء) - كتب حينذاك روايته «ليس للكولونيل من يكاتبه». كما أنه أقام في مكسيكو وكتب عدة سيناريوهات سينمائية. نشر ماركيز أول قصة له عام ١٩٥٥ وكانت «غرباء الموز»، ولم يتجاوز وقتها عدد نسخها ألف نسخة.

ذاع صيته بعد نشره لرائعته «مائة عام من العزلة» عام ١٩٦٧، والتي نهت العالم إليه ككاتب متميز (ترجمت إلى ٣٢ لغة بينها العربية)؛ لابل فجرت اهتماماً استثنائياً بأدب أميركا اللاتينية ككل.

وعلى اثر ذلك، حاز يوم الجمعة في العاشر من كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٢ على جائزة نوبل للأدب وذلك (لرواياته وقصصه حيث يتدفق الواقعي والغرائبي في غنى معقد لعالم شعري يعكس حياة ونزاعات محيطه بأكمله) - كما جاء في شهادة الأكاديمية السويدية. وبهذا يكون الفائز بالجائزة رقم ٧٨، وأول كولومبي ينالها، ورابع أميركي لاتيني بعد ميسترال وأستورياس، وكاربانتييه.

حقاً، إن غابرييل غارسيا ماركيز يستمد من المخيلة الكثير الكثير ليشحن به كتاباته، وبذلك يحقق تالفاً منسجماً لعالم يطفو فوق الواقع إنما جذوره متصلة فيه ويغتنق بنفسه. إنه كما الكاتب الأرجنتيني بورخس، يعتمد الخيال أو المخيلة وسيلة كبرى في الحياة والكتابة: «إن أعظم ما يمتلكه الإنسان هو الخيال» - قال بورخس. أما ماركيز، فإنه يقول في أكثر من مناسبة: «الخيال هو في تهيئة الواقع ليصبح فناً»، وأيضاً «الغرائبي يأخذني ولا يبقى من الواقع إلا أرض القصة». ولكنه يوضح في مكان آخر فيقول عن مائة عام من العزلة: «إنها تنتمي إلى أدب الهروب من الواقع. كنت أود التعبير عن الإرادة الواعية، لا أن تعدم الواقع. ولكن علينا أن ندرك أنها لم تصالح الواقع». ويستطرد: «لنيس قول الناس أننا نتهرب من

الواقع معقولاً، فمن يطالع انتاجنا في روية يعرف أننا مُسيسون ومتورطون اكثر من أسلافنا». وعن النقطة ذاتها يشرح قائلاً : «أعتقد أن سبر أغوار الواقع، دون أحكام مسبقة عقلية، يبسط أمام رويتنا بانوراما رائعة. ومهما اعتقد بعضهم أن منهجنا هروبي، فإن الواقع سيثبت - ان عاجلاً أو آجلاً - أن المخيلة على حق».

وهكذا نفهم لماذا رفض العروض لتحويل رواياته الى أفلام سينمائية، فهو يريد أن تبقى غخيلة القارئ حرة غير مؤطرة : «أنا أفضل أن يتخيل قارئ كتابي الشخصيات كما يحلو له. أن يرسم ملاحظتها مثلما يريد. أما عندما يشاهد الرواية على الشاشة فإن الشخصيات ستصبح ذات أشكال محددة هي أشكال الممثلين، وهي ليست تلك الشخصيات التي يمكن أن يتخيلها المرء أثناء القراءة».

وعن موقع وواقع الكاتب في المجتمع وتفاعله معه، فإن ماركيز يحدده بدقة : «إذا كان الأدب نتاجاً اجتماعياً فإن العمل الأدبي هو نتاج فردي بل الأكثر فردية في العالم. الأديب كامل الوحدة في الابداع. من هنا أميز بين الممارسات السياسية الجماعية والممارسة الأدبية الفردية البحتة».

أجل فماركيز الرفض لجميع أشكال الممارسات القمعية لدكتاتوريات العالم، ودكتاتوريات أميركا اللاتينية خاصة، والذي نفى نفسه طوعاً خارج هياكل البطش والقمع؛ انه هو الذي لا تختلط الأمور عليه، إذ يراها بكل سطوعها من منظار شخصه المالك لحريته، فيقول معرفاً واجب الكاتب الثوري : «أعتقد ان واجب الكاتب الثوري أن يكتب جيداً. ذلك هو التزامه».

أشهر أعمال غابرييل غارسيا ماركيز : مائة عام من العزلة. ليس للكولونيل من يكاتبه، خريف البطريق، قصة موت مُعلن، في ساعة نحس... الخ.

إلى ميرثيدس، طبعاً

قديماً تمضي هذه الأماكن:
إذ صار لها ربة متوجة

ليناندرودياث

لا مناص : فرائحة اللوز المراكنت تذكره دوما بمصير الغراميات غير المواتية . ذلك ما ادركه الدكتور خوفينال اورينو منذ دخوله البيت الذي ما زال غارقا في الظلام ، إذ حضر على عجل للاهتمام بحالة لم تعد مستعجلة بالنسبة له منذ سنوات عديدة ، فاللاجيء الانتيلي جيرميا دي سانت - أمور ، مشوه الحرب ، ومصور الأطفال ، واكثر خصومه رافة في لعبة الشطرنج ، قد تخلص من عذابات الذكرى باستنشاقه ابخرة سيانور الذهب .

وجد الجثة مغطاة بشرشف فوق السرير الضيق ، حيث كان ينام عادة ، وبجواره كرسي صغير عليه الطشت المستخدم في تبخير السم . وكان يقبع على الارض ، مقيدا بقائمة السرير ، جسد كلب دانمركي ضخم ، اسود اللون ، تغطي صدره بقع بلون الثلج ، وإلى جانبه العكازان . الحجرة الخائقة ذات الألوان المتنافرة ، التي كانت تستخدم كحجرة نوم ونحبر تصوير في الوقت ذاته ، اضيئت قليلا ببريق الفجر المنسل من النافذة المفتوحة ، لكنه كان ضوءا كافيا للاعتراف الفوري بسلطة الموت فقط . كانت النوافذ الاخرى ، وكذلك جميع كوى الحجرة ، مسدودة بخرق قماشية او مختومة بورق مقوى اسود اللون ، مما ضاعف من كثافة ضيقها . وكانت هناك طاولة تحتشد بزجاجات وقنابلا لصاقات ، وطشتين من التوتياء مقشري الطلاء ، تحت مصباح عادي مغلف بورق أحمر . أما الطشت الثالث ، الخاص بالسائل المثبت ، فهو الموجود الى جانب الجثة ، كانت هنالك مجلات وصحف قديمة في كل الانحاء ، واكداس من مسودات الصور الفوتوغرافية في اطر زجاجية ، واثاث مخلع ، لكنه محفوظ كله من الغبار بقدره يد نشيطة ، ومع ان هواء النافذة كان قد نقى الجو ، الا انه بقي لمن هو قادر على التسيير قبس فاتر من الغراميات الكثيرة لحبات اللوز المرة ، كان الدكتور خوفينال اورينو قد فكر اكثر من مرة ، دون حماس مسبق ، بأن تلك الحجرة ليست بالمكان المناسب للموت في رحمة الله ، لكنه انتهى مع مرور الوقت إلى الافتراض بان فوضى المكان هذه ربما

هي استجابة لالهام محدد من جانب العناية الالهية .

كان مفوض شرطة قد سبقه مع طالب طب شاب يتمرن للتخصص في الطب الشرعي في المستوصف البلدي ، وهما من قام بتهوية الحجرة وتغطية الجثة ريثما يأتي الدكتور اوربينو . كلاهما صافحه بمهابة فيها من المواساة هذه المرة اكثر مما فيها من التوقير ، فلا احد يجهل درجة الصداقة التي كانت تربطه بعجيرميا دي سانت - أمور . شد المعلم الشهير على يد كل منهما ، كما هي عادته دائما بمصافحة كل واحد من تلاميذه قبل بدء درسه اليومي في الطب العام ، ثم رفع طرف شرشف السرير برأس ابيهامه وسبابته ، كما لو كان زهرة ، وكشف عن الجثة شبرا فشبرا برصانة قدسية . كان الميت عاريا تماما ، متيبسا ومعوجا ، عيناه مفتوحتان وجسده ازرق ، وبدا كأنه كبر خمسين عاما عما كان عليه في الليلة الماضية ، كانت حدقاته صافيتين ، وشعر رأسه وذقنه ضارب الى الاصفرار ، وعلى عرض بطنه أثر جرح قديم مندمل مخيط بغرز معقودة . وكانت لصدره وذراعيه ضخامة صدر وذراعي مجذف سفينة ، وذلك للجهد الذي عليه اداءه باستخدام العكازين . أما ساقاه الخامدتان فبدتا كساقَي يتيم . تأمله الدكتور خوفينال اوربينو للحظة بقلب يعاني ألما قلما عانى مثله خلال سنوات حربه الطويلة العقيمة ضد الموت . وقال له :

- ايها الجبان . الأسوأ كان قد انقضى .

ثم أعاد تغطيته بالشرشف واستعاد وقاره الاكاديمي . كان قد احتفل في العام الماضي بعيد ميلاده الثمانين في احتفال رسمي دام ثلاثة ايام ، وفي كلمة الشكر التي ألقاها رفض مجددا اغراء التقاعد بقوله : « سيكون لدي متسع للراحة عندما اموت ، وحتى هذا الاحتمال ليس ضمن مشاريعي في الوقت الراهن » . بالرغم من ان سمع اذنه اليسرى كان يضعف اكثر فأكثر ، ورغم انه كان يستند على عكاز ذي قبضة فضية ليخفي تعثر خطواته ، فقد تابع الظهور بالمظهر الذي كان عليه في سنوات شبابه ، ببذلة كاملة من الكتان مع صدرية تقطعها بسلسلة ساعة ذهبية ، ولحية كلحية باستور ، ذات لون صديفي ، وشعر له اللون ذاته ، مصفف مع فرق متقن في الوسط ، وكانت هذه الأمور تعبيرا امينا عن طبعه ، اما تآكل الذاكرة الذي كان يقلقه اكثر فأكثر ، فكان يعوضه قدر الامكان بكتابة ملاحظات سريعة على قصاصات متفرقة ، ما تلبث ان تختلط في كل جيوبه ، كما تختلط الادوات ، وزجاجات الدواء ، واشياء اخرى كثيرة في حقيبته المتخمة . لم يكن اكبر الاطباء سنا واشهرهم في المدينة حسب ، بل والرجل الاكثر تجملا فيها . ومع ذلك ، فان حكمته البينة وطريقته التي لا يمكن اعتبارها ساذجة في ادارة سلطة اسمه جعلت عدد اتباعه اقل مما يستحق .

كانت تعليماته للمفوض والطبيب المتمرن محددة وسريعة : يجب عدم اجراء التشريح .

فرائحة البيت كافية لتقرير ان سبب الوفاة هو استنشاق السيانور المتفاعل في طشت مع حامض من احماض التصوير، ولقد كان جيرميا دي سانت - أمور يعرف هذه المواد جيدا، بحيث لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك سهوا. وامام استفسار من المفوض، اوقفه الدكتور بطعنة تقليدية هي احدى حركاته المعتادة: «لا تنس اني انا من سيوقع على شهادة الوفاة». اصابت خيبة الامل الطبيب الشاب: فهو لم يحظ يوما بدراسة تأثيرات سيانور الذهب على جثة. وقد فوجيء الدكتور خوفينال اوربينويان الشاب لم يرد ذلك في مدرسة الطب، لكنه فهم الامر فورا بسبب خجل الشاب السريع ولهجته الانديزية. . ربما هو حديث الوصول الى المدينة. فقال له: «نن نعدم هنا وجود مجنون في الحب يمنحك الفرصة في يوم من هذه الايام»، وعندما انتهى من الحديث فقط، ادرك انه بين عدد لا حضر له من المنتحرين الذين يذكرهم، كان ذاك هو اول منتحر بالسيانور ليست تعاسة الحب هي السبب في انتحاره، عندها طرأ تبدل ما على نبرة صوته المعتادة.

قال للمتمرن:

- عندما تجده، دقق جيدا. اذ يوجد رمل في قلوبهم عادة.

ثم تحدث الى المفوض. كما لو كان يتحدث الى احد رؤوسيه. امره بتجنب اية التماسات كي يتم الدفن في مساء ذلك اليوم بالذات، وبأقصى درجات التكتم. قال: «انا سأكلم العمدة فيما بعد». كان يعلم ان جيرميا دي سانت - أمور قد عاش حياة تقشف بدائي، وانه كان يكسب بفنه اكثر مما يلزمه للعيش بكثير، مما يستوجب وجود مال يزيد عن تكاليف الدفن في أحد الادراج.

- اذا لم تجدوا المال فلا تهتموا. سأتولى انا تكاليف الدفن.

وأمر باعلام الصحف ان المصور قد توفي وفاة طبيعية، رغم انه فكر بان الخبر لن يهمهم باي حال. قال: «اذا اقتضى الامر، فسأكلم الحاكم». المفوض، انذري كان موظفا جديا وذليلا، كان يعرف ان صرامة الاستاذ المتمدن تثير حفيظة اقرب اصدقائه اليه، وكان مشدوها للسهولة التي يقفز بها فوق الاجراءات القانونية للاسراع في الدفن، والشيء الوحيد الذي لم يفتححه هو مسألة التحدث الى الاسقف لسمح بدفن جيرميا دي سانت - أمور في مقبرة المؤمنين. وحاول المفوض، المستاء من سفاهة ذاته، ان يعتذر، فقال:

- ما اعرفه هو ان هذا الرجل كان قديسا.

وقال الدكتور اوربينو:

- بل هو شيء اشد غرابة: انه قديس ملحد. لكن هذا من شؤون الرب. بعيدا، في الجانب الآخر من المدينة الاستعمارية، سمعت نواقيس الكتدرائية تدعو الى القداس

الكبير . فوضع الدكتور اوربينو نظارته ذات القوس والاطار الذهبي على عينيه ، ونظر الى ساعة السلسلة ، المربعة الرقيقة ، التي يفتح غطاؤها بنابض ، انه يوشك ان يتخلف عن موعد صلاة العنصرة .

كان في الصلّة آلة تصوير ضخمة على عجلات كتلك التي في الحداثق العامة ، وستارة عليها رسم يمثل منظر شفق بحري ، وكانت الجدران مغطاة بصور اطفال عليها تواريخ تذكارية : ذكرى المشاركة الاولى ، التنكربقناع ارنب ، عيد الميلاد السعيد ، لقد رأى الدكتور اوربينو هذه الجدران وهي تتغطى تدريجيا ، سنة بعد اخرى ، اثناء تأمله المتروي في امسيات الشطرنج ، وكان قد فكر في احيان كثيرة ، مع اختلاجة كآبة ، بأن في معرض صور المصادفة هذا توجد نواة مدينة المستقبل ، التي ستسأس وتفسد على يد هؤلاء الاطفال المجهولين ، والتي لن يبقى فيها حتى رماد مجده .

على طاولة العمل ، الى جانب علبة فيها عدة غلايين محفور عليها رسوم ذئاب بحر ، كانت رقعة الشطرنج وعليها دور غير مكتمل . ورغم تعجله واكتثابه ، لم يستطع الدكتور اوربينو مقاومة اغراء دراستها . كان يعلم انها لعبة الليلة الماضية ، فقد كان جيرميا دي سانت - أمور يلعب مساء كل يوم من ايام الاسبوع ، ومع ثلاثة خصوم مختلفين على الاقل ، لكنه كان يصل دائما الى نهاية اللعب ثم يضع الرقعة مع الاحجار في علبتها ، ويضع العلبة في احد ادراج المكتب . وكان يلعب بالاحجار البيضاء دوما ، ولم يكن هنالك من شك في انه كان سيخسر تلك اللعبة بعد اربع حركات اخرى دون مفر . وقال لنفسه : « لو كان ثمة جريمة ، لكان هذا دليلا جيدا . فأنا لا اعرف سوى شخص واحد قادر على نصب مثل هذا الكمية المتقن » . ما كان بمقدوره العيش دون ان يبحث فيما بعد عن السبب الذي جعل ذلك الجندي الجامح ، المعتاد على الصراع حتى اخرقطرة دم ، يتخلى عن المعركة الاخيرة في حياته دون حسمها .

في الساعة السادسة صباحا ، وفيما الحارس الليلي يقوم بجولته الاخيرة ، رأى الورقة المثبتة على الباب الخارجي : ادخل دون طرق الباب واتصل بالشرطة . بعد ذلك بقليل هرع مفوض الشرطة مع طالب الطب المتمرن ، وقاما كلاهما بتفتيش البيت بحثا عن دليل ضد رائحة اللوز المر التي لا يمكن اخفاؤها . واثناء الدقائق القليلة التي استغرقتها دراسة دور الشطرنج غير المنتهي ، اكتشف المفوض بين الاوراق التي على المكتب مغلفا موجهها الى الدكتور خوفينال اوربينو ، مختوما بعدة اختام من الشمع الاحمر ، مما جعل تمزيقه ضروريا لاجراج الرسالة منه . ازاح الطبيب الستارة السوداء عن النافذة ليحصل على انارة افضل ، ثم القى اول الامر نظرة سريعة على الاحدى عشرة ورقة المكتوبة بخط انيق على الوجهين ،

ومذ قرأ الفقرة الاولى ادرك انه قد تخلف عن صلاة العنصرة . قرأ بنفس مضطرب ، عائدا الى ما قرأه في عدة صفحات ليمسك مجددا بالخيط المفقود ، وعندما انتهى ، بدا وكأنه يرجع من مكان قصي وزمان سحيق . كان هموده باديا ، رغم اجتهاده للحيلولة دون ذلك : كانت شفتاه بلون الجثة الازرق ذاته ، ولم يستطع السيطرة على ارتجاف اصابعه عندما اعاد طي الرسالة وادعها جيب صدره . عندئذ تذكر وجود مفوض الشرطة والطبيب الشاب ، فابتسم لهما من خلال غلالة الاسى وقال :

- لا شيء يستحق الذكر . انها تعليقاته الاخيرة .

كان هذا نصف الحقيقة ، لكنها اعتقدا انها الحقيقة الكاملة ، لانه امرهما بانتزاع بلاطة مغلخلة في الارضية ، حيث وجدوا دفتر حسابات مستعملا كثيرا ، وفيه كانت رموز فتح صندوق الخزنة ، لم تكن هناك نقود كثيرة كما توهموا ، لكن ما وجدوه كان يزيد عن تكاليف الدفن وتسديد التزامات اخرى ضئيلة الشأن . كان الدكتور اوربينو مدركا حينئذ انه لن يتمكن من الوصول الى الكتدرائية قبل القداس . فقال :

- انها المرة الثالثة التي تخلف فيها عن قداس الاحد ، مذ بلغت سن الرشد . لكن الله يتفهم .

وهكذا فضل البقاء بضع دقائق اخرى ليحل جميع التفاصيل ، رغم انه لم يكن قادرا على احتمال شوقه لاطلاع زوجته على مضمون الرسالة . وعد بان يخبر لاجئي الكاريبي الكثيرين الذين يعيشون في المدينة ، كي يحضروا ان كانوا يودون تقديم تكريمهم الاخير للاجئ الذي كان الاكثر احتراما في سلوكه ، والاكثر فعالية وجدية ، حتى بعد ان تبين بجلاء سقوطه في احاييل خيبة الامل . وسيخبر ايضا زملاءه لاعبي الشطرنج ، الذين كانوا يتفاوتون من مهنين مشهورين وحتى عمال بلا اسم ، اضافة الى اصدقاء آخرين اقل مواظبة ، لكنهم ربما يودون حضور الجنازة . قبل ان يعرف بامر رسالة الموت ، كان قد قرر ان يكون اول الحاضرين ، لكنه بعد قراءتها لم يعد متأكدا من شيء . انها سيبعث على اية حال اكليل ياسمين ، فربما يكون جيرميا دي سانت - أمور قد عانى لحظة اخيرة من الندم ، سيتم الدفن في الخامسة ، فهي الساعة المناسبة في شهر الحر الشديد . واذا ما احتاجوه لشيء فسيجدونه منذ الساعة الثانية عشرة في البيت الريفي الخاص بالدكتور لاثيديس اوليفيا ، تلميذه النجيب ، الذي سيقم في ذلك اليوم وليمة غداء احتفالا بيوبيله الفضي في المهنة .

كان للدكتور خوفينال اوربينو نمط بسيط من العادات يتبعها منذ انقضت سنوات السلاح المضطربة الاولى ، واحرز لنفسه مكانة وسمعة لا مثيل لهما في كل المقاطعة . كان يستيقظ مع السديوك الاولى ، ويبدأ في هذه الساعة بتناول ادويته السرية : برومور البوتاسيوم

لبعث النشاط ، وملح السليسين لآلام العظام في ايام المطر، وطحالب السلت للاغماء، وحشيشة الببلادونا للنوم الهادىء. كان يتناول شيئاً في كل ساعة، ودائماً في الخفاء، لانه في حياته الطويلة كطبيب واستاذ كان دوماً ضد اعطاء الوصفات المخففة لآلام الشيخوخة : كان احتمال آلام الآخرين أسهل عليه من احتمال آلامه . وكان يحمل في جيبه دائماً وسادة مشبعة بالكافور يستنشقها بعمق حين لا يكون ثمة من يراه، ليتزعج عن نفسه الخوف من كل هذه الادوية المختلطة.

كان يبقى في مكتبه مدة ساعة، لتحضير درس الطب العام الذي واطب على القائه في مدرسة الطب كل يوم من ايام الاسبوع، من الاثنين الى السبت، في الساعة الثامنة تماماً، حتى اليوم الذي سبق موته . كما كان قارئاً مطلعاً على المستجدات الادبية التي يزوده بها بالبريد المكتبي الذي يتعامل معه في باريس، اوتلك التي يوصي له عليها من برشلونة وكيله المكتبي المحلي، رغم انه لم يكن يتابع آداب اللغة الاسبانية بنفس الاهتمام الذي يتابع به الأدب الفرنسي، ولم يكن على اي حال يقرأ تلك الكتب ابداً في الصباح، وانما لساعة بعد القيلولة، وفي الليل قبل ان ينام. اما بعد الانتهاء من تحضير الدرس في المكتب، فكان يمارس تمرينات التنفس لمدة ربع ساعة في الحمام، مقابل النافذة المفتوحة، متنفساً دوماً باتجاه الجهة التي تصدح منها الديكة، حيث الهواء النقي هناك. بعد ذلك يستحم، ويشذب لحيته ويصمغ شاربته بمستحضر مشبع بكولونيا فارينا غيغينبر الاصلية، ثم يلبس بدلة الكتان البيضاء مع صدرية وقبعة لينة، وحذاء من جلد الماعز. انه يحتفظ وهو في الثمانين من العمر بالتقاليد البسيطة والروح الاحتفالية التي رجع بها من باريس، بعد جائحة داء الكوليرا الكبرى بقليل . وما زال شعره المسرح جيداً مع فرق في الوسط كما كان في شبابه، لولا اللون المعدني الذي طرأ عليه . كان يتناول فطوره مع العائلة عادة، لكنه يتبع ريجيماً خاصاً: يتناول شراب زهر الافستين، لراحة المعدة، ورأس ثوم يقوم بتقشير فصوصه واحداً واحداً ويمضغها بتمهل مع قطعة خبز، وذلك لتفادي احتشاءات القلب، ونادراً ما يكون متحرراً بعد درسه اليومي من التزام مرتبط بمبادراته التمدنية، أو التزامه الكاثوليكي، او بابتكاراته الفنية والاجتماعية.

كان يتناول الغداء في بيته دوماً، ثم ينام قيلولة من عشر دقائق وهو جالس على منصة الفناء، مستمعاً في نومه الى اغنيات الخادومات تحت اشجار المانغا، ومصغياً الى نداءات الباعة في الشارع، وصخب المحركات في الميناء، الذي تفوح روائح مرفرة في جو البيت في الامسيات الحارة كأنها ملاك محكوم بالتعفن . ثم يقرأ بعد ذلك لمدة ساعة في الكتب الجديدة، وخصوصاً الروايات والدراسات التاريخية، وبعد ذلك يلقي دروس اللغة الفرنسية والغناء

للبيغاء الداجنة التي صارت منذ سنوات محطاً للعجاب المحلي . وفي الساعة الرابعة يخرج لعيادة مرضاه ، بعد ان يتناول ابريقاً كبيراً من الليمونادة مع الثلج . ورغم تقدمه في السن ، كان يرفض استقبال مرضاه في العيادة ، ويصر على مواصلة علاجهم في بيوتهم ، كما فعل ذلك دائماً ، مذ كانت المدينة محدودة يمكن الذهاب الى اي مكان فيها مشياً على الاقدام . عندما جاء من اوروبا لأول مرة ، كان يستخدم عربة الخيول الخاصة بالعائلة ، والتي يقودها حصانان اشقران ذهبيان ، وحين لم تعد هذه العربة صالحة للاستعمال ، استبدلها بعربة من نوع فيكتوريا يقودها حصان واحد ، واستمر في استخدامها على الدوام مع ابداء بعض الازدراء للموضة ، عندما اخذت العربات بالاختفاء من الدنيا والعربات الوحيدة التي بقيت في المدينة كانت تستخدم لنزهة السياح ولحمل الاكالييل في الجنازات فقط . ومع انه كان يرفض الاعتزال ، فقد كان مدركاً انهم لا يستدعونهم الا لمعالجة حالات ميؤوس منها ، لكنه كان يرى في ذلك ايضاً نوعاً من التخصص ، كان قادراً على معرفة ما يعانيه المريض من مظهره فقط ، وكان يفقد ثقته اكثر فأكثر في الادوية المرخصة وينظر بذهول الى تعميم الجراحة ، ويقول : « ان الموضع هو اكبر دليل على فشل الطب » . وكان يفكر ان كل دواء اذا ما رأيناه بمقياس دقيق هو سم ، وان سبعين بالمئة من الاطعمة العادية تعجل في الموت . وقد اعتاد ان يقول في درسه : « الادوية القليلة المعروفة على اي حال ، لا يعرفها الا بعض الاطباء » . وانتقل من حماسة الشباب الى موقع كان هو نفسه يعرفه على انه موقع انساني جبري : « كل امرئ هو سيد موته ، والشئ الوحيد الذي بالامكان عمله عندما تحين الساعة ، هو مساعدته على الموت دون خوف او ألم » . ورغم هذه الافكار المتطرفة ، والتي كانت تشكل جزءاً من الفلكلور الطبي المحلي ، فان تلاميذه القدماء ما زالوا يستشيرونه حتى بعد ان اصبحوا اطباء راسخين في المهنة ، اذ كانوا يعترفون له بتلك التي كانت تسمى حينئذ النظرية الطبية ، ولقد كان دوماً طبيباً غالياً واستثنائياً ، وكان زبائنه يسكنون البيوت الفاخرة في حي الفريس . ..

كان يقوم بجولة منهجية منتظمة للدرجة ان زوجته كانت تعرف الى اين تبغث في طلبه اذا ما طرأ شيء مستعجل خلال جولته المسائية . وفي شبابه كان يتأخر في مقهى الباروكية قبل ان يرجع الى البيت ، وهكذا اتقن لغب الشطرنج مع شركاء جماء ومع بعض لاجئي الكاريبي ، لكنه منذ مطلع القرن لم يعد الى مقهى الباروكية وحاول تنظيم دوري وطني في الشطرنج تحت رعاية النادي الاجتماعي ، وكان في هذه الفترة ان جاء نجيرميادي سانت - آمور ، بركبتيه الميتين وبلا مهنة تصوير الاطفال في ذلك الحين ، وقبل انقضاء ثلاثة اشهر كان معروفاً لكل من يحسن تحريك فيل على رقعة شطرنج ، لان احداً لم يتمكن من كسب جولة منه . لقد كان

بالنسبة للدكتور خوفينال اورينو لقاء معجزة، في وقت اصبحت لعبة الشطرنج لديه هوى لا حدود له ولم يعد هناك خصوم كثيرون يشبعون رغبته في اللعب.

وبفضله، امكن لجيرميا دي سانت - أمور ان يصبح ما آل اليه بيننا. لقد اصبحت الدكتور اورينو حاميه اللامشروط، وكفيله في كل شيء، حتى دون ان يتكلف مشقة التقصي عمن هو، او عما يفعله، او من اية حرب بلا امجاد جاء بتلك الحالة من العجز والعطل. ثم اقضيه اخيرا المال لاقامة محل التصوير، هذا المال الذي سدده جيرميا دي سانت - أمور بصرامة حبال، حتى آخر كواريتو، مذ صور أول طفل مرتعد من بريق المغنيزيوم.

كل ذلك كان بسبب الشطرنج. كانا يلعبان اول الامر في الساعة السابعة ليلا، بعد العشاء وكان في ذلك منفعة اكيدة للطبيب بفعل التفوق البارز للخصم؛ ولكن المنفعة اخذت تتناقص في كل مرة، الى ان تساويا. وفيما بعد، حين افتتح دون غاليليو داكوتي اول فناء سينما، واصبح جيرميا دي سانت - أمور واحدا من الزبائن المداومين، اقتصر لعب الشطرنج على الليالي التي لا تعرض فيها افلام جديدة. وكان قد اصبحت صديقا حميما للطبيب في ذلك الحين، فكان هذا يرافقه الى السينما، انما بدون زوجته دوما، ذلك انها لا تطيق متابعة خيط القصص المعقدة من جهة، ولان جيرميا دي سانت - أمور بدا لها من جهة اخرى، وبحاسة الشم وحدها، انه ليس بالرفيق الصالح لاحد.

يومه المختلف كان يوم الاحد. ففيه يذهب لحضور القداس الكبير في الكاتدرائية، ثم يعود الى البيت ويلبث هناك للراحة والقراءة على مصطبة الفناء. ونادرا ما كان يخرج لعيادة مريض في ايام اعتكافه، ما لم تكن الحاجة ماسة الى ذلك، ولم يعد يقبل منذ عدة سنوات اي التزام اجتماعي الا اذا كان اضطراريا. في يوم العنصرة ذاك، وبمصادفة استثنائية، وقعت حادثتان غريبتان: وفاة صديق والاحتفال باليوبيل الفضي لتلميذ بارز. ومع ذلك، فانه بدلا من العودة الى البيت دون تأخر، كما كان مقررا بعد ان ثبتت وفاة جيرميا دي سانت - أمور، ترك لنفسه ان تنقاد وراء الفضول.

ما ان صعد الى العربة حتى قام بمراجعة سريعة لرسالة الميت، ثم امر الحوذي بايصاله الى عنوان صعب في حي الغيب القديم. لقد كان ذلك القرار غريبا على عاداته، مما جعل الحوذي يرغب بالتأكد من انه لا يوجد ثمة خطأ. لم يكن هنالك من خطأ: العنوان كان واضحا، ومن كتبه لديه اسباب كافية لمعرفة جيدا. عندئذ عاد الدكتور اورينو الى الصفحة الاولى، وغرق ثانية في ذلك المورد من الاعترافات غير المرغوب فيها والتي بإمكانها تغيير مجرى حياته، حتى وهو في هذه السن، اذا ما استطاع اقناع نفسه بانها ليست هذيان شخص يائس.

اخذ مزاج السماء يتبدل منذ الصباح الباكر، كان مغنيا وباردا، انما لم تكن هناك مخاطر هطول مطر قبل منتصف النهار. وفي محاولة لايجاد طريق اقصر، دخل الحوذي في ازقة المدينة الاستعمارية المرصوفة بالحجارة، واضطر للتوقف مرات عديدة كي لا يجفل الحصان من فوضى طلبة المدارس والجماعات الدينية العائدة من قداس العنصرة. كانت في الشارع اكاليل مصنوعة من اوراق ملونة، وموسيقى وازهار، وفتيات يحملن مظلات ملونة ويلبسن كشاكش الموسلين ويتأملن مرور الاحتفال من الشرفات. وفي ساحة الكتدرائية، حيث لم يكن ممكنا تمييز تمثال بطل التحرير بين اشجار النخيل الافريقية واعمدة النور الجديدة ذات المصابيح الا بصعوبة، كان ازدحام السيارات على اشده بسبب الخروج من الصلاة، ولم يكن هناك موطىء قدم في مقهى الباروكية المحتشم والصاخب. كانت عربية الدكتور اوربينو هي عربية الخيول الوحيدة وكانت تتميز عن العربات الاخرى القليلة المتبقية في المدينة باحتفاظها الدائم ببريق غطائها الجلدي وباجزائها المعدنية المصنوعة من البرونز حتى لا يجعلها ملح البارود تتآكل، وكانت عجالاتها ودعائمها الخشبية مطلية باللون الاحمر مع خطوط ذهبية، كما هي العربات في ليالي الحفلات في اوبرا فينا. اصف الى ذلك ان اكثر العائلات حبا للمظاهر كانت تكتفي بان يكون قميص الحوذي في عرباتها نظيفا، بينما تابع هو مطالبة حوذي عربته بارتداء بدلة الحوذي المخملية الداوية وقبعة مروضي السيرك، التي فضلا عن كونها زيا قديما مهجورا، كانت تنم عن تقليد غاشم في قيظ منطقة الكاريبي.

ورغم هوسه الجنوني بالمدينة، ومعرفته بها خيرا من سواء، فقليل ما وجد الدكتور اوربينو سببا كسبب يوم الاحد ذاك للمغامرة دون تحفظ في فوضى حي العبيد. وقد اضطر الحوذي للقيام بالتفافات عديدة والسؤال مرات ومرات للوصول الى العنوان المقصود. لقد تعرف الدكتور اوربينو عن قرب على كآبة المستنقعات، وصمتها الممل، وفسواتها التي كريح الغرين، والتي كانت تصعد في فجر ايام كثيرة حتى نخذعه مختلطة برائحة ياسمين الفناء، وكان يحس بها تمر كما لو انها ريح اليوم الفائت وليس لها اي شأن في حياته. لكن تلك العفونة التي احتفظ منها بتصور مثالي بفعل الحنين تحولت الى واقع لا يطاق ما ان بدأت العربية تتقافز في وحل الشوارع، حيث تتنازع طيور الرخمة بقايا المسلخ التي يدفعها البحر الى مدخل الميناء. وعلى العكس من مدينة الفيريس، المبنية بيوتها من الحجر، كانت البيوت هنا مشادة من اخشاب كالحة وسقوف من التوتياء ومعظمها يستقر فوق دعائم خشبية للحيلولة دون تسرب مجاري التصريف المتعاظمة والمكشوفة، المورثة عن الاسبان. كل شيء كان يبدو بائسا ومهجورا، لكن قصف موسيقى جوقة عنصرة الفقراء كان يخرج من الحانات القدرة بلا رب

ولا قانون . وعندما وجدا العنوان اخيراً ، كانت تلحق بالعربة عصابة اطفال عراة يسخرون من زينة الحوذي المسرحية ، وكان على هذا ان يفزعهم بالسوط لبيتعدوا . اما الدكتور اوربينو ، الذي هياً نفسه لزيارة سرية ، فقد ادرك بعد فوات الاوان انه لا سذاجة اشد خطورة من السذاجة في سنه .

لم يكن في مظهر البيت الخارجي ما يميزه عن البيوت الاقل حظاً ، سوى النافذة ذات الستارة المخرمة وبوابة منتزعة من كنيسة قديمة . طرق الحوذي مقرعة الباب ، وعندما تأكد من صحة العنوان ، ساعد الطبيب على النزول من العربة . كانت البوابة قد فتحت دون ضجعة ، وفي العتمة الداخلية كانت تقف امرأة ناضجة ، متشحة بالسواد المطلق وتضع ورده على اذنها . ورغم سنوات عمرها ، التي لم تكن اقل من الاربعين ، فانها ما زالت تبدو خلاصيه شاحخة ، ذات عينيْن ذهبيتين قاسيتين ، وشعر مثبت على شكل الرأس وكأنه خوذة من القطن الحديدي . لم يعرفها الدكتور اوربينو ، رغم انه قد رآها عدة مرات في شرود ادوار الشطرنج في محل المصور ، وقد وصف لها في احدي المناسبات اوراق الكينا من اجل الحمى الثلاثية ، مد يده اليها ، فتناولتها بين يديها ، ليس لمصافحته وانما لمساعدته على الدخول . كانت الصالة تعبق برائحة وهسيس ايكه لامرئية ، وكانت مليئة باثاث واشياء موزعة باتقان ، كل شيء في مكانه الطبيعي . فتذكر الدكتور اوربينو دون مرارة دكان بائع عاديّات في باريس ، في يوم اثنين خريف من ايام القرن الماضي ، في ٢٦ شارع مونتهارت .

جلست المرأة مقابله وحدثته باسبانية ركيكة قائلة :

.. اعتبر نفسك في بيتك يا دكتور . لم اكن انتظرك بمثل هذه السرعة .

احس الدكتور اوربينو بانه مكشوف . دقق فيها بقلبه ، دقق في حدادها الكثيف ، في وقار كآبتها ، وفهم عندئذ ان زيارته تلك بلا فائدة ، لانها كانت تعرف اكثر منه بكل ما هو وارد ومبرر في رسالة جيرميا دي سانت - امور . وهكذا كان . لقد رافقته حتى ساعات قليلة قبل موته ، كما رافقته خلال ما يقرب من عشرين سنة بولاء ورقة منقادة اليه بما يشبه الحب ، ودون ان يعرف ذلك احد في عاصمة الاقليم الناعسة هذه ، حيث اسرار الدولة ذاتها كانت مشاعة . لقد تعارفا في مشفى للعابرين في بورت - او - برنس ، حيث ولدت هي ، وحيث امضى هوسنواته الاولى كهارب ، ثم لحقت به الى هنا بعد سنة في زيارة قصيرة ، مع انها كلاهما كانا يعلمان دون اتفاق مسبق بانها جاءت لتبقى الى الابد ، كانت تتولى تنظيف وترتيب غبر التصوير مرة في الاسبوع ، لكن أسوأ الجيران تفكيراً ما كانوا يخلطون الظاهر بالحقيقة ، لانهم كانوا يفترضون مثل كل الناس ان عاهة جيرميا دي سانت - امور ليست في المشي فقط . وحتى الدكتور اوربينو ذاته كان يفترض ذلك لاسباب طبية راسخة تماماً ، ولم

يظن يوما ان تكون له امرأة لو لم يكشف له ذلك في الرسالة . غير انه لم يستطع ان يفهم كيف ان كائنين راشدين وحرين وبلا ماض ، على هامش اتهامات مجتمع غارق في شؤونه ، قد اختارا نكبة الحب المحرم . وشرحت له ذلك : « كانت تلك هي رغبته » . ثم ان تقاسمها السرية مع رجل لم يكن رجلها تماما في يوم من الايام ، وتعرفها اثناء ذلك على انفجارات السعادة الفورية اكثر من مرة ، لم يكن ليدوها بالوضع غير المرغوب فيه ، بل على العكس : ربما ان الحياة اثبتت لها بان تلك هي الطريقة النموذجية .

لقد ذهبنا الليلة الماضية الى السينما ، كل منهما بمفرده ، وجلسا في مقعدين منفصلين ، كما يفعلان مرتين في الشهر على الاقل منذ اقام المهاجر الايطالي دون غاليليو داكونتي صالة السينما المكشوفة في اطلال دير من القرن السابع عشر . ورأيا فلما ماخوذا عن كتاب كان رالجا في العام الفائت ، وكان الدكتور اوربينو قد قرأه بقلب مكروب لبربرية الحرب : لا جديد في الجبهة . ثم اجتمعا بعد ذلك في المخبر ، وهناك وجدت انه يقاسي التشتت والحنين ، وفكرت ان ذلك بتأثير المشاهد القاسية للجرحى المحتضرين في الوحل . فحاولت تسليته بدعوته الى لعب الشطرنج ، وقد وافق ليرضيها ، لكنه كان يلعب دون تركيز ، بالقطع البيضاء طبعاً ، الى ان اكتشف قبلها انه سيهزم بعد اربع حركات اخرى ، فاستسلم بلا كبرياء . حينئذ ادرك الطبيب ان خصم اللعبة الاخيرة كان هذه المرأة وليس الجنرال خير ونيموارغوتي ، كما افترض . فتمتم مدهوشا :
- انها لعبة متقنة ! .

فاصرت بان لا فضل لها في ذلك ، وان جيرميا دي سانت - أمور الهائم في ضباب الموت ، كان يحرك الاحجار دون حب ، وعندما اوقف اللعب ، في حوالي الساعة الحادية عشرة والربع ، كانت موسيقى حفلات الرقص العامة قد توقفت ، فطلب منها تركه وحيدا . كان يريد كتابة رسالة الى الدكتور اوربينو ، الذي يعتبره اكثر الرجال الذين عرفهم وقارا ، اضافة الى كونه صديق الروح ، كما كان يحب ان يقول ، رغم ان التشابه الوحيد بينهما هو ادمانها لعبة الشطرنج على انها حوار للعقل وليست علما . عندئذ عرفت ان جيرميا دي سانت - أمور قد وصل الى نهاية الاحتضار ، وانه لم يبق له في الحياة الا ما يكفي لكتابة الرسالة . لم يستطع الطبيب تصديقها ، فهتف :
- كنت تعلمين اذن ! .

فاكدت بانها لم تكن تعلم فقط ، وانما ساعدته ايضا على تجاوز الاحتضار بنفس الحب الذي ساعدته به على اكتشاف السعادة . لان الشهور الاحد عشر الاخيرة في حياته كانت احتضارا قاسيا .

قال الطبيب :

- كان واجبك ان تبلغني عنه .

فقلت مستنكرة :

- انا لا استطيع فعل ذلك . . كنت احبه كثيرا .

الدكتور اوربينو، الذي كان يعتقد بأنه سمع بكل شيء في الدنيا، لم يسمع ابدا في حياته شيئا من هذا القبيل، يجري الاعلان عنه بكل هذه البساطة، نظر اليها بحواسه الخمس وجها لوجه ليثبتها في ذاكرته كما هي في تلك اللحظة : كانت تبدو وكأنها إله طاف، متماسكة في ثوبها الاسود، بعينيها اللتين كعيني افعى والوردة التي على اذنها . منذ سنوات بعيدة، وعلى شاطئ متوحد من شواطئ هايتي، حيث كانا يرقدان عاريين بعد الحب، قال لها جيرميا دي سانت - أمور وهو يتنهد فجأة : « لن اصير كهلا ابدا » . وقد فهمت هي ذلك على انه نية بطولية للنضال دون هوادة ضد نكبات الزمن، لكنه اوضح قصده اكثر : كان لديه تصميم حاسم على وضع حد لحياته في السبعين .

لقد اتمها في الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني للعام الحالي، فحدد حينئذ عشية عيد العنصرة كموعده اخير، لانه اعظم اعياد المدينة المكرسة لعبادة الروح القدس . لم يكن هناك تفصيل من تفاصيل الليلة الماضية لم تكن قد عرفت مسبقا، فكثيرا ما كانا يتحدثان في ذلك، مكابدين معا سيل الايام الجارف الذي لن يستطيع اي منهما ايقافه . كان جيرميا دي سانت - أمور يحب الحياة بعاطفة مبهمة، كان يحب البحر والحب، يحب كلبه ويحبها، وكلما اقترب اليوم الموعود كان يهوي اكثر فأكثر في اليأس، كما لو ان موته لم يكن قرارا ذاتيا وانما قدرا حتميا .

قالت :

- عندما تركته وحيدا في الليل، لم يكن من اهل هذه الدنيا .

كانت تريد اخذ الكلب معها، لكنه تأمله وهو يغفوب بجانب العكازين وداعبه باطراف اصابعه، وقال : « اسف، لكن مستر وودرو ويلسون سيمضي معي » . طلب منها ان تربطه بقائمة السرير فيما هو يكتب، وفعلت ذلك بعقدة زائفة ليتمكن الكلب من الافلات، وكان هذا هو العمل الوحيد الذي قامت به دون اخلاص، وقد بررته برغبتها في الاستمرار بتذكر السيد من خلال عيني كلبه الشتويتين . لكن الدكتور اوربينو قاطعها ليخبرها بان الكلب لم يفلت . فقالت : « ذلك لانه لم يشأ الافلات اذن » . وفرحت، لانها تفضل ان تتذكر الحبيب الميت كما طلب هو منها في الليلة السابقة، عندما قطع كتابة الرسالة التي كان قد بدأها ونظر

اليها للمرة الاخيرة، وقال :

- تذكّرني بوردة .

كانت قد وصلت الى بيتها بعد منتصف الليل بقليل . استلقت لتدخن في السرير وهي بملابسها ، واخذت تشعل سيجارة من عقب الاخرى متيحة له الوقت ليكمل الرسالة التي كانت تعلم انها طويلة وشاقة ، وقبيل الثالثة بقليل ، عندما بدأت الكلاب تنبح ، وضعت الماء على النار لتصنع القهوة ، وارتدت ملابس الحداد السوداء وقطفت من الفناء اول ورده من وردات الفجر ، لقد تنبه الدكتور اورينو قبل ان يقرر هجر ذكرى تلك المرأة التي لا تفتدى ، وظن انه يعرف السبب : بإمكان انسان بلا مبادئ فقط ان يتجاوب الى هذا الحد مع الألم . تابعت تقديم حججها له حتى نهاية الزيارة : لن تذهب الى الجنائز ، لانها وعدت الحبيب بذلك ، رغم ان الدكتور اورينو اعتقد انه فهم عكس هذا في احدى فقرات الرسالة . ولن تسفح دمعة واحدة ، ولن تهدر ما تبقى لها من سني الحياة بطبخ نفسها على نار هادئة في مرق الذكرى ، ولن تدفن نفسها في الحياة لتجهز كفنها بين هذه الجدران الاربعة كما هي العادة المفضلة للنساء الوطنيات . كانت تفكر ببيع بيت جيرميا دي سانت - أمور ، الذي اصبح بكل محتوياته ملكا لها منذ الآن كما هو وارد في الرسالة ، وستتابع العيش كما عاشت دائما دون ان تشكو شيئا في مماتة الفقراء هذه التي عاشت فيها سعيدة .

لاحقت تلك العبارة الدكتور خوفينال اورينو وهو في طريق العودة الى بيته : « مماتة الفقراء هذه » . انه ليس بالتعبير المجاني . فالمدينة ، مدينته ، ما زالت على هامش الزمن كما كانت : نفس المدينة الملتهبة والقاحلة بمخاوفها الليلية وملذات البلوغ المتوحدة ، حيث تصدأ الازهار ويفسد الملح . المدينة التي لم يصبها شيء خلال اربعة قرون سوى الهرم البطيء ما بين شجيرات الغار الذابلة والمستنقعات المتعفنة . في الشتاء ، امطار فجائية ومخرقة تجعل المراحيض تفيض وتحول الشوارع الى برك وجل نتن . وفي الصيف ، غبار لا مرئي ، خشن كطباشير حمراء متقعدة ، يتسرب حتى من اكثر فجوات الخيال احكاما ، هائجا برياح مجنونة تنتزع سقوف البيوت وتحمل الاطفال في الهواء . وفي ايام السبت ، تغادر جماعات المولدين الفقراء بصخب اكواخ الكرتون والصفائح القائمة على ضفاف المستنقعات ، مع حيواناتهم الداجنة وامتعة اكلهم وشربهم الرخيصة ، ويحتلون بهجوم مرح الشواطىء الحصوية في القطاع الاستعماري . وقد كان بعضهم ، بين اكبرهم سنا ، يحملون حتى سنوات قليلة وسيم العبيد الملكي ، مطبوعا بالحديد المحمى على الصدر . وكانوا يرقصون في نهاية الاسبوع بلا رحمة ، ويسكرون حتى الموت بكحول مقطر في البيوت ، ويمارسون الحب الحريين خمائلا

الايكاكو، وفي منتصف ليل الاحد يخربون مهرجاناتهم بمشاجرات دامية يخوضونها جميعهم ضد جميعهم. انهم الناس المندفعون انفسهم الذين يتسربون في بقية ايام الاسبوع الى ساحات وازقة الاحياء القديمة، بعربات محملة بكل ما يمكن شراؤه وبيعه، ويبثون في المدينة الميتة جنون مهرجان بشري له رائحة السمك المقلي: حياة جديدة.

ان الاستقلال عن السيطرة الاسبانية، ثم الغاء الرق بعد ذلك، قد عجلا بحالة الانحطاط المشرف التي ولد وترعرع فيها الدكتور اورينو. حيث كانت عائلات الزمن الغابر العظيمة تفرق بصمت في قصورها المجردة من الابهة. اما في تفرعات الشوارع المرصوفة التي قاومت بفاعلية عالية مفاجآت الحروب وانزالات القراصنة، فكانت الشجيرات الملتفة تتدلى من الشرفات وتفتح صدوعا في جدران الجير والحجر حتى في البيوت التي ما زالت في حالة حسنة، وعلامة الحياة الوحيدة في الساعة الثانية ظهرا هي تمارين البيانو الخافتة في عتمة القيلولة. كانت النساء تحتمين من الشمس في غرف النوم الباردة والمشبعة بالبخور كاحتماهن من عدوى فاجشة، بل ويغطين وجوههن بالطرحة في صلوات الفجر، وكن يمارسن حبهن ببطء وصعوبة، وغالبا ما تعكر هذا الحب خواطر مشؤومة، فيما الحياة تبدو لهن امرا لا نهائيا. وعند المغيب، في وقت ازدحام حركة المرور، تنطلق من المستنقعات عاصفة من البعوض السفاح، وموجة خفيفة من بخار السليح البشري الحار والكثيب، مثيرة في اعماق النفس قلق الموت.

ان حياة المدينة الاستعمارية، التي اعتاد خوفينال اورينو الشاب رسم صورة مثالية لها في لحظات حنيه الباريسية، لم تكن حيثلدا الا وهما من اوهام الذاكرة. لقد كانت اكثر مدن الكاريبي ازدهارا في القرن الثامن عشر، خصوصا بامتيازها كأكبر سوق للرقيق الافريقي في الامريكيتين، وكونها مقر اقامة حكام مملكة غرناطة الجديدة، الذين كانوا يفضلون مزاوله شؤون الحكم من هنا، مقابل اقيانوس العالم، بدلا من العاصمة البعيدة والمتجمدة، التي تشوش الحس الواقعي بمطربها الازلي. وكانت تتجمع فيها عدة مرات في السنة اساطيل السفن المحملة بكنوز بوتوسي، وكيثو، وفيراكروث، وكانت المدينة تعيش سنوات مجدها في ذلك الحين. وفي يوم الجمعة، الثامن من حزيران ١٧٠٨، في الساعة الرابعة مساء، جرى اغراق السفينة سان خوسيه التي كانت قد ابهرت لتوها باتجاه قادش وعلى متنها حمولة من الاحجار والمعادن الثمينة قيمتها نصف مليون بيزو ومن عملة ذلك الزمن، اغرقها اسطول انكليزي مقابل مدخل الميناء، ولم يكن قد جرى استخراجها بعد مرور اكثر من قرنين على غرقها. ولقد كان من عادة المؤرخين ان يذكروا تلك الثروة القابعة في القيعان المرجانية، مع جثة القبطان الطافية على جنبها في مقر القيادة، كرمز للمدينة الغارقة في الذكريات.

في الجانب الآخر من الخليج، في حي لامانغا السكني، كان منزل الدكتور خوفينال اوربينو في زمن آخر. انه بيت فسيح وبارد، مؤلف من طابق واحد، ورواق اعمدة متتالية في المنصة الخارجية، المطة على مستنقع الابخرة العفنة وركام السفن الغارقة في الخليج. كانت ارضية البيت مرصوفة ببلاط شطرنجي، أبيض واسود، من المدخل وحتى المطبخ، وكثيرا ما عُزي هذا الى هوى الشطرنج الذي يسيطر على الدكتور اوربينو، دون تذكر انه كان ضعفا عاما من جانب البنائين الكتلانين الذين شادوا في بدايات القرن حي محدثي النعمة ذاك. كانت الصالة فسيحة، وسقفها عال جدا كما هو في بقية البيت، ولها ست نوافذ واسعة تطل على الشارع، وكانت منفصلة عن غرفة الطعام بباب زجاجي ضخّم ومزين بفروع دالية وعناقيد وفتيات فائتات يحملن نايات آلهة الحقول في غابة من البرونز. اثاث حجرة الاستقبال، بما في ذلك ساعة البندول التي لها شكل حارس حي في الصالة، كان كله اثاثا انكليزيا اصيلا من اواخر القرن التاسع عشر. والمصاييح المعلقة كانت من قطع كريبتال صخري، وكانت هنالك في كل الانحاء اصص ومزهريات من سيفريس وتماثيل آلهة من الرخام المعرق. لكن ذلك التناسق الاوروبي كان مفقودا في بقية اجزاء البيت، حيث ارائك الخيزران تختلط مع كراس هزازة من فينا ومقاعد جلدية من الصناعة اليدوية المحلية. وفي غرف النوم، كانت توجد اضافة الى الاسرة، شباك نوم معلقة رائعة من سان خائنتو مطرز عليها بخيوط حريرية اسم صاحب البيت بحروف قوطية، وكانت حوافها محاطة بهدايا ملون. اما الردهة المصممة في الاصل من اجل حفلات العشاء، التي جوار صالة الطعام، فقد استخدمت كصالة موسيقى صغيرة تقام فيها حفلات موسيقية للخاصة عندما يحضر عازفون شهرون. وقد جرت تغطية البلاط بالسجاد التركي المشتري من معرض باريس الدولي لتعميق الصمت في جو البيت. وكان هناك فونوغراف من طراز حديث الى جانب رف عليه اسطوانات حسنة الترتيب. وكان البيانو الذي لم يعزف عليه الدكتور اوربينو منذ سنوات يقبع في احد الاركان مغطى بشرشف من مانिला. وفي سائر ارجاء البيت كان يظهر حرص وحكمة امرأة راسخة الاقدام في الارض.

لم يكن هنالك في البيت، رغم ذلك، مكان يكشف جلال المكتبة المرتبة، والتي كانت هيكل الدكتور اوربينو قبل ان تقوده الى الشيخوخة. فهناك، وحول طاولة خشب الجوز الخاصة بوالده، ورائك الجلد الوثيرة، جدران مغطاة حتى النوافذ بخزائن ذات رفوف وابواب زجاجية، رتب فيها بنظام شبه جنوبي ثلاثة آلاف كتاب متماثلة مجلدة بعجل وعلى عقبها الحروف الاولى من اسمه مكتوبة بهاء الذهب. وعلى عكس الحجرات

الآخري، التي كانت تحت رحمة صخب وروائح الميناء الكريهة، كانت المكتبة تنعم دوما بصمت دير ورائحته. كان الدكتور أوربينو وزوجته اللذان ولدا وترعرعا في ظل الخرافة الكاريلية القائلة بفتح الابواب والنوافذ لادخال البرودة غير الموجودة في الواقع، قد أحسا في البدء بقلبيهما يضيقان بفعل الحبس. لكنهما ما لبثا ان اقتنعا بفعالية الطريقة الرومانية لمواجهة الحر، التي تتلخص باغلاق البيوت في قيظ آب حتى لا يدخل هواء الشارع الملتهب، وفتحها عى مصارعها لرياح الليل، فأصبح بيته منذ ذلك الحين اكثر البيوت رطوبة تحت شمس لامناغا الحارقة، وكان نوم القيلولة في عتمة المخادع يبعث على السعادة، وكذلك الجلوس على الرواق لرؤية مرور سفن الشحن الثقيلة الرمادية القادمة من نيو اورليانز، والسفن الخشبية ذات العجلة الخلفية وهي تضيء انوارها في العشية، وتنقي بنثار الموسيقى المنبعثة منها مزيلة الخليج الراكدة. وكان بيته هو الاكثر مقاومة ما بين كانون الاول واذار، حين تهدم ريح الشمال المدارية سقوف البيوت، وتقضي الليل مدومة كالذئاب الجائعة حول البيت بحثا عن منفذ تدخل منه. ولم تكن الشكوك تراود احدا في وجود اسباب تحول دون سعادة الزوجين المقيمين فوق تلك الاسس.

لكن الدكتور أوربينو لم يكن كذلك في صباح ذلك اليوم، عندما رجع الى بيته قبل الساعة العاشرة، مشوشا من الزيارتين اللتين لم تحولا بينه وبين قداس العنصرة وحسب، بل وهددتا بتغيير طرأ عليه وهو في سن ظن ان كل شيء فيها قد انجز. كان يريد ان ينام نوم كلب ريثما يحين موعد وليمة الغداء عند الدكتور لاثيريس اوليفيا، لكنه وجد الخدم هائجين، يحاولون أمسك البيغاء التي طارت الى اعلى فرع في شجرة المانغا حين اخرجوها من القفص ليقصوا لها جناحيها. كانت ببغاء متتوفة ومعتوهة، لا تتكلم عندما يطلبون منها الكلام، وانما عندما ينساها الجميع، وتتكلم حينئذ بوضوح ودقة ليست متوفرة بكثرة لدى الكائنات البشرية. لقد دربها الدكتور أوربينو شخصيا، وكان هذا امتيازا لم يحظ به احد من افراد الاسرة، حتى ولا اولاده عندما كانوا اطفالا.

كانت في البيت منذ اكثر من عشرين سنة، ولا احد يعرف كم سنة عاشت قبل ذلك، وكان الدكتور أوربينو يجلس مساء كل يوم، بعد القيلولة على شرفة الفناء، وهو المكان الاكثر برودة في البيت، مستخدما اصعب الاساليب التربوية، حتى توصل الى جعل البيغاء تتحدث بالفرنسية كأكاديمي. بعد ذلك، ويدافع الفضيلة المحضة، علمها مرافقة القداس باللاتينية، وبعض المقاطع المختارة من انجيل القديس متى، وحاول دون نجاح تلقينها العمليات الحسابية الاربع بشكل آلي. وفي احدى رحلاته الاخيرة الى اوروبا، احضر معه فونوغرافا ذا نفير، وعددا كبيرا من الاسطوانات الشائعة اضافة الى مقطوعات الكلاسيكيين

الاثيرين لديه . ويوما بعد يوم ، ومرة بعد اخرى خلال عدة شهور ، اسمع البيغاء اغنيات ليفيت جيلبرت وارستيد براون ، اللذين كانا بهجة فرنسا وطربها في القرن الماضي ، الى ان حفظتها البيغاء عن ظهر قلب ، وكانت تغني بصوت امرأة اذا كانت الاغنية لها ، وبصوت رجل اذا كان المغني هو ، وتنتهي الغناء بقهقهة ماجنة هي انعكاس متقن للقهقهات التي تطلقها الخادومات عندما يسمعنها تغني بالفرنسية ، وقد وصلت اخبار ظرافتها بعيدا جدا ، مما جعل بعض الزوار البارزين الذين يأتون في السفن النهرية من اقاليم الداخل ويطلبون الاذن احيانا لرؤيتها ، وقد حاول بعض السائحين الانكليز الذين كانوا يتوافدون بكثرة في تلك الاثناء على متن سفن نيو اورليانز المحملة بالموز ، ان يشتروها باي ثمن . لكن يوم مجدها الاكبر هو اليوم الذي جاء فيه رئيس الجمهورية دون ماركو فيدل سواريز ، مع وزراء حكومته بكاملهم ، الى البيت للتأكد من صحة سمعتها . وصلوا في حوالي الساعة الثالثة مساء ، مختفين بقبعات ويذلات المراسم التي لم ينزعوها طوال ايام الزيارة الرسمية الثلاثة ، تحت سماء آب المتقدة ، وقد اضطروا للانصراف مخذولين كما جاؤوا ، لان البيغاء رفضت ان تقول حتى ان هذا المنقار هو منقاري ، خلال ساعتين من اليأس ، رغم التوسلات والتوعيدات والخجل العام الذي احس به الدكتور اوربينو ، الذي اصر على تلك الدعوة الجريئة رغم تحذيرات زوجته الحكيمة .

ان مجرد احتفاظ البيغاء بامتيازاتها بعد حادثة العجرفة التاريخية هذه كان دليلا نهائيا على مكانتها المقدسة . لم يكن مسموحا بقاء اي حيوان اخر في البيت ، باستثناء السلحفاة البرية ، التي عادت للظهور في المطبخ بعد ثلاث او اربع سنوات ظنوا خلالها انها قد ضاعت الى الابد . وهذه لم يكن ينظر اليها ككائن حي ، وانما كانت اشبه بتميمة جامدة من اجل حسن الطالع ، ولم يكن احد يدري على وجه التحديد مكانها . كان الدكتور اوربينو يصر على اعلان كراهيته للحيوانات ، ويعمل ذلك بكل انواع الخرافات العلمية والحجج الفلسفية التي تقنع الكثيرين ، لكنها لا تنفع في اقناع زوجته ، كان يقول ان من يفرطون في حب الحيوانات هم القادرون على اقتراح ابشع القساوات مع البشر . وكان يقول ان الكلاب ليست وفيه وانما هي ذليلة ، وان القطط انتهازية وخائنة ، وان الطواويس ليست الا عراقيل مزركشة ، وان الارانب تشير الجشع ، والقروود تعدي البشر بحمي الشبق والديكة ملعونة لانها استخدمت لانكار المسيح ثلاث مرات .

اما فيرمينا دائما ، زوجته ، والتي كان لها من العمر حينئذ اثنتان وربعون سنة وكانت قد فقدت مشيتها الغزلانية التي كانت لها في زمن مضى ، فهي مولعة حد العبادة بالازهار الاستوائية والحيوانات الداجنة ، ولقد استغلت في بدء الزواج تأجج الحب لتقتني منها في

البيت اكثر بكثير مما ينصح به العقل السليم . كان اول ما اقتنته هو ثلاثة كلاب دلماسية لها اسماء اباطرة رومان تنازعت فيما بينها افضال انثى متشرقة باسم ميسالينا ، ما تكاد تلد تسعة جراء حتى تحبل بعشرة اخرين . بعد ذلك جاءت القطط الحبشية بوجوهها التي كوجوه النسور واخلاقها الفرعونية ، والقطط الفارسية الحولاء ذات العيون البرتقالية ، التي كانت تذرع حجرات النوم كذللال شبحية وتملأ الليل صخباً بموائها في اجتماعات حبها التي كاجتماعات الساحرات . وكان هناك لبضع سنوات قرد امازوني مقيد من خاصرته الى شجرة المانغا في الفناء ، وكان يثير نوعاً من العاطفة لوجهه الكثيب كوجه الاسقف اوبدوليو ، كما كانت لعينيه سداجة عيني الاسقف ، وطلاقة يديه ذاتها ، ولم يكن هذا هو السبب الذي دفع فيرمينا داثا للتخلص منه ، وانما عاداته الرذيلة بالاستمناء على شرف سيدات المجتمع .

كانت هناك جميع انواع عصافير غواتيمالا في اقفاص تملأ الممرات ، وكانت توجد كراوين متنبشة وبلشونات المستنقعات ذات القوائم الطويلة الصفراء ، وغزال صغير يطل من النوافذ ليأكل ورود المزهريات . وقبل الحرب الاهلية الاخيرة بقليل ، عندما دارت للمرة الاولى احاديث عن زيارة محتملة للبابا ، احضروا من غواتيمالا طائر الجنة الذي تأخر في المجيء وقتاً اطول مما تأخره في العودة الى وطنه ، بعد ان تبين ان الاعلان عن الزيارة البابوية كان اشاعة اطلقتها الحكومة لاختافة الليبراليين المتأمرين . وفي مناسبة اخرى ، اشترى من مراكب مهربي كوراثاوا الشراعية قفصاً من الاسلاك المعدنية فيه ستة غربان معطرة ، كتلك التي كانت تمتلكها فيرمينا داثا وهي صبية في بيت والدها ، ورغبت في اقتنائها وهي متزوجة ، لكن احدا لم يحتمل خفقات اجنحتها الدائمة التي كانت تضمخ جوالبيت برائحة اكاليل الموتى . كما جلبوا افعى اناكوندا طولها اربعة امتار ، كانت انفاسها الساهرة تبعث القلق في ظلمة غرف النوم ، رغم انهم حققوا ما ارادوه منها ، فانفاسها الابدية كانت تبعد الخفافيش والسمندر ، ومختلف انواع الحشرات المؤذية التي تهاجم البيت في شهور المطر . اما الدكتور خوفينال اوربينو المنهمك في ذلك الحين بمسؤولياته المهنية ، والغارق في نشاطاته الحضارية والثقافية ، فكان يكفيه الافتراض بان زوجته ، وسط كل هذه الحيوانات البغيضة ، ليست اجمل امرأة في منطقة الكاريبي وحسب ، بل واكثرهن سعادة ايضاً . ولكن في احد الايام الماطرة ، وبعد يوم عمل منهك ، وجد في البيت كارثة اعادته الى الواقع . فمن صالة الاستقبال وعلى مدى البصر كانت تتناثر حيوانات ميتة غارقة في بركة من الدماء ، فيما الخادومات المتسلقات على الكراسي دون ان يدرين ما الذي عليهن عمله ، لم يكن قد استعدن السيطرة على انفسهم من هول المجرزة بعد .

القضية هي ان احد الكلاب البوليسية الالمانية، اصيب بنوبة سعار جنونية مفاجئة، وراح يمزق كل حيوان يجده في طريقه من أي جنس كان، الى ان واثت جناثي البيت المجاور الشجاعة لمواجهة وتمزيقه بمنجله. ما كانوا يعرفون كم هي الحيوانات التي عضها، او نقل اليها العدوى بزيده ريقه الاخضر، فأمر الدكتور اوربينو والخال هذا بقتل ما بقي حيا من الحيوانات واحراق اجسادها في حقل مهجور، ثم طلب من خدمات مستشفى الرحمة تعقيم البيت تعقيا شاملا. والحيوان الوحيد الذي نجا لان احدا لم يتذكره، كان ذكر السلحفاة حسن الطالع.

وللمرة الاولى رأت فيرمينا دائما ان زوجها محق في احد الشؤون البيتية وحاذرت من الحديث بعد ذلك عن الحيوانات لفترة طويلة من الزمن. وكانت تعزي نفسها بصور ملونة من كتاب التاريخ الطبيعي للينيو، قامت بوضعها في أطروعلقتها على جدران الصالة. وربما كانت ستفقد الامل في رؤية اي حيوان في البيت ثانية، لولا ان اللصوص خلعوا في فجر احد الايام نافذة الحمام وسرقوا المرحاض الفضي الموروث من خمسة اجيال. ركب الدكتور اوربينو اقفالا مزدوجة في حلقات النوافذ، واحكم اقفال الابواب من الداخل بمزالج حديدية، ونجا الاشياء الثمينة في صندوق الكنوز، واعتاد متأخرا على العادة الحربية بالنوم والمسدس تحت الوسادة. لكنه اعترض على شراء كلب باسل، ملقح او غير ملقح، مفلت او مقيد، حتى ولو تركه اللصوص على العظم.

قال:

- لن يدخل هذا البيت كائن لا يحسن الكلام.

قال ذلك ليضع حدا لحجج زوجته الواهية، المصرة مجددا على شراء كلب، دون ان يعلم ان ذلك القرار المتعجل سيكلفه حياته، اذ تمكنت فيرمينا دائما، التي كان طبعها الجاف قد رق بفعل السنين، وتشبثت بزلة لسان زوجها: وبعد شهر من السرقة ذهبت الى مراكب كوارثاو الشراعية واشترت ببغاء ملكية من باراماريو كانت تحسن اطلاق شتائم البحارة فحسب، لكنها تنطقها بصوت انساني مما جعلها تستحق ثمنها الغالي البالغ اثني عشر سنتافو. كانت ببغاء جيدة، اخف مما يخيل لمن يراها، رأسها اصفر ولسانها اسود، وهو الشيء الوحيد الذي يميزها عن ببغاوات المانغلير والتي لا تتعلم الكلام حتى ولا بتحاميل زيت البطم. وقد انحنى الدكتور اوربينو، الخاسر الجيد، امام ذكاء زوجته، وفوجيء هو نفسه بالظرافة التي اضافها تعليم الخادومات على الببغاء الشعثاء. ففي الأمسيات الماطرة، حين تنحل عقدة لسانها لسعادتها بريشها المبتل، كانت تنطق عبارات من ازمان اخرى لا يمكن

ان تكون قد تعلمتها في البيت، مما يحمل على التفكير بانها اكبر سنا مما تبدو عليه . وقد انهارت اخر تحفظات الطبيب عندما حاول اللصوص في احدى الليالي دخول البيت ثانية من كوة السقف، واخافتهم البيغاء بنباح ما كان له ان يكون اكثر شبها بالنباح لو ان صاحبه كان كلبا حقيقيا، وبالصراخ: نشالين نشالين نشالين، وهما ظرافتان منقذتان لم تتعلمهما في البيت. وكان حينئذ ان تولى الدكتور اوربينو مسؤوليتها، فأمر باقامة عمود حمالة تحت شجرة المانغا مع اناء للماء واخر للموز الصغير الناضج، وارجوحة للقفز عليها. وفي الفترة ما بين كانون الثاني واذار. عندما يصبح الليل باردا والجو في الخارج غير صالح للحياة بسبب رياح الشمال المدارية. ينقلونها للنوم في غرف النوم داخل قفص مغطى بحرام، رغم ان الشكوك كانت تساور الدكتور اوربينو من ان داء الخنثى المزمن لدى البيغاء، قد تكون له اثار خطيرة على تنفس البشر. وكانوا طوال عدة سنوات يقصون ريش جناحيها ويفلتونها لتسير على هواها بمشيئها المائلة التي كمشية فارس عجوز. لكنها راحت تتظارف في احد الايام بحركات بهلوانية بين دعائم المطبخ فهوت في قدر الطبخ وهي تعربد بصيحتها البحرية فلينج من يستطيع النجاة. ولحسن الحظ ان الطاهية تمكنت من اخراجها بالمغرفة، وهي مسلوقة وبلا ريش، ولكنها على قيد الحياة. منذ ذلك الحين صاروا يبقونها في القفص حتى اثناء النهار، رغم الاعتقاد الشعبي السائد بان البيغاوات الحبيسة في اقفاص تنسى ما تعلمته، وما عادوا يخرجونها الا في برودة الساعة الرابعة لتلقي دروس الدكتور اوربينو على شرفة الفناء، ولم ينتبه احد في الوقت المناسب الى ان اجنحتها قد نمت واصبحت طويلة بما فيه الكفاية، حتى صباح ذلك اليوم حين كانوا يستعدون لقصها، فطارت هاربة الى اعلى شجرة المانغا.

لم يتمكنوا من الامساك بها طوال ثلاث ساعات. وقد لجأت الخادومات، بمساعدة خادومات الجوار، الى كل الحيل لجعلها تنزل، لكنها بقيت متشبثة بمكانها، صارخة وهي تكاد تنفجر من الضحك: يحيا الحزب الليبرالي، اللعنة، فليحيا الحزب الليبرالي، وهي صارخة جريئة قد تكلف اربعة سكارى متشين حياتهم. ما كاد الدكتور اوربينو يراها بين اوراق الشجرة، حتى حاول اقناعها بالاسبانية والفرنسية، بل وباللاتينية، والبيغاء ترد عليه باللغات ذاتها والأكيد ذاته ونبرة الصوت ذاتها، لكنها لم تتحرك عن قمة الشجرة. وحين اقتنع ان احدا لن يستطيع اقناعها بالحسن، امر الدكتور اوربينو ان يطلبوا مساعدة رجال الاطفاء، الذين كانوا لعبته الحضارية الاكثر حداثة.

وفعلا، كان بطفىء الحرائق، حتى وقت قريب، متطوعون يستخدمون سلاسل بنائين وسطول ماء تجلب كيفما اتفق، وكانت اساليبهم مشوشة، بحيث كانوا يسببون في معظم الاحيان اضرارا تفرق اضرار الحريق. انما منذ العام الماضي، وبفضل حملة تبرعات قامت بها

جمعية الترقى العام، والتي كان خوفينال اورينورئيس شرف لها، أصبح هناك فريق اطفاء محترف وسيارة صهريج مزودة بصفارة وناقوس، وخرطومى ماء عالي الضغط، وكان رجال الاطفاء هم تقليعة تلك الايام، لدرجة انهم في المدرسة كانوا يوقفون الدروس عندما يسمعون نواقيس الكنائس تقرر بذر، كي يذهب الاطفال لرؤيتهم وهم يطفئون النار. وكان هذا هو كل ما يفعلونه في البدء. لكن الدكتور اورينوروى للسلطات البلدية بانه رأى رجال الاطفاء في هامبورغ يعيشون الحياة في طفل عثروا عليه متجمدا في احد الاقية بعد ثلج استمر هطوله عدة ايام. كما انه رآهم في احد ازقة نابولي، ينزلون ميتا في تابوت من شرفة طابق عاشر، لان ادراج المبنى كانت شديدة الانحناء ولم يتمكن ذوو الميت من اخراجه الى الشارع. وهكذا كان ان تعلم رجال الاطفاء المحليون تقديم خدمات مستعجلة اخرى، كخلع اقفال او قتل افاع سامة، وقدمت لهم مدرسة الطب دورة خاصة بمبادئ الاسعاف الاولى في الحوادث الصغرى. وهذا لم يكن سخفا ان يطلب منهم المساعدة في انزال بيغاء عن شجرة، ولا سيما هذه البيغاء المتميزة بخصال كثيرة كسيد نبيل. قال الدكتور اورينوروى: «قولوا لهم ان هذا بناء على طلبى». ومضى الى حجرة النوم ليرتدي ملابس حفلة الغداء. والحقيقة ان مصير البيغاء في هذه اللحظة، التي يشعر فيها بالضيق من رسالة جيرميا دي سانت - أمور، لم يكن يهمه.

كانت فيرمينا دائما قد ارتبدت فستانا حريريا، فضفاضا ومفلتا، خصره عند الوركين، ووضعت قلادة من اللاليء الاصيلية بست لفات طويلة متدرجة، وانتعلت حذاء املس دا كعب عال لا تستخدمه الا في المناسبات الرسمية، فالسنون لم تعد تسمح لها بعسف كثير. لم يكن ذلك الزى الذي على الموضة بالزى المناسب لجدة وقورة، لكنه كان ملائما تماما لجسدها ذي العظام الطويلة، والذي ما زال نحىلا وممشوقا، وليديها اللدنتين الخاليتين من اية شامة شيخوخة، ولشعرها الفولاذي الازرق، المقصوص بشكل مائل على مستوى الخد. والشيء الوحيد الذي ما زالت تحتفظ به من صورة زفافها هو عيناها اللوزيتان الصافيتان وكبرياء الامة، لكن ما كان ينقصها بفعل السن كانت تعرضه بخلقها وتجعله يفيض بجدها. كانت تشعر انها على ما يرام: فعصور مشدات الخصر المعدنية، والخصور المقيدة، والارداف المرفوعة بحيل تعتمد على الخرق القماشية، اصبحت كلها غابرة، وصارت الاجساد المتحررة، المتنفسة حسب مشيئتها، تعرض كما هي، حتى في الثانية والسبعين من العمر.

وجدتها الدكتور اورينوروى جالسة مقابل خوان الزينة، تحت رباش المروحة الكهربائية البطيئة، واضعة القبعة التي لها شكل الناقوس والمزينة بازهار ينفسج مصنوعة من اللباد. كانت حجرة النوم فنيحة ومشعة، فيها سرير انكليزي مغطى بكلة وردية، ونافدتان

مفتوحتان تطلان على اشجار الفناء حيث ينفذ صرير الزيزان الذاهلة لاحتساسها باقتراب المطر. لقد اعتادت فيرمينا دائما، ومنذ العودة من رحلة الزفاف، على اختيار ملابس زوجها بما يتلاءم مع حالة الطقس والمناسبة، ووضعها مرتبة على كرسي منذ الليلة السابقة ليجدها جاهزة لدى خروجه من الحمام. وهي لا تذكر منذ متى بدأت بمساعدته على ارتداء ملابسه، ثم اخيرا على الباسه، وكانت واعية انها بدأت تفعل ذلك بدافع الحب في اول الامر، ولكنها أصبحت مضطرة لعمل ذلك منذ نحو خمس سنوات لانه لم يعد قادرا على ارتداء ملابسه بنفسه. لقد احتفلا منذ وقت قريب باليوبيل الذهبي لزوجهما، وليس بإمكان احدهما العيش لحظة واحدة دون الآخر، اودون التفكير به، مع انها يعيان ذلك اقل فأقل كلما استفحلت الشبخوخة. ولم يكن بمقدور اي منهما القول ان كانت تلك العبودية المتبادلة ترتكز على الحب ام على الراحة، لكنهما لم يتساءلا عن ذلك ابدا وايديهما على القلب، اذ فضل كلاهما دوما تجاهل الجواب. لقد بدأت تكتشف شيئا فشيئا تعثر خطى زوجها، واضطراب مزاجه، وتصدع ذاكرته، وعاداته الاخيرة بالبكاء وهونائم، لكنها لم ترفي ذلك علامات صدا نهائي بين، بل عودة سعيدة الى الطفولة. ولذا لم تعامله على انه شيخ صعب وانما كطفل هرم، ولقد كانت تلك الخدعة الهاما من العناية الالهية لكليهما لانها وضعتهما بمنأى عن الشفقة.

لا بد ان الحياة كانت ستصبح شيئا آخر لكليهما، لو انهما عرفا في الوقت المناسب ان تصريف كوارث الزواج العظيمة اسهل من تصريف المناكفات اليومية الصغيرة، واذا كانا قد تعلمتا شيئا معا فهو ان الحكمة تأتينا في الوقت الذي لا تعود به ذات نفع. لقد احتملت فيرمينا دائما بقلب مثقل، طوال سنوات، استيقاظات زوجها الاحتفالية الباكرة. كانت تتشبث باخر خيوط النعاس كي لا تواجه قدر صباح جديد يحمل معه نذير الشؤم، فيما يستيقظ هو ببراعة طفل وليد: كل يوم جديد هو يوم يكسبه في الحياة. كانت تسمعه ينهض مع الديكة، واول علامة من علائم الحياة يقوم بها هي كحة لا مبرر لها يبدو وكأنه يتعمدها لايقاظ زوجته. كانت تسمعه يهمهم، ليقلقها فحسب، فيما هو يبحث باللمس عن خفيه اللذين يجب ان يكونا الى جوار السرير. وتسمعه يخطون نحو الحمام متلمسا خطواته في الظلام. وبعد ان يقضي ساعة في مكتبه، وحين تكون قد عادت لتغفو من جديد، تسمعه يعود ليرتدي ملابسه دون ان يشعل النور حتى هذا الوقت. لقد سأله يوما، في لعبة من ألعاب الصالون، كيف يعرف نفسه، فقال: «اني رجل يرتدي ملابسه في العتمة». كانت تسمعه وهي عارفة انه لا حاجة لاي صوت من تلك الاصوات التي يصدرها، وانه يفعل ذلك متعمدا ومتظاهرا العكس، تماما مثلما هي مستيقظة وتظاهر انها ليست كذلك. وكانت اسبابه صحيحة: فهو لم

يحتاج اليها ابداحية وصاحية، كما يحتاج اليها في هذه اللحظات العصبية .
لم تكن هناك من هي اكثر منها اناقة في النوم ، اذ كانت تنام في وضعية راقصة ، مسندة
احدى ذراعيها على جبهتها . كما لم يكن هنالك من هو اكثر وحشية منها عندما يقلقون
احساسها بالاعتقاد انها نائمة وهي ليست كذلك ، كان الدكتور اوربينو يعرف انها تبقى
مصغية الى ادنى ضجة يثيرها ، بل وتكون شاكرة له ، لانها تجدد بذلك من تلقي عليه اللوم في
ايقاظها منذ الخامسة صباحا ، وقد كان الامر كذلك حقا ، لدرجة انه في المناسبات القليلة التي
كان يتلمس فيها بحثا عن خفيه في الظلام في مكانها المعتاد ، كانت تقول له فجأة بصوت
ناعس : «لقد تركتهما البارحة في الحمام» . ثم تردف في الحال بصوت صاح وغاضب :
- ان اكبر مصيبة في هذا البيت هي ان المرء لا يجد فيه الى النوم سبيلا .

وعندئذ تتقلب في الفراش ، وتشعل النور دون ان تأخذها اية رحمة بنفسها ، سعيدة
بانتصارها الاول لهذا النهار . لقد كانت في العمق لعبة لكليهما ، لعبة خرافية وشريرة ، لكنها
منعشة في الوقت نفسه : انها احدى سعادات الحب المدجن الخطيرة . ولكن بسبب احدى
هذه الالعاب التساهية كانت الثلاثين سنة الاولى من الحياة المشتركة على وشك الانهيار لان
الصابون لم يكن موجودا في الحمام في احد الايام .

بدأ الامر ببساطة روتينية . كان الدكتور اوربينو قد رجع الى حجرة النوم ، في الزمن
الذي كان ما يزال يستحم فيه دون مساعدة ، وبدأ بارتداء ملابسه دون اشعال النور . اما
هي ، فكانت ما تزال في وضعها الجنيني الدافئ كعادتها في مثل هذا الوقت : عيناها
مغمضتان ، تنفسها هادئ ، وهذه الذراع المستندة الى الجبهة وكأنها في رقصة مقدسة . لكنها
كانت نصف نائمة ، كما هي العادة ، وكان يعرف ذلك . وبعد صرصرة طويلة من بدلة الكتان
المنشأة في العتمة ، كلم الدكتور اوربينو نفسه قائلا :
- منذ اسبوع وانا استحم بلا صابون .

عندئذ استيقظت ، وتذكرت ، وانقلبت غضبا ضد العالم ، لانها نسيت بالفعل وضع
صابونة جديدة في الحمام . لقد لاحظت غياب الصابون منذ ثلاثة ايام ، وكانت قد اصبحت
تحت الدوش ، ففكرت باحضار قطعة صابون فيما بعد ، لكنها نسيت فيما بعد الى اليوم
التالي . وفي اليوم الثالث حدث لها الشيء نفسه . لم يكن قد مضى اسبوع في الواقع ، كما
يدعي ليضاعف من احساسها بالذنب ، وانما ثلاثة ايام لا تغتفر ، ثم ان الغضب من
احساسها بانها فوجئت وهي على خطأ اخرجها عن طورها ، فسارعت كعادتها للدفاع عن
نفسها بالهجوم :

صرخت دون وعي :

- لقد استحميت كل هذه الايام ، وكان الصابون دوما في مكانه .

ورغم معرفته الجيدة لاساليبها في الحرب ، فانه لم يستطع احتماها هذه المرة . ومضى ليعيش في غرف القسم الداخلي في مشفى الرحمة تحت اية ذريعة مهنية ، ولم يعد يظهر في البيت الا لاستبدال ملابسه عند المساء ، قبل ان يقوم بجولة عيادته على بيوت المرضى . وكانت تذهب الى المطبخ عندما تسمع مجيئه ، متصنعة عمل اي شيء ، وتبقى هناك الى ان تسمع وقع حوافر حصاني العربية في الشارع ، وكلما حاولا حل الخلاف في الشهور الثلاثة التالية ، فان الشيء الوحيد الذي كانا يتوصلان اليه هو تعقيده . لم يكن مستعدا للعودة الى البيت ما دامت لا توافقه على انه لم يكن يوجد صابون في الحمام ، ولم تكن مستعدة لاستقباله ما دام لا يعترف بانه كذب وهو واع لتعذيبها .

ومنحهما الحادث طبعاً فرصة لاستحضار حوادث اخرى ، وتذكر الكثير من المسائل الصغيرة والصباحات القلقة . وبعثت الاحقاد احقاداً اخرى ، وفتحت جراح قديمة كانت ملتئمة لتزق من جديد ، وقد فزع كلاهما لليقين المدمر بانها لم يفعلوا شيئاً خلال سنوات طويلة من الصراع الزوجي سوى رعاية الاحقاد . ووصل به الامر لان يقترح عليها التقدم معا للاعتراف المفتوح امام نياقة الاسقف اذا اقتضى الامر ، ليكون الرب هو الحكم الاخير الذي يقرر اذا كان في مصبنة الحمام صابون ام لا . اما هي التي كانت تمتلك مرتكزات قوية حتى ذلك الحين ، فقد اضاعتها بصرخة هستيرية :
- فليذهب السيد الاسقف الى الخراء ! .

هزت تلك الشتيمة ركائز المدينة ، وكانت منطلقاً لحكايات واقاويل ليس من السهل تكذيبها ، وبقيت عالقة في المأثور الشعبي كتعبير شائع : « فليذهب السيد الاسقف الى الخراء ! » . ومدركة انها قد تجاوزت الحد ، سارعت الى اتخاذ ردة الفعل التي انتظرتها من زوجها ، فهددته بالانتقال وحدها الى بيت ابيها القديم ، الذي ما زال ملكاً لها ، رغم انه مؤجر كمكاتب عامة . لم يكن ذلك تبجحاً : كانت تريد الذهاب حقاً ، غير مبالية بالفضيحة الاجتماعية ، وقد تنبه الزوج الى ذلك في الوقت المناسب . ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لتحدي تهورها . فاستسلم ليس بمعنى القبول بانه كان يوجد صابون في الحمام ، لان ذلك سيكون اهانة للحقيقة ، وانها وافق على ان يستمر بالعيش في البيت نفسه ، ولكن في حجرتين منفصلتين ، ودون ان يكلمها بعضهما . وهكذا كانا يأكلان ، ويصرفان المواقف ببراعة فائقة بتبادل الطلبات من احد اطراف المائدة الى الطرف الاخر بواسطة ابنيهما ، دون ان ينتبه الابنان الى انها لا يتبادلان الحديث .

وبما انه لا وجود للحمام في مكتبه ، فان هذه الصيغة قد حلت الخلاف حول الضوضاء الصباحية ، لانه اصبح يدخل للاستحمام بعد ان ينتهي من تحضير درسه ، ويتخذ الاحتياطات الحقيقية كي لا يوقظ زوجته . وفي احيان كثيرة كانا يلتقيان وينتظران بالدور لتنظيف اسنانهما قبل النوم . وبعد اربعة شهور ، استلقى ليقرا في الفراش الزوجي فيما هي خارجة الى الحمام ، كما كان يحدث كثيرا ، فغلبه النعاس ، استلقت الى جانبه بحركة مفرطة في الخشونة لتجعله يستيقظ وينصرف . واستيقظ بالفعل شبه استيقاظ . ولكنه بدلا من ان ينهض اطفأ مصباح السرير واستراح على وسادته . فهزته من كتفه لتذكره بان عليه الذهاب الى مكتبه ، لكنه كان يشعر مجددا بانه في حالة جيدة على فراش الريش الموروث عن اسلافه ، ففضل الاستسلام .

قال لها :

- دعيني هنا ، نعم ، كان هناك صابون .

حين كانا يتذكران هذا الحادث ، بعد ان اصبحا عند منعطف الشيخوخة ، ماكانا ليصدقا الحقيقة المذهلة بان ذلك الشجار كان الاخطر خلال نصف قرن من الحياة المشتركة ، والشجار الوحيد الذي بعث فيهما كليهما رغبة الازعان والبدء في حياة اخرى . وحتى عندما اصبحا عجوزين وديعين كانا يحاذران من ذكره ، لان الجراح قليلة الالتئام سرعان من تعاود التزيف وكأنها جراح الامس .

كان هو اول رجل سمعته فيرمينا دائما يتبول . سمعته في ليلة الزفاف في قمرة السفينة التي حملتهما الى فرنسا ، فيما الدوار ينهكها ، وبدا لها وقع ينبوعه الحصاني قويا ومتسلطا ، مما ضاعف رعبها من الاذى الذي يخيفها . وقد كانت تلك الذكرى تعاود تخيلتها بكثرة ، كلما اضعفت السنون من قوة ينبوع ، لانها لم تستطع الصبر ابدا على تلويشه حافة مقعد المرحاض كلما استخدمه . وقد حاول الدكتور اوربينوا اقناعها ، بحجج سهلة الفهم لمن يرغب في فهمها ، ان ذلك الحدث يتكرر يوميا ليس بسبب اهماله ، كما كانت تصر هي ، وانما لسبب عضوي : فينبوعه في سنوات صباه كان محمدا ومستقيما ، حتى انه كسب وهو في المدرسة بطولة التسديد للملء زجاجات ، ولكنه لم يضعف فحسب مع استخدامات السن ، وانما اصبح زائغا كذلك ، واخذ يتشعب ، الى ان اصبح في نهاية الامر ينبوعا وهميا يستحيل توجيهه ، رغم الجهود الكثيرة التي يبذلها لتصحيح مساره . كان يقول : « لا بد ان مخترع المرحاض ذا المقعد لا يعرف شيئا عن الزجال » . وكان يساهم في السلام البيتي بعمل يومي هو اقرب الى الذل منه الى التواضع : كان يمسح بورق صحي حواف مقعد المرحاض كلما استخدمه ، وكانت تعرف انه يفعل ذلك ، لكنها لم تكن تقول شيئا ما لم تفح روائح الامونياك في الحمام ، عندئذ

تعلن الامر وكأنه اكتشاف جريمة : «ان هذا يشير قرف حظيرة ارانب» . وعلى مشارف الشيخوخة ، ادى تشاقل جسد الدكتور اورينوالى الهامه الحل النهائي : صاريبول وهو جالس ، كما تفعل هي ، مما حافظ على مقعد المرحاض نظيفا ، وجعله يتخذ وضعاً ظريفاً . كان يقوم بشؤونه حيثذ بشكل سيء . لكن انزلاقاً في الحمام كاد يودي بحياته جعله يتخذ موقفاً حذراً من الدوش . فالبيت ، رغم كونه من البيوت الحديثة ، كان يفتقد حوض البانيو المعدني ذا القوائم التي كقوائم الاسد ، والذي كان استخدامه شائعاً في بيوت المدينة الاستعمارية ، فقد امر هو بانتزاعه متذرعاً بحججه الصحية : ان حوض البانيو هو احدى قذارات الاوروبيين الكثيرة ، الذين لا يستحمون الا في يوم الجمعة الاخير من كل شهر ، ثم انهم يفعلون ذلك وسط الماء المتسخ بالوساخة نفسها التي يريدون ازالته عن اجسادهم . وهكذا طلبوا صنع صفيحة كبيرة من الصفيح على قوائم من خشب غوايا كان المتين ، حيث اصبحت فيرمينا دائماً تحمم زوجها بنفس طقوس تحميم الاطفال حديثي الولادة . كان الحمام يستمر لاكثر من ساعة ، بهاء فاتر غليت فيه اوراق العطرة وقشور البرتقال ، وكان للحمام تأثير مهدىء عليه يجعله يغفو في النقيع المعطر احياناً . وبعد تحميمه ، تساعد فيرمينا دائماً على ارتداء ملابسه ، وترشه ببودرة التالك ما بين ساقيه ، وتدهنه بدهن جوز الهند في مواضع السباط ، وتلبسه سرواله الداخلي بحنان شديد كما لو كان حفاضة طفل رضيع ، وتتابع الباسه الثياب قطعة قطعة ، من الجورب حتى ربطة العنق ذات المشبك الياقوتي . وصارت الصباحات الزوجية اكثر سكوناً ، لانه عاد الى طفولته التي انتزعها منه الاولاد . وانتهت هي من جانبها الى الانسجام مع النظام العائلي ، لان السنوات كانت تمضي بالنسبة لها ايضاً ، فاصبحت تنام اقل فأقل ، وقبل ان تتم السبعين صارت تستيقظ قبل زوجها .

في يوم احد العنصرة ، عندما رفع الشرفف عن جثة جيرميا دي سانت - أمور ، انكشف للدكتور اورينوا امر كان يرفض التفكير فيه حتى ذلك الحين في ابحاراته الجلدية كطبيب ومؤمن . فبعد سنوات طويلة من التعايش مع الموت ، وبعد صراعه ولمسه باطنا وظاهراً لسنوات عديدة ، كانت تلك هي المرة الاولى التي تجرباً فيها على النظر الى وجه الموت ، وكان الموت ينظر اليه ايضاً . لم يكن احساسه خوفاً من الموت لا : فالخوف كان بداخله منذ سنوات ، يحيا معه ، كان ظلاً اخر فوق ظله ، منذ ليلة استيقظ فيها قلقاً لرؤيته حلماً مشؤوماً جعله يدرك ان الموت ليس احتمالاً مائلاً فقط ، كما احسه دائماً ، وانما هو واقع قائم . وبالمقابل ، فان ما رآه يومذاك هو حضور جسدي لشيء لم يكن قد تجاوز كونه تصوراً يقينياً حتى ذلك الحين . وقد اسعده ان يكون اداة العناية الالهية لهذا الكشف هو جيرميا دي سانت - أمور ، الذي اعتبره دوماً قديساً يجهل فضل ذاته ، ولكن عندما كشفت له الرسالة حقيقة هويته ، وماضيه

الفاسد، وقدرته اللامعقولة على الخداع، احس بان شيئاً نهائياً لا رجعة فيه قد طرأ على حياته.

ومع ذلك فان فيرمينا دائماً لم تسمح له بنقل عدوى مزاجه المكفهر اليها. لقد حاول ذلك بالطبع فيما هي تساعد على دس ساقيه في البنطال وتزرر صف ازرار القميص الطويل. لكنه لم يصل الى ما يريد لان التأثير على فيرمينا دائماً لم يكن سهلاً، وخصوصاً في موت رجل لم تكن تحبه. كانت تعرف بالكاد ان جيرميا دي سانت - أمور هو رجل مقعد ذو عكازين لم تره ابداً، وانه قد فر من فصيلة الإعدام في إحدى التمردات الكثيرة في واحدة من جزر الانتيل العديدة. وانه عمل مصوراً اطفال بدافع الحاجة وصار الاكثر شهرة في الإقليم كله، وانه قد كسب دور شطرنج من شخص تتذكر هي ان اسمه توريمولينوس بينما الحقيقة ان اسمه كابا بلانكا.

قال لها الدكتور اورينو:

- لم يكن سوى هارب من كايينا، ومحكوم بالمؤبد على جريمة فظيعة اقترفها. وتصوري ان الامر وصل به الى اكل اللحم البشري.

اعطاها الرسالة التي كان يريد حمل اسرارها معه الى القبر، لكنها خبأت الاوراق المطوية في خزان الزينة، دون ان تقرأها، واقفلت الدرج بالمفتاح، كانت معتادة على قدرة زوجها الكبيرة على الاندهاش، وعلى احكامه المبالغ فيها والتي اخذت تصبح اكثر تعقيدا مع مرور السنوات، وعلى ضيق افق لا يتلاءم مع صورته العامة. لكنه في تلك المرة تجاوز حدوده المعتادة. وافترضت ان زوجها ليس معجبا بجيرميا دي سانت - أمور لما كان عليه فيما مضى، وانما لما بدأ يكونه منذ قدومه بلامتاع سوى حقبة المنفيين التي كان يحملها، ولم تستطع ان تفهم لماذا فجع الى ذلك الحد باكتشاف هويته متأخرا. ولم تفهم لماذا يبدو له فظيعة ان يكون على علاقة بامرأة سرية اذا كان هذا الامر عادة وراثية بين الرجال الذين هم من صنفه، بما في ذلك هو نفسه في لحظة جحود. وقد رأت في مساعدتها له على تنفيذ قراره بالموت دليلاً مؤثراً على الحب. وقالت: «واذا ما قررت انت عمل ذلك ايضا لاسباب جدية كتلك التي كانت لديه، فان واجبي ان افعل مثلاً فعلت هي». ووجد الدكتور اورينو مرة اخرى نقطة عدم الفهم البسيطة التي اثارت حفيظته طوال نصف قرن.

- قال:

- انت لا تفهمين شيئاً. ان ما يغيظني ليس ما كانه او ما فعله، وانما الخدعة التي جعلها

تنظلي علينا جميعاً خلال هذه السنوات الطويلة.

بدأت عيناه تغرورقان بدموع سهلة، فيما تصنعت هي التجاهل وردت :
- حسنا فعل . فلوانه قال الحقيقة لما كنت انت ولا هذه المرأة المسكينة ، ولا احد في
البلدة احبه كما احببتموه .

ثبتت الساعة ذات السلسلة في عروة الصدرية . وعقدت له ربطة العنق ووضعت له
المشبك الياقوتي . ثم مسحت دموعه ونظفت لحيته الباكية بالمنديل المبلل بعطر اغوا فلوريدا ،
ووضعت في جيب الجاكيت على الصدر فاتحة اطرافه كزهرة مانوليا . دقت ساعة البندول
دقاتها الاحدى عشرة في البيت الراكد ، فقالت وهي تقوده من ذراعه :
- اسرع . سنصل متأخرين .

كانت اميتا ديتشامباس ، زوجة الدكتور لايتديس اوليفيا ، وبناتها السبع المتحمسات ،
قد اعدن كل شيء من اجل ان يكون غداء اليوبيل الفضي هو حدث السنة الاجتماعي ،
منزل العائلة القائم في مركز المدينة التاريخي وهوبيت المال سابقا ، كان قد غير من طرازه
المعماري مهندس فلورنسي مرمن هنا مثل ربح شؤم ، وحول الى كنائس على الطراز
الفينيسي بقايا اكثر من اربعة معابد من القرن السابع عشر . كان في البيت ست حجرات نوم
وصالونان للطعام والاستقبال ، واسعان وحسنا التهوية ، لكنها لا يتسعان لمدعوي المدينة ،
فضلا عن النخبة التي ستاتي من الخارج . كان الرواق اشبه بباحة دير ، في وسطه نافورة
حجرية يغرد الماء فيها ، وجنائن من الهيليوتربو تعطر البيت عند المغيب ، لكن الفسحة
المقنطرة لم تكن كافية لكل تلك الالقاب العظيمة . ولهذا قرروا اقامة حفل الغداء في بيت
العائلة الريفي ، على بعد عشر دقائق في السيارة على الطريق العام ، ففيه ساحة فسيحة
وشجيرات غار هندية كثيفة ونيلوفر مهجن في مسيل ماء وديع ، رجال مطعم دون سانتشو ،
نصبوا بتوجيه من السيدة اوليفيا ، مظلات شواذر ملونة في الاماكن التي لا ظلال فيها ، واقاموا
تحت اشجار الغار مستطيلا من الطاومات يتسع لمئة واثنين وعشرين شخصا ، مع شراشف
كتانية بيضاء لجميع الطاومات ، واغصان ورد طازجة على طاولة الشرف . كما اقاموا منصة
لفرقة موسيقى الآلات الهوائية التي كان برنامجها يقتصر على موسيقى راقصة وفالسات وطنية ،
ولرباعي وتري من مدرسة الفنون الجميلة ، هي مفاجأة السيدة اوليفيا لاستاذ زوجها الموقر ،
الذي سيرأس الغداء ، ومع ان اليوم المحدد للاحتفال لم يكن يتفق تماما مع ذكرى التخرج ،
فقد اختاروا يوم احد العنصرة ليضاعفوا من ضخامة معنى الحفلة .

بدأت الاستعدادات قبل ثلاثة شهور ، خوفا من نسيان شيء او عدم انجازه في الموعد
المحدد ، احضروا الدجاج الحي من ثيينا غادي اورو ، لشهرة هذا الدجاج في منطقة الساحل
كلها ، ليس بحجمه وطعمه اللذيذ وحسب ، وانما لانه في الزمن الاستعماري كان يعفر في

اراضي الطمي ، فكانوا يجدون في حوصلته حصيات من الذهب الخالص ، وكانت السيدة اوليفيا شخصيا ، برفقة بعض بناتها وبعض الخدم ، تصعد الى متن السفن العابرة الفخمة لتتقي افضل ما يصل من كل مكان لتشريف مكانة زوجها . لقد احتاطت لكل شيء ، باستثناء ان الحفلة ستكون يوم احد حزيران في سنة متأخرة الامطار . وقد ادخلت امر خطر كهذا في حسابها صباح يوم الحفلة بالذات ، عندما خرجت الى القديس الكبير وفزعت لرطوبة الهواء ، ورأت ان السماء كثيفة وواظئة وان البصر لا يصل لرؤية الافق البحري . ورغم علائم النحس هذه ، فقد ذكرها مدير الارصاد الجوية ، الذي التقت به في الصلاة ، بانه لم يحدث في تاريخ المدينة المشؤوم جدا ، حتى ولا في أقسى فصول الشتاء ، ان هطل المطر في يوم العنصرة . ورغم ذلك ، فعندما دقت الساعة معلنة الثانية عشرة ، وفيما كان معظم المدعوين يتناولون المقبلات في الهواء الطلق ، جعل انفجار الرعد الارض تهتز ، واطاحت ريح بحرية عنيفة بالموائد وحملت المظلات في الجو ، وانهارت السماء بمطر كالكارثة .

لقد تمكن الدكتور خوفينال اوربينو من الوصول بجهود مضنية في فوضى العاصفة ، مع اخر الضيوف الذين التقى بهم في الطريق ، وكان يريد الوصول الى البيت قافزا من العربات مثلهم فوق الاحجار ، عبر البهو المضطرب ، لكنه قبل اخيرا مذلة ان يحمله رجال دون سانتشو على الاذرع تحت مظلة من قماش اصفر ، وجرى اعداد الطاولات المنفصلة من جديد على احسن وجه ممكن داخل البيت ، وحتى في غرف النوم ، ولم يقيم المدعوون بأي جهد لاختفاء مزاجهم الغارق بالماء ، كان الحر في البيت كانه مرجل سفينة ، اذ انهم اغلقوا النوافذ ليمنعوا دخول المطر الذي يهطل مائلا بفعل الريح . كان يوجد على الطاولة في الفناء بطاقة تحمل اسم كل مدعو وتحدد مكانه ، وكان مقررا ان يكون هناك جانب للرجال واخر للنساء ، كما هي العادة في ذلك الحين ، لكن البطاقات التي تحمل الاسماء اختلطت داخل البيت ، وجلس كل واحد كيفما استطاع ، بفوضى هائلة خالفت لمرة واحدة على الاقل تقاليدنا الاجتماعية البالية ، ووسط الكارثة ، كانت اميتا دي اوليفيا تبدو وكأنها في كل مكان ، بشعرها المبلل وثوبها الرائع الملطخ بالوحل ، لكنها تعلو على المصيبة بابتسامة لا تقهر تعلمتها من زوجها كي لا تتيح للعوازل ان يشمتوا . وبمساعدة بناتها ، المصاعجات في الكورنفسه ، تمكنت الى حد ما من حجز الاماكن على طاولة الشرف ، فكان الدكتور خوفينال اوربينو في الوسط والاسقف اويدوليو اي ري الى يمينه . وجلست فيرمينا داثا الى جانب زوجها ، كما اعتادت ان تفعل دوما ، خوفا من ان يغلبه النعاس اثناء الغداء او ان يسكب الحساء على قبة سترته . واحتل الموقع المقابل الدكتور لاثيديس اوليفيا ، وهو خمسيني ذو مظهر انثوي ، محتفظ جيدا بقواه ، ولا علاقة لروحه الاحتفالية بتشخيصاته الطبية الصائبة . وامتلات بقية مقاعد

الطاولة بممثلي السلطات الاقليمية والبلدية، وملكة جمال العام الفائت، التي قادها الحاكم من ذراعها ليجلسها الى جواره، ورغم انه لم تكن هناك عادة طلب زي خاص في الدعوات، ولا سيما في غداء ريفي، فقد كانت السيدات يرتدين بدلات سهرة وحلي من احجار كريمة، ومعظم الرجال يلبسون بدلات قاتمة مع ربطة عنق سوداء، وبعضهم يرتدي الستر الرسمية البيضاء، وذوو المشاغل الكثيرة وحدهم، ومنهم الدكتور اوربينو، كانوا يرتدون بدلات يومية، وفي كل مكان كانت توجد نسخة من المينو^(١)، مطبوعة بالفرنسية مع رسوم مذهبة.

ذرعت السيدة اوليفيا، المرتعبة من احوال الحر، البيت راجية من الجميع خلع سترهم لتناول الغداء، لكن احدا لم يجرؤ على ان يكون قدوة للاخرين. ولقد لفت الاسقف انتباه الدكتور اوربينو الى ان ذلك الغداء هو غداء تاريخي بطريقة ما: فهناك يجتمع لأول مرة على طاولة واحدة، وبعد التأم الجروح وتبدد الاحقاد، فريقا الحروب الاهلية التي اغرقت البلاد بالدم منذ الاستقلال. كان هذا التفكير يتلاءم مع حماس الليبراليين، وخصوصا الشباب منهم الذين تمكنوا من اختيار رئيس من حزبهم بعد خمس واربعين سنة من هيمنة المحافظين. ولم يكن الدكتور اوربينو متفقا في ذلك: فرئيس ليبرالي لا يبدو له اقل او اكثر من رئيس محافظ، سوى انه اسوأ هنداما. ومع ذلك، لم يشأ معارضة الاسقف. رغم انه رغب بان يلمح له ان احدا لم يدع لحضور الغداء من اجل افكاره وانما لشرف محتده، وان هذه كانت دائما فوق نكبات السياسة وفظائع الحرب. واذا نظرنا بهذا المنظار، فليس هنالك اي خلل حقا.

توقف وابل المطر فجأة كما بدأ، والتهبت الشمس في السماء الصافية فورا، لكن العاصفة كانت من العنف بحيث انتزعت بعض الاشجار من جذورها، وتحول الماء المتجمع حول الفناء الى مستنقع راكد، اما الكارثة الكبرى فكانت في المطبخ، حيث اقيمت عدة مواقد من الطوب في القسم الخلفي من البيت، في العراء، وما كاد الطهاة يضعون القدور بمنأى عن المطر، حتى راحوا يضيعون وقتا ثميناً في نزح الماء من المطبخ الغارق واقامة مواقد جديدة على عجل في الرواق الخلفي، ولكن حالة الطوارئ انتهت في الواحدة ظهرا، ولم يكن ينقص سوى الحلوى التي كلفت بصنعها راهبات سانتا كلارا، اللواتي وعدن بارسالها قبل الساعة الحادية عشرة. وكانت الخشية من ان تكون ساقية الطريق الرئيسي قد فاضت كثيرا، كما يحدث عادة في فصول شتاء اقل قساوة، ففي هذه الحالة لا يمكن وضع الحلوى في الحساب قبل مرور ساعتين. ما ان توقف المطر حتى فتحوا النوافذ، فلطف الهواء المنقي بكبريت

(١) قائمة باصناف الطعام.

العاصفة جوالبيت. ثم امروا بان تعزف الفرقة الموسيقية برنامجها على مصطبة الرواق، لكن ذلك لم ينفع سوى في زيادة الجزع، لان دوي النحاس داخل البيت كان يضطرهم لتبادل الحديث صراخا. فامرت اميتادي اوليفيا المنهكة من الانتظار، والتي كانت تبتم وهي على حافة الدموع، بتقديم الطعام..

. بدأت فرقة مدرسة الفنون الجميلة الوترية بالعزف وسط صمت رسمي استمر حتى النفحات الاولى من معزوفة لاتشاس لموزارت. ورغم الاصوات التي اخذت تعلوا اكثر فاكثر وتصبح اشد اختلاطا، ورغم عرقلة خدم دون سانتشورالزوج الذين لم يكن الفراغ بين الموائد يكفي لمرورهم وهم يحملون الصواني التي يتصاعد منها البخار، فقد تمكن الدكتور اوربينو من الاحتفاظ بقناة مفتوحة على الموسيقى حتى نهاية البرنامج. كانت قدرته على التركيز تتناقص سنة بعد اخرى، حتى انه كان يضطر الى تسجيل كل حركة شطرنج يقوم بها على الورق ليعرف اين صار في اللعب. ومع ذلك، فهو ما زال قادرا على مواصلة محادثة جديّة دون ان يفلت خيط الموسيقى، رغم انه لا يصل في ذلك الى الحد الذي يصله قائد اوركسترا الماني، كان صديقا حيا له خلال فترة اقامته في النمسا، اذ كان يقرأ نوتة موسيقية لدون جيوفاني فيما هو يسمع تانهاوزر.

المقطوعة الثانية في البرنامج كانت الموت والصبيّة، لشوبرت، وبدأ له انها تعزف بدرامية سهلة. وفيما هو يستمع اليها بمعاناة شديدة، من خلال الجلبة الجديدة التي اثارها ادوات الطعام في الصحون، كان يحتفظ بنظرة معلقة بشاب ذي وجه وردي حياه بانحناءة من رأسه. لا شك انه رآه في مكان ما، لكنه لا يذكر اين. ان هذا يحدث له كثيرا مع الاسماء، فهو ينسى احيانا اسماء اقرب الناس اليه، وكذلك مع الحان زمن اخر، مما يثير فيه قلقا خفيفا، جعله يفضل الموت في احدي الليالي على الاحتمال حتى الفجر. وكان على وشك الوصول الى هذه الحالة عندما اضاء له بريق مشفق ذاكرته: الشاب هو احد تلاميذه من العام الفائت. وفوجيء برؤيته هنا، في مملكة الصفوة، لكن الدكتور اوليفيا ذكره بانه ابن وزير الوقاية الصحية، وقد جاء الى هنا لتحضير اطروحة في الطب الشرعي. وأشار له الدكتور خوفينال اوربينو بتحية سعيدة من يده، فوقف الشاب ورد على التحية باحترام. انها لم يخطر للدكتور اوربينو حينئذ، ولا فيما بعد، بانه المتمرن الذي كان معه صباح هذا اليوم في بيت جيرميا دي سانت - أمور.

مع احساسه بالراحة لهذا الانتصار الجديد على الشيخوخة، غادر الغنائية الصافية المناسبة لآخر مقطوعة موسيقية في البرنامج، لم يستطع تحديد هويتها. وقد اخبره بعد ذلك عازف الكمان الشاب في المجموعة، الذي رجع من فرنسا منذ وقت قريب، بان المقطوعة هي

الرباعية الوترية لغابرييل فاوريه ، الذي لم يكن الدكتور اوربينو قد سمع باسمه رغم ترصده الدائم لكل جديد من اورويا . فيرمينا داثا ، المتنبهة اليه ، كعادتها ، وخصوصا عندما تراه ساهما وسط الناس ، توقفت عن تناول الطعام ووضعت يدها الدنيوية على يده ، وقالت له : « لا تفكر في الامر اكثر » . فابتسم لها الدكتور اوربينو من الضفة الاخرى للغيبوبة ، وكان ان عاد حينئذ للتفكير فيما كانت هي تخشاه . تذكر جيرميا دي سانت - امور ، موسدا في هذه الساعة في التابوت بزيه العسكري الزائف وميدالياته الكاذبة ، تحت نظر اطفال الصور المتهمه . التفت نحو الاسقف ليطلعه على خبر الانتحار ، لكنه كان عارفا به . كان قد تحدث مطولا في هذا الامر بعد القداس الكبير ، بل انه تلقى طلبا من الكولونيل جير ونيموارغوتي ، باسم لاجئي الكاريبي ، لدفنه في الارض الطاهرة . قال : « ان الطلب بحد ذاته برأيي هوقلة احترام » ثم ، بلهجة اكثر ادمية ، سأل ان كان يعرف سبب الانتحار . ورد عليه الدكتور اوربينو بكلمة صحيحة ظن انه اخترعها في تلك اللحظة : خوف الشيخوخة . الدكتور اوليفيا ، الذي كان منصرفا باهتمامه الى اقرب الضيوف منه ، تركهم لبرهة ليشارك في الحوار مع استاذة . قال : « من المؤسف اننا ما زلنا نلتقي بمنتحردافعه للانتحار ليس الحب » . ولم يفاجأ الدكتور اوربينو من التعرف على افكاره في آراء تلميذه النجيب . فقال :

- بل الاسوأ من ذلك ان الانتحار تم بسيانور الذهب . ما ان قال ذلك حتى احس بان الشفقة قد عادت لتغلب على مرارة الرسالة ، ولم يرجع الفضل في ذلك الى زوجته وانما الى معجزة من معجزات الموسيقى ، حينئذ حدث الاسقف عن القديس الملحد الذي تعرف هو نفسه عليه في امسيات الشطرنج البطيئة ، وحدثه عن تكريسه لفنه من اجل اسعاد الاطفال ، وعن سعة اطلاعه العجيبة على كل شؤون الدنيا ، وعن عاداته الاسبارطية ، وقد فوجيء هو نفسه بنقاء الروح الذي مكنه من الانفصال فجأة وبشكل كامل عن ماضيه . ثم حدث العمدة عن اهمية شراء ارشيف مسودات الصور لحفظ صور جيل ربما لن يعود للشعور بالسعادة خارج صورهِ ؛ جيل في يديه مستقبل المدينة . لقد ذعر الاسقف لان كاثوليكيًا مواظبا ومطلعا تجرأ على التفكير بقديسية منتحر ، لكنه وافق على المبادرة الى ارشفة مسودات الصور ، واراد العمدة ان يعرف ممن عليه ان يشتريها . فكوى الدكتور اوربينو لسانه بجمرة السر ، لكنه استطاع احتمالها دون الكشف عن واثرة الارشيف السرية ، وقال : « انا ساتولى الامر » . واحس بانه افتدى بوفائه المرأة التي تركها قبل خمس ساعات . لاحظت فيرمينا داثا ذلك ، وجعلته يعاها بصوت واطىء على حضور الدفن . طبعاً سافعل - قال مفرجا عن نفسه - كل شيء الا هذا .

كانت الخطب قصيرة وبسيطة، وبدأت فرقة الآلات النفخية بعزف موسيقى غوشائية، غير مقرر في البرنامج، وانتقل المدعوون الى الشرفات بانتظار ان ينتهي رجال فندق دون سانتشومن نزع الماء المتجمع في الفناء، ليروا ان كان هنالك من سينحس للرقص. والوحيدون الذين بقوا في الصالة هم مدعوو طاولة الشرف، الذين كانوا يحتفلون باحتساء الدكتور اوربينو نصف كأس من البراندي دفعة واحدة في نخب اخير. ليس هناك من يذكر انه فعل ذلك قبل اليوم، ما عدا ارتشافه كأس نبيذ من صنف فاخر، مع وجبة خاصة جدا في مناسبات قليلة، لكن قلبه طلب هذا في ذلك اليوم، وكان ضعفه حسن الاثابة: اذا حس مجددا، بعد سنوات وسنوات، برغبة في الغناء. وكان سيفعل ذلك دون شك، بناء على طلب عازف الكمان الشاب الذي تطوع لمرافقته، لولا ان سيارة من السيارات الجديدة اجتازت احوال الفناء بسرعة، ملوثة الموسيقيين بالوحل ومثيرة طيور البط في الاقفاص بنفيراها الذي كصوت البط، وتوقفت امام مدخل البيت. نزل الدكتور ماركو اوريليو اوربينو داثا وزوجته وهما غارقان بالضحك، يحملان في كل يد صينية مغطاة بقماش محرم. وكانت هناك صوان اخرى مماثلة في المقاعد الخلفية، وعلى ارضية السيارة الى جنب السائق ايضا. انها الحلوى المتأخرة. ويعد ان توقف التصفيق وصفير السخرية الودود، شرح الدكتور اوربينو داثا بجدية كيف ان الراهبات طلبن منه نقل الحلوى قبل ان تبدأ العاصفة، لكنه رجع من الطريق العام لان احدهم قال له بان بيت والديه يحترق، اصاب الذعر الدكتور خوفينال اوربينو دون ان ينتظر انتهاء ابنه من الحكاية. لكن زوجته ذكرته بانه هو نفسه قد امر باستدعاء رجال الاطفاء للامساك بالبيغاء، وقررت اميتا دي اوليفيا، المتألقة بهجة، ان تقدم الحلوى على الشرفات، حتى ولو كان ذلك بعد تناولهم القهوة، لكن الدكتور اوربينو وزوجته انصرفا دون تذوقها، لان الوقت المتبقي لا يكاد يكفي لنوم قيلولته المقدسة قبل ان يذهب الى الجنازة.

نام قيلولته، انها لوقت قصير وبشكل سيء، لانه عندما عاد الى البيت، وجد ان رجال الاطفاء قد تسببوا باضرار تقارب بخطورتها اضرار حريق، ففي محاولتهم لافزاع البيغاء، اسقطوا احدي الاشجار بخراطيم الضغط المرتفع، ودخلت دفقة ماء سيئة التصويب من نافذة حجرة النوم الرئيسية محدثة اضرارا لا مجال لاصلاحها في الاثاث وفي صور الاجداد المجهولين المعلقة على الجدران. وقد هرع الجيران عندما سمعوا جرس سيارة الاطفاء، معتقدين ان حريقا قد شب. واذا كانت لم تحدث قلاقل اسوأ، فلأن المدارس كانت مغلقة لان اليوم هو يوم احد، وعندما ايقنوا انهم لن يتمكنوا من الوصول الى البيغاء حتى باستخدام السلام ذات الاجزاء الإضافية، اخذ رجال الاطفاء يحطمون الاغصان

بالفؤوس، وكان ظهور الدكتور اوربينو دائما هو الذي منعهم من بتر جذع الشجرة. فتوقفوا بعد ان وعدوا بالرجوع بعد الساعة الخامسة ليروا ان كانوا يخولونهم بتقليم الشجرة. وفي طريقهم لوثوا الشرفة والصالة بالوحل، ومزقوا سجادة تركية هي المفضلة لدى فيرمينا دائما، فكانت كارثة بلا طائل. اضافة الى ان الرأي السائد كان القائل بان البيغاء قد انتهزت فرصة الفوضى لتهرب عبر الباحات المجاورة، وقد بحث عنها الدكتور اوربينو فعلا بين اوراق الشجرة، ولم يتلق ردا باية لغة، ولا حتى بالصفير والغناء، فاعتبرها مفقودة ومضى لينام في حوالي الساعة الثالثة وقبل ذلك تلذذ بمتعة بوله المصفى بالهليون الدافئ.

ايقظه الاسى. ليس الاسى الذي احسه صباحا وهو امام جثة صديقه، وانما الغمامة اللامرئية التي كانت تضيغ روحه بعد القيلولة، والتي اعتبرها اخطارا الهيا بانه يعيش اخر امسياته، لم يكن يعي حتى بلوغه سن الخمسين حجم اوزن اوحالة احشائه. وشيئا فشيئا، وفيما هو يرقد مغمض العينين بعد القيلولة اليومية، بدأ يشعر باحشائه في جوفه، جزءا جزءا، بدأ يحس حتى بشكل قلبه المسهد، وكبد الغامض، وينكرياسه الكتيم، وراح يكتشف ان جميع الناس، بما فيهم اولئك الاكبر منه سنا، كانوا اصغر منه، وانه الوحيد على قيد الحياة من بين ابناء صورجيله النائي. وعندما تنبه الى حالات نسيانه الاولى، سارع لاستخدام طريقة سمعها من احد اساتذته في مدرسة الطب: «من لا ذاكرة له فليصنع ذاكرة من الورق». لكنها لم تكن سوى وهم زائل، اذ وصل الى اقصى درجات النسيان بنسيانه ما تعنيه ملاحظات التذكير التي كان يدسها في جيوبه، وصار يذرع البيت بحثا عن نظارته التي يضعها على عينيه، ويعيد ادارة المفتاح بعد ان يكون قد اقفل الباب، ويضيع خيط القراءة بنسيانه مقدمات البراهين او اوصاف الشخصيات. لكن اكثر ما كان يقلقه هو ارتيابه بقدرته العقلية ذاتها: وشيئا فشيئا، في غرق محتم، كان يشعر بانه يضيع معنى العدالة.

ومن خلال التجربة وحدها، وذلك دون مرتكزات علمية، كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف ان معظم الامراض القاتلة لها رائحة خاصة، لكن ايا منها ليس محدد الرائحة كما هو داء الشيخوخة. كان يلمس ذلك في الجثث المفتوحة على طاولة التشريح، ويتعرفه حتى في اكثر المرضى اتقانا في اخفاء سنهم الحقيقي، وفي عرق ثيابه بالذات، وفي التنفس الاعزل لزوجته النائمة. ولولا انه كان في اعماقه، مسيحيا على الطريقة القديمة، قريبا كان قد اتفق مع جيرميا دي سانت - آمور بان الشيخوخة هي حالة تردد يجب تفاديها مسبقا. ان العزاء الوحيد، حتى بالنسبة لمن كان رجلا جيدا في السرير مثله، هو الانطفاء البطيء والروؤف للرجلة: السلام الجنسي. لقد كان وهو في الحادية والثمانين يتمتع بوعي يجعله يدرك انه مشدود الى هذا العالم بخيوط واهية قد تنقطع دون الم بمجرد حركة بسيطة اثناء النوم، واذا

كان يفعل كل ما يمكنه للاحتفاظ بتلك الخيوط فذلك لحوفه من الا يجد الرب في ظلمات الموت.

كانت فيرمينا دائما قد انهمكت في ترتيب حجرة النوم التي عاث فيها رجال الاطفاء، وقبيل الساعة الرابعة بقليل حملت الى زوجها كأس الليمونادة اليومي مع الثلج المكسر، وذكرته بان عليه ان يرتدي ملابسه ليذهب الى الجنازة. كان تحت متناول يد الدكتور هذا المساء كتابان اثنان: الانسان، ذلك المجهول لالكسيس كاريل، وتاريخ سان ميشيل لأكسيل مونث. ولم يكن الكتاب الاخير قد فتح بعد، فطلب من ديغنا باردو، الطاهية، ان تأتية بفتاحة الكتب العاجية التي نسيها في حجرة النوم. ولكن عندما جاؤوه بها كان قد بدأ القراءة في كتاب الانسان ذلك المجهول في الصفحة المعلمة بمغلف رسالة: كانت لا تزال امامه بضع صفحات قليلة لانهاء الكتاب. قرأ بتمهل، شاقا الطريق عبر منعطفات نقطة الم في الرأس عزاها الى نصف كأس البراندي الذي شربه في النخب الاخير. وفي وقفاتة عن القراءة كان يتناول رشفة من الليمونادة، او يتمهل في قضم قطعة من الثلج، كان لابسا جوربيه، وقميصه دون وضع الياقة المنفصلة، فيما حملتا البنطال المطاطيتان بخطوطهما الخضراء تتدليان على جانبي خصره، وكان يزعجه مجرد التفكير بان عليه استبدال ملابسه من اجل الجنازة. مالبت ان توقف عن القراءة، ووضع الكتاب فوق الكتاب الاخر، وبدأ يتأرجح على مهل في كرسي الخيزران الهزاز، متأملا من خلال الاسى شجيرات الموز في مستنقع الفناء، وشجرة المانغا متوجة الاغصان، ونمل ما بعد المطر الطيار، والضياء الفاني لمساء اخر ينقضي الى الابد. كان قد نسي انه كان يملك بيغاء في احد الايام وانه احبها كما يحب كائنا بشريا، عندما سمعها فجأة: «بيغاء ملكي». سمعها قريبا جدا منه، الى جواره تقريبا. ثم رآها في الحال على أوطأ اغصان شجرة المانغا. فصرخ بها: - عديمة الحياء.

وردت البيغاء بصوت مطابق تماما:

- عديم الحياء هو انت يا دكتور.

تابع الحديث معها دون ان يرفع نظره عنها، ريثما لبس جزمته بحذر شديد حتى لا يخيفها، ودم يديه في حمالي البنطال، ونزل الى الفناء الذي ما زال موحلا متلصسا الطريق بعكازه كي لا يصطدم بدرجات المصطبة الثلاث. بقيت البيغاء دون حراك. وكانت تقف على ارتفاع منخفض جدا، لدرجة انه مد لها العكاز لتقف على قبضته الفضية، كما تفعل عادة، لكن البيغاء اعرضت عنها. قفزت الى غصن مجاور، اعلى قليلا لكن الوصول اليه اسهل، حيث كان السلم الخاص بالبيت مسندا قبل مجيء رجال الاطفاء. قدّر الدكتور

اوربينو الارتفاع ، وفكر انه بارتقاء عارضتين من عوارض السلم سيتمكن من الامساك بها .
صعد الدرجة الاولى ، مغنيا اغنية يعرفها كلاهما ليشتت انتباه الطائر الفظ الذي كان يكرر
الكلمات دون الموسيقى ويتعد على الغصن بحركات جانبية . صعد العارضة الثانية دون
مشقة وهو يمسك السلم بكلتا يديه ، وبدأت البيغاء بترديد الاغنية كاملة دون ان تبدل
مكانها . ارتقى العارضة الثالثة ، ثم الرابعة في الحال ، اذ انه اساء تقدير ارتفاع الغصن ،
وحيث تشبث بيده اليسرى بالسلم وحاول امساك البيغاء باليمنى . كانت ديغنا باردو،
الخادمة العجوز قادمة لتنبيهه الى انه يكاد يتأخر عن موعد الجنائز ، فرأت ظهر الرجل
الصاعد على السلم ، ولم تكن لتصدق انه هولولا الخطوط الخضراء التي على حمالة البنطال
المطاطية .

صرخت :

- يا ربنا انقذنا ! سيقتل نفسه ! .

امسك الدكتور اوربينو بعنق البيغاء وهو يتهد ظافرا : انتهى الامر ، لكنه افلتها فورا ،
لان السلم انزلق تحت قدميه وبقي هو معلقا لبرهة في الهواء ، فادرك حيثذ انه قد مات دون
قربان رباني ، ودون ان يتاح له الوقت ليندم على شيء اوليودع ايا كان ، في الساعة الرابعة
وسبع دقائق من مساء يوم احد العنصرة .

كانت فيرمينا داثا في المطبخ تتذوق حساء العشاء ، عندما سمعت صرخة الرعب التي
اطلقتها ديغنا باردو وجلبه خدم البيت ثم خدم البيوت المجاورة . القت بملعة التذوق
وحاولت الركض بقدر ما استطاعت مع ثقل سنبا الذي لا سبيل الى هزيمته ، صارخة
كمجنونة ، دون ان تعرف حتى الان حقيقة ما جرى تحت اوراق شجرة المانغا ، وقفز قلبها
مفتتا عندما رأت رجلها مطروحا على ظهره في الوحل ، ميتا في الحياة ، لكنه ما زال يقاوم
ضربة الموت الاخيرة ريثما تصل هي . تمكن من التعرف عليها وسط الحشد ومن خلال دموع
الالم التي لا تتكرر لموته من دونها ، وتطلع اليها لآخر مرة والى الابد بعينين اشد بريقا ، واكثر
حزنا ، واعظم امتنانا مما رآته طوال نصف قرن من الحياة المشتركة ، واستطاع ان يقول لها مع
النفس الاخير :

- الله وحده يعلم كم احببتك .

كانت ميتة مشهودة ، وليس ذلك من فراغ ، فما ان انهى دراسته التخصصية في فرنسا ،
حتى ذاع صيت الدكتور خوفينال اوربينو في البلاد بانه من درأ مسبقا ، باساليب مستحدثة
وصارمة ، اخطار جائحة الكوليرا الاخيرة التي تعرض لها الاقليم . فالجائحة السابقة ، التي
جاءت وهو ما يزال في اوروبا ، تسببت في موت ربع عدد السكان على الاقل خلال ثلاثة

شهور، بما في ذلك ابوه، الذي كان طبيبا بارزا ايضا. بهذه الشهرة السريعة وباعانة من الارث العائلي، اسس المؤسسة الطبية، وهي المؤسسة الاولى والوحيدة في اقاليم الكاريبي لسنوات طويلة، وكان رئيسا لها مدى الحياة، ثم انشأ اول تمديدات لمياه الشرب بعد ذلك، واول نظام للصرف، ودعا لاقامة السوق العام المسقوف الذي جعل شاطئ لاس اينهاس صحيا بعد ان كان مجمعا للتلثاثة. كما كان رئيسا لأكاديمية اللغة وأكاديمية التاريخ. وقد نصبه بطريك القدس فارسا من مرتبة سانتوسيولكرو لخدماته التي قدمها للكنيسة، ومنحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف من مرتبة فارس. كما كان محركا فعالا في جميع الجمعيات الدينية والمدنية التي اقيمت في المدينة، وخصوصا الجمعية الوطنية، المؤلفة من مواطنين مؤثرين ليست لديهم طموحات سياسية، يمارسون نفوذهم على الحكومات والتجارة المحلية بافكار متشورة تتسم بالجرأة بالمقارنة مع الظرف التاريخي. من هذه الافكار، واكثرها جدارة بالذكر، كانت تجربة منطاد حمل في طيرانه الاول رسالة الى بلدة سان خوان دي لاثيناغا، قبل زمن طويل من التفكير بالبريد الجوي كوسيلة عقلانية، ومن افكاره ايضا اقامة المركز الفني، الذي اسس مدرسة الفنون الجميلة في المبنى ذاته الذي ما زالت تحتله حتى الان، كما رعى طوال سنوات عديدة مهرجان الزهور في نيسان.

وهو وحده تمكن من تحقيق ما اعتبر مستحيلا خلال قرن من الزمن: اعادة افتتاح مسرح الكوميدي، الذي تحول الى ملعب لصراع الديكة ومربي ديوك منذ العهد الاستعماري. كان ذلك تنويعا لحملة مدنية استعراضية شاركت بها جميع قطاعات المدينة بلا استثناء، في تحرك حاشد اعتبره الكثيرون جديرا بقضية اهم. ومع ذلك، فقد جرى افتتاح مسرح الكوميدي في الوقت الذي لم تكن توجد فيه مقاعد ولا مصابيح، وكان على الحضور ان يجلبوا معهم ما يجلسون عليه وما يستضيئون به في الاستراحات بين الفصول. وفرضت آداب الاتيكيت القائمة في اعظم مسارح اوروبا، حيث انتهزت سيدات المجتمع الراقي الفرصة لعرض فساتينهن الطويلة ومعاطف الفراء في حر الكاريبي الخانق، انما كان لا بد من السماح للخدم بالدخول ليحملوا المقاعد والمصابيح، وكذلك بعض الاطعمة التي كانوا يرون انها ضرورية لاحتفال البرامج الطويلة التي لا تنتهي، والتي استمر احدها حتى ساعة صلاة الفجر الاولى. وافتتح الموسم بفرقة اوبرا فرنسية كان الجديد لديها استخدام قيثار في الاوركسترا، وكان مجدها التليد في الصوت النقي والموهبة الدرامية لمغنية تركية تغني وهي حافية وتضع خواتم ذات احجار كريمة في اصابع قدميها. ومنذ الفصل الاول لم تعد مرثية تقريبا وفقد المغنون اصواتهم بفعل الدخان المنطلق من مصابيح زيت الكوروثو، لكن كتبة وقائع المدينة اهتموا بمحو هذه العوائق الصغيرة وتعظيم ما هو جدير بالذكر. وقد كانت هذه دون شك

اكثر مبادرات الدكتور اوربينو انتشارا، اذ انتقلت عدوى حمى الاوبرا الى قطاعات في المدينة لا تحظر على بال، وكانت منطلقا لجيل كامل من الاسوليدات والعطيلين، ومن العايدات والسيجفريدين^(١)، لكن ذلك كله لم يصل الى الحد الذي تمناه الدكتور اوربينو، الا وهو رؤية نصار الموسيقى الايطالية وانصار فاغنر يواجهون بعضهم بعضا بالعكاكيز اثناء لاستراحات.

لم يقبل الدكتور اوربينو مطلقا اي منصب رسمي من المناصب التي كثيرا ما كانت تعرض عليه دون شروط، وكان ناقدًا قاسيا للاطباء الذين يستغلون سمعتهم المهنية ليرتقوا المناصب السياسية. ورغم انه اعتبر ليبراليا دوما، واعتاد على التصويت في الانتخابات لمرشحي هذا الحزب، فربما كان كذلك اخر ابناء الاسر الكبيرة الذي يركع في الشارع لدى مرور مركبة الاسقف. وكان يعرف نفسه كنصير طبيعي للسلام، ونصير للصالح النهائي بين الليبراليين والمحافظين من اجل مصلحة الوطن. لكن سلوكه العام كان ذاتيا لدرجة ان احدا لم يعتبره مواليا له: فالليبراليون يرون فيه قوطيا من قوطي الكهوف، والمحافظون يقولون ان ما ينقصه هو ان يكون ماسونيا فقط، ويتعد عنه الماسونيون باعتباره كاهنا متخفيا يعمل في خدمة الكرسي البابوي. واقل نقاده دموية كانوا يفكرون بانه ليس سوى ارستقراطي غارق في ملذات العايد الزهور، فيما الأمة تنزف في حرب اهلية لا تنتهي.

عملان وحيدان قام بهما فقط وبديا غير منسجمين مع هذه الصورة. الاول هو انتقاله الى بيت جديد في حي محدثي الثراء، بدلا من قصر الماركيز دي كاسالديرو والقديم، والذي كان بيت العائلة لاكثر من قرن. والعمل الاخر هو زواجه من آية جمال شعبية، بلا القاب ولا ثروة، تلك التي كانت تسخر منها سرا السيدات ذوات الإلقاب الطويلة الى ان اقتنعن بالقوة انها قادرة على اللف بهن سبع لفات برشاقتها وطبعها. وقد كان الدكتور اوربينو يضع في اعتباره دوما هذه العثرات وغيرها مما يحيط بصورته العامة، ولم يكن هناك من هو اكثر منه وعيا لحالته كآخر رجل من ابناء لقب آخذ في الانقراض. فابناه كانا نهاية سلالة لا بصيص امل لها في الاستمرار، ابنه الذكر، ماركو اوريليو، طبيب مثله ومثل كل اسلافه في كل جيل، لم يفعل شيئا يستحق الذكر، حتى انه لم ينجب ابنا، رغم تجاوزه الخمسين من العمر. واوفيليا، ابنته لوحيدة، متزوجة من موظف مرموق في مصرف بينو اورليانز، وقد بلغت سن اليأس ولم تنجب سوى ثلاث بنات دون اي مولود ذكر. مع ذلك، ورغم ان انقطاع رحمه في ينبوع التاريخ كان يسبب له الاسى، فان اكثر ما كان يقلقل الدكتور اوربينو من الموت هو الحياة

(١) صيغة جمع لاسماء: اسولدة، عطيل، عايدة، سيجفريدو، وهي شخصيات درامية مشهورة.

المتوحدة التي ستعيشها فيرمينا دائما بدونه .

لقد اثارت المأساة على كل حال قلقا ، ليس بين ذويه فحسب ، بل انها انتقلت بالعدوى الى عامة الشعب ، الذي خرج الى الشوارع على امل التعرف ولو على بريق الاسطورة . اعلنت ثلاثة ايام من الحداد ، ونكست الاعلام على الدوائر العامة ، وقرعت نواقيس جميع الكنائس دون توقف الى ان ختم الضريح في مدفن العائلة . وقامت مدرسة الفنون الجميلة بطبع وجه الجثة لاستخدامها كقالب لتمثال نصفي بالحجم الطبيعي ، ولكن تم التخلي عن المشروع لان احدا لم يرتق طابع الوجه امينة بعد التحول الذي اصابه اثر رعب اللحظة الاخيرة ، ثم رسم فنان شهير مر من هنا مصادفة ، وهو في طريقه الى اوروبا ، لوحة زيتية ضخمة بواقعية مؤثرة ، يظهر فيها الدكتور اوربينو متسلقا السلم في اللحظة القاتلة التي مد فيها يده للامساك بالبيغاء . والشيء الوحيد الذي كان يناقض الحقيقة الخام في القصة هو انه لم يكن يرتدي في اللوحة قميصه الذي بلا ياقة وحملتي السروال المخططتين بالاخضر ، وانما القبعة المدورة والسترة السوداء المأخوذة عن صورة منشورة في الصحف خلال سنوات الكوليرا . وقد عرضت هذه اللوحة بعد شهر قليلة من المأساة كي يراها الجميع بلا استثناء ، في صالة السلك الذهبي الفسيحة ، وهي دكان لبيع المواد المستوردة يؤمها سكان المدينة بأسرها . بعد ذلك علقت على جدران عدد من المؤسسات العامة والخاصة التي رأت انه من الواجب تقديم فروض الاحترام للذكرى نبيل شهير ، ونقلت اخيرا في جنازة ثانية لتعلق في مدرسة الفنون الجميلة ، حيث اخرجها من هناك بعد سنوات طويلة طلاب الرسم بالذات لاحراقها في ساحة الجامعة كرمز لجمالية وازمنة مكروهة .

منذ اللحظة الاولى في حياتها كأرملة ، بدا ان فيرمينا دائما ليست بائسة كما خشي زوجها . فقد اتخذت موقفا متصلبا بالاصرار على عدم السماح باستخدام الجثة في سبيل اية قضية ، كما اتخذت موقفا عاثلا من برقية رئيس الجمهورية ، الذي امر بعرض الجثمان في الحجرة الخائقة في صالة الاحتفالات التابعة للسلطة المحلية ، وعارضت بنفس الصرامة ان يجري السهر على الجثمان في الكندرائية ، كما طالب الاسقف شخصا ، ووافقت على نقله الى هناك خلال قداس الجسد الحاضر في المراسم الجنائزية . ورغم توسط ابنها ، المذهول لكثرة هذه المطالب وتنوعها ، حافظت فيرمينا دائما باصرار على فكرتها الريفية القائلة بان الموتى لا ينتمون الى احد سوى عائلاتهم ، وبانه سيجري السهر على الجثة في البيت مع تقديم القهوة المرة وكعك الجبن والدقيق ، وافساح المجال لكل من يشاء لان يبكيه كما يرغب . لم يجر السهر التقليدي الذي يدوم سبع ليال ، بل اغلقت الابواب بعد الدفن ولم تعد تفتح الا لزيارات حميمة .

وضع البيت تحت نظام الموت . كل شيء ذي قيمة نقل الى مكان آمن ، ولم يبق على الجدران العارية سوى اثار الصور المنزوعة من مكانها . وصفت الكراسي الخاصة وتلك المستعارة من الجيران بمحاذاة الجدران في الصالة ، وحتى في غرف النوم ، ويدت المساحات الفارغة فسيحة جدا ، وكان للاصوات رنين خاص ، لان قطع الاثاث الكبيرة قد ابعدت ، ما عدا بيانو الكونشيرتو القابع في ركنه تحت شرشف ابيض . وفي وسط المكتبة ، فوق طاولة والده ، كان ممددا في التابوت من كان خوفينال اوربينودي لاكايي ، وقد تصلبت على وجهه حالة الرعب الاخيرة التي احسها ، ومعه في التابوت العباءة السوداء وسيف فرسان سانتو سيبولكرو الحربي . بينما فيرمينا داثا الى جانبه ، مرتعشة ولكن مسيطرة على نفسها تماما ، تتلقى التعازي بلا دراماتيكية ، ودون ان تتحرك تقريبا ، حتى الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالي ، عندما ودعت زوجها من الرواق الخارجي قائلة له وداعا بمنديل في يدها .

لم يكن من السهل عليها ان تتهاون هكذا منذ سمعت صرخة ديغنا باردو في الفناء ، ووجدت شيخ حياتها يحتضر في الوحل ، وقد كانت ردة فعلها الاولى مشبعة بالامل ، لان عينيه كانتا مفتوحتين وفيهما بريق ضوء مشع لم تره في حدقتيه ابدا من قبل . رجت الله ان يمنحه لحظة من الحياة على الاقل ، كي لا يمضي دون ان يعرف كم احبته فوق شكوكهما كليهما ، واحست باستعجال لا يقاوم للبدء معه بالحياة ثانية منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله ، ولتفعل على احسن وجه كل شيء كانت قد اساءت صنعه في الماضي . ولكنها اضطرت للاستسلام امام عناد الموت ، لقد تحلل المها الى غضب اعمى ضد العالم ، بل وضد نفسها بالذات ، وهذا ما رسخ سيطرتها على نفسها ومنحها الشجاعة لمواجهة العزلة منفردة . لم تجد هدنة منذ ذلك الحين ، لكنها حازت من الاتيان باية حركة قد يبدو فيها ما ينم عن المها . واللحظة الوحيدة التي احست فيها بشيء من التأثير ، وكان تأثرا لا إراديا ، كانت في الساعة الحادية عشرة من ليل الاحد ، عندما حملوا التابوت الذي ما زالت تنبعث منه روائح كروائح السفن ، بمقابضه النحاسية وتنجيده الحريري الوثير . لقد امر الدكتور اوربينوداثا باغلاقه فورا ، فجوالبيت كان مخلصا بروائح كل تلك الزهور في الحر الخائق ، واحس بانه قد رأى اول الظلال البنفسجية على عتق ابيه . وفيما هي ساهية ، سمعت في الصمت : « ان المرء ليصبح شبه متعفن وهو خفي في مثل هذه السن » . وقبل ان يغلقوا التابوت ، نزع فيرمينا داثا خاتم الزواج من يدها ووضعت في يد زوجها الميت ، ثم غطت يده بيدها كما كانت تفعل دائما كلما فاجأته شاردة وسط الناس . وقالت له :

- سنلتقي قريبا جدا .

احس فلورينتينوارثا، المختفي بين جموع الوجهاء والاعيان، بحربة تخترق خاصرته، لم تكن فيرمينا دائما قد ميزته وسط صخب التعزيات الاولى، مع ان احدا لم يكن اكثر حضورا ولا اكثر فائدة منه في شؤون تلك الليلة المستعجلة. فهو الذي نظم العمل في المطابخ الخاصة حتى لا تنقص القهوة. وحصل على كراس اضافية عندما لم تعد كراسي الجيران كافية، وامر بوضع الاكالييل الزائدة في الفناء عندما لم يعد في البيت متسع لأكليل آخر. وتولى امر عدم انقطاع البراندي من اجل ضيوف الدكتور لاثيريس اوليفيا، الذين علموا بالخبر المشؤوم وهم في اوج الاحتفال باليوبيل الفضي، فجاءوا فزعين ليتابعوا احتفالهم وهم جالسون على شكل دائرة تحت شجرة المانغا. وكان هو وحده من احسن التصرف حين ظهرت البيغاء الهاربة عند منتصف الليل في صالة الطعام رافعة رأسها وفاتحة جناحيها، مما اشاع قشعريرة ذهول في البيت، اذ كانت تبدو وكأنها تقدم عرض توبة وتكفير. امسكها فلورينتينوارثا من عنقها دون ان يتيح لها الوقت لتصرخ بأي من صرخاتها الحمقاء، وحملها الى الاصطبل في قفص مغطى. لقد فعل كل تلك الامور بصمت كامل وفعالية فائقة، لم تتيحها مجالا لاحد كي يفكر بان ما يفعله هو تدخل في شؤون الآخرين، وانما مساعدة لا تشمن في ساعة الشؤم التي يمر بها البيت.

كان يبدو عليه انه شيخ هرم خديم وجدي. جسده عظمي ومعتدل، بشرته بنية ومرداء، وعيناه شرهتان تطلان من وراء النظارة المستديرة ذات الاطار المعدني الابيض، له شارب رومني طرفاه المديبان مثبتان بمادة مثبتة، بطريقة متخلفة بعض الشيء عن العصر. وكان اخر ما تبقى له من الشعر على الصدغين مسرحا الى اعلى ومثبتا بمثبت شعر في وسط رأسه اللامع، كحل اخير لصلعة متكاملة. ان مروءته الطبيعية واساليبه الهادئة تسلب اللب في الحال، ولكن كان هناك امران يثيران الشكوك في عازب متباد في عزوبيته: لقد انفق مالا كثيرا، وحيلة واسعة وتصميمها شديدا كي لا تظهر اثار السنوات الست والسبعين التي اتمها في شهر اذار الاخير، وكان مقتنعا في عزلة روحه بانه قد احب بصمت اكثر بكثير من اي كان في هذا العالم.

في ليلة موت الدكتور اوريننو كان يرتدي الملابس التي كانت عليه عندما فاجاه الخبر، وقد كانت نفس الملابس التي يرتديها دائما بالرغم من حرجيزان الجهنمي: بدلة من القماش الاسود مع صدرية، وشريط حريري معقود على الياقة القاسية، وقبعة من اللبد، ومظلة من مخمل اسود كان يستخدمها كعكاز ايضا. ولكن ما ان بدأ الفجر ينبلج حتى اختفى من مكان السهر على الميت لمدة ساعتين، عاد بعدهما مع اول اشعة الشمس بمظهر طازج، فقد حلق ذقنه جيدا وتطيب بمستحضرات تجميل، وارتنى سترة سوداء من تلك التي لم تعد تستخدم

الا في الجنازات اوفي مراسم الاحتفال بالجمعة الحزينة ، وياقة ذات ربطة عنق مع شريطة الفنان بدلا من الكرافقة ، وقبعة مستديرة . كما كان يحمل المظلة ، وليس ذلك بفعل العادة وحدها ، وانما لانه كان متأكدا من ان المطر سيهطل قبل الثانية عشرة ، وقد اخبر بذلك الدكتور اورينودا ليرى ان كان بالامكان تقديم موعد الدفن ، وحاولوا ذلك فعلا ، لان فلورينتينو ارثا ينتمي الى عائلة ملاحين وهو نفسه يرأس شركة الكرايبي للملاحة النهرية ، مما يسمح بالافتراض انه يفهم بالارصاد الجوية . لكنهم لم يتمكنوا من اخطار السلطات المدنية والعسكرية في الوقت المناسب ، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة ، والفرقة الموسيقية الحربية وفرقة موسيقى الفنون الجميلة ، والمدارس والجمعيات الدينية التي كانت متفقة على الساعة الحادية عشرة ، وهكذا فان الجنازة التي كان مقررا لها ان تكون حدثا تاريخيا انتهت شذرمذربفعل وابل المطر المدمر . وكان قليلا عدد الذين تمكنوا من الغوص في الوحل للوصول الى مدفن العائلة الذي تظله شجرة ثيبيا استعمارية تمتد ايكتها الى ما فوق جدار المقبرة . وتحت هذه الايكة بالذات ، انما في المنطقة الخارجية المخصصة للمتحرين ، كان لاجثو الكاريبي قد دفنوا في عصر اليوم السابق جيرميا دي سانت - آمور ، وكلبه بجواره ، تنفيذا لمشيئته .

كان فلورينتينو ارثا احد القلائل الذين واصلوا حين الانتهاء من الدفن . لقد ابتلت حتى ملابسه الداخلية ، ووصل الى بيته مذعورا من تعرضه للاصابة بنزلة صدرية بعد كل هذه السنوات من الرعاية الدقيقة والاحتياطات المفرطة . اعد لنفسه ليمونادة دافئة مع قليل من البراندي ، وتناولها في السرير مع قرصين من الاسبرين وتعرق عرقا غزيرا وهو متدثر بحرام صوفي الى ان استعاد جسده حرارته العادية . وعندما رجع الى بيت العزاء احس بالحساس الكامل . كانت فيرمينا دائما قد تولت من جديدة قيادة البيت المكنوس والمهيا لاستقبال المعزين ، وكانت قد وضعت على المذبح الذي في المكتبة صورة لزوجها الميت مرسومة بالباستل ، وعلى اطارها شريط حداد . في الساعة الثامنة كان هناك حشد كبير من الناس وكان الحر خانقا كما في الليلة السابقة ، ولكن بعد قداس الصباح بث احدثهم رجاء يطلب الى الناس الانصراف باكرا كي تستريح الارملة للمرة الاولى منذ عصريوم الاحد . ودعت فيرمينا دائما معظم المعزين وهي الى جانب المذبح ، لكنها رافقت المجموعة الاخيرة من الاصدقاء الحميمين حتى الباب الخارجي ، لتغلقه بنفسها ، كما اعتادت ان تفعل دائما ، وكانت تستعد لعمل ذلك باخر نفس متبق في صدرها عندما رأت فلورينتينو ارثا مرتديا ملابس الحداد في وسط الصالة الخاوية . احست بالسعادة ، لانها كانت قد محته من

حياتها منذ سنوات طويلة ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي تراه فيها بوعي طهره النسيان . ولكن قبل ان تتمكن من شكره لهذه الزيارة ، وضع قبعته فوق موضع القديس ، وشق الدم الذي كان قوام حياته ، بان قال لها بصوت مرتعش ووقور :

- فيرمينا . . لقد انتظرت هذه الفرصة لاكثر من نصف قرن ، لاكرلك مرة اخرى قسم وفائي الابدي وحيي الدائم .

ظنت فيرمينا داثا انها تقف امام معبوه ، ولم تكن لديها الاسباب لفكر بان فلوريتينو اريثا كان ملهما في تلك اللحظة بنعمة الروح القدس . وكان رد فعلها الاول ان لعنته لانتهاك حرمة البيت فيما جثة زوجها ما زالت ساخنة في القبر . لكن الوقار منعها من الغضب ، فقالت له : «انصرف . ولا تدعني اراك ثانية في السنوات المتبقية لك في الحياة» ثم اعادت فتح الباب الخارجي على اتساعه بعد ان كانت قد بدأت باغلاقه ، واختتمت قائلة :

- وارجو ان تكون سنوات قليلة .

عندما سمعت خطواته تنطفئ في الشارع المقفر ، اغلقت الباب ببطء شديد ، واقلته بالقفل والرتاجات ، وواجهت قدرها وحيدة ، لم تكن تعي تماما ، حتى اليوم ، وزن وحجم المأساة التي اثارها وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، والتي ستلاحقها حتى موتها . بكت لأول مرة منذ مساء المصيبة ، دون شهود ، وكانت هذه هي طريقته الوحيدة في البكاء . بكت لموت زوجها ، لعزلتها وغضبها ، وعندما دخلت مخدعها الخاوي بكت نفسها ، لانها لم تنم في هذا الفراش وحيدة منذ فقدت عذريتها الا مرات قليلة . كل اشياء زوجها كانت تستثير بكاءها : الخلف ذو الشراية ، البيجاما التي تحت الوسادة ، مكانه الفارغ في خزان الزينة ، رائحته الشخصية على بشرتها بالذات ، وهزها بخاطر مبهم : «على الناس اللذين يحبهم المرء ان يموتوا مع كل اشياهم» . لم تكن بحاجة لمساعدة احد كي تنام ، ولم ترغب باكل شيء قبل النوم . ورجت الله ، وهي مثقلة بالاسى ، ان يبعث لها المسوت في هذه الليلة بالذات وهي نائمة ، وعلى هذا الامل نامت . نامت دون ان تدري بانها نائمة ، لكنها كانت تدري انها حية في نومها ، وان لديها نصف سرير فائض عن حاجتها ، وانها ترقد على جنبها في الطرف الايسر ، كما هي عاداتها ، انها ينقصها توازن الجسد الاخر على الطرف المقابل من السرير . وفيما هي نائمة تفكر ، فكرت بانها لن تستطيع النوم ابدا بهذا الحال ، وبدأت تنتحب وهي نائمة ، ونامت متحبة دون ان تغير وضعها على حافة السرير ، الى ما بعد انتهاء صباح الديكة بكثير . وايقظتها شمس الصباح غير المرغوبة من دونه . وحينئذ فقط ادركت بانها قد

نامت طويلا دون ان تموت ، متحبة في الحلم ، وفيها هي تنام متحبة كانت تفكر بفلوريتينو
ارثا اكثر من تفكيرها بزوجها الميت .

اما فلورنتينواريثا فلم يتوقف عن التفكير بفيرمينا داثا للحظة واحدة منذ أن رفضته بلا استئناف إثر غراميات طويلة متناقضة ، وقد انقضت منذ ذلك الحين احدى وخمسون سنة وتسعة شهور وأربعة أيام . لم يكن عليه حمل حساب النسيان بوضع خط صغير يومي على جدران زنزانه ، لانه لم يكن يمر يوم إلا ويحدث شيء يذكره بها . كان له من العمر عند القطيعة اثنتان وعشرون سنة وكان يعيش وحيداً مع أمه ، ترانسيتواريثا ، في نصف بيت مُستأجر في شارع لاس بيتاناس ، حيث كانت لامه منذ سنوات شبابه تجارة خردوات وحيث كانت تنسل كذلك نسيج قمصان ومزق قماشية قديمة لتبيعها كقطن لجرحى الحرب ، وكان هو ابنها الوحيد ، انجبتة من لقاء عابر مع صاحب السفن المعروف دون بيوالخامس لوايثا ، أكبر الاشقاء الثلاثة الذين اسسوا شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، مقدمين بذلك دفعة جديدة للملاحة البخارية في نهر مجدلينا .

لقد مات دون بيوالخامس لوايثا عندما كان ابنه في العاشرة من العمر . ورغم انه كان يتولى دوماً أمر نفقاته سراً ، فانه لم يعترف به أبداً كابن له أمام القانون ، ولم يترك له ما يضمن مستقبله ، وهكذا بقي فلوريتينواريثا يحمل لقب امه فقط ، مع ان حقيقة نسبه كانت معروفة للجميع . وبعد موت الوالد ، كان على فلوريتينواريثا ان يترك المدرسة ليكمل كمتبرن في وكالة البريد ، حيث كانوا يكلفونه بفتح الأكياس وترتيب الرسائل ، وإعلام الجمهور بوصول البريد عن طريق رفع راية البلد المرسل فوق باب المكتب .

ولقد لفتت حصافته انتباه عامل التلغراف ، المهاجر الألماني لوتاريوتوغوت ، الذي كان يعزف الارغن أيضاً في حفلات الكندرائية الكبيرة ويعطي دروساً في الموسيقى في البيوت . وعلمه لوتاريوتوغوت منهاج رموز المورس وطريقة استخدام جهاز التلغراف ، وكانت دروس الكمان الأولى كافية ليتابع فلوريتينواريثا العزف السماعي كمحترف . عندما تعرف على

فيرميناً دائماً، وهو في الثامنة عشرة من عمره، كان أكثر الشبان شهرة في وسطه الاجتماعي، فهو أفضل من يرقص على انغام الموسيقى الدارجة ويلقي القصائد العاطفية التي يحفظها عن ظهر قلب، كما كان دوماً رهن طلب اصدقائه الذين يريدون من يعزف لهم سيرناد كما كان منفرد تحت شرفات خطيباتهم. كان نحيلاً منذ ذلك الحين، له شعر هندي يبسطه بمرهم ذي رائحة، ويضع نظارة قصر النظر التي تضاعف من حدة مظهره المخدول. وازدانة إلى قصر النظر، كان يعاني من امساك مزمن اضطره إلى استخدام الحقن الشرجية المليئة طوال حياته. كانت لديه بذلة احتفالية واحدة، ورثها عن ابيه المتوفى، لكن ترانسيستواريثا كانت تحافظ عليها جيداً بحيث تبدو جديدة في كل يوم أحد. وبالرغم من هزاله، وعزلته، وطريقة لبسه الكثيفة، فان فتيات مجموعته كن يضربن قرعة سرية ليلعبن لعبة البقاء معه، وكان هو نفسه يلعب ليبقى معهن، حتى اليوم الذي تعرف فيه على فيرمينيا دائماً وانتهت براءته.

لقد رآها للمرة الأولى في عصر يوم كلفه فيه لوتاريو توغوت بايصال برقية إلى شخص بلا عنوان واضح اسمه لوريتشودا، وجده في منطقة حديقة البشارة، في واحد من أقدم البيوت، شبه مهدم، وفناؤه الداخلي يبدو كفناء دير، فيه شجيرات كثيفة في الاجزاء المزروعة ونافورة حجرية بلا ماء. لم يشعر فلوريتينو اريثا بأي صوت ادمي وهويتبع الخادمة الحافية تحت قناطر الممر، حيث كانت توجد صناديق امتعة لم تفتح بعد، ومواد بناء بين بقايا الجص والاسمنت المتراكم، لقد كانوا يقومون باصلاح شامل للبيت. وفي نهاية الممر كانت توجد غرفة مكتب مؤقت، حيث كان ينام القيلولة وهو جالس وراء الطاولة رجل بدين جداً له سوارف طويلة مجمعة تختلط بشاربيه. وكان اسمه فعلاً لوريتشودا، ولم يكن معروفاً تماماً في المدينة لانه وصلها منذ أقل من سنتين، ولم يكن رجلاً ذا صداقات كثيرة.

تلقى البرقية كما لو انها استمرار لحلم مشؤوم، ولاحظ فلوريتينو اريثا العينين الزرقاوين الضاربتين إلى السواد بنوع من الشفقة الرسمية، والاصابع المرتعشة تحاول تفتيت شمع الختم، وخوف القلب الذي رآه مرات كثيرة على وجوه الذين يتلقون البرقيات ممن لم يعتادوا بعد على التفكير بالبرقيات دون ان يربطوها بالموت. عندما قرأها استعاد السيطرة على نفسه. تنهد: «أخبار حسنة». ومنح فلوريتينو اريثا خمس ريبالات، موضعاً له بابتسامة مطمئنة انه ما كان سيعطيه النقود لو ان الاخبار كانت سيئة. ثم ودعه مصافحاً، وهي ليست عادة شائعة في معاملة موزع البرقيات، ورافقته الخادمة حتى الباب المؤدي إلى الشارع، ليس ذلك لارشاده بقدر ما هو لمراقبته. سارا في نفس الطريق باتجاه معاكس عبر الممر المقنطر، لكن فلوريتينو اريثا أدرك هذه المرة بان هناك أحداً في البيت، لان ضوء البهو كان مفعماً

بصوت امرأة تردد درس قراءة، ولدى مروره مقابل حجرة الخياطة رأى عبر النافذة امرأة مسنة وصبية، تجلسان على مقعدين متجاورين، وكلاهما تتابعان القراءة في الكتاب ذاته الذي تحمله المرأة مفتوحاً في حضنها. بداله الأمر كرؤيا غريبة: الابنة تعلم أمها. كان تقديره خاطئاً جزئياً، لأن المرأة هي عمة الصبية وليست أمها، رغم أنها ربتها كما لو كانت أمها. لم يتوقف الدرس، لكن الصبية رفعت نظرها لترى من الذي يمر عبر النافذة، وكانت هذه النظرة العابرة أصل كارثة حب لم تنته بعد مرور نصف قرن من الزمان.

الشيء الوحيد الذي استطاع فلوريتينو أريثا أن يتحراه عن لوريتشودا هو أنه قدم من سان خوان دي لا ثيناغوا مع ابنته الوحيدة وشقيقته العزباء بعد فترة قصيرة من جائحة الكوليرا، والذين راوه ينزل إلى البر لم يراودهم الشك بأنه قد جاء ليقيم، إذ كان يحضر معه كل ما يحتاجه بيت حسن التجهيز. كانت زوجته قد توفيت فيما ابنته لا تزال طفلة صغيرة. واسم اخته اسكولاستيكا، ولها من العمر أربعين سنة وهي تفي نذراً بلبس مسوح القديس سان فرانثيسكو عند خروجها إلى الشارع، وتكتفي بربط حبل الطائفة على خصرها فقط حين تكون في البيت. أما الصبية فعملها ثلاث عشرة سنة وتدعى باسم أمها الميته نفسه: فيرمينا.

كان يُفترض أن لوريتشودا رجل ذو موارد، لأنه يعيش في بحبوحة دون ممارسة مهنة معروفة، وقد اشترى نقداً بيت البشارة غير المكتمل، والذي كان إصلاحه يتطلب على الأقل ضعف المائتي بيزو ذهبية التي دفعها ثمناً له. وكانت الابنة تدرس في مدرسة ظهور العذراء المقدسة، حيث كانت تتعلم أنسات المجتمع الراقى منذ قرون فن ومهنة التحول إلى زوجات مدبرات ومطيعات. في العهد الاستعماري وخلال السنوات الجمهورية الأولى كانوا لا يقبلون في المدرسة إلا وراثت الألقاب الكبيرة فقط. ثم اضطرت العائلات القديمة المنهارة بفعل الاستقلال إلى الخضوع لوقائع الأزمنة الجديدة ففتحت المدرسة أبوابها لجميع المتقدمات اللواتي يستطعن دفع نفقاتها، دون الاهتمام بانسابهن، والشرط الوحيد الجوهرى الذي بقي قائماً هو أن يكن بنات شرعيات لزواج كاثوليكي. لقد كانت مدرسة غالية التكاليف على أية حال، وبمجرد كون فيرمينا دائماً تدرس هناك هو بعد ذاته مؤشر على الوضع المادي للعائلة، وإن لم يكن مؤشراً على وضعها الاجتماعي. لقد شجعت هذه الأخبار فلوريتينو أريثا، إذ أوضحت له أن الصبية الجميلة ذات العينين اللوزيتين كانت في متناول أحلامه. ولكن سرعان ما ظهر نظام أبيها الصارم كعائق لا سبيل إلى تجاوزه. فعلى العكس من التلميذات الأخريات، اللواتي كن يذهبن إلى المدرسة في مجموعات أو برفقة خادمة متقدمة في السن، كانت فيرمينا دائماً تمضي دوماً مع عمتها العزباء، وكان سلوكها يشير إلى

انه ليس مسموحاً لها بأي نوع من اللهو.

وهكذا كان أن بدأ فلوريتينو اريثا حياته الصامتة بقلب مكبوت . كان يجلس منذ الساعة السابعة صباحاً وحيداً على اقل مقاعد الحديقة ظهوراً للعيان ، متظاهراً بقراءة ديوان شعر في ظل أشجار اللوز، إلى ان يرى مرور الصبية المستحيلة بزياً المدرسي ذي الخطوط الزرقاء، وجرباها ذي الرباط الذي يصل حتى الركبتين، وحذائها الرجالي برياطه المتقاطع، وبضفيرة وحيدة ثخينة مربوطة في طرفها بشريط ومتدلية على الظهر حتى خصرها . كانت تمشي بكبرياء طبيعي ، رأسها مرفوع ، ونظرها ثابت ، وخطوتها سريعة ، وانفها شامخ ، وحقيقية كتبها المدرسية مضغوطة بيديها المتصالبتين على صدرها ، وبمشية غزالة تجعلها تبدو محصنة على الرصانة . وإلى جانبها ، تمضي شادة خطواتها بصعوبة ، عمتها بمسوحها البني وحزام طائفة سان فرانسيسكو، بحيث لا تترك ادنى ثغرة للاقتراب . كان فلوريتينو اريثا يراها تمران في الذهاب والاياب أربع مرات في اليوم ، ومرة واحدة أيام الاحاد عند الخروج من القديس الكبير ، وكانت رؤية الصبية تكفيه . شيئاً فشيئاً ، أخذ يرسم لها في مخيلته صورة مثالية ، يشاعر خيالية ، وبعد مرور اسبوعين لم يعد يفكر بأي شيء سواها . وهكذا فكر بان يبحث لها رسالة مكتوبة على ورقة بخطه الرائع كخطاط . لكنه احتفظ بها عدة أيام في جيبه ، مفكراً بطريقة لتسليمها اليها ، وفيما هو يفكر كان يكتب عدة ورقات جديدة قبل ان ينام ، بحيث أخذت الرسالة الاصلية تتحول إلى معجم في الغزل المتأثر بالكتب التي حفظها غيباً لكثرة ما قرأها وهو ينتظر في الحديقة .

وفي بحثه عن وسيلة لا يصال الرسالة ، حاول التعرف على بعض تلميذات المدرسة ، لكنهن كن بعيدات جداً عن عالمه . كما بدا له بعد تفكير طويل انه ليس من الحكمة اطلاع أحد على نواياه . ورغم ذلك ، توصل لان يعرف ان فيرمينا داثا كانت قد دعيت إلى حفلة رقص من حفلات السبت بعيد مجيئها إلى البلدة ، وان أباها لم يسمح لها ان تذهب متعللاً بعسارة حاسمة : «كل شيء في وقته المناسب» . أصبحت الرسالة تضم أكثر من ستين ورقة مكتوبة على الوجهين عندما لم يعد بمقدور فلوريتينو اريثا احتمال ضغط سره أكثر . ففتح قلبه دون تحفظ لأمه ، وهي الشخص الوحيد الذي كان يبيع لنفسه مفاتيحها ببعض اسراره . انفلتت ترانسيرو اريثا حتى الدموع لسذاجة ابنها في شؤون الحب ، وحاولت توجيهه بأنوارها . بدأت باقناعه بعدم تسليم المجلد الغنائي ، الذي لن يتوصل من خلاله إلا إلى افزاع فتاة أحلامه ، التي يُفترض بانها ليست ذات خبرة في أمور القلب مثله . وقالت له ان الخطوة الأولى هي جعلها تنبته إلى اهتمامه بها ، حتى لا يأخذها بالتصريح لها عن حبه على حين غرة ويكون لديها متسع من الوقت للتفكير .

وقالت له :

.. ومن عليك الوصول اليها أولاً وقبل كل شيء هي العمة وليس الفتاة.

كلا النصيحتين كانت حكيمة دون شك، لكنهما جاءتا متأخرتين. فالواقع انه منذ اليوم الذي أهملت فيه فيرمينا داثا لبرهة قصيرة درس القراءة الذي كانت تلقنه لعمتها، ورفعت بصرها لترى من الذي يمر في الرواق، كان فلوريتينو اريثا قد أثر فيها بمظهره المخدول. وفي الليل، اثناء تناول الطعام، تحدث والدها عن البرقية، وهكذا كان ان عرفت ما الذي جاء يفعله فلوريتينو اريثا في البيت، وما هي مهنته. وقد ضاعفت هذه المعلومات من اهتمامها، اذ كان اختراع التلفزيون بالنسبة لها، كما هو بالنسبة لاناس كثيرين في تلك الحقبة، أمراً له علاقة بالسحر. وهكذا تعرفت على فلوريتينو اريثا منذ المرة الأولى التي رآته فيها يقرأ تحت أشجار الحديقة، ورغم انه لم يثر فيها أي نوع من القلق إلى ان لفتت العمة نظرها إلى انه كان يجلس هناك منذ عدة اسابيع. وعندما رآته فيما بعد اثناء الخروج من القداس، ترسخت قناعة العمة بان كل هذه اللقاءات لا يمكن ان تكون مصادفة، وقالت: «ليس من اجلي يحتمل هذا الازعاج». اذ رغم سلوكها الصارم ومسوح العفة التي تسربل به، كانت العمة اسكولاستيكا تحمل غريزة الحياة وتميل إلى المشاركة فيها، وهما أفضل صفتين فيها. ومجرد الفكرة بان هناك رجلاً مهتماً بابنة اخيها كان يثير فيها انفعالاً لا يقاوم. أما فيرمينا داثا فكانت ما تزال بمنجى حتى من مجرد الفضول بشأن الحب، الشيء الوحيد الذي اثاره فيها فلوريتينو اريثا هو قليل من الاسى، اذ بدا لها عليلًا. لكن العمة قالت لها انه لا بد من العيش طويلاً لمعرفة الطبيعة الحقيقية للزجل، وكانت مقتنعة ان ذلك الذي يجلس في الحديقة ليراهما تمران، لا يمكن إلا ان يكون مريضاً بداء الحب.

كانت العمة اسكولاستيكا ملجأ تفهم وعطف للابنة الوحيدة لزواج بلا حب. لقد ربته منذ موت امها، وبالمقارنة مع لوريشو داثا، كانت تتصرف كشريكة اكثر منها كعمة. وهكذا كان ظهور فلوريتينو اريثا بالنسبة لها تسلية جديدة تضاف الى النسليات الكثيرة التي تبث دعائها لتمضية وقتها الميت. أربع مرات في اليوم، كلما اجتازتا حديقة البشارة، كانتا تسرعان للبحث بنظرة فورية عن ذلك الحارس الضامر، الخجول، ضئيل الشأن، والذي يرتدي بشكل شبه دائم ملابس سوداء، رغم الحر، ويتظاهر بالقراءة تحت الأشجار. «ها هو هناك»، تقول التي تكتشفه أولاً، كاتمة ضحكاتها، قبل ان يرفع نظره ويرى المرأتين الصارمتين، البعيدتين عن حياته، وهما تجتازان الحديقة دون ان تنظرا إليه.

قالت العمة في احدى المرات :

- ياللمسكين. لا يجرؤ على الاقتراب لاني معك، لكنه سيحاول ذلك يوماً اذا كانت نواياه جدية، وعندها سيسلمك رسالة.

واحتياطاً لأي نوع من المصائب علمتها التواصل بحروف يدوية، وكانت تلك وسيلة ضرورية للغراميات المحرمة. وقد اثارت المشاوير العرضية، وشبه الصبيانية، فضول فيرمينا داثا إلى الجديد، ولكن لم يخطر لها أبداً طوال عدة شهور ان تمضي إلى أبعد من ذلك. لم تعرف أبداً متى بدأت تسليتها تتحول إلى قلق، ويتحول دمها إلى زبد للاسراع برؤيته، وقد استيقظت في احدى الليالي مذعورة لانها رأتها يتأملها في الظلام من طرف السرير. عندئذ تمنت من اعماقها ان تتحقق تكهنات العمه، وصارت تدعو الله في صلواتها ان يمنحه الشجاعة كي يسلمها الرسالة، لتعرف فقط ما الذي سيقوله فيها.

لكن دعواتها لم تستجب، وكانت الوقائع معاكسة لذلك. حدث هذا في الفترة التي صرح فيها فلوريتينو أريشا امه وثنته هذه عن عزمه بتسليم السبعين ورقة من الغزل، وهكذا كان على فيرمينا داثا ان تتابع الانتظار بقية تلك السنة. أخذ قلقها يتحول إلى يأس كلما اقتربت عطلة كانون الأول المدرسية، اذ أخذت تتساءل عما ستفعله لتراه ويراهها، خلال الشهور الثلاثة التي لن تذهب خلالها إلى المدرسة، وقد ألحت عليها الشكوك دون أن تجد لها حلاً في ليلة الميلاد، حين هزها احساس بانه ينظر اليها بين جموع المصلين في القديس، ولقد اثار هذا القلق في قلبها. ولم تكن لتجرؤ على الالتفات وهي تجلس بين أبيها وعمتها، وكان عليها ان تكبح نفسها كي لا يلاحظا اضطرابها. ولكنها أحست به في فوضى الخروج قريباً جداً منها، وواضحاً جداً وسط الحشد، ودفعتها قوة لا تقاوم للنظر من فوق كتفها وهي تغادر المعبد من الممر الأوسط، ورأت حينئذ على بعد شبرين من عينيها العينين الاخرين الجليديتين، والوجه الملوح، والشفيتين المتحجرتين برعب الحب. اضطربت لجسارتها، وتشبثت بذراع العمه اسكولاستيكا كي لا تسقط على الأرض، فأحست هذه بالعرق البارد على اليد عبر القفاز المخرم، وشجعتهها بإشارة موافقة لا مشروطة خفية. ووسط دوي الألعاب النارية والطبول، وسط أعمدة الانارة الملونة المنصوبة أمام الأبواب، وصخب الجموع المتعطشة للسلام، هام فلوريتينو أريشا كمن يسير وهونائم حتى الفجر مراقباً الاحتفال من خلال دموعه، ومذهولاً في التخيل بانه هو، وليس الرب، من ولد في تلك الليلة.

ازداد هذيانه في الاسبوع التالي، حين مروقت القيلولة بيت فيرمينا داثا دون أمل. ورآها تجلس مع عمتها تحت أشجار اللوز في الفناء. كان المشهد تكراراً للوحة التي رآها في مساء اليوم الأول في حجرة الخياطة: الصبية تلقن العمه درس القراءة. لكن فيرمينا داثا كانت مختلفة الهيئة وهي بدون زها المدرسي، اذ كانت ترتدي عباءة من الكتان الأبيض بها ثنايا

كثيرة تنسدل من كتفيها وكأنها رداء اغريقي ، وعلى رأسها اكليل من ازهار الياسمين الطبيعية يمنحها مظهر إلهة متوجة . جلس فلورينتينو ارثا في الحديقة ، حيث تأكد انه سيكون مرثياً ، ولم يلجأ عندئذ إلى اسلوب التظاهر بالقراءة ، وانما جلس ، والكتاب مفتوح ، مركزاً بصره على الأنيسة السامية ، التي لم تبادله ولو نظرة شفقة .

ظن في البدء ان الدرس تحت أشجار اللوز هو تغيير طارئ ، ربما بسبب الاصلاحات التي لا تنتهي في البيت ، لكنه أدرك في الايام التالية ان فيرمينا دائماً ستكون هناك ، تحت نظره ، في مساء كل يوم وفي الساعة ذاتها طوال شهور العطلة الثلاثة ، وألهمه هذا اليقين حاسة جديدة . لم يشعر بانها رآته ، ولم يلمح أية علامة تدل على اهتمام أو إهمال . ولكن في لامبالاتها كان ثمة بريق مختلف شجعه على المثابرة . وفجأة ، في عصر يوم من أيام كانون الثاني ، وضعت العمة شغلها على الكرسي وتركت ابنة اخيها وحدها في الفناء بين نثارة الأوراق الصفراء المتساقطة من أشجار اللوز . ومدفوعاً باعتقاده المتهور بانها الفرصة المناسبة ، اجتاز فلورينتينو ارثا الشارع وانتصب أمام فيرمينا دائماً ، قريباً جداً منها بحيث شعر بشهقتها وبتنفسها الوردي الذي سيميزها فيه طوال حياته المتبقية . حدثها برأس مرفوع ويتصميم لن يصل اليه ثانية إلا بعد نصف قرن ولنفس السبب .

قال لها :

- الشيء الوحيد الذي اطلبه منك هو أن تتقبلي رسالة مني .

لم يكن الصوت الذي انتظرته فيرمينا دائماً منه : كان صوتاً واثقاً ومتسلطاً لا علاقة له بأساليبه الخاملة . ودون ان ترفع نظرها عن التطريز ، اجابته : « لا استطيع قبولها دون اذن والدي » . ارتعش فلورينتينو ارثا بدفء ذلك الصوت الذي لن ينسى جرسه المنطفيء طوال حياته . لكنه استمر على ثباته ، ورد في الحال : « احصلي على الاذن » . ثم رقق من لهجة الأمر برجاء : « انها مسألة حياة أو موت » . لم تنظر فيرمينا دائماً اليه ، ولم تتوقف عن التطريز ، لكن قرارها فتح له باباً يتسع للعالم بأسره ، حين قالت له :
- عد مساء كل يوم وانتظر إلى ان أبادل مقعدي .

لم يفهم فلورينتينو ارثا ما عنته حتى يوم الاثنين من الاسبوع التالي ، عندما رأى وهو على مقعده في الحديقة نفس المشهد الذي يراه كل يوم مع تبدل وحيد : حين دخلت العمة اسكولاسيكا إلى البيت ، نهضت فيرمينا دائماً وجلست على المقعد الآخر . عندئذ اجتاز فلورينتينو ارثا الشارع وهو يضع زهرة كاميليا بيضاء في عروة سترته ، وانتصب امامها . قال : « هذه هي اعظم لحظة في حياتي » . لم ترفع فيرمينا دائماً نظرها اليه ، وانما تفحصت الجوار بنظرة دائرية ورأت الشوارع المقفرة في سبات الجفاف وزوبعة أوراق ميتة تتقاذفها الريح .

فقلت :

- اعطني اياها .

كان فلوريتينو اريشا قد فكر بان يحمل اليها الورقات السبعين التي صار قادراً على استظهارها من الذاكرة لكثرة ما أعاد قراءتها ، لكنه حسم أمره بعد ذلك بالاكْتفاء بنصف ورقة مختصرة وواضحة يعاينها فيها على ماهو جوهري فقط : وفاؤه تحت أية ظروف ، وحبه الابدي . أخرجها من جيب سترته الداخلي ، ووضعها أمام عيني المُطرزة الحزينة التي لم تتجراً حتى ذلك الحين على النظر اليه . رأت المغلف الأزرق يرتعش في يد جمدها الرعب ، ورفعت طارة التطريز ليضع الرسالة ، اذ انها غير قادرة على السماح له برؤية ارتعاش أصابعها . وحدث حينئذ ان ارتعش عصفورين أوراق أشجار اللوز ، وأفلت في الوقت ذاته ذرقة على التطريز . فأبعدت ، فبرمينا داثا الطارة ، وخبأتها وراء المقعد كي لا يتنبه لما حدث ، ونظرت اليه للمرة الأولى بوجه ملتهب . فقال فلوريتينو اريشا المتجمد والرسالة في يده : « ان هذا فال خير » . شكرته بابتسامتها الأولى اليه ، وانتزعت منه الرسالة ، ثم طوتها واخفتها في صدريتها . قدم لها حينئذ زهرة الكاميليا التي كنت في عروته ، فرفضتها : « انها زهرة التزام » . وعادت فوراً للاختباء في رصانتها ، وقد وعت ان الوقت قد نفذ .

قالت :

- اذهب الآن ولا ترجع إلي أن أخبرك .

عندما رآها فلوريتينو اريشا لأول مرة ، اكتشفت امه ذلك قبل ان يخبرها ، لانه فقد النطق والشهية وراح يقضي الليالي مسهداً يتقلب في الفراش . لكنه حين بدأ ينتظر الرد على رسالته الأولى ، تضاعف الجزع وتحول إلى اختلاطات مترافقة مع برازوقيء أخضرين ، وفقد القدرة على التوجه وعانى من اغشاءات مفاجئة ، ففزعت أمه لان حالته لا تنتمي إلى اضطرابات الحب وانما إلى اختلاطات الكوليرا . وكذلك عراب فلوريتينو اريشا ، وهو طبيب مثلي عجوز ، وامين اسرار ترانسيثوداثا مذ كانت عشيقة سرية ، فزع أيضاً للوهلة الأولى من حالة المريض ، لان نبضه كان ضعيفاً وتنفسه رملياً وعرقه شاحباً كحالة المحتضرين . لكن الفحص كشف له عدم وجود حمى ، ولا آلام في أي موضع ، والشيء الوحيد الذي كان يشعر به هو حاجة مستعجلة للهواء واكتفى باستجواب مختل ، للابن أولاً ثم للأم ، ليتأكد مرة اخرى ان أعراض الحب هي نفس أعراض الكوليرا . فوصف له نقيع ازهار الزيزفون لتتسلك أعصابه واقترح عليه تغيير الجول للبحث عن العزاء في البعد ، لكن ما كان يشاقفه فلوريتينو اريشا هو عكس ذلك تماماً : الاستمتاع بعذابه .

كانت انسيتر اريشا امرأة اربعينية حرة ، لديها ميل محبط إلى السعادة بفعل الفقر ، وكانت

تشارك في آلام ابنها كما لو أنها آلامها، فهي تقدم له المشروبات المهدئة حين تلاحظ أنه أخذ يهذي أو تدثره بأغطية صوفية لتخدع القشعريرة التي تتأبه، لكنها تشجعه في الوقت ذاته على التسلية بانهاك نفسه، فهي تقول له :

- انتهز الفرصة لتألم بقدر ما تستطيع الآن وأنت شاب، لأن هذه الأمور لا تدوم طول الحياة.

أما في وكالة البريد فلم يكونوا يفكرون بهذه الطريقة طبعاً. إذ كان فلوريتينو أريثا يعمل في عمله، ويمضي ساهياً فيخلط بين الأعلام التي يعلن بها عن وصول البريد، ففي أحد أيام الأربعاء رفع العلم الألماني بينما كانت السفينة القادمة تابعة لشركة ليلاند وتحمل بريد ليفربول، وكان يرفع في أي يوم آخر علم الولايات المتحدة مع أن السفينة القادمة تتبع لشركة جنرال ترانساتلانتك وتحمل بريد سانت-نازير. وقد كانت تشوشات الحب تلك تسبب تأخيراً في توزيع البريد وتثير احتجاجات كثيرة من جانب الجمهور، وإذا كان فلوريتينو أريثا لم يطرد من عمله فلأن لوتاريو توغوت احتفظ به في قسم التلغراف وأخذه ليعلمه العزف على الأرغن في كورال الكتدرائية. كانا يرتبطان بحلف عصي على الفهم بسبب فارق السن بينهما، إذ كان بالامكان اعتبارهما جداً وحفيداً، لكن علاقتهما كانت حسنة جداً سواء في العمل أم في حانات الميناء، حيث يلتقي محبو السهر حتى ساعة متأخرة من الليل دون وسوس طبقية، اعتباراً من سكارى الصدقات وحتى الشبان الراقين ذوي الملابس البروتوكولية الذين يهربون من حفلات النادي الاجتماعي ليأكلوا فطائر الجبن المقلية مع أرز جوز الهند. لقد اعتاد لوتاريو توغوت الذهاب إلى هناك بعد وردية التلغراف الأخيرة، وكان يدركه الصباح في معظم الأحيان وهو ما يزال يشرب البنوش الجهايكوي ويعزف الاوكورديون مع طواقم ملاحى سفن جزر الانتيل الحمقى. كان بدينياً، يشبه السلحفاة، له لحية مذهبة ويضع لدى خروجه ليلاً طاقة من تلك التي تمثل رمز الجمهورية الفرنسية، ولم يكن ينقصه إلا درع مضيء ليصبح مشابهاً تماماً للقديس نيقولا. وكان يجهز مرة واحدة كل اسبوع على الأقل على واحدة من عصفورات الليل، كما اعتاد تسمية أولئك اللواتي يبعن الحب الطارىء في فندق للعابرين من البحارة. وكان أول ما فعله بشيء من اللذة المتقنة، حين تعرف على فلوريتينو أريثا، هو تعريفه على اسرار فردوسه. كان يختار له العصفورات اللواتي يبدوون له أفضل من سواه، ويساومهن في السحر والطريقة، ثم يعرض عليه أن يدفع له من ماله الخاص مقابل الخدمات التي يقدمها. لكن فلوريتينو أريثا لم يكن يوافق: كان في عذريته، ولقد قرر أن يبقى كذلك ما لم يفعل ذلك عن حب.

كان الفندق عبارة عن قصر استعماري متهاو، قسمت صالوناته الكبيرة وغرف الممر فيه إلى مخادع صغيرة بورق مقوى ملئ بثقوب أحدثتها المطاوي، وكانت تؤجر لممارسة الحب أو للتفرج على من يمارسه. وثمة احاديث تدور عن متلصص سملوا له عينه بمسلة حياكة، وعن آخر تعرف على زوجته بالذات فيما هو يتلصص، وعن نبلاء من الطبقة الراقية كانوا يتنكرون بزي بائعات خضار ليغرقوا انفسهم مع العسكريين العابرين، وعن حوادث اخرى حول متلصصين ومتلصص عليهم، مما جعل مجرد التفكير بالنظر إلى الحجرة المجاورة أمراً مربعاً بالنسبة لفلوريتينو اريثا. ولم يتمكن لوتاريو توغوت من اقناعه بان الرؤية والسباح للآخرين بالمشاهدة هي من آداب امراء اوروبا.

وعلى العكس من الاعتقاد الذي قد تثيره بدانته، كانت لوتاريو توغوت دوامة شاروويم تبدو وكأنها برعم وردة، ويبدو ان هذا كان عيباً حسن الطالع، لان اكثر العصفورات استعمالاً كن يتنازعن النوم معه، وكانت صراخاتهن المذبوحة تهز ادراج القصر. وتبعث رعشة الرهبة في اشباحه. كان يقال بانه يستخدم مرهماً محضراً من سم الثعابين يلهب به ارحام النساء، لكنه كان يقسم بانه لا يملك أية وسائل سوى تلك التي وهبها الله اياها. كان يقول منفجراً بالضحك: «انه الحب وحده». وكان لا بد من انقضاء سنوات طويلة ليدرك فلوريتينو اريثا بانه ربما كان يقول الصدق. ثم انتهى إلى الاقتناع من خلال تربيته العاطفية في زمن متأخر، حين تعرف على رجل يعيش حياة ملك باستغلاله ثلاث نساء في الوقت ذاته. كانت النساء الثلاث يقدمن له الحساب في الفجر، ذليلات عند قدسية ليغفر لهن احتفاظهن بمبالغ زهيدة، والمكافأة الوحيدة التي كن يرغبن فيها هي قبوله الاضطجاع مع من تأتيه بأكبر قدر من المال. وكان فلوريتينو اريثا يعتقد بان الخوف وحده قادر على ايصالهن إلى مثل هذا الذل. لكن احدى الفتيات الثلاث فاجاته بالحقيقة المعاكسة حين قالت له: - ان هذه الأمور لا يمكن تحقيقها إلا بالحب.

ولم يكن السبب في توصل لوتاريو توغوت لان يكون أحد أهم زبائن الفندق هو فجوره، بقدر ما كان ظرافته الشخصية. ولقد كسب فلوريتينو اريثا كذلك احترام صاحب المحل لكونه صموتاً ومرناً، وقد اعتاد في اقصى مراحل كربه ان يحبس نفسه ليقرأ الاشعار وكتيبات الدموع في الحجرات الخائقة، وكانت احلامه تخلف أعشاش سنونوات سوداء على الشرفات وهمس قبلات وخفق أجنحة في خمود الظهيرة. وفي المساء، حين يخف الحر، كان يستحيل عليه ألا يستمع إلى احاديث الذين يأتون لاغراق انفسهم من العمل في حب سريع، وهكذا أصبح فلوريتينو اريثا يعرف خيانات زوجية كثيرة، بل وبعض اسرار الدولة، من الزبائن المرموقين، ومن رجال السلطات المحلية الذين كانوا يأتمنون عشيقاتهم العابرات دون ان

يحتاطوا كي لا يسمعهم من هم في الغرف المجاورة. وكان هكذا ان علم أيضاً بانه على بعد أربعة فراسخ بحرية إلى الشمال من سوتافيتو ترقد غارقة، في قاع البحر منذ القرن السابع عشر، سفينة اسبانية محملة بأكثر من خمسمئة ألف مليون بيزو من الذهب الخالص والاحجار الكريمة. لقد اذهلته القصة، لكنه لم يعد للتفكير فيها إلا بعد مضي عدة شهور، عندما اثار جنون الحب شوقه لاستخراج الثروة الغارقة كي يجعل فيرمينا داثا تستحم في أحواض من الذهب.

بعد سنوات من ذلك، حين كان يحاول ان يتذكر كيف كانت في الواقع تلك الصبية التي رسم لها في ذهنه صورة مثالية بسيمياء الشعر، لم يكن يستطع تمييز ملامحها وسط امسيات تلك الازمنة المؤثرة، وحتى حين كان يلمحها دون ان تراه، في ايام الجزع التي انتظر فيها الرد على رسائله الأولى، كان يراها بصورة مختلفة في وهج الساعة الثانية ظهراً تحت وابل من زهر اللوز، حيث كان الوقت نيساناً في أي شهر من شهور السنة. كان اهتمامه الوحيد في ذلك الحين منصباً على مرافقة لوتاريو توغوت بالكمان على المنصة المخصصة للكورال، وذلك ليرى كيف تتموج عباءتها بنسيم الانشاد. لكن هذيانه بالذات كان السبب في القضاء على متعته هذه، اذ أصبحت الموسيقى الدينية الصوفية مناسبة جداً لحالة روحه، مما جعله يحاول الهابها بفالسات حب، ورأى لوتاريو توغوت نفسه مضطراً لطرده من الكورال. وكان ان استسلم في هذه الفترة لأكل ازهار الياسمين التي كانت تزرعها ترانسيستواريثا في احواض الفناء فتعرف بهذه الطريقة على طعم فيرمينا داثا. وفي هذه الفترة أيضاً وجد في قاع احد صناديق أمه زجاجة تحتوي لتراً من ماء الكولونيا التي كان يبيعها مهربة بحارة شركة هامبورغ اميركان لاين، ولم يقاوم اغراء تذوقها للبحث فيها عن طعم آخر للمرأة المحبوبة. وتابع شرب الزجاجة حتى الفجر، منتشياً بفيرمينا داثا من خلال رشقات كاوية، في حانات الميناء أولاً ثم إلى جوار البحر بعد ذلك وهو غائب عن الوعي فوق ملطم الامواج حيث يتعزى العشاق الذين لا سقف لديهم بممارسة الحب، إلى ان راح في غيبوبة. انتظرته ترانسيستواريثا حتى الساعة السادسة صباحاً بروح معلقة في خيط، ثم مضت تبحث عنه في المخابيء التي لا تخطر ببال احد، وبعيد منتصف الليل وجذته يتخبط في بركة من القيء المعطر في احدى تعرجات الشاطئ حيث يقذف البحر الغرقى.

انتهزت فترة النقاهة لتؤنبه على سلبيته في انتظار الرد على الرسالة. ذكرته بانه لا يمكن للضعفاء دخول مملكة الحب، لانها مملكة قاسية وصارمة، وان النساء لا يستسلمن إلا للرجال المصممين، لانهم يعيشون فيهن الطمانينة التي يتعطش اليها لمواجهة الحياة. وربما استوعب فلوريتينو اريشا الدرس اكثر مما ينبغي. فلم تستطع ترانسيستواريثا اخفاء احساسها بالفخر،

كقوادة اكثرة منها كأم ، حين رآته يخرج من دكان الخردوات بالبدلة السوداء والقبعة القاسية وربطة الشاعر على الياقة الصلبة ، فسألته مازحة ان كان ذاهباً إلى جنازة فأجاب وأذناه تنقدان : «يكاد الامر يكون سواء» . وقد انتبهت إلى انه يكاد لا يستطيع التنفس من الخوف ، لكن تصميمه كان حاسماً . قدمت له النصائح النهائية ، وباركته ، ووعدته وهي غارقة في الضحك بزجاجة اخرى من ماء الكولونيا ليحتفلاً معاً بانتصاره .

مذ سلم الرسالة ، قبل شهر ، نقض عدة مرات الوعد الذي قطعه بعدم العودة إلى الحديقة ، لكنه كان حذراً جداً في التخفي . كل شيء كان يسير على حالة : ينتهي درس القراءة تحت الاشجار في حوالي الثانية ظهراً ، حين تستيقظ المدينة من القيلولة ، ثم تتابع فيرمينا داثا التطريز مع عمته حتى انخفاض الحر . لم ينتظر فلورينتينو اريثا إلى ان تدخل العمة إلى البيت ، بل اجتاز الشارع بخطوات عسكرية اتاحت له تجاوز ارتعاش ركبته . لكنه لم يتوجه إلى فيرمينا داثا وانما إلى العمة .

قال لها :

- تفضلي واتركيني على انفراد مع الأنسة للحظة ، فلدي شيء هام أود ان أقوله لها .
فقلت العمة :

- وقع ! لا يوجد أمر من أمورنا لا أستطيع سماعه .
قال :

- لن أقول شيئاً اذن ، لكنني أحذرك بانك ستكونين المسؤولة عما سيحدث .
لم يكن هذا هو الاسلوب الذي انتظرتة اسكولاستيكا داثا من العريس المثالي ، لكنها نهضت مرتعبة ، لأنها أحست لأول مرة باحساس مفاجيء ان فلورينتينو اريثا انما كان يتكلم بوحي من الروح القدس . وهكذا دخلت إلى البيت لاستبدال ابر التطريز ، وتركت الشابين وحدهما تحت أشجار اللوز عند مدخل البيت .

لم تكن فيرمينا داثا تعرف في الواقع إلا القليل عن معدن العاشق الصامت الذي ظهر في حياتها مثل سنوثة شتوية ، والذي لم تكن تعرف حتى اسمه لولا توقيعه على الرسالة . ولقد استقصت حينئذ وعرفت انه ابن بلا أب لامرأة عزباء مجدة وجديّة ، لكنها موسومة بوسم ناري لاشفاء منه لخطيئتها الوحيدة وهي شابة . وقد علمت انه ليس صبي التلغراف ، كما افترضت ، وانما هو مساعد جيد التأهيل وذو مستقبل واعد ، وفكرت بانه أوصل البرقية إلى أبيها كذريعة ليراها فقط . وقد فتنها هذا الافتراض . كما كانت تعرف انه واحد من موسيقي الكورال ، رغم انها لم تتجرأ أبداً على رفع بصرها لتأكد من وجوده اثناء القداس ، إلا انها في

أحد أيام الأحاد وفيها مجموعة الآلات تعزف للجميع ، أحست بان الكهان يعزف لها وحدها .
لم يكن نموذجاً للرجل الذي كانت ستختاره . لكن نظارته وزيه الكهنوتي ، واسالييه الغامضة
اثارت فيها فضولاً من الصعب مقاومته ، لكنها لم تتصور ابداً ان يكون الفضول هو أحد
مصائد الحب الكثيرة .

هي نفسها لم تستطع ان تفهم كيف قبلت الرسالة . لم تؤنب نفسها ، لكن وعددها الملح برد
الجواب أخذ يتحول إلى عائق أمام الحياة . ان كل كلمة من ابوها ، وكل نظرة عابرة ، وادنى
حركة يقوم بها كانت تبدو لها مصيدة لكشف سرها . على هذا الحال من الذعر كانت ، فهي
تمتنع عن الحديث على المائدة خوفاً من زلة تفضحها ، واصبحت مراوغة حتى في تعاملها مع
العمة اسكولاستيكا ، رغم ان هذه كانت تشاظرها جزعها المكتوم كما لو كان خاصاً بها .
وصارت تحبس نفسها في الحمام في أي وقت ، دونها حاجة ، وتعيد قراءة الرسالة محاولة اكتشاف
رموز سرية ، أو معادلة سحرية مخبأة في واحد من الثلاثمائة وأربعة عشر حرفاً في الشئاني وخمسين
كلمة ، على أمل ان تجد فيها أكثر مما تقوله . لكنها لم تجد شيئاً أكثر مما فهمته في القراءة
الاولى ، عندما هرعت لتحبس نفسها في الحمام بقلب مجنون ، ومزقت المغلف آملة برسالة
مطولة ومحمومة ، ولم تجد سوى ورقة صغيرة معطرة أفزعها اقتضاها .

لم تفكر أول الامر جدياً بانها مجبرة على الرد ، لكن الرسالة كانت واضحة جداً بحيث لم
تكن هناك وسيلة لتصریفها . وفي اثناء ذلك ، ووسط اضطراب شكوكها ، فاجأت نفسها
وهي تفكر بفلورينتينواريثا ، أكثر وباهتمام أكبر مما تريده لنفسها ، بل وكانت تتساءل مكدره لماذا
لم يأت إلى الحديقة في مواعده المعتاد ، دون ان تذكر انها هي التي طلبت منه عدم الرجوع إلى
ان تفكر بالرد . وهكذا صارت تفكر به بشغل لم تتصور يوماً انها ستفكر فيه بأحد ، كانت
تهجس به حيث لا يكون ، متمنية وجوده حيث لا يمكن ان يكون ، مستيقظة فجأة يراودها
احساس بانه يراقبها وهي نائمة في الظلام ، للدرجة انها حين سمعت وقع خطواته الحاسمة
فوق نشارة اوراق الحديقة الصفراء ، لم تستطع ان تصدق انها ليست سخرية اخرى من
خيالها . ولكن عندما طالبها بالرد على رسالته بتسلط لا علاقة له بنحافته ، تمكنت من
السيطرة على ذعرها وحاولت مداراته بقول الحقيقة : انها لاتعرف بماذا ترد عليه . ومع ذلك
فان فلورينتينواريثا لم ينج من هاوية ليردد أيام التي تليها ، فقال لها :

ـ اذا كنت قد قبلت استلام الرسالة ، فمن قلة الذوق عدم الرد عليها .

كانت هذه هي نهاية المتاهة . فقد اعتذرت فيرمينا داثا ، التي سيطرت على نفسها ، عن
تأخرها ووعدته رسمياً بانه سيحصل على الرد قبل انتهاء العطلة المدرسية . ووفت بوعددها .
ففي يوم الجمعة الاخير من شهر شباط ، وقيل ثلاثة أيام من اعادة افتتاح المدارس . ذهبت

العمة اسكولاستيكا إلى مكتب التلغراف لتسأل عن تكلفة ارسال برقية إلى قرية بيدرا دي مولير، التي لا يرد ذكرها في قائمة الخدمات البرقية، وسعت لأن يتولى الرد على استفسارها فلورينتينا داثا، متظاهرة بأنها لم تره أبداً من قبل، لكنها عند الخروج تعمدت ان تنسى على الطاولة كتاب صلوات مجلد بجلد ضب، فيه مغلف من ورق مبطن ومزين بصورة مذهبة. أمضى فلورينتينا وارثا، الذي اختل من السعادة، بقية ذلك المساء وهو يأكل الورد ويقرأ الرسالة، ويراجعها حرفاً حرفاً مرة بعد أخرى، وكلما قرأ أكثر كان يأكل المزيد من الورد، وعند منتصف الليل كان قد قرأها مرات ومرات وأكل ورداً كثيراً جعل أمه تشده من اذنه كخروف وتجبره على شرب زيت الخروع.

كانت تلك هي سنة الحب العنيف. ولم يكن في حياة اي منهما شيء سوى التفكير بالآخر، وانتظار الرسائل بشوق كشوق الرد عليها. ولم يحدث طوال ذلك الربيع من الهديان، ولا في السنة التالية ان اتاحت لهما فرصة للتواصل بصوت عال. بل وأكثر من ذلك: منذ ان رأيا بعضهما لأول مرة وإلى ان كرر عليها قراره بعد نصف قرن، لم يحصل أبداً على فرصة للقاء منفردين ولا لتبادل الحديث عن حبهما. ولكن لم يمر يوم واحد خلال الشهور الثلاثة الاولى دون ان يتبادلا الرسائل، بل كان يكتبان لبعضهما الرسائل مرتين يومياً في احدى الفترات، الى ان فزعت العمة اسكولاستيكا لشراة النار التي ساهمت هي نفسها في اضرامها.

بعد ان حملت الرسالة الأولى إلى مكتب التلغراف وكأنها تريد ان تثار من حظها بالذات، راحت تسهل عملية تبادل الرسائل شبه اليومية، في لقاءات تبدو عرضية في الازقة، ولكن لم تكن تملك الشجاعة لرعاية تبادل حديث بينهما، مهما كان ذلك الحديث تافهاً وقصيراً. ثم ادركت بعد مرور ثلاثة شهور ان ابنة اخيها ليست مؤهلة لغرام فتى، كما بدا لها أول الامر، واصبحت حياتها هي مهددة بفعل نار الحب تلك. لم تكن لدى اسكولاستيكا بالفعل وسيلة أخرى للمعيشة سوى احسان اخيها، وكانت تعلم ان طبعه المتسلط لن يغفر لها أبداً تلاعباً كهذا بالثقة التي منحها اياها. ولكن قلبها لم يطاوعها في نهاية الأمر على تعريض ابنة اخيها لمحنة قاسية كالتى رعتها هي منذ شبابها، فسمحت لها باستخدام وسيلة تمنحها وهم الاحساس بالبراءة. وكانت وسيلة بسيطة: تضع فيرmina دثا رسالتها في غيباً في طريقها اليومي بين البيت والمدرسة، وفي هذه الرسالة تخبر فلورينتينا وارثا عن المكان الذي ستجد الجواب فيه. ثم يفعل فلورينتينا وارثا الشيء ذاته، وهكذا أخذ تأنيب الضمير الذي كانت تحسه العمة اسكولاستيكا ينتقل إلى زوايا الكنائس، وفجوات الأشجار، وشقوق انقاض الحصون الاستعمارية، كانا يجدان الرسائل مبللة بالمطر أحياناً، او ملوثة بالوحل، او ممزقة لضيق

الفجورة، كما فقدت بعض الرسائل لاسباب مختلفة، لكنها كانا يجدان دوماً وسيلة لاعادة الاتصال.

كان فلوريتينو اريثا يكتب كل ليلة دون ان تأخذه رحمة بنفسه، متسهماً حرفاً فحرفاً بدخان مصباح زيت الكوروزو في القسم الخلفي من دكان الخردوات، وكانت رسائله تصبح أكثر اسهاباً وجنوناً كلما أجهد نفسه في محاكاة شعرائه المفضلين الذين تنشر اعمالهم في سلسلة المكتبة الشعبية، التي وصل عدد اجزائها في ذلك الحين إلى أكثر من ثمانين مؤلفاً. أما أمه التي حشته على التمتع في عذابه، فأخذت تصاب بالذعر لاعتلال صحته، وصارت تصبح به من غرفة النوم عندما تسمع صياح أول الديكة: «ستستنزف دماغك. ليس من امرأة تستحق كل هذا.» فهي لا تذكر انها عرفت أحداً يمثل هذه الحالة من الضياع. أما هو فلم يكن يعيرها اهتماماً. كان يصل إلى المكتب أحياناً دون ان يكون قد نام، شعره مشعث من الحب، بعد ان يكون قد اودع الرسالة في المخبأ المتفق عليه لتجدها فيرمينا داثا وهي في طريقها إلى المدرسة. أما هذه بالمقابل، فكانت خاضعة لحراسة الأب ولرصد الراهبات المشين، ولم تكن تستطيع إلا بالكاد ملء نصف صفحة من الدفتر المدرسي وهي حابسة نفسها في الحمام أو متظاهرة بتسجيل ملاحظات اثناء الدرس. وليس بسبب السرعة وخوف المفاجآت فقط، انها بسبب طبعها أيضاً، كانت رسائلها تتجنب اية اشارات عاطفية وتقتصر على سرد وقائع حياتها اليومية باسلوب يوميات الرحلات البحرية المتسرع. لقد كانت في الواقع رسائل هو، تسعى الى الاحتفاظ بالجمهر متقدماً ولكن دون ان تضع يدها في النار، فيما فلوريتينو اريثا يحترق ويتحول الى رماد في كل سطر يخطه. وفي سعيه لينقل اليها عدوى جنونه، كان يرسل لها أبيات شعر محفورة برأس دبوس على وريقات زهرة كاميليا. وكان هو، وليس هي، من تجرأ على وضع خصلة من شعره في إحدى الرسائل، لكنه لم يتلق أبداً الاجابة المرجوة، ألا وهي تيلة من ضفيرة فيرمينا داثا. انها تمكن من جعلها تخطو خطوة اخرى على الأقل، اذ أصبح يتلقى منذ ذلك الحين أوراق زهور مجففة في قواميس، واجنحة فراشات، وريش عصافير فاتنة، ثم انها اهدته في عيد ميلاده ستمتراً مربعاً من مسوح القديس بيدرو كلافير، تلك التي كانت تباع بالخفاء في تلك الايام بسعر لا يمكن لتلميذة في سنها ان تدفعه. وفي إحدى الليالي، ودون سابق انذار، استيقظت فيرمينا داثا مرتعدة لسماعها سيرناد كمان منفرد تعزف فالسا محمداً. لقد اهتزت فرحاً وهي تشعر ان كل نغمة انما هي بمثابة شكر على نباتاتها المجففة، وعلى الوقت الذي تختلسه من درس الحساب لتكتب رسائلها، وعلى خوفها من الامتحانات وهي تفكر به أكثر من تفكيرها بالعلوم الطبيعية، لكنها لم تتجرأ ان تصدق بان فلوريتينو اريثا قادر على اقتراف مثل هذا التهور.

في صباح اليوم التالي، واثناء تناول الفطور، لم يستطع فلورينثينواريثا مقاومة الفضول. أولاً، لانه لم يكن يعرف ما تعنيه معزوفة واحدة في لغة السيرنادر، وثانياً، انه رغم اهتمامه في الاصغاء لم يستطع ان يحدد في أي بيت كان العزف. واكدت العمة اسكولاستيكا، بهدوء أعصاب أعاد النفس إلى ابنة الأخ، انها رأت من خلال ستارة نافذة غرفة نومها ان عازف الكمان المنفرد كان في الجانب الاخر من الحديقة، وقالت ان معزوفة وحيدة على اية حال هي ابلاغ بالقطيعة. وفي رسالته لهذا اليوم، اكد فلورينثينواريثا انه هو صاحب السيرنادر، وان هذا الفالس من تأليفه وانه أطلق عليه نفس الاسم الذي يطلقه على فيرمينا داثا في قلبه : الربة المتوجة. لم يعد لعزف هذا اللحن في الحديقة، لكنه كان يختار الليالي القمرية ليحزفه في أماكن منتقاة بحيث تسمعه دون ان يتولاها الذعر في مخدعها. وقد كان أحد أماكنه المفضلة هو مقبرة الفقراء، المكشوفة للشمس والمطر فوق تلة جرداء كانت طيور الرخمة تتخذها مكاناً للنوم، حيث كانت الموسيقى تصدح بأصدا ما ورائية. ثم تعلم فيما بعد التعرف على اتجاه الريح، وبهذا صار يتأكد ان صوته يصل إلى حيث يريد ان يصل.

في شهر آب من هذه السنة، نشبت حرب أهلية جديدة من تلك الحروب الكثيرة التي خربت البلاد منذ اكثر من نصف قرن، وكانت تهدد بالانتساع لتشمل البلاد بأسرها، ففرضت الحكومة قوانين الطوارئ وحظر التجول منذ الساعة السادسة مساء في ولايات ساحل الكاريبي. ورغم حدوث بعض الاضطرابات واقتراف القوات العسكرية لجميع انواع التكنيل التعسفي، استمر فلورينثينواريثا في غيبوبة غير عابية بحال الدنيا، وفاجأته دورية عسكرية في فجر أحد الايام وهو يقلق عفة الموتى باستفزازاته الغرامية. ولقد نجا بمعجزة من تحقيق أولي بتهمة انه جاسوس يبعث الاخبار باشارات ضوئية إلى السفن الليبرالية التي تجوب المياه المجاورة متحينة الفرصة للانقضاض.

قال فلورينثينواريثا :

- أي جاسوس وأية لعنة. أنا لست سوى عاشق بائس.

نام ثلاث ليال مكبلاً من كاحليه في زنازين الحامية المحلية. وحين أطلقوا سراحه أحس بانه قد غُبن لقصر مدة الحبس، وبقي حتى ايام شيخوخته، عندما أصبحت تختلط في ذاكرته ذكرى حروب اخرى كثيرة، يفكر بانه الرجل الوحيد في المدينة، وربما في البلاد، الذي جر بقدميه اصفاً زنتها خمسة ارطال من اجل قضية حب.

كادت تنقضي ستان على بريدهما المحموم عندما عرض فلورينثينواريثا في احدى رسائله الزواج رسمياً على فيرمينا داثا. كان قد بعث اليها عدة مرات في الشهور الستة السابقة زهرة كاميليا بيضاء، لكنها كانت تعيدها اليه في الرسالة التالية، حتى لا يرتاب من استمرار كتابتها

اليه ، انما دون مخاطر الالتزام . والحقيقة انها كانت ترى دائماً في ذهاب زهرة الكاميليا ومجيئها مداعبة غرامية ، ولم يخطر لها يوماً ان تفكر فيها كنقطة انعطاف في مصيرها . اما عندما وصلها عرض الزواج الرسمي ، فقد أحست انها تتمزق بأول مغالب الموت . وروت الأمر للعممة اسكولاستيكا وهي هلعة ، فتناولت العممة الاستشارة بالشجاعة والفطنة التي لم تمتلكها وهي في العشرين من عمرها عندما كان عليها ان تقرر مصيرها .

قالت لها :

- أجيبه بنعم ، حتى ولو كنت تموتين فزعاً ، وحتى لو ندمت فيما بعد ، لانك على أية حال ستندمين طوال حياتك ان أنت أجبته بلا .

ولكن فيرمينا دائماً كانت مشوشة رغم هذه النصيحة ، فطلبت مهلة لتفكر في الأمر . طلبت شهراً في البدء ، ثم شهراً آخر وآخر ، وعندما أتمت الشهر الرابع دون ان تعطي ردها عادت تتلقى زهرة الكاميليا البيضاء ولكن ليس الزهرة وحدها كما في مرات سابقة ، وانما هي مرفقة بانخطار حازم انها ستكون المرة الاخيرة : ابا الآن واما القطيعة النهائية . حينئذ كان فلورينتينو اريشا هو الذي رأى وجه الموت في مساء ذلك اليوم بالذات حين تلقى مغلفاً به قصاصة ورقة طويلة منتزعة من هامش دفتر مدرسي ، كتب عليها الرد في سطر واحد بقلم رصاص : حسناً ، أوافق على الزواج منك ان أنت وعدتني بالألا تجبرني على أكل الباذنجان .

لم يكن فلورينتينو اريشا مهيباً لمثل هذا الرد ، لكن امه كانت كذلك . فمذ كلمها لأول مرة ، قبل ستة أشهر ، عن نيته بالزواج ، بدأت ترانسيتو اريشا بمشاوراتها لاستئجار كامل البيت الذي كانت تقاسمه حتى ذلك الحين مع عائلتين اخريين . لقد كان البيت بناء مدنياً من القرن السابع عشر ، مؤلفاً من طابقين ، حيث كانت توجد ادارة التبغ اiban السيطرة الاسبانية ، وقد افلس مالكوه واضطروا لتأجيريه مجزئاً لافتقارهم إلى الموارد اللازمة لاستمراره في العمل . قسم من البيت كان يطل على الشارع ، حيث كانت صالة البيع سابقاً ، وقسم آخر في نهاية باحة مرصوفة حيث كان المعمل ، وهناك اسطبل واسع جداً يستخدمه المستأجرون الحالين جميعهم لغسل الملابس ونشرها . كانت ترانسيتو اريشا تشغل القسم الأول ، وهو الاكثر ملاءمة والأفضل حالاً ، رغم كونه الاضيق أيضاً . في صالة البيع القديمة أقامت دكان خردواتها ، ببوابة تطل على الشارع ، وإلى جانبها المستودع القديم الذي لا وجود فيه لاية فتحة تهوية سوى كوة السقف ، وفيه كانت تنام ترانسيتو اريشا . وما وراء الدكان هو نصف الصالة الآخر ، المقسوم بباب خشبي ثلاثي المصارع ، كانت توجد فيه طاولة حولها أربع كراسٍ تستخدم للطعام والكتابة في الوقت ذاته ، وهناك كان يعلق فلورينتينو اريشا

ارجوحة نومه حين يباغته الفجر وهو يكتب . كان المكان مناسباً لهما ، لكنه غير كاف لشخص آخر معها ، وخصوصاً اذا كان هذا الشخص احدى آنسات مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، التي رمم ابوها انقاض بيت مهدم حتى أعاده وكأنه جديد ، بينما العائلات ذات السبعة ألقاب تنام خائفة من انهيار اسقف المنازل فوقها اثناء النوم ، وقد تمكنت ترانسيتواريثا من الحصول على وعد من صاحب البيت بالسماح لها بشغل رواق الفناء لمدة خمس سنوات ، على ان ترمم البيت وتجعله في حالة حسنة .

كانت تملك الموارد اللازمة . فالى جانب دخلها الحقيقي من دكان الخردوات ومن نسلات النسيج موقفة النزف ، الذي كان يكفيها لعيش حياتها المتواضعة ، كانت قد ضاعفت مدخراتها بتقديمها القروض لزبائنها من الفقراء الجدد الخجولين الذين يوافقون على فوائدها الباهظة لكتمتانها الاسرار . كانت سيدات لمن مظهر الملكات ينزلن من العربات الفاخرة أمام باب دكان الخردوات ، دون وصيفات أو خدم مزعجين ، فيتظاهرن بانهن يردن شراء مطرقات هولندية وحواشي من الحرير المحبوك ، ثم يرهن بين دمتين آخر مصاغ فردوسهن المفقود . وتخرجهن ترانسيتواريثا من حرجهن بتقديرها الشديد لأصلهن النبيل ، لدرجة ان معظمهن كن ينصرفن وهن يحمدن الشرف اكثر من حمدن المعروف . وخلال أقل من عشر سنوات كانت من ممتلكاتها الحلي المستردة مرات عديدة والمعادة للرهن وسط الدموع مجدداً ، وكذلك الأرباح المتحولة إلى ذهب والمدفونة في جرة تحت السرير عندما اتخذ ابنها قرار الزواج . حينئذ راجعت حساباتها . واكتشفت انها لا تستطيع القيام بعملية صيانة البيت من الانهيار لمدة خمس سنوات فحسب ، بل ربما تستطيع ببعض الحيلة وشيء من الحظ ان تشتريه لاحفادها الاثنى عشر الذين كانت ترغب ان ينجبهم ابنها . وكان فلوريتينواريثا قد عُيِّنَ مُعاوناً أول لمسؤول مكتب التلغراف بصفة مؤقتة ، وكان لوتاريو تورغوت يريد تسليمه ادارة المكتب حين يذهب هو لتولي ادارة مدرسة التلغراف والمغنطة المنتظر افتتاحها في العام التالي .

وهكذا كان الجانب العملي من الزواج محلولاً . ومع ذلك ، رأت ترانسيتواريثا ضرورة الاهتمام بشرطين هائين . الأول هو الاستعلام عن حقيقة لوريتشوداثا ، الذي لا تترك لهجته أية شكوك حول أصله ، أما هويته ووسائله في الحياة فليس هناك من يعرف عنها خبراً يقيناً . والثاني هو ان الخطوبة يجب ان تطول حتى يتعارف الخطيبان بعمق عبر العلاقة الشخصية وان يُحفظ أمر الخطوبة طي الكتيمان الصارم إلى ان يتأكدا كلاهما من عواطفهما . واقترحت ان ينتظرا حتى تنتهي الحرب . وقد وافق فلوريتينواريثا على الاحتفاظ بالسرية المطلقة ، سواء للأسباب التي عرضتها أمه أو لطبعه المحب للكتيمان . وكان موافقاً كذلك على اطالة مدة الخطوبة لكن النهاية بدت له لا واقعية ، لأن البلد لم يعرف خلال نصف قرن من الاستقلال

يوماً واحداً من السلام الأهلي . فقال :

.. سنشيخ بهذا ونحن ننتظر.

ولم يكن عرابه ، الطبيب التجانسي ، والذي كان يشارك مصادفة بالحديث ، يعتقد بان الحروب عائق . وكان يرى انها ليست سوى مشاكل فقراء يسوقهم ملاكوا الأرض كالجواميس ، ضد جنود حفاة تسوقهم الحكومة . وقال :

.. الحرب في الجبل . ومذ أدركت أنا بأنني أنا ، لم يقتلونا هنا في المدينة بالرصاص وانما بالقرارات .

لقد حُلّت على اي حال جميع تفاصيل الخطوبة في رسائل الاسبوع التالي . ووافقت فيرمينا داثا ، بناء على نصيحة العمة اسكولاسيتكا ، على استمرار الخطوبة لمدة سنتين وعلى الكتان المطلق ، واقرحت ان يطلب فلوريتينو اريثا يدها عندما تنتهي من المدرسة الثانوية في عطلة أعياد الميلاد . وان يتفقا في الوقت المناسب على طريقة اعلان الخطوبة حسب درجة القبول التي ستكون قد حصلت عليها من ابوها . وحتى ذلك الحين ، تابعا تبادل الرسائل بنفس الحماس ونفس الكثرة ، ولكن دون المخاوف السابقة . وأخذت رسائلها تميل الى لهجة عائلية وتبدو كأنها رسائل زوجين . ولم يكن هناك ما يعكر احلامها .

.. ولقد طرأ تبدل على حياة فلوريتينو اريثا . اذ منحه الحب المتبادل اماناً وقوة لم يعرفهما أبداً ، وأصبح دؤوباً في العمل مما سمح للوتاريو توغوت تعيينه نائباً له في السلطات دون بذل اي مجهود . وكان مشروع مدرسة التلغراف والمغطة قد فشل في ذلك الحين ، فكرس الألماني وقت فراغه للأمر الوحيد الذي يحبه فعلاً ، ألا وهو الذهاب إلى الميناء لعزف الاوكورديون وتناول البيرة مع البحارة ، ثم الانتهاء من كل ذلك في فندق العابرين . وقد انقضى زمن طويل قبل ان يعرف فلوريتينو اريثا ان تأثير لوتاريو توغوت في مكان اللذة ذاك انما هو عائد إلى امتلاكه المحل ، وكونه رب عمل عصفورات الميناء . لقد اشتراه شيئاً فشيئاً ، بمدخراته خلال سنوات طويلة ، لكن من كان يدير الفندق . لأمنه هورجل قصير ، نحيل وأعور ، رأسه كالفرشاة ، وقلبه طيب وأليف لدرجة ان أحداً لم يكن يفهم كيف بإمكانه ان يكون وكيلاً مناسباً . لكنه كان كذلك . أو على الاقل هذا ما بدا لفلوريتينو اريثا عندما قاله له الوكيل ، دون ان يكون هو قد طلب منه ، بانه هيا له غرفة دائمة في الفندق لا ليحل فيها مشاكل ما تحت البطن فقط ، حين يقرر ذلك ، بل ليجد مكاناً أكثر هدوءاً لمطالعة و لرسائل الحب التي يكتبها . وفيما كانت الشهور المتبقية لاعلان الخطوبة تمضي ، أخذ يتضي في الفندق وقتاً أطول مما يقضيه في المكتب والبيت ، وجاءت فترات لم تعد ترانسيتو اريثا تراه إلا عندما يأتي لاستبدال ملابسه .

صارت المطالعة رذيلة لا يرتوي منها. فمنذ علمته أمه القراءة، كانت تشتري له كتب المؤلفين الشماليين المزينة بالرسوم، والتي كانت تباع على انها حكايات للأطفال، لكنها في الواقع كنت أقسى وأفسد ما يمكن قراءته في جميع الاعمار. كان فلورينتينو اريثا يسردها عن ظهر قلب وهو في الخامسة، سواء في الدروس أو في سهرات المدرسة، لكن تألفه معها لم يهدىء من رعبه. بل على العكس، كان يفاقمه. وهكذا فقد كان لتحويله إلى الشعر مفعول المسكن. فما ان بلغ سن الرشد حتى كان قد استهلك حسب ترتيب صدورها، جميع كتيبات المكتبة الشعبية التي كانت تشتريها له ترانستواريثا من المكتبيين الذين يعرضون بضاعتهم عند بوابة الكتبة العموميين، حيث توجد جميع انواع الكتب، ابتداء من هوميروس وحتى أقل الشعراء المحليين قيمة. ولم يكن يميز ما يقرأه: كان يقرأ الكتيب الذي يأتيه، كما لو كان شأنًا من شؤون القدر. ولم تكفه كل سنوات القراءة ليعرف الغث من السمين في العالم الذي قراه. والشيء الوحيد الذي كان واضحاً لديه هو انه عند المفاضلة بين النثر والشعر يفضل الشعر، ومن بين الاشعار يفضل أشعار الحب، التي كان يحفظها غيباً دون قصد منذ القراءة الثانية، وبسهولة اكبر حين تكون مقفاة وموزونة جيداً، وعندما تكون مؤثرة كثيراً.

كان هذا هو المنهل الاساسي لرسائله الاولى إلى فيرمينا داثا، حيث كان يورد مقاطع كاملة دون طهي من أشعار الرومنسيين الاسبان، ويقيت رسائله كذلك إلى ان اضطرتة الحياة الواقعية إلى الاهتمام بالشؤون الدنيوية اكثر من الاهتمام بشجون القلب. وكان في ذلك الحين قد خطا خطوة اخرى نحو قصص الدموع المسلسلة وانواع اخرى اكثر دنيوية من نثر عصره. وكان قد تعلم البكاء مع أمه وهو يقرأ الشعراء المحليين الذين يباعون في الساحات وتحت القناطر في كتيبات بستافين لكل منها. لكنه كان قادراً في الوقت نفسه على القاء أفضل أشعار العصر الذهبي القشتالي عن ظهر قلب. وعموماً كان يقرأ كل ما يقع بين يديه، وحسب ترتيب وقوعه بين يديه، حتى انه بعد زمن طويل من سنوات حبه الأول القاسية تلك، وعندما لم يعد شاباً، قرأ من أول صفحة وحتى آخر صفحة مجلدات كنز الشباب العشرين، ومجموعة الكلاسيكيين الكاملة حسب طبعة جارنير هنس المترجمة، والاعمال الاكثر سهولة التي كان ينشرها دون فيثنتي بلاسكو ايبانيث في سلسلة الواعدون.

ولم تكن فترة فتوته في فندق العابرين على أية حال تقتصر على المطالعة وكتابة الرسائل المحمومة، وانما ادخلته أيضاً في أسرار ممارسة الحب دون حب. كانت الحياة تدب في البيت بعد انتصاف النهار، عندما تستيقظ صديقاته العصفورات عاريات كما ولدتهن امهاتهن، وهكذا كان فلورينتينو اريثا يجد نفسه لدى عودته من العمل في قصر مسكون بحوريات

عاريات، يعلقن صارخات على اسرار المدينة، التي يطلعن عليها بوشايات اصحابها بالذات. وكانت كثيرات منهن يعرضن في عريهن اثاراً من الماضي ندوب طعنات خناجر في البطن، أو اثار أعيرة نارية تبدو كالنجوم، أو اخاديد ضربات بسكاكين الحب. أو خياطات عمليات قيصرية يجريها الجزارون. وتحضر بعضهن خلال النهار ابناثهن الصغار، ابناء مرارة الشباب وتهوره التعساء، وينزعن عنهم ملابسهم فور دخولهم حتى لا يشعر الصغار بانهم مختلفون في جنة العراة. وقد كانت كل منهن تطهو طعامها وحدها، ولم يكن هناك من يأكل خيراً من فلوريتينو اريثا عندما يدعونه، لانه يختار أفضل ما لدى كل منهن. كان ذلك احتفالاً يومياً يستمر حتى المساء، حين تصطف العاريات لدخول الحمام وهن يغنين، بينما يستعرن من بعضهن الصابون، أو فرشاة الاسنان، أو المقصات، وكانت بعضهن تقص شعر الاخريات، ثم يرتدين ملابسهن سهلة الخلع، ويطلين وجوههن كمهرجات مبكيات، ويخرجن لاصطياد أول طرائدهن الليلية. وحيث تصبح حياة البيت غامضة ولا انسانية وتصبح المشاركة فيها مستحلية دون دفع الثمن.

لم يكن لفلوريتينو اريثا مكان أفضل منه يقضي فيه وقته منذ تعرف على فيرمينا داثا، فهو المكان الوحيد الذي لا يشعر فيه بالوحدة. بل واكثر من ذلك: انه المكان الوحيد الذي صار يشعر وهو فيه بانه معها. وربما لهذه الاسباب نفسها كانت تعيش هناك امرأة متقدمة في السن، أنيقة، ذات رأس مفضض بديع، لا تشارك في حياة العاريات الطبيعية، ويكنن لها جميعهن احتراماً قدسياً. لقد حملها إلى هناك خطيب ما وهي شابة، وبعد ان تمتع بها لبعض الوقت هجرها لمصيرها. وقد توصلت رغم وصمتها إلى زواج سعيد، وعندما أصبحت كبيرة في السن، ووحيدة، تنازع ابناها وبناتها الثلاث متعة حملها للعيش معهم، أما هي فلم يخطر لها مكان اكثر جدارة بالحياة من فندق الماجنات الحنونات ذاك. وكانت حجرتها الدائمة هناك هي بيتها الوحيد، وهذا ما جعلها تتوافق فوراً مع فلوريتينو اريثا، الذي كانت تقول عنه انه سيصير عالماً مشهوراً في العالم بأسره، لانه قادر على اغناء روحه بالمطالعة في جنة الشبق. وقد أبدى لها فلوريتينو اريثا من جانبه عطفاً شديداً، فكان يساعدها في شراء حاجاتها من السوق، واعتاد ان يمضي بعض الاماسي متحدثاً اليها، وكان يفكر بانها امرأة عالمة في الحب، اذ قدمت له اضاءات كثيرة حول حبه، دون ان يكشف لها عن سره.

واذا كان لم يسقط في الاغراءات الكثيرة التي في متناول يده قبل ان يعرف حب فيرمينا داثا، فانه لن يفعل ذلك بعد ان أصبحت خطيبته الرسمية. وهكذا كان فلوريتينو اريثا يعيش مع الفتيات، يقاسمهن الافراح والاتراح، دون أن يخطر بباله أو يبالهن المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. وقد جاء حادث طارئ ليؤكد صرامة قراره. ففي الساعة السادسة من

مساء أحد الايام ، وفيها الفتيات يرتدين ملابسهن استعداداً لاستقبال زبائن الليل ، دخلت إلى حجرته العاملة المكلفة بتنظيف الأرضية : امرأة شابة لكنها مترهلة وشاحبة ، ترتدي ملابسها كتائية في مملكة العاريات . وكان يراها يومياً دون أن يشعر بانها تراه . كانت تتنقل بين الحجرات حاملة المكناس ، وسطل القمامة ومسحة خاصة تلتقط بها عن الأرض مانعات الحمل المستخدمة . دخلت إلى الغرفة حيث كان فلورينتينواريثا يقرأ كعادته ، وكنت الأرض بحذر شديد كعادتها ، كي لا تزعجه وفجأة مرت بمحاذاة السرير ، وأحس باليد الدافئة والطرية فوق صليب بطنه ، وأحس بها تبحث عنه ، أحس بها تجده ، وأحس بها تحلّ الأزارار فيها تنفسها يملأ الغرفة . وتظاهر بأنه يقرأ إلى أن لم يعد قادراً على الاحتمال ، فاضطر للاعراض عنها بجسده .

فزعت المرأة ، بالتحذير الأول الذي اعطوها اياه لمنحها وظيفة عاملة هو ألا تضاجع أحداً من الزبائن . ولم يكن عليهن ان يقلن لها ذلك ، لأنها كانت ممن يفكرن بان الدعارة ليست في المضاجعة مقابل المال ، وانما في مضاجعة الغرباء . كان لها ابنان ، كل منهما من زوج مختلف ، وليس ذلك في مغامرات عرضية ، وانما لأنها لم تتمكن من حب رجل يرجع اليها بعد المرة الثالثة . لقد كانت حتى ذلك الحين امرأة ليست على عجلة من أمرها ، وكانت مهياة بطبعها للانتظار دون يأس ، ولكن الحياة في ذلك البيت كانت اقوى من عفتها . كانت تدخل إلى العمل في السادسة مساء ، وتقضي الليل كله متنقلة من حجرة الى اخرى ، كائنة الأرض بأربع ضربات من مكنستها ، جامعة موانع الحمل المستخدمة ، ومستبدلة شراشف الاسرة . ولم يكن سهلاً تصور كمية الاشياء التي يخلفها الرجال بعد الحب . انهم يتركون قيئاً ودموعاً ، وهذا كان يبدو لها مفهوماً . لكنهم كانوا يخلفون كذلك الكثير من ألغاز العلاقات الجنسية : بقع دم ، لطخات براز ، عيون زجاجية ، ساعات ذهبية ، اسنان اصطناعية ، علب تحتوي على خصل شعر ذهبية ، رسائل حب ، رسائل تجارية ، رسائل تعزية . . رسائل من كل صنف . وكان بعضهم يعود بحثاً عن اشياء المفقودة ، لكن معظم الاشياء كانت تبقى هناك ، وكان لوتاريو توغوت يحفظها تحت قفل ، مفكراً بان ذلك القصر الساقط في المحنة ، مع آلاف الاشياء الشخصية المنسية ، سيتحول عاجلاً أم آجلاً إلى متحف للحب .

كان العمل قاسياً وأجره ضئيلاً ، لكنها كانت تقوم به على أحسن وجه . أما ما لم تكن قادرة على احتماله فهو التهديدات ، والتأوهات ، وصرير نوابض الأسرة التي كانت تترسب في دمها بحرقه وألم شديدين ، وما ان يأتي الفجر حتى تكون عاجزة عن احتمال تلهفها للاضجاع مع أول شخاذ تلتقي به في الشارع ، أو مع أي سكير مبدد يقدم لها هذه الخدمة دون مطالب أو أسئلة اخرى . فان ظهر رجل بلا امرأة ، كفلورينتينواريثا ، فتي ونظيف ، بمثابة هدية من

السما بالنسبة لها. ذلك انها لاحظت منذ اللحظة الأولى انه مثلها: معوز للحب. أما هو، فلم يكن يحس بما تعانيه. لقد احتفظ بعذريته في سبيل فيرمينا داثا، وليست هناك قوة أو منطق في هذا العالم يثنيه عن عزمه.

وعلى هذا المنوال كانت حياته تسير قبل أربعة شهور من الموعد المحدد لإعلان الخطوبة، عندما ظهر لوريتشودا في الساعة السادسة صباحاً في مكتب التلغراف، وسأله عنه. وبما انه لم يكن قد حضر بعد، فقد انتظره جالساً على المقعد حتى الساعة الثامنة وعشر دقائق، ناقلاً من أصبع إلى آخر الخاتم الذهبي الثقيل المرصع بياقوتة نقية، وعندما رآه يدخل عرفه فوراً على انه موظف التلغراف، فأمسكه من ذراعه وقال له:

- تعال معي أيها الشاب. لدينا ما نتحدث فيه معاً لخمس دقائق حديث رجل لرجل. وانقاد فلوريتينواريثا، الذي صار لونه أخضر مثل ميت. لم يكن مهيئاً لهذا اللقاء، لان فيرمينا داثا لم تجد الفرصة ولا الوسيلة لاندازه. والقضية هي انه في يوم السبت الفائت، دخلت الاخت فرانكا دي لا لوث، رئيسة راهبات مدرسة ظهور العذراء المقدسة، إلى درس المعرفة الكونية بصمت أفعى، وفيها هي تتجسس على التلميذات، من فوق اكتافهن، اكتشفت ان فيرمينا داثا تتظاهر بانها تسجل ملاحظات على الدفتر بينما هي في الواقع تكتب رسالة حب. كانت هذه الخطيئة، حسب قوانين المدرسة، سبباً كافياً للطرد. ولدى استدعائه على عجل إلى مكتب الادارة، اكتشف لوريتشودا الثقب الذي كان يتسرب منه نظامه الحديدي. وقد اعترفت فيرمينا داثا، بقوة طبعها، بخطيئة الرسالة، لكنها رفضت الكشف عن هوية الحبيب السري. وعادت ترفض أمام محكمة الانضباط، التي أقرت لهذا السبب حكم الطرد. ورغم ذلك، فقد قام الأب بتفتيش غرفة نومها التي كانت حتى ذلك الحين مكاناً مقدساً لا يجوز خرق حرمة، ووجد في الصندوق ذي القاع المزدوج رسائل ثلاث سنوات، مخبأة بمحبة تضاهي المحبة المبذولة في كتابتها. لم يكن توقيع المرسل يحتمل الخطأ، لكن لوريتشودا لم يستطع ان يصدق حيثثذ، ولا فيما بعد، ان ابنته لا تعرف عن خطيبتها الخفي سوى مهنته في التلغراف وهوايته في عزف الكمان.

ولقناعته ان علاقة على هذا القدر من الصعوبة لا يمكن فهمها إلا بتستر شقيقته، فانه لم يسمح لهذه حتى بنعمة الاعتذار، وانما اجبرها على الابحار دون استئناف في مركب إلى سان خوان دي لاثيناغا. ولم تسترح فيرمينا داثا إلى الابد من عذاب ذكراها الأخيرة، في مساء اليوم الذي ودعتها فيه عند البوابة وهي تتقد بالحمى في مسوحها البني، ورأتها تختفي بعظامها البارزة وشحوبها تحت مطر الحديقة حاملة متاعها الوحيد المتبقي لها في الحياة: حقيبة العزباء، وبعض النقود، البيت لا تكاد تكفيها للحياة شهراً، ملفوفة بمنديل في طرف كمها.

وما ان تحررت من سلطة والدها فيها بعد حتى بعثت من يبحث عنها في مقاطعات الكاريبي ،
سائلة عنها كل من قد تعرف اليها ، ولم تجد أي خبر عن اثارها إلا بعد مرور حوالي ثلاثين
سنة ، عندما تلقت رسالة تناقلتها أيد كثيرة خلال زمن طويل ، وفيها يخبرونها بانها ماتت في
حوالي المئة من العمر في محجر اغوا دي ديوس الصحي . لم يتنبأ لورينثودا بالشراسة التي
سترد بها ابنته على العقاب الظالم الذي راحت ضحيته العمة اسكولاستيكا ، تلك العمة التي
كانت ترى فيها امها التي لا تكاد تتذكرها . لقد حبست نفسها مقفلة الباب بالرتاج في غرفة
النوم ، دون طعام أو شراب ، وعندما تمكن اخيراً من جعلها تفتح الباب ، بالتهديد أولاً ثم
بالتوسلات المنافقة ، وجد نفسه أمام لبوة جريح لن تعود ابنة خمس عشرة سنة إلى الأبد .

حاول اغراءها بكل أنواع التملق . حاول افهامها أن الحب في سنها ما هو إلا سراب ،
وحاول اقناعها بالحسنى ان تعيد الرسائل وترجع إلى المدرسة لتطلب الصفح جاثية ، ووعدها
بكلمة شرف انه سيكون أول من سيساعدها لتكون سعيدة مع خطيب محترم . لكنه كان
كميت يحدث ميتاً . أحس بالهزيمة ، وانتهى إلى فقدان أعصابه اثناء غداء يوم الاثنين ، وفيما
هو يشرق بالسباب والشتائم على حافة الهيجان ، تناولت سكين اللحم ووضعتها على
عنقها ، بلا دراماتيكية وبنبض ثابت ، وعينين ذاهلتين لم يجرؤ على تحديها . وكان ان قرر
حينئذ المخاطرة بالحديث كرجل لرجل ، لمدة خمس دقائق ، مع الدخيل المشؤوم الذي لا يذكر
انه رآه يوماً ، والذي وقف في طريق حياته في ساعة نحس . وبمحض العادة تناول المسدس
قبل ان يخرج ، لكنه حرص على حمله مخبأ تحت القميص .

لم يكن فلورينتينواريثا قد استرد انفاسه عندما قاده لورينثودا من ذراعه عبر ساحة
الكتدرائية حتى رواق الاقواس في مقهى الباروكية ، ودعاه للجلوس على المصطبة الخارجية ،
لم يكن هناك زبائن اخرون في مثل هذا الوقت ، وكانت امرأة زنجية تمسح بلاط الصالة
الضخمة ذات الواجهات الزجاجية المتشظية والمغبرة ، حيث كانت الكراسي ما تزال موضوعة
بالمقلوب فوق الطاولات الرخامية . كان فلورينتينواريثا قد رأى لورينثودا مرات كثيرة وهو
يلعب ويشرب النبيذ هناك مع استوري السوق العام ، الذين يشتبكون في مشادات صارخة
حول حروب مزمنة اخرى غير حروينا . ولقد تساءل مرات كثيرة ، وهو يعني قدرية الحب ،
كيف سيكون لقاءه الذي سيتم عاجلاً أم آجلاً مع هذا الرجل ، ذلك اللقاء الذي لن تحول
دونه قوة انسانية ، لانه مكتوب منذ الازل في قدر كل منهما . لقد رأى في الأمر شجاراً
لامتكافئاً ، ليس لأن فيرمينا داها لم تكن قد نبهته في رسائلها إلى طبع ابيها العاصف
فحسب ، بل لانه هو نفسه لاحظ من قبل ان له عينين غاضبتين حتى حين يقهقه ضاحكاً

على طاولة اللعب. ان كل ما فيه كان محصلة شراسة: كرشه اللئيم، وطريقة المفخمة في الكلام، وساقاه اللتان كساقى وشق، ويداه الغليظتان مع البنصر المخبئ بفص الياقوت الشيء اللين الوحيد فيه، والذي تنبه اليه فلوريتينو اريثا مذكراً يمشى لأول مرة، هو مشيته الغزلانية التي كمشية ابنته. ومعه ذلك، فانه لم يره فظاً كما كان يظن حين اشار له إلى الكرسي ليجلس، ثم انه استرد انفاسه عندما دعاه لتناول كأس من خمر لها طعم اليانسون. لم يكن فلوريتينو اريثا قد تناول مشروباً كهذا في الثامنة صباحاً من قبل لكنه وافق شاكراً، لانه كان بحاجة اليه وبسرعة.

لم يتأخر لوريتشودا فاعلاً اكثر من خمس دقائق في عرض غرضه، وفعل ذلك بصراحة مجردة جعلت الأمر يختلط على فلوريتينو اريثا. لقد وضع نصب عينيه، منذ وفاة زوجته، هدفاً وحيداً، هو ان يجعل من ابنته سيدة عظيمة. وكان السبيل الى ذلك طويلاً وشائكاً بالنسبة لتاجر بغال لا يحسن القراءة ولا الكتابة، رغم ان سمعته كلص مواشي لم تكن مؤكدة بنفس درجة انتشارها في مقاطعة سان خوان دي لا ثيناغا. أشعل سيجار بغال، وقال متحسراً: «الشيء الوحيد الذي اعتبره أسوأ من اعتلال الصحة هو سوء السمعة». ومع ذلك - قال - ان سر ثروته الحقيقي هو انه لم يكن يجعل اي من بغاله يعمل بقدر ما كان هو نفسه يعمل وبتصميمه، حتى في اكثر ايام الحرب مرارة، حين كانت القرى تستيقظ متحولة إلى ركام والحقول إلى هشيم. ورغم أن ابنته لم تطلع يوماً على مخطط مصيرها، إلا انها كانت تتصرف كشريكة متحمسة، فهي ذكية ومنظمة، حتى انها علمت اباها القراءة بالسرعة نفسها التي تعلمت هي بها. وفي الثانية عشرة من عمرها كانت مطلعة على الواقع بشكل يؤهلها لتسيير شؤون البيت دون حاجة للعملة اسكولاستيكا. وتنهد: «انها بغلة ذهبية». وعندما انتهت ابنته المدرسة الابتدائية، بدرجات قصوى في كل المواد، مع تنويه شرف في حفل الختام، أدرك ان بلدة سان خوان دي لا ثيناغا أصبحت ضيقة على احلامه. عندئذ صفى ممتلكاته من الاراضي والمواشي، وانتقل بقوى جديدة وسبعين ألف ييزو ذهباً إلى هذه المدينة المنهارة، ذات الامجاد المنخورة، ولكن حيث المجال متاح لامرأة جميلة ومؤدبة على الطريقة القديمة ان تولد من جديد بزواج محظوظ. لقد كان اقتحام فلوريتينو اريثا حياتها عائناً غير منتظر في ذلك المخطط الصارم. «اني آت لا تقدم منك برجاء». قال لوريتشودا اريثا. ثم بلل عقب السيجار بخمر اليانسون، وأخذ منه نفساً بلا دخان، واختتم بصوت مغموم: - ابتعد عن طريقنا.

كان فلوريتينو اريثا قد اصغى اليه وهو يتناول رشقات من خمر اليانسون، مندهلاً من اكتشاف ماضي فيرمينا داها، حتى انه لم يسأل نفسه عما سيقوله عندما سيتكلم. وما ان حان

وقت الكلام حتى انتبه الى ان تقرير مصيره متوقف على ما سيقوله . فسأل :
- هل كلمتها ؟

قال لورينثوداثا :

- هذا ليس من اختصاصك .

وقال فلورينتينو اريثا :

- انني أسأل لانني أرى انها هي التي عليها ان تقرر .

فقال لورينثوداثا :

- لا شيء من هذا . فالقضية قضية رجال ويجب تسويتها بين الرجال .

أصبحت نبرة صوته متوعدة ، والتفت زبون على طاولة مجاورة لينظر اليهما . وتكلم

فلورينتينو اريثا بأخفض صوت ممكن ولكن بأقصى ما لديه من تصميم .

قال :

- لا أستطيع اجابتك على اية حال دون ان أعرف رأيها ، لان ذلك سيكون خيانة .

حينئذ شد لورينثوداثا نفسه إلى الورا في المقعد ، بأجفانه المحمرة والرطبة ، ودارت عينه

اليسرى في محجرها لتستقر مائلة إلى الخارج . ثم خفض صوته أيضاً وقال :

- لا تجبرني على قتلك بإطلاق النار عليك .

أحس فلورينتينو اريثا ان احشائه قد امتلأت برغوة باردة ، لكن صوته لم يرتعش ، لانه

أحس ايضاً بانه ملهم بوحى من الروح القدس . فقال ويده على صدره :

- اطلق .

كان على لورينثوداثا ان ينظر اليه بجانبه ، كالبيغاوات ، ليراه بالعين المائلة . ولم ينطق

الكلمات الثلاث ، وانما بدا وكأنها يبصقها مقطعاً مقطعاً :

- يا - ابن - العا - هر - ة !

في ذلك الاسبوع بالذات حمل ابنته إلى رحلة النسيان . لم يقدم لها أي تفسير ، سوى انه

اقتحم غرفة نومها وشاربه ملوث بالغضب المختلط مع السيجار المضغوط ، وأمرها بان تجهز

أمتعة السفر . سأله إلى أين سيذهبان ، فأجابها : « إلى الموت » . وحاولت وهي فزعة من هذا

الجواب الذي يشابه الحقيقة كثيراً ، مواجهته بشجاعة الأيام الماضية ، لكنه نزع حزامه ذا

الابزيم النحاسي ، وطواه على قبضته ، ثم هوى على الطاولة بجلدة دوت في ارجاء البيت

كأنها طلبة بندقية . فعرفت فيرمينا داثا جيداً مدى قوتها ومناسبتها ، وهكذا أعدت أمتعة السفر

ولفتها ببساطين وارجوحة نوم ، ووضعت كل ملابسها في صندوقين كبيرين ، وهي متأكدة من

انها رحلة بلا عودة . وقبل ان ترتدي ثيابها ، حبست نفسها في الحمام وتمكنت من كتابة رسالة

وداع قصيرة إلى فلوريتينو أريشا على ورقة منتزعة من مجموعة الورق الصحي . ثم قصت ضفيرتها كاملة من مستوى الرقبة بمقص تقليم ، ولفتها في علبة من المخمل مطرزة بخيوط ذهبية وبغشت بها مع الرسالة .

كانت رحلة مجنونة ، مرحلتها الأولى وحدها استغرقت أحد عشر يوماً برفقة قافلة بغالي الانديز ، على صهوة بغلة فوق جروف سلسلة سيرا نيفادا الوعرة ، وقد امضوها وهم مخدرون بالشموس الالهية أو مبللين بأمطار تشرين الافقية ، وبأنفاس مخدرة في معظم الأحيان بفعل الروائح المنومة التي تنبعث من الجروف . وفي اليوم الثالث للرحلة انزلقت بغلة هائجة بسبب ذباب الدواب وهوت مع فارسها ساحبة معها مجموعة البغال المربوطة واياها كلها ، واستمرت زعقة الرجل وعنقوده المؤلف من سبع بهائم مربوطة إلى بعضها تتردد في الأودية والوهاد لعدة ساعات بعد الكارثة ، وبقيت تظن في ذاكرة فيرمينا دائماً لسنوات وسنوات . لقد هوى كل متاعها مع البغال ، ولكنها في لحظة القرون التي استغرقها السقوط إلى ان انطفأت صرخة البغال في القاع ، لم تفكر بالرجل المسكين الذي مات ولا بالقافلة التي تمزقت ، وإنما كانت ترى الكارثة في ان بغلتها التي تمتطيها لم تكن مربوطة مع البغال الاخرى . كانت المرة الأولى التي تمتطي فيها صهوة بهيمة ، ولكن رعب الرحلة وآلامها التي لا حصر لها ماكانت لتبدوها بهذه المرارة لولا قلقها من كونها لن ترى فلوريتينو أريشا بعد اليوم ولن تتعزى برسائله . منذ بدء الرحلة لم تبادل والدها الحديث ، وهذا كان قلقاً بدوره حتى انه لم يكلمها إلا في بعض الامور الضرورية ، او اكتفى بارسال بعض التعليقات اليها مع البغالين . وحين كان الحظ يحالفهم ، يجدون نزلاً على الطريق يُقدم فيه طعام جبلي ترفض تناوله ، ويؤجرونهم فراشاً متسخاً بعرق وبول زنخين . أما غالبية الليالي فكانوا يقضونها في اكواخ هنود ، أو في منامات عامة في الهواء الطلق مشادة على حافة الدروب في صفوف من اكواخ خشبية ذات سقوف من النخيل ، حيث لكل من يصل الحق بالبقاء حتى الفجر . لم تتمكن فيرمينا دائماً من النوم ليلة كاملة وهي تتعرق خوفاً ، وتحس في الظلام بحركة المسافرين الرشيقه وهم يربطون دوابهم في الاكواخ الخشبية ويعلقون اراجيح نومهم حيث يستطيعون .

في المساء ، وعند وصول أول المسافرين ، يكون المكان بهياً وهادئاً ، لكنه يتحول عند الصباح إلى ساحة مهرجان ، مليئة بحشد من اراجيح النوم المعلقة على عدة مستويات ، وهنود ارواكو الجبليين الذين ينامون مقرقسين ، وتلملل الماعز المربوطة وصخب ديكة المصارعة في صناديقها الفرعونية ، والصمت اللاهث للكلاب الجبلية المدربة على عدم النباح خوفاً من مخاطر الحرب . لقد كانت تلك الاجواء مألوفة للوريتشودا ، الذي عمل تاجراً في المنطقة

خلال نصف حياته ، وكان يلتقي بشكل شبه دائم مع اصدقاء قدماء عند الفجر . أما بالنسبة للابنة فكان احتضاراً مؤبداً . ان ثنائة شحنات السمك المملح ، مضافة إلى فقدانها الشهية شوقاً ، توصلنا إلى اتلاف عادة الأكل لديها ، واذا كان لم يصبها مس من اليأس فلأنها وجدت الفرج دوماً في ذكرى فلورنتينواريتا . ولم تشك للحظة في ان تلك الأرض هي أرض النسيان . وكان هناك رعب دائم آخر هورعب الحرب . فمنذ بدء الرحلة جرى حديث عن خطر الالتقاء بالدوريات المنتشرة ، وقد دربهم البغالون على مختلف الاساليب لمعرفة الجهة التي ينتمون اليها ليتصرفوا بما يتلاءم مع ذلك . وكثيراً ما كانوا يلتقون بارسالية جند على الخيول ، تحت امرة ضابط ، تقوم بحملة تجنيد اجباري لمجندين جدد وذلك بربطهم كالعجول واجبارهم على الجري . ومثقلة بكل هذه المخاوف ، نسيت فيرمينا داثا ذاك الذي بدا لها اكثر خرافية من الامور الوشيكة الحدوث ، إلى ان اختطفت دورية بلا انتهاء معروف مسافرين من القافلة في احدى الليالي وشنقتها على شجرة كابلي على بعد فرسخ واحد من المنامة . لم يكن للورينثوداثا أية علاقة بهما ، لكنه انزلها عن الانشطة ودفنها كمسيحين وذلك بدافع الحمد لكونه لم يلق المصير نفسه . وكان هذا أقل ما يمكن عمله . لان المهاجرين كانوا قد ايقظوه وفوهة بندقية مصبوبة إلى بطنه ، واقترب منه قائد بأسهال ، وجهه مطلي بسناج أسود ، وصبوب نحوه ضوء مصباح يدوي ، وسأله ان كان ليبرالياً أم محافظاً . فقال لورينثوداثا :
- لست هذا ولا ذاك . أنا مواطن إسباني .

فقال الكومندان :

- يا لك من محظوظ ! - ثم ودعه رافعاً يده إلى أعلى وقال :- فليحيا الملك !

بعد يومين من ذلك نزلوا إلى السهل الساطع ، حيث تقبع بلدة فايديوار السعيدة . كانت تقام هناك مصارعات ديك في الباحات ، وتُعزف موسيقى اوكورديون في المنعطفات ، كما كان هناك فرسان يمتطون صهوات جياد كريمة ، وألعاب نارية وقرع نواقيس . وكانوا قد نصبوا كذلك قلعة من الاسهم النارية . لكن فيرمينا داثا لم تعراي اهتمام حتى للجوقة الموسيقية . استضافها الخال ليسيماكوسانتشيث ، شقيق امها ، الذي خرج لاستقبالهم على الطريق الرئيسي ترافقة كوكبة من الفرسان الاقارب الشباب الذين يمتطون بهائم من أفضل سلالات المقاطعة ، وقادوها عبر شوارع البلدة وسط فرقة الألعاب النارية . كان البيت في نطاق الساحة الكبرى ، إلى جوار الكنيسة الاستعمارية المرمة عدة مرات ، والتي كانت أشبه بمستودع محصولات بحجراتها الفسيحة والمظلمة ، وعمرها العابق برائحة عصير قصب السكر الدافئ ، مقابل بستان أشجار مثمرة .

وما ان ترجلوا في الاصطبلات، حتى امتلأت صالات الاستقبال باعداد من الاقارب
المجهولين الذين كانوا يزعجون فيرمينا داثا بسيل عواطفهم الذي لا يطاق، لانها كانت
عاجزة عن حب أحد آخر في هذا العالم، اضافة إلى تسليخ بشرتها من امتطائها البهيمه،
وانهاكها من النعاس والاسهال، والشيء الوحيد الذي كانت تشوق اليه هو مكان منعزل
وهادئ لتبكي فيه. وكانت ابنة خالها هيلديبراندا، التي تكبرها بستين ولها كبرياؤها
الامبراطوري ذاته، هي الوحيدة التي تفهمت حالتها منذ رأتها لأول مرة، لانها كانت تكتوي
كذلك بعجرات حب متهور. رافقتها عند المساء إلى حجرة نومها التي أعدتها لتتقاسمها
واياها، ولم تستطع ان تفهم كيف ما زالت على قيد الحياة بهذه القروح النارية في يتيها.
وبمساعدة أمها، وهي امرأة عذبة وشبيهة جداً بزوجها حتى ليدوان وكأنهما توأمان، أعدت
لها مغطساً وخففت لها حرارة الحمى بكمامات من ازهار جبلية، فيما كانت اسهم قلعة البارود
النارية تهز أعماق البيت.

انصرف الزوار عند منتصف الليل، وتفرقت الحفلة العامة إلى جذوات مبشرة، وأعارت
ابنة الخال هيلديبراندا قميص نوم قطنياً أبيض لفيرمينا داثا، وساعدتها على الاستلقاء في
سرير ذي شرشف نظيفة ووسادة ريش أوجت لها بغتة برعب السعادة المفاجيء. وعندما بقيتا
وحدهما أخيراً، أغلقت الباب بالمزلاج وأخرجت من تحت فرشاة سريرها مغلفاً مختوماً بشعار
التلغراف الوطني. وكانت رؤية تعابير المكر المشعة من وجه ابنة الخال تبرعم في ذاكرة قلب
فيرمينا داثا رائحة أزهار الياسمين البيضاء، قبل ان تفتت باسنائها خاتم الشمع الاحمر وتبقى
حتى الفجر متخبطة في بركة دموع البرقيات الاحدى عشر الخارقة.

وعرفت حينئذ كل شيء. فقبل الانطلاق بالرحلة، ارتكب لورينثوداثا خطيئة اخطار حماه
ليسيماكو سانتشيث بالتلغراف، ويعث هذا بدوره الخبر إلى حلقة أقربائه الواسعة والمعقدة،
المنتشرة في عدد كبير من قرى ودروب المقاطعة. وهكذا لم يتمكن فلورينتيناواريثا من معرفة
طريق السفر كله فقط، وانما أقام كذلك جمعية واسعة من عمالي التلغراف لاقتفاء اثار فيرمينا
داثا حتى آخر قرية في كابودي لافيللا. وقد اتاح له ذلك الاحتفاظ باتصال مكثف معها منذ
وصولها إلى فييدويار، حيث اقامت ثلاثة شهور، وحتى نهاية الرحلة في ريوهاتشا، بعد سنة
ونصف، حين هُيئت للورينثوداثا ان ابنته قد نسيت، وقرر الرجوع إلى بيته. ربما لم يكن هو
نفسه واعياً مدى تراخي مراقبته، في انشغاله بمداهنات انسابه السياسيين، الذين تخلوا بعد
كل هذه السنين عن اوهامهم القبلية وقبلوه بقلب مفتوح كواحد منهم. لقد كانت زيارة
مصالحة متأخرة، رغم ان الغرض الاساسي منها لم يكن كذلك. كانت عائلة فيرمينا
سانتشيث قد عارضت فعلاً، وبكل اصرار زواجها من مهاجر بلا اصل، متوحش وكثير

الكلام، كان يمضي عابراً في كل الاماكن، بتجارة بغال شبة تبدو شديدة البساطة حتى ليُشك في نظافتها. كان لوريتشودا يلاعب لعبة كبيرة، لان محبوبته هي افضل فتاة في عائلة تقليدية من عائلات المنطقة: قبيلة متشابكة من النساء الباسلات والرجال طيبي القلب وسهلي الزناد، الذين يهيجون إلى حد الجنون في مسائل الشرف. ومع ذلك، فقد أصرت فيرمينا سانتشيث بكبريائها على قرار حبها الاعمى، وتزوجت منه رغم غضب العائلة بسرعة كبيرة واسرار كثيرة، فبدت وكأنها لم تفعل ذلك بدافع الحب وانما لاختفاء زلة مبكرة بغطاء مقدس.

وبعد خمس وعشرين سنة، دون ان يتبّه لوريتشودا إلى ان عناده أمام حب ابنته هو تكرار لتاريخه المعيب ذاته، كان يشكّو بلواه أمام أحمائه الذي عارضوا زواجه، كما شكّا هؤلاء في حينهم أمام أحمائهم. ولكن الوقت الذي كان يضيعه في حسرته كانت ابنته تكسبه في غرامياتها. وفيما هو منصرف إلى خصي العجول وترويض البغال في أرض أحمائه السعيدة، كانت هي تمضي مُفَلّنة الأعنة مع فوج من بنات خؤولتها تقودهن هيلديبراندا سانتشيث، أجملهن وأسرعهن في تقديم الخدمات، والتي كانت تكتفي بنظرات مختلصة في حبها الطائش لرجل يكبرها بعشرين سنة، متزوج وأب لأولاد.

بعد اقامة طويلة في فاييدوبار، تابعا الرحلة عبر المرتفعات المجاورة لسلسلة الجبال، مجتازين مروجاً مزهرة وتلالاً حاملة، واستقبلوا في جميع القرى بمثل الاستقبال الاول، مع الموسيقى والمفرقعات، وبنات خؤولة جديداً متواطئات ورسائل منتظمة في مكاتب التلغراف. وسرعان ما تنبّهت فيرمينا داذا إلى ان وصولها إلى فاييدوبار ولم يكن مختلفاً، وان جميع أيام الاسبوع في تلك المقاطعة الغنية كانت تعاش وكأنها أيام أعياد. كان الضيوف ينامون حيث يفاجئهم الليل ويأكلون حيث يصادفهم الجوع، فالبوت مشرعة الابواب فيها دائماً ارجوحة نوم معلقة وطبيخ به بضع قطع من اللحم يغلي على موقد، تحسباً لقدم أحد قبل وصول برقية الاعلان عن مجيئه، كما كان يحدث بشكل شبه دائم. رافقت هيلديبراندا سانتشيث ابنة عمتها في بقية مراحل الرحلة، وقادتها بسعادة عبر تشابكات الدم حتى منابع أصلها. وتعرفت فيرمينا داذا على ذاتها، وأحست بانها سيدة نفسها للمرة الأولى، أحست بانها مرافقة ومحمية، وان رثيها ممتلئان بهواء حرية أعاد لها الطمأنينة وارداة الحياة. وبقيت تذكر تلك الرحلة حتى سنواتها الاخيرة، وتشعر بها اقرب عهداً في ذاكرتها، مع صحوات الحنين المضللة.

وفي احدى الليالي رجعت من جولتها اليومية مصعوقة لاكتشافها أن المرء لا يمكن ان يكون سعيداً دون الحب فحسب بل وضده أيضاً. وقد افزعها هذا الاكتشاف لان احدى بنات

اخوالها استمعت مصادفة الى حديث بين ابائهن ولورينثودا، لمح هذا الاخير خلاله إلى موافقته على فكرة زواج ابنته من وارث ثروة كليوفاس موسكوتي الخيالية . كانت فيرمينا داثا تعرفه . فقد رآته وهو يذرع الساحات على متن جياده الكريمة ، ذات السروج الفاخرة التي تبدو وكأنها زينة القديس ، وكان أنيقاً وجذاباً ، له رموش حاملة تجعل الاحجار تتهد ، لكنها قارنته في ذاكرتها بفلورينتينواريثا الجالس تحت أشجار اللوز في الحديقة ، بائساً وضامراً ، مع كتاب الاشعار في حضنه ، ولم تجد في قلبها ظلاً من الشك .

كانت هيلديبراندا سانتشيث تمضي في تلك الايام مهووسة بالاحلام بعد زيارة قامت بها لعرافة اذهلتها دقة بصيرتها . فذهبت فيرمينا داثا ، المرتعبة من نوايا أبيها ، لاستشارتها كذلك . وقد أنبأها الورق بانه لا وجود في مستقبلها لأي عائق أمام زواج طويل وسعيد ، وند اعادت لها تلك النبوءة انفاسها ، لانها لم تكن تتصور بانه يمكن لمصير موفق إلى هذا الحد ان يكون مع رجل آخر سوى الذي تحبه . وتولت حينئذ مقاليد اختيارها وهي سعيدة بهذا اليقين . وهكذا لم تعد مراسلاتها مع فلورينتينواريثا مجرد كونشيرتو من النوايا والوعود الخيالية ، بل عادت لتصبح منهجية وعملية ، وأكثر زخماً من كل ما سبق . حددوا المواعيد ، وأقرا الاساليب ، ورهنا حياتهما بقرارهما المشترك في الزواج دون الرجوع إلى أحد ، في اي مكان وبأية طريقة ، وذلك فور لقائهما من جديد . كانت فيرمينا داثا تعتبر هذا الوعد حاسماً ، لدرجة انه في الليلة التي سمح لها فيها ابوها بحضور الحفلة الراقصة الأولى كراشدة ، في بلدة فونسيكا ، لم تر انه من الوقار القبول بالذهاب دون موافقة خطيبها . وفي تلك الليلة كان فلورينتينواريثا يلعب الورق مع لوتاريو توغوت في فندق العابرين ، عندما اخبروه بانه مطلوب في اتصال برقي مستعجل .

كان المتصل هو موظف التلغراف في فونسيكا . الذي عشق سبع محطات وسيطة لتطلب فيرمينا داثا الاذن بحضور الحفلة الراقصة . ولكنها حين حصلت على التصريح ، لم تكف بمجرد الرد الايجابي ، وانما طلبت ما يثبت ان فلورينتينواريثا هو من يضرب مفاتيح الارسال في الطرف الآخر من الخط فعلاً . فصاغ هو مذهب هول اكثر منه مغازلاً عبارة بتحدد هويته : قل لها أنني اقسم بالربة المتوجة . وهكذا تعرفت فيرمينا داثا على الاشارة ، وبقيت في حفلتها الراقصة الأولى كراشدة حتى الساعة السابعة صباحاً ، عندما اصبح عليها الذهاب لاستبدال ملابسها كي لا تصل متأخرة إلى القديس .

كانت تملك حينئذ في قاع صندوقها كمية من الرسائل والبرقيات اكبر من تلك التي انتزعها ابوها منها . وكانت قد تعلمت ان تسلك سلوك النساء المتزوجات . وقد اعتبر لورينثودا تلك التبدلات التي طرأت على سلوكها بانها شفاء لا شك فيه من أوهام شبابها أوصلها اليه

البعد والزمن ، لكنه لم يطرح عليها ابداً مشروع الزواج المتفق عليه . وأصبحت علاقتها بابيها اكثر انسياً ، ضمن التحفظات الشكلية التي فرضتها منذ طرد العمة اسكولاستيكا ، مما أتاح لهما نوعاً من التعايش المريح ما كان لأحد ان يشك بانه ليس قائماً على المحبة .

وكان ان قرر فلورينتينو اريثا في هذه الفترة اخبار فيرمينا داثا في رسائله بانه مشغول في الكشف لها عن كنز السفينة الغارقة . كان يفعل ذلك حقاً ، ولقد خطر له الأمر كتفحة الهام ، ذات مساء منير بينما البحر يبدو وكأنه مرصوف بالألمنيوم ، لكميات السمك الطافية على سطح الماء بفعل ازهار البارباسكو . كانت جميع طيور السماء قد هاجت للمجزرة ، بينما تولى الصيادون أمر افزاعها بالمجازيف كي لا تشاركهم ثمار تلك المعجزة المحرمة . فاستخدام البارباسكو ، الذي يخدر الاسماك فقط ، كان محظوراً في القانون منذ العهد الاستعماري ، لكنه بقي سائداً ومستخدماً في وضوح النهار بين صيادي الكاريبي ، الى ان استبدل بالديناميت . ان احدى متع فلورينتينو اريثا ، اثناء رحلة فيرمينا داثا ، كانت مشاهدة الصيادين ، من فوق حائل الامواج ، وهم يملؤون زوارقهم بالشباك المترعة بالاسماك المخدرة . كما كانت هناك عصبة صبيان يسبحون كأسماك القرش ويطلبون من الفضوليين القاء قطع نقدية لاستخراجها من قاع الماء . انهم اولئك الذين ينطلقون سابحين للغرض ذاته للقاء عابرات المحيطات ، والذين كتبت عنهم مقالات وتحقيقات رحالة كثيرة في الولايات المتحدة واوروبا ، لمهارتهم في فن الغوص . لقد كان فلورينتينو اريثا يعرفهم منذ الازل ، بل وقبل ان يعرف الحب ، ولكن لم يخطر بباله يوماً انهم قادرون على استخراج كنز السفينة سباحة . وقد فكر بذلك مساء هذا اليوم ، ومنذ يوم الأحد التالي وحتى عودة فيرمينا داثا ، بعد حوالي سنة ، كان لديه بسبب آخر للهديان .

لقد فتن اوكليديس ، أحد الصبية السباحين ، كثيراً كما فتن هو بفكرة الاستكشاف تحت الماء ، بعد محادثة لم تتجاوز عشر الدقائق . لم يكشف له فلورينتينو اريثا عن حقيقة مشروعه ، بينما استفسر منه بالتفصيل عن امكاناته كغواص ويحار . سأله ان كان يستطيع النزول دون هواء الى عمق عشرين متراً ، وقال له اوكليديس نعم . سأله ان كان في وضع يؤهله لقيادة زورق صياد بمفرده في عرض البحر وسط عاصفة ، دون أية ادوات اخرى سوى غريزته ، وقال له اوكليديس اي نعم . سأله ان كان قادراً على تحديد موقع معين على بعد ستة عشر ميلاً بحرياً الى الشمال الشرقي من الجزيرة الكبرى في ارجيل سوتافيتو ، وقال له اوكليديس اي نعم . سأله ان كان قادراً على الابحار ليلاً والتوجه مهتدياً بالنجوم ، وقال له اوكليديس اي نعم . سأله ان كان مستعداً للعمل معه بالاجر نفسه الذي يدفعه له الصيادون لقاء مساعدتهم في الصيد ، وقال له اوكليديس اي نعم ، انما مع اضافة خمس ريات في أيام

الآحاد . سألته ان كان يحسن حماية نفسه من اسماك القرش ، وقال له اوكليديس اي نعم ، وان لديه تعاويذ سحرية لافزاعها . سألته ان كان قادراً على كتمان السر حتى ولو وضعوه على آلات التعذيب في قصر محكمة التفتيش ، وقال له اوكليديس اي نعم . لم يقل له « لا » عن أي شيء أذن ، وكان يعرف كيف يقول نعم بخصوصية لا يرقى اليها الشك . ثم عرض عليه اخيراً حساب النفقات : لستجار الزورق ، لستجار المجداف ، لستجار عدة صيد حتى لا يرتاب أحد بحقيقة رحلاتهم . اضافة إلى حمل الطعام ، وقرية ماء عذب ، ومصباح زيت ، وحزمة شموع من الشحم ، وقرن صياد لطلب النجدة في حالة الطواريء .

كان عمره حوالي اثني عشر عاماً ، وكان سريعاً وماكراً ، ومتحدثاً لا يمل الكلام ، له جسد حنكليس يبدو وكأنه قد تكون ليمر بخفة من نافذة سفينة . وكانت عوامل الجوق قد دبغت بشرته بحيث أصبح مستحيلاً معرفة لونها الاصيلي ، وهذا جعل عينيه الواسعتين الصفراوين تبدوان اكثر بريقاً . وقرر فلورينتينو اريثا على الفور بانه الشريك المناسب لمغامرة بمثل هذا الحجم ، وانطلقا في تلك المغامرة يوم الأحد التالي دون أية اجراءات اخرى .

ابحرا من مرفأ الصيادين عند الفجر ، مومنين جيداً وعاقدين العزم اكثر . كان اوكليديس شبه عار ، لا يكاد يغطي جسده سوى المتز الذي يضعه دوماً حول وسطه . وكان فلورينتينو اريثا يرتدي السترة الرسمية ، والقبعة القاتمة ، وجزمته الصقيلة ، ويضع ربطة الشاعر حول عنقه ، ويحمل الكتاب الذي سيشغل نفسه به اثناء الرحلة إلى الجزر . ومنذ يوم الأحد الأول انتبه الى ان اوكليديس كان بحاراً حاذقاً كما هو غواص ماهر ، وان له قدرة مذهلة على الحديث عن طبيعة البحر وخردة الحديد التي على الشاطئ . فهو قادر على سرد حكاية كل هيكل من هياكل السفن التي عاث فيها الصدا بأدق تفاصيلها التي لا ترد على بال ، ويعرف عمر كل جسم طاف ومنشأ كل حطام ، وعدد حلقات السلسلة التي كان الانسبان يغلقون بها الخليج . وخشية ان يكون قد عرف كذلك الغرض من هذه الحملة ، وجه اليه فلورينتينو اريثا بعض الاسئلة المراوغة ، وعرف من خلالها انه لا تراود اوكليديس أية شكوك حول مسألة السفينة الغارقة .

منذ سمع حكاية الكنز لأول مرة في فندق العابرين ، جمع فلورينتينو اريثا كل ما امكنه من معلومات عن دروب ذلك النوع من السفن . وعرف ان السفينة سان خوسيه ليست السفينة الوحيدة في الأعماق المرجانية . لقد كانت بالعمل سفينة القيادة في اسطول تيرا فيرميه ، وقد جاءت هنا بعد شهر ايار من عام ١٧٠٨ ، قادمة من مهرجان بورتوبيلو الخرافي في بناما ، حيث حملت جزءاً من كنزها : ثلاثمئة صندوق من فضة البير ووفير اكروث ومئة وعشر لآلىء جمعت واحصيت في جزيرة كونتا دورا . وخلال اقامتها التي دامت لاكثر من شهر هنا ، كانت ايامها

ولياليها عبارة عن مهرجانات شعبية ، قاموا بتحميلها ببقية الكثر المرصود لاجراج مملكة اسبانيا من الفقر: مئة وستة عشر صندوقاً من زمرد موثووسوموندوكو، وثلاثين مليون مسكوكة ذهبية . كان اسطول تيرا فيرميه مؤلفاً مما لا يقل عن اثنتي عشرة سفينة متنوعة الاحجام . وقد أبحر من هذا الميناء في رحلة يحميها اسطول فرنسي حسن التسليح ، لم يستطع رغم ذلك حماية الحملة من مدافع الاسطول الانكليزي الصائبة ، بقيادة القمندان كارلوس واغير ، الذي كان ينتظر في ارخبيل سوتا فينتو، عند مخرج الخليج . وهكذا لم تكن سان خوسيه هي السفينة الوحيدة الغارقة ، مع انه لا وجود لتوثيق دقيق لعدد السفن التي تحطمت وعدد تلك التي استطاعت النجاة من نيران الانكليز . لكن الذي لا شك فيه هو ان سفينة القيادة كانت من السفن الأولى التي غرقت بكامل طاقمها مع قائدها الذي لم يتزحزح من مقصورة القيادة ، وانها هي وحدها التي كانت تحمل الشحنة الكبيرة .

لقد تعرف فلورينتينو اريثا على طريق السفن القديمة من خلال رسائل قباطنة السفن في ذلك العصر، وظن بانه حدد مكان الفرق أيضاً . خرجا من الخليج ما بين حصني بوكاتشيكا ، وبعد أربع ساعات من الابحار دخلا في الماء الراكد ما بين جزر الارخبيل ، ذلك الماء ذي الأعماق المرجانية ، حيث بالامكان امسك اسماك جراد البحر النائمة باليد . كان الهواء خفيفاً ، والبحر هادئاً وصافياً ، حتى ان فلورينتينو اريثا رأى نفسه معكوساً في الماء . وبعد التجديف لمدة ساعتين من الجزيرة الكبرى ، وصلا إلى موقع الفرق .

أشار فلورينتينو اريثا المحتقن بالشمس الجهنمية في ملابسه المائتية على اوكليديس ان يحاول النزول إلى عمق عشرين متراً وجلب أي شيء يجده في القاع . لقد كان الماء صافياً لدرجة انه رآه وهو يتحرك في الأسفل ، مثل سمكة قرش متسخة بين أسماك القرش الزرقاء التي تهر إلى جانبه دون ان تمسه . ثم رآه يخنفي في عرق مرجاني ، وعندما فكر بانه لم يعد لديه أي قدر من الهواء سمع الصوت وراء ظهره . كان اوكليديس واقفاً في القاع ويداه مرفوعتان والماء يغمره حتى خصره . وتابع البحث على هذا المنوال عن أماكن أعمق ، متوجهين دائماً نحو الشمال ، ومبحرين فوق أسماك الماتاراتا الدافئة ، والحباري الهيابة ، وورود الظلمات ، إلى ان أدرك اوكليديس بانها يضيعان وقتها . فقال له :

- اذا لم تقل لي ما الذي تريدني ان أجده ، فلست أدري كيف سأتمكن من العثور عليه . لكنه لم يخبره . عندئذ اقترح عليه اوكليديس نزع ملابسه والنزول معه ، ولولمجرد رؤية هذه السماء الاخرى للكون التي في الأعماق المرجانية . لكن فلورينتينو اريثا اعتاد على القول بان الله انما خلق البحر لنراه من النافذة ، ولم يحاول يوماً ان يتعلم العوم : بعد ذلك بقليل أصبح المساء غائماً ، وصار الهواء رطباً وبارداً ، وأظلمت الدنيا بسرعة بما اضطرهما للاسترشاد

بالفئار لىصلا إلى المرفأ . وقبل ان ىدخلا الخلىج ، رأيا عابرة الملىطات الفرنسىة ثم قريبا جداً منها وجميع انوارها مضاءة ، كانت ضخممة وبيضاء ، وخلفت وراءها اثراً من رائحة لحم طازج مطبوخ وقنىبط يغلى .

لقد أضاعا ثلاثة آحاد على هذا الحال ، وكانا سىضيعان جميع أيام الآحاد لولم يقرر فلورىنتىنوارىثا مشاركة اوكلیدىس فى سره . فقام هذا عندئذ بتعدىل خطة البحث كلها ، ومضىا للابحار فى القنال القدىم الذى كانت تسلكه السفن ، والذى كان یبعد اكثر من عشرين فرسخاً بحرىاً إلى الشرق من المكان الذى خمنه فلورىنتىنوارىثا . وقبل انقضاء شهرىن ، فى مساء يوم بحرى ماطر ، بقى اوكلیدىس وقتاً طویلاً فى القاع ، وكان الزورق قد انحرف كثيراً مما جعله یسبح حوالى نصف ساعة للحاق به ، حیث ان فلورىنتىنوارىثا لم یستطع تقربیه بالمجداف . وعندما تمكن من الامساك بالزورق اخيراً ، أخرج من فمه قطعى حلّى نسائیة وعرضهما باحساس المئابىر الفائز .

ان مارواه حیثئذ كان أخذاً ، مما جعل فلورىنتىنوارىثا یقطع على نفسه عهداً بتعلم السباحة ، والغوص إلى حیث یستطیع ، لیتأكد من ذلك بعینه فقط . روى انه توجد فى ذلك المكان ، وعلى عمق ثمانية عشر متراً فحسب ، أعداد من السفن الشراعیة القدیمة جائمة یز الصخور المرجانیة ، وانه یستحیل علیه حصر عددها ، وانها موزعة فى مجال فسیح لا یحیط به البصر ، وروى ان اكثر ما فاجأه هو انه لا یوجد قارب واحد بین القوارب الكثیرة الطافیة فى الخلىج ، أحسن حالاً من السفن الغارقة . روى ان هناك عدة سفن شراعیة ما زالت أشرعتها فى حالة جیدة ، وان السفن الغارقة كانت تبدوللنظر فى الاعماق كما لو انها غرقت بمكان وزمانها ، حتى انها ما زالت مضاءة بشمس الساعة الحادیة عشرة من صباح يوم السبت . التاسع من حزىران ، الذى غرقت فیه . وروى ، مختنفاً باندفاع خیاله ، ان أسهل سفینة یمكن تملیزها هی سان خوسیه ، التى یدو اسمها للعیان مكتوباً على مقدمتها بحروف مر الذهب ، لكنها فى الوقت ذاته السفینة التى لحق بها اكبر ضرر من مدافع الانجلىز . وروى ان رأى بداخلها أخطبوطاً عمره اكثر من ثلاثة قرون ، تخرج ملامسه من فتحات المدافع ، وانه قد تضخم كثيراً فى صالة الطعام لدرجة ان اخراجه ىستوجب تفكیک السفینة . وروى انه رأى جسد قبطان السفینة بزیه الحربى طافياً على جانبہ فى الحوض المائى المتشكل فى مقصور القيادة ، وقال انه اذا كان لم ینزل الى عنابر الكتز فلأن هواء رئیه لم یکفه لذلك . وها هو الادلة : قرط به زمردة ، ومیدالية علیها صورة العذراء مع سلسلتها المتأكلة بفعل الاملاح .

هكذا ذكر فلورىنتىنوارىثا الكتز لأول مرة فى رسالة موجهة إلى فرمینا دائا بعثها الیها فونسیکا قبل عودتها بقلیل . لقد كانت قصة السفینة الغارقة مألوفة لیدیها ، اذ سمعت بها عا

مرات من لورينثوداثا، الذي أضاع وقتاً ومالاً في محاولة لاقتناع مؤسسة غواصين ألمان للتعاون معه في استخراج الكنز الغارق. وكان سيلح على المهمة، لولا ان عدداً من أعضاء أكاديمية التاريخ أقنعوه بان اسطورة السفينة الغارقة ابتدعها أحد حكام المستعمرات اللصوص الذي استولى بهذه الوسيلة على ثروات التاج. وكانت فيرمينا داثا تعرف، على اية حال، ان السفينة تجثم على عمق مئتي متر، حيث لا يستطيع كائن بشري الوصول اليها، وليس على عمق عشرين متراً كما يقول فلورينتينواريثا. لكنها كانت معتادة جداً على شطحاته الشعاعية لدرجة انها احتفلت بمغامرة السفينة على انها واحدة من أكبر شطحات خياله. ولكنها حين توالي تلقيها لرسائل اخرى تتضمن تفاصيل اكثر غرابة، مكتوبة بجدية تضاهي جدية وعوده في الحب، اضطرت للاعتراف امام هيلديبراندا بمخاوفها من ان يكون خطيبها المخبول قد فقد عقله.

كان اوكلديس قد خرج في هذه الايام بأدلة عديدة على اسطوره، بحيث لم تعد القضية هي متابعة اللعب باقراط وخواتم مبعثرة ما بين الصخور المرجانية، وانما تمويل عملية ضخمة لاستخراج الخمسين سفينة مع الثروة البابلية التي تحملها في جوفها. حينئذ حدث ما كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً، اذ طلب فلورينتينواريثا من امه ان تساعدته للوصول بمغامرته إلى نهايتها الطبيعية، واكتفت هي بعض معدن الحلي باسنانها، والتمعن في الاحجار الزجاجية أمام الضوء لتدرك ان هناك من يتعيش على سداجة ابنها. وأقسم اوكلديس لفلورينتينواريثا وهو جاث على ركبتيه انه لا وجود لأية شائبة تشوب أعماله، لكنه اختفى من ميناء الصيادين في يوم الأحد التالي، ثم اختفى نهائياً ولم يعد يظهر في أي مكان.

الشيء الوحيد الذي بقي لفلورينتينواريثا من كل تلك المغامرة الفاشلة هو ملجأ الهوى في الفئار. كان قد وصل إلى هناك في الزورق مع اوكلديس، في ليلة فاجأتهم فيها العاصفة وهما في عرض البحر، واعتاد منذ ذلك الحين الذهاب في المساء لتبادل الحديث مع عامل الفئار حول عجائب البر والبحر التي لا حصر لها، والتي كان عامل الفئار يعرفها. وكانت تلك بداية صداقة عاشت متجاوزة التبدلات الكثيرة التي طرأت على الدنيا. وتعلم فلورينتينواريثا هناك تغذية ضوء الفئار بشحنات من الحطب أول الأمر، ثم ببراميل الزيت، قبل ان تصلنا الطاقة الكهربائية. كما تعلم توجيه الضوء ومضاعفته بالمرايا، وكان يحرس ليل البحر من اعلى السرج حين يحول عائق دون قيام عامل الفئار بعمله. فتعلم التعرف على السفن من اصواتها، ومن حجم انوارها في الافق، وصار يحس بان شيئاً منها يصله عائداً مع ومضات الفئار.

أما المتعة اثناء النهار فكانت شيئاً آخر، وخصوصاً أيام الأحاد. ففي حي اليريس حيث كان يعيش اثرياء المدينة القديمة، كان الشاطيء المخصص للنساء مفصلاً عن الشاطيء المخصص للرجال بجدار من الطين؛ شاطيء إلى يمين الفناء وآخر إلى يساره. وقد نصب عامل الفناء منظراً يمكن بواسطته، ويدفع سنتافواحد، مراقبة شاطيء النساء. ودون ان يعلمن بانهن مراقبات، كانت آنسات المجتمع الراقى يعرضن خير ما لديهن في ملابس الاستحمام ذات الكشاكش الكبيرة مع أحذية خفيفة وقبعات تحفي الاجشاد كما ملابس الخروج تقريباً، اضافة إلى كونها أقل جاذبية. وكانت الامهات تقمن بالحراسة من الشاطيء وهن جالسات على كراسي الخيزران الهزازة تحت الشمس بنفس الملابس، وقبعات الريش، والمظلات التي يذهبن بها إلى القديس الكبير، خوفاً من ان يغوي بناتهن رجال الشاطيء المجاور من تحت الماء. والحقيقة انه لم يكن ممكناً من خلال المنظر رؤية أي شيء اكثر اثاراً مما يمكن رؤيته في الشارع. لكن زبائن كثيرين كانوا يتهافتون كل يوم أحد متنازعين المنظر لمجرد اللذة التافهة بتذوق ثمار ما هو غريب ومحرم.

وكان فلوريتينواريثا واحداً منهم، دافعه إلى ذلك الملل اكثر ما هو اللذة، دون ان يكون هذا الدافع الاضافي هو السبب في توطيد صداقته مع عامل الفناء. فالسبب الحقيقي هو انه بعد صدّ فيرمينا داثا، وعندما عاكس حمى الحب المبدد في محاولة لاستبداله، لم يعيش أسعد الساعات في أي مكان آخر سوى الفناء، ولم يجد عزاء أفضل منه لمحنته. كان الفناء مكانه الاثير، حتى انه حاول خلال سنوات اقناع امه أولاً، ثم عمه ليون الثاني عشر، لمساعدته في شرائه. اذ كانت فنارات الكاريبي في ذلك الحين ملكية خاصة، وكان أصحابها يتقاضون حق العبور إلى الميناء بحسب حجم السفينة. فاعتقد فلوريتينواريثا بانها الوسيلة الشريفة الوحيدة لاداء عمل مناسب إلى جانب الشعر. أما أمه، وعمه أيضاً، فلم تكن لتفكر بشيء من هذا، وعندما أصبح بإمكانه شراء الفناء من موارده الخاصة، كانت الفنارات قد انتقلت إلى ملكية الدولة.

ومع ذلك، لم يضع أي من هذه الاحلام سدى. فاسطورة السفينة الغارقة، ثم قصة الفناء فيما بعد، خففت عنه من غياب فيرمينا داثا، وعندما لم يعد يفكر في ذلك كثيراً، جاءه خبر عودتها. وفعلاً، كان لوريتو داثا قد قرر العودة بعد اقامة طويلة في ريوها تشا. لم يكن الوقت الانسب للسفر في البحر، بسبب رياح كانون الأول الموسمية. فالسفينة الشراعية التاريخية، الوحيدة التي تتجراً على مثل هذه الرحلة، قد تجدد نفسها عند الفجر عائدة إلى المرفأ الذي خرجت منه، مدفوعة برياح معاكسة. وكان هذا ما حدث. كانت فيرمينا داثا قد أمضت ليلة من الاحتضار، متقيئة الصفراء، ومقيدة إلى سرير قمره تبدو وكأنها مرحاض حانة، لا بسبب

ضيقها الخائق «قط» ، وانما بسبب التانة والحر أيضاً . وكانت حركة السفينة عنيفة حتى خيل اليها عدة مرات ان احزمة السرير ستقطع ، وكانت تصلها من سطح المركب نتف من صرخات محزونة تبدو وكأنها صرخات غرقى ، وشخير والدها في السرير المجاور، الذي يشبه شخير النمر، تارة، عنصراً آخر من مكونات الرعب . وللمرة الأولى منذ ما يقارب الثلاث سنوات ، أمضت ليلة كاملة دون أن تفكر لحظة واحدة بفلوريتينواريثا، بينما كان هو مؤرقاً في ارجوحة النوم في لفناء الخلفي ، يحصي الدقائق السرمدية التي تفصله عن موعد عودتها دقيقة فدقيقة . وعند الفجر، توقفت الرياح فجأة، وعاد الهدوء الى البحر، وتنبهت فيرمينا دائماً إلى انها قد نامت رغم آلام الدوار، اذ أيقظها صخب سلاسل المرساة . نزعت عنها الاحزمة حينئذ وتطلعت من خلال الطاقة آملة برؤية فلوريتينواريثا في فوضى الميناء ، لكن ما رآته كان عنابر الجمارك بين اشجار النخيل الذهبية بفعل أول أشعة الشمس ، ورصيف ميناء ريوها تشا ذي العوارض الخشبية المنخورة، الذي أبحرت منه السفينة في الليلة الماضية .

انقضت بقية النهار كالحلم في البيت نفسه الذي كانا فيه حتى يوم أمس ، يستقبلان الزوار ذاتهم الذين ودعوهم ، ويتحدثان معهم في الامور نفسها، وذهلت لاحساسها بانها تعيش للمرة الثانية جزءاً من الحياة كانت قد عاشته . وبعثت تلك الاعادة الامنية للاحداث قشعريرة في فيرمينا دائماً لمجرد تفكيرها بان رحلة السفينة ستكون كذلك أيضاً ، لان ذكراها كانت تسبب لها الهلع . لكن الاحتمال الآخر الوحيد للعودة إلى البيت هو في قضاء اسبوعين على متن بغلة فوق نتوءات الجبال ، وفي ظروف أشد خطورة من المرة الاولى ، لان حرباً اهلية جديدة كانت قد نشبت في ولاية كاوكا في جبال الانديز، وأخذت تتسع منتشرة في مقاطعات الكاريبي . وهكذا انطلقت ثانية الى المرفأ في الساعة الثامنة ليلاً ، برفقة موكب الأقارب الصاخب نفسه، وبدموع الوداع نفسها، والصرر المتنوعة نفسها التي تضم هدايا اللحظة الاخيرة والتي لا تتسع لها القمرات . وفي لحظة الابحار، ودع رجال العائلة السفينة باطلاق النار في الهواء معاً ، فرد عليهم لوريتشودا من سطح السفينة باطلاق رصاصات مسدسه الخمس . وما لبث قلق فيرمينا دائماً ان تبدد سريعاً ، لان الريح كانت مواتية طوال الليل ، وكانت للبحر رائحة زهور ساعدتها على النوم نوماً هادئاً دون أحزمة الأمان . حلمت بانها ستعود لرؤية فلوريتينواريثا ، وان هذا قد نزع الوجه الذي رآته فيه دوماً ، لانه كان قناعاً في الحقيقة ، لكن الوجه الحقيقي كان مطابقاً . استيقظت باكراً ، مفكرة باحجية الحلم ، ووجدت اباهما يتناول القهوة مع البراندي في مقصورة القبطان ، وقد حرف الكحول عينه ، انما بقدر قليل لا يشير إلى وجود شك في العودة .

كانوا يدخلون الميناء ، وكانت السفينة تنزلق بصمت عبر متاهة القوارب الشراعية الراسية

في خليج السوق العام ، الذي تصل رائحته النتنة إلى عدة فراسخ في البحر، وكان الفجر مشبعاً برذاذ خفيف ما لبث ان تحول إلى وابل غزير. تعرف فلوريتينو اريثا ، الذي كان قابعاً على شرفة مكتب التلغراف ، على السفينة وهي تعبر خليج لاس انيوس بأشعة أخذها المطر وترسو مقابل مرفأ السوق. لقد انتظر في اليوم السابق حتى الساعة الحادية عشر صباحاً ، عندما عرف من خلال برقية عابرة بتأخر السفينة بسبب الرياح المعاكسة ، وعاد للانتظار في ذلك اليوم منذ الساعة الرابعة صباحاً. وتابع الانتظار دون ان يرفع نظره عن الزوارق التي تحمل إلى الشاطئ، قلة من المسافرين قرروا النزول الى البر رغم العاصفة. وقد اضطر معظمهم إلى مغادرة الزوارق التي توقفت في منتصف المسافة ، والوصول إلى الرصيف متخبطين في الوحل. وفي الساعة الثامنة ، بعد انتظار لا طائل منه لتوقف المطر، تقدم حمال زنجي غاطس في الماء حتى وسطه وأنزل فيرمينا داثا عن حافة السفينة وحملها بين ذراعيه حتى الشاطئ، لكنها كانت مبتلة الى الحد الذي لا يستطع معه فلوريتينو اريثا التعرف عليها.

لم تكن هي نفسها تعي كم نضجت خلال الرحلة ، إلى ان دخلت البيت المقفل وبدأت على الفور بالعملية البطولية لاعادته صالحاً للمعيشة بمساعدة غالاً بلاثيديا ، الخادمة الزنجية ، التي عادت إلى موقعها السابق كعبدة بمجرد ان أعلموها بالعودة. لم تعد فيرمينا داثا هي الابنة الوحيدة ، مدللة ابيها وضحيته في الوقت ذاته ، بل أصبحت ربة وسيدة مملكة من الغبار ونسيج العنكبوت لا يمكن انقاذها إلا بقوة حب عصبي على الهزيمة. لم تخف ، لأنها أحست بانها ملهمة بروح صعود كافية لجعلها قادرة على تحريك العالم. وفي ليلة العودة بالذات ، وفيما هم يتناولون الشوكولاته مع فطيرة الجبن على طاولة المطبخ ، فوضها ابوها السلطات لإدارة البيت. وفعل ذلك بطقوس كطقوس عمل قدسي ، قائلاً لها :

- اني اسلمك مفاتيح البيت .

تولت المسؤولية بحزم ، مع اكملها السبعة عشر عاماً من العمر ، واعية ان كل شبر من الحرية المكتسبة انما حصلت عليه بقدرة الحب. وفي اليوم التالي ، بعد ليلة من الاحلام الكابوسية ، عانت للمرة الأولى كآبة العودة عندما فتحت نافذة الشرفة ورأت من جديد رذاذ الحديقة الحزين ، وتمثال البطل مقطوع الرأس ، والمقعد الرخامي حيث اعتاد فلوريتينو اريثا الجلوس مع كتاب الاشعار. ما عادت تفكر فيه كخطيب مستحيل ، انما كزوجها الذي عليها الارتباط به تماماً. واحست كم كان ثقيلاً الزمن الضائع منذ ذهابها ، وكم يكلفها بقاؤها على قيد الحياة من جهد ، وكم من الحب يلزمها لتحب رجلها كما يشاء الله. فوجئت بانه ليس في الحديقة ، كما كان يفعل في احيان كثيرة غير عابيء بالمطر ، وبانها لم تتلق أية إشارة منه بأي

وسيلة، ولا حتى بالايحاء. وفجأة فكرت ان يكون قد مات. لكنها استبعدت فكرة الشؤم في الحال، لانها في احتدام برقيات الأيام الاخيرة، وامام اقتراب موعد العودة، نسيت الاتفاق معه على وسيلة لمتابعة الاتصال عندما تعود.

والحقيقة ان فلورينتينواريشا كان يظن موقناً بانها لم ترجع بعد، إلى ان أكد له عامل التلغراف في ريوهاتشا بانها قد أبحرت منذ يوم الجمعة في السفينة ذاتها التي لم تصل في اليوم السابق بسبب الرياح غير المواتية. وهكذا أمضى نهاية الاسبوع مترصداً أية علامة حياة في بيتها، وفي مساء يوم الاثنين رأى من خلال النوافذ ضوءاً متنقلاً ما لبث ان انطفأ بعد الساعة التاسعة بقليل في حجرة النوم المطلة على الشرفة. لم ينم تلك الليلة، وطاردته الاشواق الهائجة نفسها التي أفلقت ليالي حبه الأولى. نهضت ترانستينواريشا مع الديوك الأولى، مذعورة لان ابنها قد خرج الى الفناء ولم يعد للدخول منذ منتصف الليل، ولكنها لم تجده في البيت. لقد مضى يتسكع هائماً على حائل الامواج، وراح يلقي أشعار الحب على الريح، ويبكي طرباً حتى مطلع الفجر. وفي الثامنة صباحاً كان يجلس تحت قناطر مقهى الباروكية، وقد أفقده السهر توازنه، محاولاً ابتداء طريقة يوصل بها إلى فيرمينا داثا ترحيبه بقدمها، حين أحس بهزة مزلزلة تمزق احشاءه.

كانت هي، تجتاز ساحة الكتدرائية برفقة عالا بلاثيديا، التي كانت تحمل سلال المشتريات، وللمرة الأولى رآها تسير بملابس غير الزي المدرسي، وتبدو أطول مما كانت عليه عند ذهابها، وأكثر كمالاً ونضوجاً، ويجمال مصفى بمقدرة امرأة واعية. كانت ضفירתها قد نمت مجدداً، لكنها لم تكن تسدها على ظهرها وانما تتكبتها فوق كتفها الايسر، ولقد نزع عنها ذلك التغيير الطفيف كل اثر للطفولة. وقف فلورينتينواريشا في مكانه مصعوقاً، الى ان اجتازت مخلوقة الحلم الساحة دون ان ترفع بصرها عن طريقها. ولكن القوة التي جمدهت هي نفسها التي دفعته بعد ذلك للاسراع في اثرها حين انعطفت عند زاوية الكتدرائية وضاعت في زحمة السوق التي تبعث على الصمم.

لاحقها دون ان تراه، مستكشفاً الحركات اليومية، والنضج المبكر، وظرافة اكثر الكائنات محبة في هذا العالم، والتي كان يراها لأول مرة وهي منطلقة على سجيبتها. اذهلته السهولة التي تشق بها طريقها وسط الجموع. فبينما كانت غالا بلاثيديا تصطدم بالناس، وسلاها تشابك وتضطر للركض كي لا تفسيع اثرها، كانت هي تنحرف في فوضى الشارع بجوار خاص بها وزمن مختلف، دون ان تصطدم بأحد، وكأنها خفاش في الظلام. لقد خرجت مرات كثيرة إلى السوق من قبل مع العمه اسكولاستيكا، ولكن المشتريات كانت ضئيلة القيمة، فوالدها كان يتولى شخصياً مسؤولية تزويد البيت بالموثون، وليس بالاثاث والمأكولات فحسب، بل

وبالملابس النسائية ايضاً. ولهذا كان خروجها الأول ذاك مغامرة أخاذة تمثلتها احلامها كطفلة.

لم تعر اهتماماً لتسرع المشعوذين الذين كانوا يقدمون لها اكسيراً للحب الابدي ، ولا لرجاء المتسولين المستلقين في الدهاليز بقروحهم المدخنة ، ولا للهندي المزيف الذي يحاول بيعها تمساحاً أليفاً. لقد قامت بجولة واسعة ومفصلة ، دون مسار مدروس ، ويتوقفات لا سبب لها سوى متعة عدم التسرع في روح الاشياء. ودخلت في كل زقاق يوجد فيه شيء للبيع ، وفي كل مكان وجدت شيئاً غدى رغبتها في الحياة. تمتعت بحفيف أزهار الاقمشة في الصناديق الكبيرة المزخرفة ، ولفت نفسها بالحرير المزين بالرسوم ، وضحكت لضحكاتها ذاتها وهي ترى نفسها متشحة بالملابس الشعبية مع مشط زينة ومروحة مزينة برسوم أزهار مقابل مرآة كبيرة في محلات السلك الذهبي. وفي دكان البحريات رفعت غطاء برميل يحتوي اسماك رنكة في ماء مملح ذكرها بليالي الشمال الشرقي ، وهي طفلة صغيرة ، في سان خوان دي لاثيناغا. وقدموا لها سجقاً من اليكانتي لتذوقه فكان له طعم عرق السوس ، فاشتريت قطعتين منه لفطور يوم السبت ، كما اشترت بضع شرائح من سمك القد وقطرميز كشمش مع الخمر. وفي دكان البهارات ، ومن اجل التمتع بالرائحة فقط ، عصرت بين كفها أوراق مريمية وصعرت ، واشترت حفنة قرنفل ذي رائحة ، وحفنة يانسون مطحون ، وحفنة أخرى من الزنجبيل والعرعر ، وخرجت مبللة بدموع الضحك لكثرة ما عطست من روائح فلفل كاينا. وفي البوتيك الفرنسي ، وبينما هي تشتري صابون روتير وعطر البان الهندي ، وضعوا لها وراء أذنها لمسة من عطر كان شائع الاستعمال في باريس يومها ، واهدوها حبة مزيلة للرائحة تسعمل بعد التدخين.

كانت تلعب لعبة الشراء حقاً ، لكنها كانت تشتري ما هي بحاجة اليه فعلاً بلا مواربة ، وبمقدرة لا تسمح بالظن بانها انما تفعل ذلك للمرة الأولى ، فقد كانت مدركة انها لا تشتري لنفسها فقط وانما له كذلك . . اثنتي عشرة ياردة من الكتان كشراشف لمائدتها معاً ، ونسيجاً قطنياً لشراشف سرير الزفاف ولتهتكها معاً عند الصباح ، ومن كل صنف ما هو اكثر روعة ليتمتع به معاً في بيت الحب. كانت تطلب تخفيضاً وتتقن طلبه ، وتجادل بظرافة ووقار حتى تحصل على أفضل الاصناف ، وتدفع بمسكوكات ذهبية يقوم الباعة بتجريبها للاستمتاع فقط بسماع رنينها فوق مرمر الطاولة.

كان فلورينتينو اريشا يراقبها مبهوراً ، ويلاحقها مقطوع الانفاس ، فاصطدم عدة مرات بسلال الخادمة التي كانت ترد بابتسامة على اعتذاراته ، وقد مرت هي نفسها قريباً جداً منه حتى انه شم نسيم رائحتها ، واذا كانت لم تره حينئذ فليس لعجزها عن ذلك وانما لشموخ

طريقتها في المشي . كانت تبدو له جميلة جداً ، فاتنة جداً ، ومختلفة جداً عن الناس العاديين ، بحيث لم يدرك كيف لا يختل الآخرون مثله بصناعات كعبها على بلاط الشارع ، ولا تضطرب قلوبهم بهواء تنهدات كشكشها ، ولا يصاب العالم كله بالجنون حباً بحركة ضفيريها ، وطيران يديها ، ولجين ضحكاتها . لم يضيع حركة واحدة من حركاتها ، ولا علامة واحدة من علامات طبعها ، لكنه لم يكن ليجرؤ على الاقتراب منها خوفاً من ان يُفسد السحر . ولكن عندما ولجت زحمة زقاق الكتبة العموميين تنبه إلى انه يخاطر بتبديد الفرصة التي تشوق لها خلال سنوات .

كانت فيرمينا دائماً تشاطر زميلاتها في المدرسة الفكرة الغريبة السائدة بان زقاق الكتبة العموميين هو مكان ضياع ، وأرض محرمة ، على الانسات المحترمات طبعاً . كان عبارة عن رواق ذي قناطر مقابل ميدان صغير حيث تتوقف عربات الاجرة وطنابر الشحن التي تجرها الحمير ، وحيث تصبح التجارة الشعبية اكثر زخماً وصخباً . اسمه موروث من أيام المستعمرة ، فهناك كان يجلس منذ ذلك الحين الكتبة المكفهرين ذوو السترات الكتانية والاكمام المنفصلة التي تصل حتى المرفقين ، والذين كانوا يكتبون جميع انواع الوثائق بأسعار بائسة : مذكرات اتهام أو استرحام ، واستدعاءات قانونية ، وبطاقات تهنة أو تعزية ، ورسائل حب في اي سن كان . وليسوا هم ، بكل تأكيد ، سبب سوء السمعة التي لحقت بذلك السوق الصاخب ، وانما الباعة المتجولون المحدثون الذين كانوا يقدمون من تحت طاولاتهم جميع انواع الحيل الغامضة التي تصل تهريماً في السفن القادمة من اوروبا ، ابتداء من بطاقات صور الداعرات والمراهم المهيجة ، وحتى واقيات الحمل الكتلانية الشهيرة ذات الاعراف العظائية التي تتحرك أثناء العملية ، أو تلك التي تنتهي بازهار تفتح اوراقها حسب مشيئة المشتفع . لقد ولجت فيرمينا دائماً ، عديمة الخبرة في الشوارع ، ذلك الزقاق دون ان تنبه إلى اين هي ماضية ، باحثة عن ظل يخفف عنها وطأة شمس الساعة الحادية عشرة .

غرقت في ضجة ماسحي الاحذية ويائعي العصافير ، عارضي الكتب الرخيصة ومشعوذي التداوي ومناديات الحلوى اللواتي يعلن بصراخ اعلى من الضجة عن حلوى كوكادا الاناناس للصبايا ، وحلوى جوز الهند للحمقى ، وحلوى السكر بالعجين لميكائيل . ولكنها كانت تسير غير مبالية بالصخب ، وفتها على الفور وراق كان يقدم عرضاً لانواع من حبر الكتابة السحري : حبر أحمر له لون الدم ، وحبر ذوبريق حزين لبطاقات التعزية ، وحبر فوسفوري لقراءته في الظلام ، وحبر خفي ينكشف ببريق الضوء . كانت تريد من كل الانواع لتلعب مع فلورييتيس اريثا ، وتذهله باستنباطها ، ولكنها بعد عدة تجارب قررت شراء زجاجة حبر ذهبي ، بعد ذلك مضت إلى بائعات الحلوى الجالسات وراء صناديقهن الزجاجية

الكبيرة ، واشترت ست قطع حلوى من كل صنف ، مشيرة الى ماتريد بإصبعها من وراء الزجاج لأنها لم تكن لتتمكن من اسماعهن ما تريده بسبب الضوضاء : ست قطع من شعر الملاك ، وستة قوالب صغيرة من حلوى الحليب ، وستة مكعبات سمسمية ، وست قطع من كعكة اليكة ، وستة اقراص من الشوكلاته ، وست قطع من البسكويت المحشي ، وست من لقمة الملكة ، وستة من هذا وستة من ذاك ، وستة من كل شيء ، وكانت تضع كل ذلك في سلال الخادمة بظرافة لا تقاوم ، غير عابئة بسحابة الذباب السوداء الهائجة فوق المربي ، وغير مبالية بالتعفن المتواصل ، وغير مبالية برائحة العرق الزنخ الذي يلعب في الحر القاتل . ايقظتها من هذا الخدر زنجية سعيدة تضع خرقة ملونة على رأسها المكور والبديع ، قدمت لها قطعة اناناس مغروسة في رأس سكين جزار . فتناولتها ودستها كاملة في فمها ، تذوقتها ، وكانت تذوقها ونظرها شارد في الجموع ، عندما سمعتها اختلاجة اضطراب في مكانها . فورها . وقريباً جداً من اذنها بحيث لم يسمع في الضجة أحد سواها الصوت الذي قال لها :
- ليس هذا بالمكان المناسب لربة متوجة .

التفتت ورأت على بعد شبرين من عينيها العينين الاخرين الجامدتين ، والوجه الأزرق الضارب إلى السواد ، والشفيتين المتصلبتين خوفاً ، تماماً كما رأتها في زحمة صلاة منتصف الليل عندما كان قريباً منها لأول مرة ، ولكنها لم تشعر بهيجان الحب كما في المرة السابقة وانما بهاونة خيبة الأمل . وبلحظة واحدة انكشف لها حجم الورطة التي اوقعت نفسها فيها ، وتباعدت مذعورة كيف استطاعت ان تحتضن طوال هذا الوقت وبكل هذه القسوة خرقة قلب كتلك . وبالكاد استطاعت ان تفكر : «رباه ، يا للرجل البائس !» . ابتسم فلورينتينواريثا ، وحاول ان يقول شيئاً ، حاول اللحاق بها لكنها محته من حياتها بحركة من يدها قائلة له :
- لا ، ارجوك ، انس كل شيء .

في مساء ذلك اليوم ، وبينما والدها ينام قيلولته ، بعثت اليه مع غالا بلاثيديا رسالة في سطرين : عندما رأيتك اليوم ، ادركت ان ما كان بيننا ليس الا وهماً . وحملت اليه الخادمة كذلك برقيات ، واشعاره ، وازهار كاميلياه الجافة ، وطلبت منه ان يعيد الرسائل والهدايا التي بعثتها اليه : كتاب صلوات العمة اسكولاستيكا ، واوراق النباتات المجففة ، والستمر المربع من مسوح سان بيدرو كلافير ، وميداليات القديسين ، وضميرتها وهي في الخامسة عشرة مع شريط الزبي المدرسي الحزيري . فكتب في الايام التالية ، وهو على حافة الجنون ، عدداً كبيراً من الرسائل اليائسة ، وحاصر الخادمة لتحمل تلك الرسائل ، لكن هذه نفذت التعليمات الصارمة بعدم استلام اي شيء سوى الهدايا المعادة . واصرت على ذلك بحسم جعل

فلورينتينو اريثا يعيد كل شيء ما عدا الضفيرة، التي لم يشأ اعادةها ما لم تستقبله فيرمينا داثا شخصياً ليتحدثا معاً ولو للحظة واحدة. ولم يتمكن من ذلك. ونزلت ترانسيتو اريثا عن كبريائها، خشية ان يتخذ ابنها قراراً قاتلاً، وطلبت من فيرمينا داثا ان تمنحها خمس دقائق من وقتها، فاستقبلتها للحظة واحدة في دهليز البيت، واقفة، دون ان تدعوها إلى الدخول، وبلا ذرة وهن. بعد يومين من ذلك، ومع انتهاء مشادة مع أمه، نزع فلورينتينو اريثا عن جدار غرفة نومه العلبة الزجاجية المغبرة حيث كان يعلق الضفيرة كأنها ايقونة مقدسة، واعادتها ترانسيتو اريثا بنفسها في علبة المخمل المطرزة بخيوط ذهبية. ولم تتح لفلورينتينو اريثا الفرصة أبداً لرؤية فيرمينا داثا على انفراد، ولا التحدث اليها اثناء لقاءاتها الكثيرة في حياتيهما الطويلتين، إلا بعد انقضاء إحدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعة أيام، عندما كررها يمين الوفاء الابدی والحب الدائم في ليلتها الأولى كأرملة.

كان خوفينال اوربينو، العازب المرغوب وهو في الثامنة والعشرين، قد عاد من اقامة طويلة في باريس، حيث اجرى دراسات عليا في الطب والجراحة، منذ نزوله إلى البر قدم أدلة قاهرة على انه لم يضيع لحظة واحدة من وقته. لقد رجع اكثر تجملاً مما كان عليه عند ذهابه، واكثر تحكماً بطبائعه، ولم يكن أي من زملاء جيله ليبدو اكثر صرامة منه واكثر معرفة بعلومه، كما لم يكن اي منهم ليرقص خيراً منه على الموسيقى الدارجة او يعزف راجلاً أفضل منه على البيانو. وكانت فتيات وسطه الاجتماعي، المفتونات بمحاسنه الشخصية والمتيقنات من ثروته العائلية، يقترعن سراً ليلعبن أيهن ستبقى معه، وكان هو يلعب كذلك للبقاء معهن، لكنه تمكن من الحفاظ على نفسه في حالة الملاحه، صحيحاً ومغرياً، إلى ان سقط دون مقاومة أمام مفاتن فيرمينا دانا العامية.

كان يجب ان يقول ان ذلك الحب هو ثمرة تشخيص طبي خاطيء. ولم يكن ليصدق بان ذلك قد حدث، خصوصاً في تلك الفترة من حياته، حين كان كل احتياطيه من الهوى منصباً على مصير مدينته، التي كثيراً ما قال عنها دون تردد انه لا مثيل لها في العالم. ففي باريس، وفيما هو يتنزه ممسكاً بذراع خطيبة عرضية في خريف متأخر، كان يرى انه من المستحيل تخيل سعادة اكثر صفاء من سعادة تلك الامسيات الذهبية الباريسية، المختلطة برائحة حبات الكستناء الجبلية فوق مواقد الجمر، وأنغام الاكورديونات الخافتة، والعشاق الذين لا يرتوون من قبيلات متصلة لا تنتهي على الشرفات المفتوحة، ورغم ذلك، فقد قال هو نفسه، وبده على قلبه، انه غير مستعد لاستبدال هذا كله بلحظة واحدة من لحظات موطنه الكاريبي في نيسان. كان ما يزال شاباً لا يعرف ان ذاكرة القلب تمحو كل الذكريات السيئة وتضخم

الذكريات الطيبة ، واننا بفضل هذه الخدعة نتمكن من احتمال الماضي . ولكنه حين عاد ورأى من شرفة السفينة رابية الحي الاستعماري البيضاء ، وطيور الرخمة الجاثمة فوق السطوح ، وملابس الفقراء المنشورة لتجف على الشرفات ، حيثئذ فقط أدرك إلى أي حد كان ضحية سهلة لأحاييل الحنين الخادعة .

شقت السفينة طريقاً لها في الخليج عبر فرشة طافية من الحيوانات الغارقة ، والتجأ معظم المسافرين إلى القمرات هرباً من الرائحة التتنة . نزل الطبيب الشاب من السفينة على جسر المرور الصغير مرتدياً بدلة كاملة من الألبكة ، مع صدرية وواقية من الغبار ، بلحية كلحية باستور شاب وشعر مفروق من وسطه بفرق واضح وشاحب ، وبسيطرة كافية لاختفاء عقدة الخنجر التي لم يكن سببها الحزن ، وانما الرعب . كان الميناء شبه خاو ، يحرسه جنود حفاة بلا زي عسكري ، وكانت شقيقته وامه ينتظرن برفقة أحب أصدقائه إليه . وجدهم شاحبين وبلا مستقبل ، رغم مظهرهم الدنيوي ، وكانوا يتحدثون عن الازمة وعن الحرب الأهلية كأمر بعيد وغريب ، ولكن اصواتهم جميعاً كانت تشي برعشة مراوغة ، وحدقات عيونهم بلمعة يقين تخون كلماتهم . وكانت أمه هي اكثر من اثار أشجانه ، تلك المرأة التي فرضت نفسها على الحياة وهي لا تزال فتية بأناقيتها واندفاعها الاجتماعي ، يراها الآن تذوي على نار هادئة وسط روائح الكافور التي تعبق من ملابسها كأرملة . ولا بد أنها رأت نفسها في اضطراب ابنها ، فسارعت تسأله وكأنها تدافع عن نفسها ، لماذا هو عائد بهذه البشرة الشفافة كالبارفان . وقال لها :

ـ انها الحياة يا أمه . فالمرء يتحول أخضر في باريس .

بعد ذلك ، وفيما هو إلى جانبها يغرق في حر العربة المغلقة ، لم يعد يحتمل قسوة الواقع الذي ينفذ اليه غلياناً من النافذة . كان البحر يبدو وكأنه من رماد ، وقصور النبلاء القديمة كانت على وشك الانهيار أمام تكاثر المتسولين ، وكان العثور على رائحة الياسمين اللاهبة فيما وراء ابخرة المجاريير المكشوفة مستحيلاً . كل شيء بدا له أضال مما كان عليه عند ذهابه ، وأشد فقراً وكآبة ، وكانت هناك أعداد كبيرة من الجرذان الجائعة في مزابل الشوارع تجعل حصاني العربة يجفلان فزعين . وعلى امتداد الطريق الطويل من الميناء الى البيت ، في حي بيريس ، لم يجد ما هو جدير بمشاعر الحنين التي كانت تملأه . رأى نفسه مهزوماً ، فأدار وجهه كي لا تراه أمه ، وأطلق لبكائه الصامت العنان .

لم يكن قصر المركيز دي كاسالديرو القديم ، ومقر الإقامة التاريخي لال أوربينودي لا كايه ، بالقصر الذي مازال يحتفظ بشموخه وسط الانهيار . وقد اكتشف الدكتور خوفينال أوربينو ذلك وقلبه يتفتت مذ عبر الدهليز المظلم ورأى نافورة الحديقة الداخلية المغبرة ،

والاعشاب البرية التي بلا أزهار تعيث بها السحالي ، وانتبه الى نقص عدد كبير من بلاط المرمر ، اضافة الى تهشم عدد من درجات السلم الرخامي الفسيح ذي الدرايزين النحاسي الذي يقود الى الحجرات الرئيسية . لقد مات والده ، الذي كان طبيباً متفانياً أكثر منه عالماً ، في جائحة الكوليرا الآسيوية التي محقت السكان منذ ست سنوات ، ومعه مات روح البيت . فدونيا بلانكا ، الأم ، المختنقة بحداد أبدي ، استبدلت السهرات الغنائية والحفلات الموسيقية بصلوات مسائية يومية لذكرى الزوج المتوفى . وتحولت الشقيقتان رغم طبيعتهما وميلهما الاحتفالي الى وقود للدير .

لم يغف الدكتور أوربينو لحظة واحدة في ليلة وصوله ، مرتعباً من الظلمة والصمت . وردد صلاة الروح القدس بعدد ثلاث سبحات وكذلك كل الصلوات التي يذكرها لدرء الرزايا والانهيارات وأنواع المصائب الليلية الأخرى ، فيما دخل كروان الى حجرة النوم من النافذة غير المحكمة ، وأخذ يصدح كل ساعة ، عند تمام الساعة بالضبط . وعذبه صرخات الهذيان التي تطلقها المجنونات في مستشفى الراعية الإلهية للمجاذيب ، والقطرة عديمة الرحمة التي ترشح من الجرة الفخارية الى الجفنة ويملاً صداها جوار البيت ، وخطوات الكروان الطويلة التائهة في حجرة النوم ، وخوفه الخلقى من الظلمة ، والحضور اللامرئي للأب الميت في البيت الرحب الهاجع . عندما صدح الكروان في الساعة السادسة ، مرافقاً بذلك ديكة الجوار ، أسلم الدكتور أوربينو نفسه جسداً وروحاً الى كنف العناية الإلهية ، لأنه لم يعد يشعر بالحساس للحياة يوماً آخر في وطنه المنهار أنقاضاً . ولكن عطف ذويه ، وأيام الأحاد الريفية ، وتملقات عازبات طبخته الجشعة خففت كلها من مرارة الوهلة الأولى . وأخذ يعتاد شيئاً فشيئاً على قبط تشرين الأول ، وعلى الروائح الحادة ، وعلى آراء أصدقائه المبكرة : غداً نرى يا دكتور ، فلا تبال ، الى ان انتهى للاستسلام الى شعوذة العادة . ولم يتأخر طويلاً في وضع تبرير بسيط لخذلانه . وقال ان هذه هي دنياه ، دنياه الكثيرة والجائرة التي منحه الرب إياها ، وهو مدين لها .

أول ما فعله هو الاستيلاء على عيادة أبيه . احتفظ بالاثاث الانكليزي نفسه في مكانه ، ذلك الاثاث الصلب والصارم ، الذي تنتهد أخشابه مع برودة الفجر ، لكنه بعث الى حجرة المهملات مؤلفات العلوم من زمن الحكام الاستعماريين وكتب الطب الرومنطقي ، ووضع في الخزائن ذات الواجهات الزجاجية كتب المدرسة الفرنسية الجديدة . وانتزع عن الجدران جميع الرسوم الباهتة ، باستثناء رسم الطبيب الذي ينازع الموت مريضة عارية ، وقسم أبقراط

المكتوب بحروف قوطية، وعلق مكانها، الى جانب شهادة والده الوحيدة، الشهادات الكثيرة والمتنوعة التي نالها من مدارس أوربية مختلفة.

حاول ان يفرض معايير تجديدية في مستشفى الرحمة، ولكن الامر لم يكن بالبساطة التي ظنها وهو في اندفاع الشباب. فبيت الطب القديم المتمسك بخرافاته الموروثة، مثل وضع قوائم الاسرة في أوعية مليئة بالماء لمنع صعود الامراض اليها، أو المطالبة بارتداء ملابس الاتيكيت وقفازات الشمواة في صالة الجراحة، اذ كان الاعتقاد السائد حينئذ هو ان الاناقة شرط جوهري للتعقيم. وما كانوا يطيقون تذوق الطبيب الشاب القادم حديثا، بول المريض ليكتشف وجود السكر، أو استشهاده بأراء شاركوت وتروسوكما لو كانا زميلاه في الحجرة، وتحذيره البصارم في درسه من مخاطر اللقاحات القاتلة وإيمانه مقابل ذلك إيمانا مرييا بالاختراع الجديد المدعوتحاميل. لقد كان يتعثر بكل شيء: روحه المجددة، تحضره الجنوني، وميله البطيء لفهم المزاج في أرض المزاج السرمدي. وكانت جميع فضائله الملموسة تثير في الحقيقة حسد زملائه الكبار وسخرية المنافقين من الشباب.

كان وضع المدينة الصحي هو هاجسه الدائم. فلجأ الى أعلى المراتب مطالباً بردم المجاري المكشوفة منذ العهد الاستعماري، والتي تشكل مرتعا رحبا للجردان، واقامة مجاري مغلقة بدلا منها لا تصب بقاياها في خليج السوق، كما هو الحال منذ الازل، وانما في مجمع ناء للفضلات. كانت توجد في البيوت الاستعمارية حسنة التجهيز مراحيض ذات حفر عميقة تتخمر فيها الفضلات، أما ثلثا الاهالي المكдسين في اكواخ على ضفاف المستنقعات فكانوا يقضون حاجتهم في العراء. فكان البراز يجف تحت الشمس، متحولا الى غبار، يتنفسه الجميع ببهجة فصيح مع نسبات كانون الباردة السعيدة. لقد حاول الدكتور خوفينال اوربينو ان يفرض في المجلس الاداري اقامة دورة تأهيل اجبارية، كي يتعلم الفقراء بناء مراحيضهم الخاصة. وناضل دون جدوى لوقف رمي النفايات بين أشجار المنغلار، التي تحولت منذ قرون الى مستودعات عفونة، ولجمع تلك النفايات مرتين في الاسبوع على الاقل واحراقها في مكان مهجور.

لقد كان واعيا لشرك مياه الشرب القاتل. لكن مجرد التفكير ببناء شبكة مائية كان يبدو فكرة خيالية، لأن من يستطيعون دعمها كانوا يملكون ابارا تحت الارض يخزنون فيها مياه أمطار سنوات عديدة تحت قشدة كثيفة من الاخضرار الطحلي. ومن بين ابرز قطع اثاث تلك الحقبة كانت خزائن تصفية الماء المصنوعة من خشب منقوش، حيث تقطر مساماتها الحجرية ليل نهار في الخوابي. ولمنع أي كان من شرب الماء بطاسة الألمنيوم التي يخرجون بها الماء، كانوا يستنون حواف تلك الطاسة لتبدو وكأنها تاج ملك الساخر. كان الماء رائقا وبارداً

في عتمة الفخار، يترك في الفم طعاما كطعم الزهر. لكن الدكتور خوفينال اوربينولم يكن لينساق وراء خدع النقاء هذه، لانه يعرف ان قاع الخوابي، رغم كل الاحتياطات، كان هيكلا لكل انواع الدوبيات. لقد أمضى ساعات طفولته البطيئة وهو يتأملها باندهاش شبه صوفي، مقتنعا مثل معظم الناس حينئذ ان الدوبيات هي الارواح، وانها مخلوقات ماورائية تزف الى الانسات من رواسب المياه الراكدة، وانها قادرة على الاتيان بانتقامات حب حانقة. لقد رأى وهو طفل خراب بيت لازار كوندي، معلمة المدرسة التي تجرأت على صد الارواح، ورأى نتف الزجاج المنشور في الشارع وأكوام الحجارة التي قذفت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال على النوافذ. ولقد انقضى وقت طويل قبل ان يتعلم ان تلك الدوبيات هي في الحقيقة يرقات ذباب الزنكودو، لكنه تعلم ذلك كي لا ينساه ابدا، لانه أدرك منذ ذلك الحين أن ليس الدوبيات وحده، وانما أرواح شريرة اخرى كثيرة، قد تمر بسلام عبر مصافينا الحجرية الساذجة.

لقد عزى فتق كيس الخصية خلال زمن طويل ويفخر شديد الى مياه آبار الجمع، ذلك الفتق الذي يصبر على احتماله عدد كبير من رجال المدينة ليس دون خجل فحسب، بل وبنوع من الكبرياء الوطنية أيضا. وعندما كان خوفينال اوربينو طفلا يذهب الى المدرسة الابتدائية، لم يكن يستطيع كبح اختلاجة الرعب لدى رؤيته المفتوقين وهم يجلسون امام ابواب بيوتهم في الامسيات الحارة، وهوون بمروحة يدوية على الخصية الضخمة كما لو كانت طفلا ينام بين افخاذهم. وكان يشاع ان الفتق يحاكي تغريد عصفور حزين في الليالي العاصفة، وانه يتلوى بألم لا يطاق حين يحرقون قريبا منه ريشة طائر رخمة، لكن احدا لم يكن يتذمر من تلك المحن، لان فتقا كبيرا ومحتملا بصبر هو شرف للرجل قبل كل شيء، عندما رجع الدكتور خوفينال اوربينو من اوربا كان يعرف جيدا التفسير العلمي لهذه المعتقدات، ولكنها كانت متأصلة في الايمان الخرافي المحلي الى حد دفع الكثيرين لمعارضة اغناء مياه الابار بالمعادن خوفا من ان ينزعوا منها خاصية تسبب فتق مشرف.

وكقلقه من تلوث المياه، كان الدكتور خوفينال اوربينو قلقا كذلك للحالة الصحية في السوق العام، ذلك الامتداد الفسيح مقابل خليج لاس اينماس، حيث ترسو سفن جزر الانتيل الشراعية. والذي وصفه أحد الرحالة الشهيرين بانه واحد من اكثر الاسواق غنى وتنوعا في العالم. وقد كان غنيا ووافرا وصاخبا حقا، ولكنه ربما كان كذلك اكثر الاسواق مدعاة للقلق. كان يقوم فوق مزبلة ذاتها، تحت رحمة أهواء البحر المرتفع، حيث تجشؤات الخليج تعيد الى اليابسة نفايات المجاري. وكانت ترمى هناك فضلات المسلخ المجاور من رؤوس مقطوعة، واحشاء متعفنة، وروث الحيوانات الطافي بهدوء تحت الشمس في مستنقع

من الدماء. وتأتي طيور الرخمة لتتنازع تلك الفضلات مع الجرذان والكلاب في ازدحام دائم، وسط الغزلان وديوك سوتافينتو المخصية والمعلقة على افاريز العنابر، وخضروات ارخونا الربيعية المعروضة فوق حصر على الارض. وكان الدكتور اوربينو يريد جعل المكان صحياً بنقل المسلخ الى مكان اخر، وتشيد سوق جديد مسقوف بقباب من زجاج ملون كذلك السوق الذي رآه في برشلونة، حيث البضائع والمؤن زاهية ونظيفة حتى ان اكلها يثير الحسرة. ولكن هذا جعل اكثر اصدقائه مجاملة يضيقون ذرعاً باحلامه الخيالية. فهم يقضون حياتهم متغنين بأصلهم المجيد، ويمزاياء المدينة التاريخية، وقيمة اثارها الدينية، ويطولتها وجمالها، لكنهم لا يرون سوس السنين الذي ينخرها. أما الدكتور اوربينو بالمقابل، الذي يكن لها حباً عظيماً يجعله يراها بعيني الحقيقة، فكان يقول:

- كم هي نبيلة هذه المدينة التي مافتتنا نحاول القضاء عليها منذ أربعمئة سنة، ولم نتوصل الى ذلك بعد.

ومع ذلك فقد كانوا على وشك القضاء عليها. فوباء الكوليرا الذي سقطت أولى ضحاياه في مستنقعات السوق. تسبب خلال أحد عشر اسبوعاً بأعلى نسبة وفيات في تاريخنا. كان بعض الموتى البارزين يدفنون تحت بلاط الكنائس، الى جوار الاساقفة والمستشارين، والآخرين الاقل ثراء يدفنون في فناء الدير، أما الفقراء فيمضون بهم الى المقبرة الاستعمارية، على الراية التي تصفحها الرياح وتفصلها عن المدينة قناة مياه جافة، لجسرها الطيني لوحة بمظلة نحت عليها بأمر أحد الحكام المتبصرين: *Lasclate ognisperanza*. *voichentrate* في الاسبوعين الاولين للكوليرا فاضت المقبرة، ولم يكن هناك من مكان للدفن في الكنائس، رغم انهم نقلوا الى مستودع العظام العام الرفات المتآكل لعدد كبير من الاعيان الذين ضاعت اسمائهم. ولقد اختلط هواء الكتدرائية بابخرة سراديب الدفن غير المحكمة الاغلاق، مما اضطرهم الى عدم فتح أبواب الكتدرائية الا بعد ثلاث سنوات، في الحقبة التي رأت فيها فيرمينا داتاً للمرة الاولى عن قرب فلوريتينو اريثا في صلاة الفجر. وامتلأ رواق دير سانتا كلارا بالقبور التي وصلت الى الممرات بين اشجار الحور في الاسبوع الثالث، وكان لابد من تحويل بستان الدير، الذي كان اوسع من الرواق بمرتين، الى مقبرة. وخفروا هناك قبوراً عميقة ليدفنوا فيها على ثلاث مستويات، على عجل وبلا توايت، ولكنهم اضطروا للتخلي عنها لأن الارض الطافحة أصبحت مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الاقدام دماً فاسداً كريه الرائحة. عندئذ تقرر متابعة عمليات الدفن في لامانو دي ديوس، وهي مزرعة لتسمين الابقار على بعد أقل من فرسخ واحد عن المدينة، والتي كرسب فيها بعد باسم المقبرة الكونية.

مد اذيع بلاغ الكوليرا، بدأ حصن الحامية المحلية باطلاق قذيفة مدفع كل ربع ساعة، في الليل والنهار، ايماناً بالخرافة الحضارية القائلة ان البارود يطهر الجو. ولقد كانت الكوليرا أشد فتكا بين السكان الزنوج، لانهم الاكثر عددا وفقرا، ولكنها في الحقيقة لم تكن تأخذ اللون أو الاصل بعين الاعتبار. وتوقفت فجأة كما بدأت، دون ان يعرف عدد ضحاياها، ليس لان حصرهم كان مستحيلا، وانما لان احدى فضائلنا السائدة هي الحشمة أمام المصائب الخاصة.

لقد كان الدكتور ماركو اوريليو اورينيو، والد خوفينال، بطلا مدنيا في تلك المرحلة المشؤومة، وأبرز ضحاياها أيضا. فاستناداً الى قرار رسمي، وضع الاستراتيجية الصحية وأشرف شخصيا على تنفيذها، لكن مبادراته دفعته للتدخل في كل شؤون النظام الاجتماعي، حتى صار يبدو في أخرج لحظات الوباء انه لا وجود لسلطة فوق سلطته. وعندما راجع الدكتور خوفينال اورينيو، بعد عدة سنوات، وقائع تلك الايام، ثبت له ان منهج ابيه كان يعتمد على العاطفة اكثر من اعتماده على العلم، وانه كان مناقضا للعقل في احيان كثيرة، وهذا افسح المجال واسعا امام شراة الوباء. وتأكد له ذلك في عاطفة الابناء الذين حولتهم الحياة شيئا فشيئا الى آباء لابائهم، فتألم للمرة الاولى لانه لم يكن الى جوار ابيه في عزلة اخطائه. لكنه لم يتعرض لجدارة والده. . . فبنشاطه وتفانيه، وشجاعته الشخصية قبل كل شيء، استحق التشريفات الكثيرة التي قدمت له عندما تخلصت المدينة من الكارثة، وبقي اسمه بجدارة محفوظا الى جانب اعداد من أبطال حروب اخرى أقل نبلا.

لم يعيش ليرى مجده. فعندما اكتشف في نفسه الاختلالات التي لا شفاء منها، والتي عاينها ورق لها في الآخرين، لم يحاول حتى مجرد خوض معركة لا طائل منها، وانما ابتعد عن الجميع كي لا ينقل العدوى الى أحد. وفي وحدته في احدي غرف الخدمة بمستشفى الرحمة، صاماً اذنيه عن نداءات زملائه وتوسلات ذويه، غير غاييء بهلع الموبوتين المحتضرين في الممرات الغاصة، كتب لزوجته وابنائهم رسالة حب محمومة، يمتن فيها لانه جاء الى الوجود، ويكشف لهم كم أحب الحياة وبأي نهم أحس بذلك الحب. كانت رسالة وداع في عشرين ورقة مؤثرة يبدو فيها تقدم المرض في اضطراب الكتابة، ولم يكن ضروريا معرفة لمن كتبت تلك الاوراق لادراك ان التوقيع قد وضع عليها مع النفس الاخير. ووفقا لمشيئته ضاع رماد جسده في المقبرة العامة، دون أن يراه أحد ممن أحبه.

تلقى الدكتور خوفينال اورينيو برقية الاشعار بالوفاة بعد ثلاثة أيام في باريس، اثناء تناوله العشاء مع اصدقائه، فرفع نخب شمبانيا لذكرى ابيه قائلا: «لقد كان رجلا طيبا». وكان عليه بعد ذلك ان يؤنب نفسه لقلة نضجه. . . لانه بذلك انها تجنب الواقع لكي لا يبكي. ثم

تلقى بعد ثلاثة أسابيع نسخة من رسالة ابيه ، وحيث استسلم للواقع . لقد انكشفت له دفعة واحدة وبعمق صورة الرجل الذي عرفه قبل أي رجل سواه ، الذي رباه وعلمه ، والذي نام وزنى مع امه طوال اثنتين وثلاثين سنة ، والذي لم يكن يبدو له مع ذلك جسدا وروحا قبل هذه الرسالة ، وذلك لمجرد الاستحياء وحده . لقد كان الدكتور خوفينال اوريينو وعائلته حتى ذلك الحين يتصورون الموت محنة تصيب الآخرين ، آباء الآخرين ، واشقاء الآخرين وازواجهم ، لكنها لا تقرب ذويهم . فهم ذوو حيوات بطيئة ، لا يبدو ان الشيخوخة تلحق بهم ، ولا المرض أو الموت كذلك ، وانما هي حيوات تضمحل شيئا فشيئا في زمانها ، متحولة الى ذكريات وضباب زمن اخر ، الى ان يتلعها النسيان . لقد وضعت رسالة ابيه ، أكثر من برقية الخبر المشؤوم ، وجهاً لوجه مع يقين الموت . رغم ان احدي أقدم ذكرياته ، حين كان في التاسعة ، أو ربما في الحادية عشرة ، هي نوع من المؤشر المبكر الى الموت من خلال ابيه . كانا وحيدين في مكتب البيت مساء يوم ماطر ، وكان يرسم قبرات ودوار شمس بالطباشير على بلاط الارضية ، فيما والده يقرأ موليا ظهره لضوء النافذة ، وصدريته مفتوحة الازرار وعلى كمي قميصه اربطة مطاطية . وفجأة قطع القراءة ليحك ظهره بمحكاك ذي ذراع طويلة تنتهي بكف فضية في طرفها . وحين لم يستطع ، طلب من ابنه ان يحك له باظافره ، ففعل ذلك يراوده شعور غريب بانه يحس بجسده وهو يحك . واخيرا تطلع اليه ابوه من فوق كتفه بابتسامة حزينة وقال له :

.. اذا ما مت الان فانك لن تكاد تتذكرني حين تصبح في مثل سني .

قال ذلك دون أي سبب ظاهر ، وطاف ملاك الموت للحظة في ظلمة المكتب البارد ، وعاد للخروج من النافذة تاركا وراءه نشارة ريش ، لكن الطفل لم يرها . لقد انقضت اكثر من عشرين سنة منذ ذلك الحين ، وقريبا سيصل خوفينال اوريينو الى السن التي كان فيها ابوه في ذلك اليوم . كان يعرف انه يشبهه تماما ، ولوعيه بانه كذلك ، ارتقى الان الى الوعي المرعب في انه سيفنى مثله أيضا .

صارت الكوليرا هي هاجسه . لم يكن يعرف عنها شيئا اكثر مما يتعلمه بشكل روتيني في دورة هامة ، ولم يكن ليصدق بان هذا المرض قد سبب منذ ثلاثين سنة فقط في فرنسا ، بما في ذلك باريس ، اكثر من مئة واربعين الف وفاة . أما بعد موت ابيه فقد تعلم كل ما يمكن ان يتعلمه حول مختلف اشكال الكوليرا ، بشكل اشبه بعقاب النفس لتهدة ذاكرته ، وكان طالبا من طلاب ابرز علماء الاوبئة في ذلك الزمان ، ومبتدع الاحزمة الصحية ، البروفسور ادريان بروس ، والد الروائي الكبير . وبهذا فانه لدى عودته الى وطنه ، واحساسه مذ كان في البحر برائحة السوق النتنة ، ثم رؤيته الجردان في المجاري المكشوفة والاطفال الذين يتمرغون عراة

في مستنقعات الشوارع ، لم يدرك ان الكارثة قد وقعت بالفعل فقط ، بل وأيقن انها ستكرر في اية لحظة .

ولم يمض وقت طويل . فقبل ان يمر العام طلب منه تلاميذه في مستشفى الرحمة ان يساعدهم بشأن مريض احسان تغطي كل انحاء جسده بقع زرقاء غريبة . وكانت رؤية الدكتور خوفينال اورييسو للمريض من الباب كافية ليتعرف على العدو . لكن الحظ حالهم : فالمريض وصل منذ ثلاثة أيام على متن سفينة قادمة من كوراثاوا ، وقد حضر بنفسه الى العيادات الخارجية في المستشفى ، وليس هناك احتمال بان يكون قد نزل العدوى الى سواه . وعلى كل حال ، حذر الدكتور خوفينال اورييسو زملاءه ، وتمكن من جعل السلطات تنقل الانذار الى الموانئ المجاورة ليتم تحديد موقع السفينة الملوثة واجراء الحجر الصحي عليها ، وكان عليه ان يهديء من اندفاع القائد العسكري للموقع ، الذي اراد اعلان حالة الطوارئ وتطبيق العلاج بقذائف المدفعية كل ربع ساعة في الحال .

وقال له بالمعية عالية :

- اقتصد بالبارود الى ان يأتي الليبراليون . فنحن لم نعد في العصور الوسطى .
مات المريض بعد أربعة ايام ، مختنقا بقيء حبيبي أبيض ، انما لم تظهر اية حالة اخرى خلال الاسابيع التالية رغم الاستنفار الدائم . بعد ذلك بقليل ، نشرت صحيفة ديار يودي كومير يشو خبرا عن طفلين ماتا بالكوليرا في مكانين مختلفين من المدينة . ثم تأكد ان احدهما كان مصابا بالديزنتاريا العادية ، اما الآخر ، وهي طفلة في الخامسة ، فيبدو انها كانت مصابة بالكوليرا فعلا . فتم الحجر على ابويها واخوتها الثلاثة وعزل كل منهم على انفراد في الحجر الصحي ، كما اخضع الحي بأسره الى رقابة طبية صارمة . كان أحد الاطفال مصابا بعدوى الكوليرا ولكنه استعاد عافيته بسرعة ، وعادت الاسرة كلها الى البيت عندما زال الخطر . وخلال ثلاثة شهور سجلت احدى عشرة حالة اخرى ، ثم حدث استفحال مخيف في الشهر الخامس ، ولكن ما ان انتهت السنة حتى اعتبر انه قد تم تجاوز مخاطر الوباء . ولم يشك احد في ان صرامة الدكتور خوفينال اورييسو الصحية ، اضافة الى مقدرة مناديه الجنود ، هي التي جعلت تحقيق المعجزة ممكنة . ومنذ ذلك الحين ، وحتى وقت متقدم من القرن الحالي ، اصبحت الكوليرا داء مستوطنا ليس في المدينة فقط وانما في ساحل الكاريبي كله تقريبا وفي حوض نهر ماجدلينا ، ولكن المرض لم يكن يتفاقم متحولا الى جائحة . لقد افادت حالة الذعر في تطبيق تنبيهات الدكتور خوفينال اورييسو بجدية اكبر من جانب السلطات العامة . ففرضت شعبة إجبارية خاصة بالكوليرا والحمى الصفراء في مدرسة الطب ، وجرى الاسراع في ردم المجاري وبناء سوق جديد بعيدا عن المزبلة . ولكن الدكتور اورييسو لم يكن يعاب حينئذ باعلان

انتصاره كما لم يعد متحمساً للاستمرار في مهماته الاجتماعية، لأنه هو نفسه كان مكسور الجناح في ذلك الحين، مذهباً ومشتتاً، ومستعداً لتغيير كل شيء ونسيان كل شيء في الحياة من أجل بارقة حب فيرمينا دائماً.

لقد كان ذلك الحب فعلاً ثمرة تشخيص طبي خاطيء. اذ ان طبيباً صديقاً ظن انه لمح اعراض الكوليرا الاولى على مريضة في الثامنة عشرة، وطلب من الدكتور خوفينال اوربينو الذهاب لعيادتها. ذهب مساء ذلك اليوم بالذات، مذعوراً من احتمال ان يكون الوباء قد دخل هيكل المدينة القديمة، فجميع الاصابات حتى ذلك الحين اقتصرت على الاسحياء الهامشية، وكانت كلها تقريبا بين الزوج. ووجد هناك مفاجآت اخرى ليست أقل جحوداً. كان البيت الغارق في ظلال اشجار لوز حديقة البشارة يبدو مخرباً من الخارج كغيره من البيوت ذات الاسوار الاستعمارية، أما في الداخل فكان يسود نظام جميل وضوء خافت يبدو ان وكأنها من عصر آخر من عصور العالم. كان دهليز المدخل يؤدي مباشرة الى جهو اشبيلي، مربع ومطلي بكلس أبيض حديث، وفيه اشجار برتقال مزهرة وأرضية مرصوفة ببورسلين كبورسلين الجدران. كان هناك خيزر ماء متواصل لامرئي، واصص قرنفل على الافاريز وأقفاص عصافير نادرة بين قنابر الرواق. واكثر تلك الطيور غريبة هي ثلاثة غربان في قفص كبير جداً، تضمخ جوار البيت برائحة عطر مبهم حين تحرك اجنحتها. وبدأت عدة كلاب مقيدة في مكان ما من البيت بالعواء فجأة، وقد أطار رائحة الغريب صوابها، لكن صرخة امرأة جعلت الكلاب تسكت تماماً، وقفزت أعداد من القطط من كل الجهات واختبأت بين الإزهار، مرتعدة من سلطة ذلك الصوت. حينئذ ساد صمت شفاف، جعل انفاس البحر الكثيب مسموعة من خلال اضطراب العصافير ووقع ماء النافورة على الحجر.

وفكر الدكتور خوفينال اوربينو، وهو يرتعش ليقينه بحضور الرب جسدياً، ان بيتاً كهذا يجب ان يكون عصياً على الوباء. لحق بغالا بلاثيديا عبر رواق القناطر، ومر مقابل نافذة حجرة الخياطة حيث رأى فلوريتتينواريثا لأول مرة فيرمينا دائماً حين كان البهوما يزال مليئاً بالانقراض، ثم صعد الادراج الرخامية الجديدة الى الطابق الثاني، وانتظر نقل خبر وصوله قبل ان يدخل مخدع المريضة. لكن غالا بلاثيديا رجعت بملاحظة لدى خروجها:

- تقول الانسة انه لا يمكنك الدخول الان لأن والدها ليس في البيت.

وهكذا كان عليه ان يعود ثانية في الخامسة مساءً، حسب تعليمات الخادمة، وفتح له الباب حينئذ لوريتشودائشا شخصياً وقاده الى حجرة نوم ابنته، وبقي جالساً في عتمة الركن مقاطعاً ذراعيه ومحاولاً دون جدوى السيطرة على انفاسه المتسارعة، خلال الوقت الذي استغرقه الفحص. لم يكن من السهل معرفة من هو الاكثر ارتباكاً، أهو الطبيب بلمسه الخجول، أم

المريضة بخفر العذراء في قميص نومها الحريري ، لكن أيا منها لم ينظر في عيني الآخر ، وإنما كان يسألها بصوت مبهم وتجييه بصوت مرتعش ، وكلاهما متعلق بالرجل الجالس في العتمة .
واخيرا طلب الدكتور خوفينال اوربينو من المريضة ان تجلس ، وفتح قميص نومها حتى الخصر بحرص لذيذ : تلاً صدرها الشامخ غير المسوس ، ذوا الحلمتين الطفوليتين ، للحظة وكأنه وميض برق في ظلاله المخدع ، قبل ان تسرع لتخفيه بذراعيها المتقاطعتين . فأزاح الطبيب ذراعيها بحزم دون ان ينظر اليها ، وقام باجراء الفحص المباشر بوضع اذنه على الجلد ، بادئا بالصدر أولاً ثم الظهر .

وقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو ان يقول بانه لم يشعر بأي انفعال عندما تعرف على المرأة التي سيعيش معها حتى يوم مماته . كان يتذكر قميص النوم السماوي ذي التطريز المخرم ، والعينين المحمويتين ، والشعر الطويل المنسدل على الكتفين ، ولكنه كان مبهورا من اقتحام الوباء للصور الاستعماري ، فلم يتمعن في شيء من المحاسن الكثيرة التي تمتلكها كمراهقة يانعة ، وإنما انصب اهتمامه على ادنى قدر من الوباء قد يكون لديها . بينما كانت هي اكثر وضوحاً : لقد بدا لها الطبيب الشاب الذي كثيرا ما سمعت باسمه اثناء الحديث عن الكوليرا ، متحذلقا عاجزاً عن حب أحد سوى نفسه . وكانت نتيجة التشخيص انها مصابة بالتهاب معوي ذي منشأ غذائي برئت منه باستخدامها علاج بيتي لمدة ثلاثة ايام . اطمأن لوريتشودا للتأكيد بان ابنته ليست مصابة بالكوليرا ، فرافق الدكتور خوفينال اوربينو حتى باب العربية ، ودفع له تسعيرة البيزو الذهبي التي بدت له غالية جدا حتى بالنسبة لطبيب يعالج الاثرياء ، لكنه ودعه بامتنان مفرط . كان مبهوراً ببريق كنيته والقباه ، ولم يفعل شيئاً لمدارة ذلك الانبهار ، بل انه كان مستعدا للاقدام على عمل اي شيء للالتقاء به ثانية ، في ظروف اقل رسمية .

كان لابد من اعتبار المسألة منتهية . لكن الدكتور خوفينال اوربينو رجع ثانية بلا مناسبة في الثالثة من ظهر يوم الثلاثاء التالي ، دون ان يستدعيه أحد ودون ان ينبئ أحداً بقدومه . كانت فيرمينا داثا في حجرة الخياطة ، تتلقى درسا في الرسم الزيتي مع صديقتين اخريين عندما ظهر من النافذة بسترته البيضاء الناصعة ، وقبعته العالية والبيضاء أيضاً ، وأشار لها بان تدنو . وضعت ادوات الرسم على الكرسي وسارت نحو النافذة على رؤوس اصابعها رافعة كشكش تنورتها حتى الكاحلين لتحول دون جرهما على الارض . كانت تضع اكليلاً مثبتاً على جبهتها بمشبك فيه حجر كريم لبريقه لون أشم كلون عينيها ، وكان كل ما فيها ينفث برودة . وقد لفت انتباه الطبيب انها ترتدي للرسم في البيت ملابس الخروج الى حفلة . جس نبضها من خارج النافذة ، وطلب منها ان تخرج لسانها ، وفحص حلقها مستخدماً خافضة لسان من

المنيوم ، ونظر الى ما تحت جفنها الاسفل ، وكان كلما انتهى من شيء يشير بحركة ارتياح .
كان أقل ارتباكاً من الزيارة السابقة ، بينها كانت هي اكثر ارتباكاً لانها لم تفهم سبباً لهذا
الفحص الطاريء ، اذا كان هو نفسه قد قال بأنه لن يعود الا اذا استدعوه لاي شيء
يستجد . بل اكثر من ذلك : لم تكن راغبة في رؤيته الى الابد . عندما انتهى الفحص ، خبأ
الطبيب خافضة اللسان في الحقيبة المتخمة بالادوات وقناني الدواء ، وأغلقها بضربة قوية ، ثم
قال لها :

- انك كزهرة متفتحة لتوها .

- شكراً .

- الشكر لله - قال لها ، واستشهد استشهاده خاطئاً بسان توماس - : تذكر ان كل ما هو
طيب ، مهما كان منشؤه ، انما هو من الروح القدس . اتحبن الموسيقى ؟
سأل ذلك عرضاً ، مع ابتسامة ساحرة ، لكنها لم تجبه . بل سألت بدورها :
- ما قصدك من هذا السؤال ؟
فقال :

- الموسيقى مهمة للصحة .

كان يؤمن بذلك أحياناً ، وستعرف هي عما قريب ، وحتى نهاية حياتها ، ان الموسيقى
كانت اشبه بمعادلة سحرية يستخدمها لاقامة صداقة ، ولكنها فهمت الامر في ذلك الحين
على انه سحرية . ثم ان صديقتيها اللتين تظاهرتا بالرسم فيما هما تتحدثان أغلبتا ضحكات
فثران وخبأتا وجهيهما بحاملة الالوان ، وهذا ما أفقد فيرمينا دائماً صوابها ، فصنفت النافذة بقوة
وقد اعماها الغضب . حاول الطبيب الحائر امام مصراع النافذة المخرم ان يجد طريقه الى
البوابة الخارجية ، لكنه أخطأ الاتجاه ، وفي اضطرابه اصطدم بقفص الغربان العطرية ،
فأطلقت هذه زعقة صمء ، وخفقت بأجنحتها مرتعبة ، مضمخة ملابس الطبيب بعطر
نسائي . جمده صوت لوريثوداثة الراحل في مكانه .

- دكتور . . انتظري حيث انت .

كان قد رأى كل شيء من الطابق العلوي ، فنزل الدرج وهو يزرق قميصه متغطرساً
ومتورداً ، وسوالفه الطويلة ما تزال مشعة بعد حلم قيلولة سيء . حاول الطبيب ان يتغلب
على الحرج :

لقد قلت لابتك انها تبدو كزهرة .

فقال لوريثوداثة :

انها كذلك ، ولكنها زهرة كثيرة الاشواك .

مر من جانب الدكتور اورينودون ان يحيه . ودفع مصراعي نافذة حجرة الخياطة وأمر ابنته بصرخة خشنة :

- تعالي واعتذري من الدكتور.

حاول الطبيب ان يتوسط ليحول دون ذلك ، لكن لوريشوداثة لم يعره اهتماما . وأصر : «أسرعي» . نظرت الى صديقتيها بتوسل خفي لتفهما ، وردت على ابنيها بانه لا يوجد ما يستوجب الاعتذار ، وبانها أغلقت النافذة لتمنع استمرار دخول الشمس فقط . حاول الدكتور اورينودون تأييد حججها ، ولكن لوريشوداثة أصر على الامر . حينئذ رجعت فيرمينا داثة الى النافذة ، شاحبة من الغضب ، وقدمت قدمها اليمنى فيما هي ترفع تنورتها بأطراف اصابعها ، وانحنت للطبيب انحناء مسرحية وقالت :

- أقدم لك اخلاص اعتذاري أيها السيد المبجل .

جارها الدكتور خوفينال اورينودون بمزاج رائق ، رافعا قبعته العالية بحركة كمحركات الفرسان ، لكنه لم ينل ابتسامة الرحمة التي كان ينتظرها . دعاه لوريشوداثة بعد ذلك ليتناول في المكتب قهوة المصالحة فوافق مبتهجا ، حتى لا تبقى اية شكوك في انه ازال من روحه كل اثر للضعف .

الحقيقة ان الدكتور خوفينال اورينودون لم يكن يشرب القهوة ، باستثناء فنجان واحد في الصباح قبل الطعام ، ولم يكن يتعاطى الكحول ايضاً ، ما عدا كأساً من النبيذ مع الطعام في بعض المناسبات الجليلة . لكنه لم يتناول القهوة التي قدمها اليه لوريشوداثة فحسب ، بل ووافق كذلك على شرب كأس من خمر اليانسون . ثم قبل فنجاناً آخر من القهوة وكأساً اخرى من الخمر ، ثم اخرى واخرى ، رغم انه سيزور بعض المرضى الذين لم يزرهم بعد . استمع أول الأمر الى الاعتذارات التي تابع لوريشوداثة تقديمها باسم ابنته ، التي وصفها بانها طفلة ذكية وجديفة ، جديرة بأمر من هنا أو من أي مكان آخر ، وعيها الوحيد ، حسب زعمه ، هو طبعها الذي يشبه طبع بغلة . لكنه بعد الكأس الثانية ظن بانه يسمع صوت فيرمينا داثة يأتي من طرف الفناء ، ومضى خياله في اثرها ، ولاحقها في الليل الذي بدأ يلف البيت فيها هي تشعل اضواء الممر ، وترش غرف النوم بمضخة مبيد الحشرات ، وتكشف الغطاء عند الموقد عن قدر الحساء الذي ستتناوله هذه الليلة مع ابنيها ، هو وهي وحدهما على المائدة دن ان يرفعا بصيرهما ، ودون ان يرشفا الحساء بصوت مسموع كي لا يحطما سحر الغضب ، إلى ان يستسلم الأب ويطلب الصفح منها لقسوته هذا المساء .

كان الدكتور اورينودون يعرف النساء جيداً ، فأدرك ان فيرمينا داثة لن تقرب المكتب ما لم ينصرف هو منه ، لكنه تأخر على أية حال ، لانه كان يحس ان كبرياءه الجريح لن يتيح له

العيش بسلام بعد اهانة هذا المساء . ويبدو ان لوريشوداثا، الذي نال منه السكر، لم يلاحظ عدم اهتمامه به ، اذ كان يكفي نفسه بطلاقة لسانه التي لا كايح لها . كان يتكلم طويلاً وهو يمضغ عقب سيجاره المنطقى ، ويسعل بصوت عال ، ويتف ، ويحاول الاسترخاء بصعوبة على الكرسي الدوار الذي تثن نوابضه كأنين حيوان متهيج . لقد شرب ثلاث كؤوس مقابل كل كأس شربه ضيفه ، ولم يتوقف عن الكلام إلا عندما انتبه إلى ان كلاً منهما لم يعد يرى الآخر، فنهض ليشعل المصباح . تأمله الدكتور خوفينال اوربينومن الأمام على نور الضوء الجديد، ورأى ان احدى عينيه مائلة كعين سمكة وان كلماته لا تتفق مع حركة شفثيه ، وفكر بانها تخيلات تراوده لاسرافه في الكحول . حيثئذ نهض واحساس اخاذ يسيطر عليه بانه في جسد ليس جسده، وانها جسد شخص ما يزال على المقعد حيث كان . واضطر للقيام بمجهود شاق كي لا يفقد اتزانه .

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما خرج من المكتب يسبقه لوريشوداثا . كان القمر بدرأ . وكان البهو الذي زينه له خياله يطفو في حوض مائي ، والاقفاص المغطاة بقطع قماشية بدت وكأنها اشباح نائمة تحت الرائحة الدافئة لازهار البرتقال الجديدة ، وكانت نافذة حجرة الخياطة مفتوحة ، وعلى طاولة العمل يوجد مصباح مضيء ، بينما اللوحات غير المكتملة معلقة على الحوامل وكأنها في معرض . «أين أنت أيتها الغائبة» ، قال الدكتور اوربينولدى مروره، لكن فيرمينا داثا لم تسمعه ، ولم يكن بمقدورها ان تسمعه ، لانها كانت تبكي غيضاً في مخدعها ، وهي منبطحة على بطنها فوق السرير بانتظار والدها لتقاضيه على اذلالها هذا المساء . لم يكن الطبيب ليتنازل عن وداعها ، لكن لوريشوداثا لم يعرض عليه ذلك . لقد حن الى براءة نبضها ، والى لسانها الذي كلسان قطة ، ولوزتيها الطريتين ، ولكنه فقد الحساس حين فكربانها لم تعد ترغب برويته أبداً ولن تسمح له بان يحاول ذلك . عندما دخل لوريشوداثا في الدهليز، أطلقت الغربان المستيقظة تحت الشرشف صرخة جنائزية ، فقال الطبيب بصوت عال : «ستقلع عينيك» ، وكان يفكر بها ، فالتفت اليه لوريشوداثا ليسأله ما الذي قاله .

فأجاب :

- لست أنا الذي قلت ، وانما هي الخمرة .

رافقه لوريشوداثا حتى العربة محاولا اقناعه بقبول البيزو الذهبي كأجرة للزيارة الثانية ، لكنه لم يقبله . أعطى الحوذي تعليمات صحيحة ليوصله إلى بيت المريضين اللذين عليه زيارتهما ، وصعد إلى العربة دون مساعدة ، لكنه بدأ يشعر بالاعياء بفعل اهتزاز العربة فوق

الشوارع المرصوفة بالاحجار، فما كان منه إلا ان أمر الحوذي بتغيير الاتجاه . نظر لبرهة في المرأة ورأى ان صورته أيضاً ما زالت تفكر بفيرمينا دائماً، فهز كتفيه . واخيراً أطلق جُشاة رملية، أسند رأسه على صدره وأغفى ، وفي الحلم بدأ يسمع نواقيس الحداد . سمع نواقيس الكتدرائية أولاً، ثم نواقيس جميع الكنائس، بما فيها اجراس كنيسة سان خوان هوسبتاليريو المكسرة.

فدمدم وهونائم :

- خراء ، لقد مات الموتى .

كانت أمه وشقيقته يتناولن عشاء مؤلفاً من القهوة بالحليب وكعكة الجبن والدقيق على طاولة المآدب في صالة الطعام الكبيرة، عندما رأيته يظهر في الباب بوجه منهك ورائحة مخزية تفوح منه هي رائحة عطر المومسات التي نفتتها الغربان . كان الناقوس الكبير في الكتدرائية المجاورة يرن في السكون المخيم على البيت . سألته أمه مذعورة اين كان، لانهم بحثوا عنه في كل الانحاء ليعالج الجنرال اغناسيوماريا، آخر أحفاد المركيز دي خاريث دي لافيرا، الذي مات هذا المساء باحتقان دماغي . ومن اجله كانت تفرع الاجراس . انصت الدكتور خوفينال اورينولامه دون ان يسمعها، وأمسك بآطار الباب، ثم دار نصف دورة محاولاً الوصول إلى حجرته، لكنه هوى على وجهه وسط انفجار قيء خمر مدو.

صرخت أمه :

- يا مريم المقدسة . لا بد ان أمراً غريباً جعلك تجميء إلى بيتك في مثل هذه الحالة .

لكن الأكثر غرابة لم يكن قد حدث بعد . فقد انتهز زيارة عازف البيانو المعروف روميو لوسيتش، الذي عزف مجموعة سونيتات لموزارت بعد ان انتهى حداد المدينة على الجنرال اغناسيوماريا مباشرة . فحمل الدكتور خوفينال اورينوبيانو مدرسة الموسيقى على عربة تقودها البيغال، وأحيا لفيرمينا دائماً سيرناداً أصبح مضرب المثل . استيقظت هي مع النغمات الأولى، ولم تكن بحاجة للنظر من تخريبات الشرفة لتعرف من هو صاحب هذا التكريم القريب . والشيء الوحيد الذي أسفت له هو عدم امتلاكها شجاعة غيرها من الأنسات المجربات اللواتي يفرغن محتويات المbole فوق رأس العاشق غير المرغوب فيه . أما لوريتشوداا فقد ارتدى ملابسها على عجل اثناء عزف السيرناد، ودعا الدكتور خوفينال اورينووعازف البيانو للدخول وهما ما يزالان بالملابس والزينة الخاصة بحفلة الكونشيرتو، وشكرهما على السيرناد بكأس جيد من البراندي .

سرعان ما تنبهت فيرمينا دائماً إلى ان والدها يحاول ان يلين قلبها . ففي اليوم التالي للسيرناد قال لها بمواربة : «تصوري شعور امك لو انها عرفت بانك مرغوبة من أحد آل

أوربينودي لا كايي». فردت عليه بجفاء: «كانت ستموت ثانية وهي في التابوت». وروت لها صديقاتها اللواتي يرسمن معها ان لوريتشوداثة قد ذهب إلى النادي الاجتماعي بدعوة من الدكتور خوفينال اوربينو، وان هذا الأخير كان محط تنبيه صارم لمخالفته تعليمات النادي. وحينئذ فقط علمت أيضاً أن أباهما قد طلب عدة مرات الانضمام إلى النادي الاجتماعي، وان طلبه رفض في كل مرة بعدد من الكرات السوداء لا يتيح المجال للتفكير بمحاولة أخرى. لكن لوريتشوداثة كان يتطلع الإهانة بكبد سكير، ويتابع استنباط الوسائل للالتقاء مصادفة بالدكتور خوفينال اوربينو، دون ان يلاحظ بان خوفينال اوربينو هو الذي كان يفعل المستحيل لينجعله يلتقي به. كانا يقضيان أحياناً عدة ساعات وهما يتبادلان الحديث في المكتب، فيبقى البيت حينئذ وكأنه غارق على هامش الزمان، لان فيرمينا داثا لم تكن تسمح لشيء بان يتابع خط حياته المعتاد قبل انصرافه. وكان مقهى الباروكية ملجأ وسطاً لا بأس به. وهناك علم لوريتشوداثة أول دروس الشطرنج لخوفينال اوربينو، وكان هذا تلميذاً مجداً، وأصبح الشطرنج داء آخر لاشفاء منه عذبه حتى يوم مماته.

في إحدى الليالي، بعد مدة قصيرة من سيرناد البيانو المنفرد، وجد لوريتشوداثة رسالة مختومة بالشمع في مدخل بيته، موجهة إلى ابنته وقد طبعت على الشمع حروف: خ. او. ك. فلتسها من تحت الباب لدى مروره أمام مخدع فيرمينا، ولم تستطع هي ان تدرك كيف وصلت الى هناك، اذ رأت انه من غير المعقول ان يكون ابوها قد تغير إلى حد ايصال رسائل عاشقها اليها. تركتها فوق الكوميدينو، دون ان تدري ما تفعله بها حقاً، وبقيت الرسالة هناك مغلقة عدة أيام، حتى مساء يوم ماطر حلمت فيه فيرمينا داثا ان خوفينال اوربينو قد رجع الى البيت ليهدبها خافضة اللسان التي فحص بها حلقتها. ولم تكن خافضة الحلم من الألميوم وانما من معدن آخر شهى كانت قد تذوقته بلذة في أحلام أخرى، رأت انها كسرتها إلى جزئين غير متساويين وأعطته القطعة الصغرى.

عندما استيقظت، فتحت الرسالة. كانت قصيرة ومهذبة، والشيء الوحيد الذي كان يرجوه خوفينال اوربينو منها هو السماح له بان يطلب من ابوها الاذن بزيارتها. لقد تأثرت ببساطته وجديته، والغيط الذي رعبه بالحب خلال تلك الايام خمد فجأة. خبأت الرسالة في علبة مهمة في قاع الصندوق، لكنها تذكرت انها كانت تحبب هناك أيضاً رسائل فلورينتينو اريشا المعطرة؛ فأخرجتها من العلبة لتضعها في مكان آخر، وقد هزتها موجة من الخجل. عندئذ رأت ان خير ما تفعله هو ان تعتبر الرسالة لم تصلها، فأحرقتها بلهب المصباح، وهي ترى قطرات الشمع تنتفخ في فقاعات زرقاء فوق اللهب. تنهدت «ياللرجل المسكين». وفجأة تذكرت انها المرة الثانية التي تقول فيها ذلك خلال اكثر بقليل من سنة، وفكرت لهنيهة

بفلورينتينو اريثا، وقد فوجئت هي نفسها كم أصبح بعيداً عن حياتها: بالرجل المسكين .
في تشرين الأول، ومع الأمطار الاخيرة، وصلتها ثلاث رسائل اخرى، مع الأولى منها
علبة أقراص بنفسج من دير فلافيغني . اثنتان منها سلمهما عند مدخل البيت حوزي الدكتور
خوفينال اورينو، الذي حيا غالا بلاثيديا من نافذة العربة، وذلك كي لا تكون هناك شكوك
في ان الرسائل ليست منه أولاً، وحتى لا يستطيع أحد الادعاء بان الرسائل لم تصل ثانياً . ثم
ان الرسالتين كانتا مختومتين بنفس الحروف على الشمع الأحمر، ومكتوبتين بالخط الرديء
الذي كانت فيرمينا دائماً تعرفه : خط طيب . وكلتا الرسالتين تقولان من حيث الجوهر ما جاء
في الرسالة الاولى، وهما مصاغتان بروح الخنوع ذاتها، ولكن في اعماق لياقته بدأ يشع اشتياق
لم يكن ليظهر أبداً في رسائل فلورينتينو اريثا الرصينة . وقد قرأتها فيرمينا دثا فور استلامهما،
بفارق اسبوعين بينهما . وعندما كانت على وشك القائهما للنار، غيرت رأيها دون ان تفسر
الامر لنفسها . ولكنها رغم ذلك لم تفكر أبداً بالرد عليهما .

الرسالة الثالثة من رسائل شهر تشرين الأول دُست من تحت باب البيت الخارجي، وكانت
مختلفة في كل شيء عن الرسائل السابقة . فالخط كان صبيانياً لدرجة لا تدع مجالاً للشك في
انها كتبت بليد اليسرى، لكن فيرمينا دائماً لم تفكر بشيء من هذا إلا عندما كشف لها النص
بالذات عن مجهول لئيم . فكتاب للرسالة يضع كأمرواقع ان فيرمينا دائماً قد سحرت
بأكاسيرها الدكتور خوفينال اورينو، ومن هذا الافتراض يستخلص النتائج المشؤومة .
وينتهي بتهديد: اذا لم تراجع فيرمينا دائماً عن محاولتها الاستيلاء على الرجل المرغوب اكثر
من أي رجل آخر في المدينة، فانها ستعرض نفسها للفضيحة العامة .

أحست بانها ضحية ظلم مجحف، لكن ردة فعلها لم تكن انتقامية، وانما على العكس
تماماً: كانت ترغب في الكشف عن الفاعل المجهول لصرفه عن خطئه بكل التفسيرات
المناسبة، اذ كانت موقنة بانها لن تتأثر أبداً، ومهما كانت الاسباب، بمغازلات خوفينال
اورينو . ثم تلقت في الأيام التالية رسالتين اخريين غفلين من التوقيع، فيهما من الحقد مثلما
في تلك الأولى، ولكن لم يكن يبدو في أي من الرسائل الثلاث ان كاتبها هو الشخص نفسه .
فاما انها وقعت ضحية مكيدة، او ان قصة حبها المزيف قد وصلت إلى أبعد مما تصورته . لقد
اقلقتها فكرة ان كل ذلك انها هو نتيجة تهور خوفينال اورينوليس إلا . وخطر لها بانه قد يكون
رجلاً مختلفاً عما يوحى به مظهره الوقور، وان لسانه ربما ينطلق في زيارته فيتبجح بغزوات
وهمية، كما يفعل الكثيرون من امثاله . فكرت بان تكتب له موبخة على اهانتة شرفها،
ولكنها تخلت عن الفكرة، فقد يكون هذا ما يريده . وحاولت ان تستعلم من صديقاتها
اللواتي يأتين للرسم معها في غرفة الخياطة، لكن الشيء الوحيد الذي سمعته هي تعليقات

سليمة العاقبة حول سيرناد اليانو المنفرد. أحست بالغضب، والعجز، والذل. وعلى العكس من البداية، حين رغبت بالعثور على العدو الخفي لاقتاعه باخطائه، أصبحت تريد فرمه الآن بمقص تشذيب الحديقة. صارت تمضي الليالي مستيقظة، محللة تفاصيل وتعابير الرسائل المجهولة، على أمل العثور على بارقة عزاء. وكان ذلك وهماً باطلاً: ففيرمينا دائماً بطبعها كنت غريبة عن عالم آل اوربينودي لاكايي الداخلي، وكانت تمتلك الاسلحة لمواجهة فنونهم الخيرة، أما الشريرة فلا.

وأصبحت هذه القناعة أشد مراوة بعد رعب الدمية السوداء التي وصلتها في تلك الأيام بلا أية رسالة، ولكن بدا لها انه من السهل تصور مصدرها: فالدكتور خوفينال اوربينو وحده يمكن ان يكون مرسلها. انها مشتراة من المارتينيك، حسب بطاقة المنشأ، وترتدي فستاناً محكمًا، لها شهر اجعد به خيوط ذهبية، وهي تغمض عينيها عند تمديدتها. لقد رأت فيها فيرمينا دائماً تسلية جعلتها تتغلب على وساوسها، فكانت تمددها على مخدتها في النهار. واعتادت على النوم معها في الليل. وبعد فترة من الزمن، اثر حلم منك، اكتشفت ان الدمية كانت تكبر: فالثياب الاصلية التي وصلت بها أصبحت تكشف عن فخذيها، والخذاء تمزق بضغط نمو القدمين. كانت فيرمينا دائماً قد سمعت من قبل عن رقيات سحرية افريقية مشؤومة، ولكن أياً منها لم يكن رهيباً كهذه. ولم تستطع، من جهة اخرى، تصور ان يكون رجل كخوفينال اوربينو قادراً على ارتكاب فظاعة مماثلة. وكانت محقة: فالدمية لم يوصلها الخوذي، وانما بائع قريدس عابر، لم يستطع أحد ان يقدم لها خبراً يقيناً عنه. وفي محاولة لحل اللغز، فكرت فيرمينا دائماً للحظة بفلوريتينو ارثا، الذي كانت تجهمه يثير فزعها، لكن الحياة تكفلت باقناعها بخطئها. ولم يتضح السر ابداً وكان مجرد تذكره يبعث فيها قشعريرة رعب إلى ما بعد زواجها بكثير، وانجابها أولاداً، واعتقادها بانها مختارة القدر وأسعد النساء.

المحاولة الاخيرة للدكتور اوربينو كانت توسط الاخت فرانكا ديلوث، رئيسة راهبات ظهور العذراء المقدسة، التي لا تستطيع رفض طلب من عائلة أيدت طائفاتها منذ استقرار هذه الطائفة في الامريكيتين. حضرت برفقة راهبة مستجدة في الساعة التاسعة صباحاً، وتسلتا كلتاها لمدة نصف ساعة بأقفاص العصافير ريثما تنتهي فيرمينا دائماً من الاستحمام. كانت ألمانية رجولية تتكلم بنبرة معدنية ولها نظرة آمرة لاعلاقة لها بعواطفها الصبيانية. ولم يكن في هذا العالم ما تكرهه فيرمينا دائماً اكثر من كرهها لها ومما رأتها على يديها، ومجرد تذكر شفقتها الكاذبة كان يسبب لها حرقصة عقرب في احشائها. وما ان تعرفت عليها من باب الحمام حتى عادت تعيش دفعة واحدة جميع عذابات المدرسة، وحلم القداس اليومي الذي لا يطاق، ورعب الامتحانات، ومساعي المستجندات الدنيئة، وكل الحياة المفسدة بموشور الفقر

الروحي . أما الاخت فرانكا دي لالوث بالمقابل ، فقد حيتها بمرح بدا نزيهاً . وأبدت دهشتها لنموها ونضجها ، وأطرت على حكمتها في تدبير شؤون البيت ، وذوقها الرقيق الظاهر في الفناء ، وفي مجمرة أزهار البرتقال . ثم أمرت المستجدة بانتظارها ، وعدم الاقتراب كثيراً من الغربان القادرة على انتزاع عينيها في لحظة اهمال ، وبحثت عن مكان منعزل تجلس فيه لتتحدث على انفراد مع فيرمينا داثا . فدعتها هذه إلى الصلاة .

كانت زيارة قصيرة وفظة . فالاخت فرانكا دي لالوث ، ودون اضاعة الوقت في الديباجات ، عرضت على فيرمينا داثا رد اعتبار مشرف . كما ان سبب الطرد سيمحي ، ليس من المحاضر فقط ، وانما من ذاكرة الطائفة أيضاً ، وهذا سيتيح لها استكمال دراستها والحصون على الشهادة الثانوية في الآداب . أرادت فيرمينا داثا الحائرة ان تعرف السبب .

فقلت الراهبة :

- كل ذلك بناء على طلب شخص جدير بكل شيء ، ورغبته الوحيدة هي إسعادك أو تعرفين من هو ؟

حينئذ فهمت الأمر . وسألت نفسها كيف يمكن لامرأة غيرت مسار حياتها من أجل رسالة بريئة ان تقوم الآن بدور رسول الحب ، لكنها لم تتجرأ على قول ذلك . وقالت بالمقابل انها عرفت الرجل المعني ، وانها تعرف كذلك بانه لا يملك الحق للتدخل في حياتها .

فقلت الراهبة :

- الشيء الوحيد الذي يرجوه هو ان تسمح لي بالتحدث اليك لخمس دقائق . وأنا متأكدة ان أباك سيوافق .

أصبح غضب فيرمينا داثا اشد زخماً لفكرة ان اباه متواطئ في تلك الزيارة . فقلت :

- لقد رأينا بعضنا مرتين حين كنت مريضة . وليس من سبب يدعو للقاء الآن .

وقالت الراهبة :

- ان هذا الرجل هو بمثابة هدية من العناية الالهية بالنسبة لأي امرأة لها دماغ عرضه اصبعان .

وتابعت الكلام عن فضائله ، وعن ورعه ، وانكبابه على خدمة المعذبين . وفيها هي تتكلم أخرجت من كمها مسبحة ذهبية تنتهي بمسيح منحوت من العاج ، وهزتها أما عيني فيرمينا داثا . انها من آثار العائلة ، وعمرها اكثر من مئة سنة ، صاغها صانع من سيينا وباركها البابا كليمنت الرابع .

- انها لك - قالت لها .

أحست فيرمينا داثا بتيار دافق من الدم في اوردتها ، وتجرات حينئذ على القول :

- لا أستطيع ان أفهم كيف تقبلين القيام بمهمة كهذه، اذا كنت ترين في الحب خطيئة.

تظاهرت الاخت فرانكا دي لالوث بانها لم تدرك مغزى الملاحظة، لكن اجفانها التهبت وتابعت تحريك المسبحة مقابل عينيها. وقالت:

- خير لك ان تفاهمي معي، فقد يجيء بعدي نياقة الاسقف، وسيكون الحال معه مختلفاً.

فقالت فيرمينا داثا:

- فليات.

خبأت الاخت فرانكا دي لالوث المسبحة الذهبية في كمها، ثم أخرجت من الكم الآخر منديلاً مستعملاً كثيراً، ومجعداً على شكل طابة، واحتفظت به مضغوطاً في قبضتها، ناظرة إلى فيرمينا داثا من بعيد جداً بابتسامة حانية وتنهدت.

- مسكينة أنت يا بنيتي، ما زلت تفكرين بذلك الرجل.

مضغت فيرمينا داثا الالهانة وهي تنظر إلى الراهبة دون ان يرمش لها جفن، وحدقت في عينيها، دون ان تتكلم، وهي تمضغ بصمت، إلى ان رأت بسعادة لانهاية عينيها الرجليتين تغرورقان بالدموع. ومسحتهما الاخت فرانكا دي لالوث بالمنديل المكور، ونهضت واقفة وهي تقول:

- لقد صدق والدك حين قال بانك بغلة.

لم يأت الاسقف. وكان الحصار سينتهي في ذلك اليوم، لولا ان هيلديبرندا سانتشيت جاءت لقضاء أعياد الميلاد مع ابنة عمتها، فتبدلت الحياة لكلتيهما. استقبلوها في السفينة القادمة من ريوهاتشا في الساعة الخامسة صباحاً، وسط اضطراب مسافرين يحضرون من الدوار، فيما نزلت هي من السفينة مشعة وناضجة، بروح هائجة بفعل الليلة البحرية السيئة. جاءت محملة بصناديق الديكة الرومية الحية وبكل انواع الثمار التي تطرحها بسايتنهم الزاهرة، كي لا ينقص الطعام على أحد أثناء زيارتها. وبعث والدها ليسياكوسانتشيت يسأل ان كانوا بحاجة إلى موسيقيين من أجل حفلة الفصح، لأن أفضل الموسيقيين متوفرين تحت تصرفه، ويعد بانه سيعث فيما بعد بشحنة من الألعاب النارية. ويعلن أيضاً بانه لن يستطيع المجيء لأخذ ابنته قبل شهر اذار، وهذا يعني ان لديها متسعاً من الوقت تعيشانه معاً.

بدأت الفتاتان في الحال. استحمتا معاً منذ مساء اليوم الأول، عاريتين، وطهرتا بعضهما بهاء البركة. تعاونتا على ذلك جسديهما بالصابون، وأخرجت كل منهما الصبيان من شعر

الآخري، وقارنتا اردافهما، ونهودهما الصلبة، وتأملت كل منهما في مرآة الآخري لترى قسوة الزمن عليهما مذ رأتا بعضهما عاريتين آخر مرة. كانت هيلديبراندا ضخمة ومتينة، ذات بشرة ذهبية، لكن شعر جسمها بأسره كان شعر مولدة، قصير ومفتول وكأنه رغبة أسلاك. أما فيرمينا داثا فكانت ذات عري شاحب، خطوطه طويلة، وبشرة صافية ناعمة الزغب. جعلتها غالاً بلاثيديا تضعان سريرين متماثلين في حجرة النوم. لكنهما كانتا تستلقيان في سرير واحد أحياناً وتتحدثان بعد اطفاء النور حتى الفجر، وتدخنان سيجاراً من النوع الرفيع الذي يدخله قطع الطريق. كانت هيلديبراندا قد أحضرته معها نجياً في بطانة الصندوق، وكان عليهما أن تحرقا بعد التدخين أوراق ارمينا لتنقية هواء الحجرة الذي يصبح كهواء اكواخ الرعاة. لقد دخلت فيرمينا داثا للمرة الأولى في فاييدوبار، وتابعت التدخين في فونسيكا، وفي ريوهاتشا، حين كانت تحبس نفسها مع عشر من بنات أخوالها في حجرة ليتحدثن عن الرجال ويدخنن في الخفاء. وتعلمت التدخين بالقلوب، وذلك بوضع طرف السيجار المشتعل في فمها، كما يدخل الرجال في ليالي الحرب كي لا تفصح جمرة السيجار. لكنها لم تدخن أبداً منفردة. وأصبحت تفعل ذلك مع هيلديبراندا في بيتها كل ليلة قبل أن تناما. ومنذ ذلك الحين اكتسبت عادة التدخين، رغم أنها كانت تدخن في الخفاء دوماً، وحتى بالخفاء عن زوجها وأولادها، ليس ذلك لأنه كان يُنظر إلى المرأة المدخنة في العلن بغير الرضى، وإنما لأن متعتها كانت تكتمل في السهرية.

كانت رحلة هيلديبراندا قد فُرضت عليها كذلك من جانب أبويها في محاولة لابعادها عن حبها المستحيل، رغم أنهم اقنعوها بأنها مسافرة لمساعدة فيرمينا داثا على حسم أمرها في وجهة حسنة. وقد وافقت هيلديبراند على أمل السخرية من النسيان، واتفقت مع موظف التلغراف في فونسيكا ليوصل رسائلها بأقصى قدر من الكتمان. ولذا كان يأسيها مريراً حين علمت أن فيرمينا داثا قد صدت فلوريتتينواريشا لأن هيلديبراندا كانت تملك رؤية كونية للحب، وتفكر أن ما يطرأ على حب يؤثر على جميع غراميات العالم بأسره. ولكنها لم تتخل عن مشروعها. ذهبت، بجرأة سيبت لفيرمينا داثا أزمة رعب، إلى مكتب البريد بغرض كسب جميل فلوريتتينواريشا.

ما كان لها أن تتعرف عليه، إذ لم يكن فيه أي ملمح من الصورة التي رسمتها له في خيالها من خلال فيرمينا داثا. وللوهلة الأولى رأت أنه يستحيل أن تكون ابنة عمتها قد أوشكت على الجنون في سبيل ذلك الموظف الذي لا يكاد يلفت الانتباه، والذي له ملامح كلب مضروب بالعصا، بملابسه التي كملايس حاخام منكوب وأساليبه غير القادرة على إثارة قلب أحد. لكنها ما لبثت أن ندمت لهذا الانطباع الأول، عندما وضع فلوريتتينواريشا نفسه

في خدمتها بلا أية شروط وحتى دون أن يعرف من تكون . . ولم يعرف ذلك أبداً . ما كان لأحد ان يفهمها مثله ، فلم يطلب منها الافصاح عن هويتها كما لم يطلب أي عنوان . ووضع حلاً بمنتهى البساطة : عليها ان تمر بمكتب التلغراف مساء كل اربعاء ليسلمها الردود باليد ، ولا شيء سوى ذلك وعندما قرأ رسالة هيلديبراندا المكتوبة سألها إن كانت توافق على تعديل يقترحه ، فوافقت . فكتب فلوريتينو اريثا بعض التعديلات بين السطور ، ثم شطبها ، واعاد كتابتها ، حتى لم يعد لديه فراغ بين السطور ، واخيراً مزق الورقة وكتب رسالة مختلفة تماماً بدت لها مثيرة . وعندما خرجت هيلديبراندا من مكتب التلغراف كانت على حافة الدموع .

وقد قالت لفيرمينا داثا :

- انه قبيح وكثير . لكنه ينضح حباً .

وكان اكثر ما لفت انتباه هيلديبراندا هو عزلة ابنة عمتها . وقد قالت لها بانها تبدو كعانس في العشرين من العمر . فهيلديبراندا المعتادة على اسرة كثيرة العدد وموزعة ، في بيوت لا أحد يعرف بالتحديد عدد الذين يعيشون فيها ولا من هم الذين سيتناولون الطعام في كل وجبة ، لم تستطع ان تتصور فتاة في مثل سنها تحجز نفسها في الحياة الخاصة . وهكذا كانت فيرمينا داثا : فمنذ استيقاظها في السادسة صباحاً ، والى ان تطفئ نور حجرة النوم ، كانت تكرس نفسها لاضاعة الوقت . فالحياة تُفرض عليها من الخارج : أولاً ، ومع صياح الديكة الأولى ، يوقظها بائع الحليب بمقرعة الباب . ثم تدق بائعة السمك على صندوق اسماك الأبرميس التي ما زالت تحتضر فوق فرشة من الاعشاب البحرية ، وتأتي التشكيلة الفاخرة من خضروات بساتين ماريما السفلى وفواكه سان خاينتو . بعد ذلك ، وطوال النهار ، يقرع الجميع الباب : المتسولون ، بائعات اليانصيب ، راهبات الاحسان ، المجلخ بنايه ، ومُشترى القناني الفارغة ، ومُشترى الذهب المكسر ، ومُشترى ورق الجرائد ، والفجريات المزيفات اللواتي يقرأن الحظ في أوراق اللعب ، وفي خطوط الكف ، وفي بقايا القهوة ، وفي ماء الجفنة . كان الاسبوع يمر على غالابلاتيديا وهي تفتح الباب وتغلقه لتقول لا ، عد في يوم آخر ، أولتصرخ من الشرفة بمزاج معكر ان توقفوا عن الازعاج ، اللعنة ، لقد اشترينا كل ما نحتاجه . كانت قد حلت محل العمه اسكولاستيكا بحماسة شديدة وظرافة كبيرة ، حتى ان فيرمينا داثا كانت تخطيء فتظنها العمه وتحبها على انها كذلك . كانت مسكونة بهواجس عبدة . فما ان تجد لحظة فراغ حتى تمضي إلى غرفة الاشغال لتكوي الملابس البيضاء ، وتركها على أحسن حال ، وتحفظها في الخزائن مع ازهار الخزامى ، ولم تكن تكوي وتطوي ما كانت قد غسلته فقط وانما كذلك الملابس التي فقدت رونقها لقلة الاستخدام . وبإلاهتمام ذاته كانت تحافظ على ملابس فيرمينا سانتشيث ، والدة فيرمينا ، المتوفاة منذ أربعة عشر عاماً خلت . لكن فيرمينا

دائماً هي التي كانت تتخذ القرارات . فهي من يأمر بأعداد ما يجب للطعام ، وما يجب إعداده
شراؤه ، وما يجب عمله في كل حالة ، وهذا كانت تقرر مسار حياة بيت لا يوجد فيه في الواقع
ما يجب تقريره . فبعد ان تنتهي من تنظيف الأقفاس ووضع الطعام للعصافير ، والتأكد من
ان الازهار ما عادت بحاجة لشيء ، تصبح دون اتجاه . وبعد طردها من المدرسة ، كثيراً ما
كانت تبقى نائمة منذ القيلولة ولا تستيقظ حتى اليوم التالي . ولم تكن دروس الرسم إلا وسيلة
مسلية أخرى لاضاعة الوقت .

كانت علاقاتها بآبيها خالية من العواطف منذ نفي العمة اسكولاستيكا ، لكنها وجدت
سبيلاً الى العيش معاً دون عراقيل . فحينما تستيقظ ، يكون قد خرج إلى أعماله . ونادراً ما
كان يتخلف عن طقس الغداء ، مع انه لم يكن يأكل شيئاً تقريباً ، اذ كان يكتفي بالمقبلات
والاصناف الجيلية الخفيفة التي تقدم في مقهى الباروكية . ولم يكن يتناول العشاء أيضاً :
كانوا يتركون له حصته من العشاء على المائدة ، في صحن واحد مغطى بصحن آخر ، رغم
معرفتهم بانه لن يأكلها حتى اليوم التالي بعد اعادة تسخينها على الفطور . وكان يعطي ابنته
النقود اللازمة للنفقات مرة كل اسبوع ، وبحسب تلك النقود جيداً ، وكانت تتصرف بها
بصرامة ، لكنه كان يلبي عن طيب خاطر اي طلب تطلبه لنفقات طارئة . لم يساومها على
قرش في يوم من الأيام ، ولم يطلب منها بياناً بالحساب يوماً ، لكنها كانت تتصرف وكأنها ستقدم
كشفاً بالحساب أمام محكمة قدسية . لم يحدثها أبداً عن طبيعة أعماله وحالتها ، كما لم يرافقها
لتتعرف على مكاتبه في الميناء ، تلك التي في موقع محظور على الأنسات دخوله حتى وهن
بصحبة آبائهن . ولم يكن لورينثودا يراجع إلى بيته قبل الساعة العاشرة ليلاً ، وهي ساعة
حظر التجول في مراحل الحرب الأقل خطراً . وكان يبقى حتى ذلك الحين في مقهى
الباروكية ، يلعب كل شيء ، لانه كان متخصصاً في جميع ألعاب الصالونات ، ومعلماً جيداً
لهذه الألعاب أيضاً . وكان يعود دوماً إلى بيته في حالة من الاتزان العقلي ، دون أن يوقظ ابنته ،
رغم انه كان يتناول أول كأس من خمر اليانسون عند استيقاظه ويتابع مضغ عقب سيجاره
المنطفيء وشرب عدد من الكؤوس المتفرقة طوال النهار . لكن فيرمينا دائماً أحست بدخوله في
احدى الليالي . سمعت وقع خطواته كخطوات قوزاقي على الدرج ، ولهاثة الضخم في ممر
الطابق الثاني ، وضرباته بكف يده على باب غرفة النوم . فتحت له الباب ، وفزعت للمرة
الأولى من عينه المنحرفة وكلماته المضطربة .

قال لها :

- لقد انهرنا . انه الانهيار الكامل ، وما انتذي قد علمت .

كان ذلك هو كل ما قاله ، ولم يعد لقول ذلك أبداً ، ولم يحدث ما يشير إلى انه قال الحقيقة ،

لكن فيرمينا دائماً وعت بعد تلك الليلة انها وحيدة في الدنيا . كانت تعيش على أحد هوامش المجتمع ، فصديقاتها القدييات في المدرسة كن في سماء محرمة عليها ، وقد أصبح الامر اكثر صعوبة بعد فضيحة طردها ، لكنها لم تكن بمثابة جارة لجيرانها أيضاً ، لان هؤلاء تعرفوا عليها بلا ماض ويزي مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، أما عالم ابيها فكان عالم التجار وحمالي السفن ، عالم لاجئي الحروب في وكرمقهى الباروكية العام ، عالم رجال متوحدين . لقد خففت دروس الرسم من عزلتها في السنة الاخيرة ، لان المعلمة كانت تفضل الدروس الجماعية وقد اعتادت ان تأتي معها بتلميذات اخريات إلى حجرة الخياطة ، لكنهن فتيات من اوساط اجتماعية مشوشة وغير محددة . لم يكن بالنسبة لفيرميني دائماً اكثر من صديقات مستعارات ينتهي تأثيرهن مع انتهاء كل درس . أرادت هيلديبراندا ان تفتح البيت ، ان تهويه ، ان تأتي بالموسيقيين والالعب النارية وقلاع البارود من عند ابيها واقامة حفلة رقص كرنفالية يقعرض عصفها حالة ابنة عمتها المعنوية المنخورة ، لكنها سرعان ما تنبعت إلى أن نواياها غير مجدية . والسبب بسيط : لا يوجد من يشارك في الحفلة .

وكانت هيلديبراندا على اي حال هي التي وضعتها في الحياة . ففي المساء ، وبعد دروس الرسم ، كانت ترافقها إلى الشارع للتعرف على المدينة ، وقد ارتها فيرمينا دائماً الطريق الذي كانت تقطعه يومياً مع العمة اسكولاستيكا ، ومقعد الحديقة حيث كان فلورينتينو اريثا يتظاهر بالقراءة لينتظرها ، والازقة التي كان يلاحقها فيها ، ومخابىء الرسائل ، والقصر المشؤوم الذي كان سجن السانتوافيثو فيها مضى وتحول إلى مدرسة ظهور العذراء المقدسة ، التي تكرهها من أعماق روحها . صعدتا إلى رابية مقبرة الفقراء ، حيث كان فلورينتينو اريثا يعزف الكمان حسب اتجاه الريح لتسمعه وهي في الفراش ، ومن هناك رأتا المدينة التاريخية بكاملها ، والسقوف المهشمة والجدران المتآكلة ، وانقاض الحصون بين الاجمات ، والجزر المتناثرة في الخليج ، واكوخ البؤس حول المستنقعات ، والكاربي الرحب . في ليلة عيد الميلاد ذهبتا إلى القدياس في الكتدرائية ، وجلست فيرمينا في المكان الذي تصلها فيه موسيقى فلورينتينو اريثا على أحسن وجه ، وأرت ابنة خالها المكان الدقيق الذي رأت فيه لأول مرة عن قرب عينيهِ المرتعبتين في ليلة كهذه الليلة . وغامرتا بالذهاب وحدهما إلى زقاق الكتبة العموميين ، واشترتا الحلوى ، وتوقفتا في دكان الأوراق السحرية ، وأرت فيرمينا دائماً ابنة خالها المكان الذي اكتشفت فيه فجأة ان حبها لم يكن اكثر من سراب . ولم تتببه هي نفسها إلى ان كل خطوة خطتها من البيت الى المدرسة ، وكل مكان في المدينة ، كل لحظة من ماضيها القريب ما كان لها من وجود إلا بفضل فلورينتينو اريثا . ولفتت هيلديبراندا انتباهها إلى ذلك ، لكنها لم توافق على الأمر ، لانها لم تقبل يوماً حقيقة ان فلورينتينو اريثا ، بخيره أو شره ، هو الشيء الوحيد

الذي حدث لها في الحياة .

في هذه الايام جاء المدينة مصور فوتوغرافي بلجيكي ، وأقام استوديو تصويره في اعالي زقاق الكتبة ، وانتهر كل قادر على الدفع الفرصة ليلتقط صورة . وكانت فيرمينا وهيلديبراندا من الأوائل . أفرغت خزانة ملابس فيرمينا سانتشيث ، واقتسمتا ازهى الملابس ، والمظلات ، واحذية الاحتفالات ، والقبعات ، وارقدتا ملابس سيدات كانت سائدة منذ نصف قرن . ساعدتهما غالاً بلاثيديا على شد أحزمة الخصر ، وعلمتهما كيف تتحركان في هياكل التنانير الداخلية المصنوعة من الاسلاك ، وكيف تلبسان القفازات ، وترران الاحذية ذات الكعوب العالية . وفضلت هيلديبراندا قبعة عريضة الحواف مزينة بريش نعام يتدلى على ظهرها . ووضعت فيرمين قبعة اكثر حداثة ، مزينة بفواكه جصية ملونة وأزهار كرينولين . ثم ضحكتا لمظهرهما عندما رأتا في المرآة انهما تشبها صور الجدات ، وانطلقتا سعيدتين ، ضاحكتين ، لتلتقطا صورة عمرهما . رأتهما غالاً بلاثيديا وهما تجتازان الحديقة وقد فتحتا مظلتيهما ، مستندتين كيفما اتفق على كعوب احديتهما ، ودافعتين تنانيرهما المكشكشة مع جسدهما كله في مشية كمشية الأطفال ، فباركتهما كي يساعدهما الله في صورهما .

كانت هناك جلبة مقابل استوديو البلجيكي ، اذ كان يلتقط صوراً لبني ثيتينو، الذي كسب في تلك الأيام بطولة الملاكمة في بناما . كان يرتدي سروال الملاكمة والقفازات ويضع التاج على رأسه ، ولم يكن تصويره بالامر السهل ، اذ كان عليه ان يقف في وضعية الهجوم لمدة دقيقة ، وان يتنفس أقل ما يمكن ، لكنه ما ان يتخذ وضعية الاحتراس حتى ينطلق انصاره المتعصبون بالتصفيق والهتاف ، فلا يستطيع مقاومة اغراء اسعادهم بعرض فنونه . وعندما جاء دور الفتاتين كانت السماء قد تلبدت بالغيوم وبدأ أن المطر سيهطل حتماً ، لكنها سمحتا للمصور بتعفير وجهيهما بالنشاء واستندتا إلى عمود رخامي بشكل طبيعي ، وتمكنتا من الوقوف دون حراك لوقت بدا أطول من المعقول بكثير . وكانت صورة خالدة . عندما توفيت هيلديبراندا ، وهي على مشارف المئة من عمرها ، في مزرعتها المسماة فلوريس دي ماريا ، وجدوا نسختها من الصورة في خزانة مخدعها المقفلة ما بين ثانيا شرشف معطرة ، الى جانب بقايا رسالة تحتها السنون . وقد احتفظت فيرمينا دائماً بنسختها لسنوات طويلة في الصفحة الأولى من ألبوم عائلي ، حيث اختفت دون ان يعرف أحد كيف ، أو متى ووصلت إلى يدي فلوريتتينو اريثا اثر سلسلة من المصادفات التي لا تُصدق ، بعد ان تجاوزا كلاهما السبعين .

كانت الساحة المقابلة لزقاق الكتبة تغص بالنساء حتى الشرفات عند خروج فيرمينا وهيلديبراندا من استوديو البلجيكي . لقد نسيتا أن وجهيهما أبيضان بالنشاء وشفتيهما مطليتان بمرهم له لون الشوكولاته ، وان ملابسهما لاتناسب الساعة ولا الحقبة الحالية . واستقبلها

الشارع بفيض من السخربة . فانزوتا وحاولتا الهرب من الاستهزاء العام ، حين شقت العربية التي يقودها جوادان اشقران ذهبيان طريقها وسط الحشد . فتوقفت السخربة وتفرقت الجموع المعادية . لن تستطيع هيلديبراندا ان تنسى ابداً رؤيتها الاولى للرجل الذي ظهر على ركاب العربية ، بقبعته الملساء ، وسترته البروكار وحركاته الماهرة ، وعذوبة عينيه ، وسلطة حضوره . ورغم انها لم تكن قد رآه من قبل ، الا انها عرفت في الحال . كانت فيرمينا داثا قد حدثتها عنه ، فعلت ذلك مصادفة وبلا أية مصلحة ، في مساء يوم من أيام الشهر الماضي حين لم تشأ المرور قرب بيت المركيزدي كاسالدويرولان عربية الخيول الذهبية كانت تقف أمام الباب . واخبرتها من هو صاحب العربية وحاولت ان تشرح لها سبب نفورها ، دون ان تقول لها كلمة واحدة عن طلبه الزواج منها . كانت هيلديبراندا قد نسيت . ولكنها عندما تعرفت عليه وهو عند باب العربية وكأنه طيف من حكاية خيالية ، احدى قدميه على الارض والاخرى على ركاب العربية ، لم تستطع ان تفهم أسباب نفور ابنة عمتها منه .

- اصعدا من فضلكم - قال لهما الدكتور خوفينال اوربينو - سأوصلكما حيث تأمران .

بدأت فيرمينا داثا القيام بحركة مبهمة ، لكن هيلديبراندا كانت قد وافقت . أنزل الدكتور رفينال اوربينو قدمه إلى الأرض وساعدها على الصعود إلى العربية بأطراف اصابعه ، وهو لا يكاد يلمسها . وحين لم تجد فيرمينا مخرجاً صعدت وراءها ، بوجه يتقد حرجاً .

كان البيت يبعد أربع كوادرات فقط ، ولم تتبهِ الفتاتان إلى ان الدكتور اوربينو قد اتفق مع الحوذي ، ولكن لا بد أن الأمر كذلك ، لان العربية استغرقت اكثر من نصف ساعة في الوصول . كانتا تجلسان على المقعد الرئيسي ، وجلس هو مقابلهما مولياً ظهره لاتجاه سير العربية . التفتت فيرمينا بوجهها نحو النافذة وغرقت في الفراغ . أما هيلديبراندا ، فكانت مفتونة ، وكان الدكتور اكثر فتنة بافتتانها . وما ان انطلقت العربية حتى أحست برائحة جلد المقاعد الطبيعي الدسمة ، وحميمية العربية من الداخل ، فقالت انها تراها مكاناً مناسباً للعيش فيه . وسرعان ما أخذوا يضحكان ويتبادلان المزاح كصديقين قديمين ، وعرجا على لعبة كلمات ذات رطانة بسيطة ، تتلخص بادخال مقطع صوتي متوافق بين كل مقطعين . كانا يتظاهران بالاعتقاد ان فيرمينا لا تفهمهما ، رغم معرفتهما بانها ليست فاهمة فحسب ، بل ومنصته اليهما أيضاً ، ولذا كانا يتابعان اللعب . وبعد هنيهة من الوقت ، وكثير من الضحك ، اعترفت هيلديبراندا بانها ماعادت تحتمل الآلام التي يسببها لها الحذاء فقال الدكتور اوربينو : - الامر في غاية البساطة . هلمي لنر من ينتهي أولاً .

وبدأ بحل رباط حذائه ، وقبلت هيلديبراندا التحدي . لم يكن الأمر سهلاً لأن مشد الاسلاك ما كان يسمح لها بالانحناء ، لكن الدكتور اوربينو تأخر متعمداً ، إلى ان أخرجت

حذاءها من تحت التنورة بضحكة ظافرة، وكأنها اصطادت الحذاء لتوها من بركة راكدة. عندئذ نظرا معاً إلى فيرمينا، ورأيا بروفيل وجهها أكثر حدة من أي وقت آخر على خلفية المساء القائط. لقد كانت غاضبة ثلاثاً: للوضع غير اللائق الذي هي فيه، ولسلوك هيلديبراندا الشائن، وليقينها بأن العربية تجول على غير هدى لتأخير الوصول. لكن هيلديبراندا كانت منغلقة من عقالها. وقد قالت:

- لقد أدركت الآن أن ما يزعجني ليس الحذاء وإنما هذا القفص من الأسلاك. وأدرك الدكتور أوربينو أنها تعني التنورة الداخلية، فأمسك بالسانحة على الفور، وقال: «الامر في غاية البساطة. اخلعيها.» وبحركة شعوذة سريعة أخرج منديلاً من جيبه وعصب عينيه قائلاً:

- أنا لا أرى.

أبرزت العصابة نقاء شفثيه بين اللحية المستديرة السوداء والشارب ذي الطرفين المديبين وأحست هي بارتعاشة ذعرت هز كيائها. فنظرت إلى فيرمينا، ولم تجدها غاضبة الآن، وإنما مرتعبة من أن تكون هي على استعداد لخلع تنورتها. فالتحذت هيلديبراندا وضعاً جدياً وسألت بإشارات من يديها «ماذا نفعل؟». واجابتها فيرمينا داثاً بالطريقة ذاتها بأنها ستلقي بنفسها من العربية إذا هم لم يذهبوا إلى البيت مباشرة.

قال الطبيب:

- انني أنتظر.

فقلت هيلديبراندا:

- بإمكانك أن ترى.

عندما نزع الدكتور خوفينال أوربينو العصابة عن عينيه، وجدها قد تغيرت، وأدرك أن اللعب قد انتهى، وأنه انتهى بصورة سيئة. وبإشارة منه دار الحوذي بالعربة دورة كاملة، ودخل في حديقة البشارة في اللحظة التي كان فيها مشعل الأنوار يشعل المصابيح العامة، وقرعت جميع الكنائس نواقيسها داعية إلى صلاة التبشير. نزلت هيلديبراندا مسرعة ومضطربة بعض الشيء لأنها أغضبت ابنة عمتها، وودعت الطبيب بمصافحة سطحية. وفعلت فيرمينا مثلها، ولكن حين حاولت سحب يدها بالقفاز الأملس. ضغط الدكتور أوربينو بقوة على أصبعها الوسطى قائلاً:

- مازلت أنتظر ردك.

حينئذ سحبت فيرمينا يدها بقوة، وبقي القفاز الفارغ معلقاً في يد الطبيب، لكنها لم تنتظر لاستعادته. وذهبت إلى النوم دون أن تأكل. أما هيلديبراندا، فبعد أن تناولت العشاء في

المطبخ مع غالا بلاثيديا، دخلت الى حجرة النوم وكان شيئاً لم يحدث، وعلفت بظرافتها الطبيعية على أحداث المساء. ولم تحف خامسها للدكتور اورينيو، وأطرت على اناقته ولطفه، ولم تعقب فيرمينا على كلامها بشيء، ولكنها كانت محتاطة للمناكفة. واعترفت هيلديبراندا انها في لحظة معينة، حين عصب الدكتور اورينيو عينيه ورأت بريق اسنانه المنتظمة بين شفثيه الورديتين، أحست برغبة لاتقاوم لأكله بالقبلاط. فانقلبت فيرمينا داثا نحو الجدار ووضعت حداً للحديث دون رغبة في الاساءة، بل انها كانت تضحك، ومن أعماق نلبها، وقالت: — يالك من عاهرة !

نامت متقافزة، وكانت ترى الدكتور اورينيو في كل مكان، رآته يضحك، ويغني، ويطلق شرر كبريت من اسنانه وعيناه معصوبتان، ويسخر منها برطانة لا قواعد لها في عربة مختلفة كانت تصعد نحو مقبرة الفقراء. واستيقظت قبل الفجر بكثير منهكة، وبقيت مستيقظة وعيناهما مغمضتان تفكر بالسنوات الطويلة التي ما زال عليها ان تعيشها. بعد ذلك، وفيما هيلديبراندا تستحم، كتبت رسالة بأقصى سرعة، وطوتها بأقصى سرعة، ودستها بأقصى سرعة في مغلف، وقبل ان تخرج هيلديبراندا من الحمام بعثتها مع غالا بلاثيديا إلى الدكتور خوفينال اورينيو. كانت واحدة من رسائله. وقد كتبت له عليها: أجل يا دكتور، كلم والدي. دون اي حرف أكثر أو أقل.

حين علم فلورينتينواريثا أن فيرمينا داثا ستزوج من طبيب نبيل وثري، متعلم في أوروبا وذي شهرة فريدة في مثل سنه، لم تكن هنالك قوة قادرة على اخراجه من مذلتة. وقد فعلت ترانسيواريثا اكثر مما هو ممكن لتعزيته بأساليب كأساليب عروس عندما رأت انه فقد النطق والشهية وانه يقضي الليل مسهداً يبكي دون راحة، إلى ان تمكنت بعد اسبوع من جعله يأكل. حينئذ تحدثت إلى ليون الثاني عشر لوايثا، الحي الوحيد من الاخوة الثلاثة، ورجته دون ان توضح الاسباب، ان يقدم عملاً لابن اخيه ليقوم بأي شيء في المؤسسة البحرية، على ان يكون ذلك في أي ميناء منسي وسط الغابات من موانئ نهر مجدلينا، حيث لا وجود لبريد ولا لتلغراف، وحيث لا يلتقي بأحد ينقل له شيئاً عن مدينة الضياع هذه. لم يمنحه العم عملاً احتراماً لزوجته اخيه، التي لم تكن تحتل مجرد وجود البندوق، لكنه حصل له على وظيفة عامل تلغراف في فييادي ليفا، مدينة الاحلام الواقعة على بعد اكثر من عشرين مرحلة، والتي ترتفع حوالي ثلاثة آلاف متر فوق مستوى شارع لاس فينتاناس.

لم يعِ فلورينتينواريثا ابداً تلك الرحلة العلاجية. وسيتذكرها دوماً مثل كل ما حدث له في تلك الفترة، من خلال زجاج محتته المغبش. عندما استلم برقية التعيين في المنصب لم يفكر باخذها على محمل الجد، لكن لوتاريو توغوت أقنعه بحجج ألمانية ان مستقبلاً باهراً ينتظره في

الادارة العامة . وقال له : « ان التلغراف مهنة المستقبل » . واهداه زوجاً من القفازات الملساء ومعطفاً ذا ياقة من الفرو مجرباً في شهور كانون الجليدية في بافيرا . وأهداه العم ليون الثاني عشر بدلتين وجزمة واقية من المطر كانت لشقيقه الاكبر ، وقدم له بطاقة الرحلة مع قمرة في السفينة التالية . قيفت ترانسيثواريثا الملابس على مقاس ولدها ، الذي كان أقل بدانة من أبيه وأقصر بكثير من الألماني ، واشترت له جوارب صوفية وسراويل داخلية طويلة كي لا ينقصه شيء لمواجهة قسوة السهب . وكان فلوريتينواريثا ، المتصلب من شدة المعاناة ، يساعد في الاعداد للرحلة كما بإمكان ميت أن يساعد في مراسم جنازته . لم يقل لأحد انه ذاهب ، ولم يودع أحداً ، واحتفظ بالكتمان الحديدي الذي لم يكشف فيه لأحد سوى امه سر عاطفته المقهورة ، ولكنه في عشية السفر اقترف حماقة قلبية اخيرة كان يمكنها ان تكلفه حياته . ارتدى في منتصف الليل بدلة الأحد ، وعزف وحيداً تحت شرفة فيرمينا داثا فالس الحب الذي وضعه لها ، والذي لا يعرفه احد سواهما الاثنين ، وكان خلال ثلاث سنوات شعار توافقهما المتناقض . عزفه مدمماً بكلمات الاغنية ، على الكمان الغارق بالدموع ، وبالهام زخم جعل كلاب الشارع تبدأ بالعواء منذ النغمات الأولى ، ثم تلتها كلاب المدينة بأسرها ، ولكنها أخذت تصمت بعد ذلك شيئاً فشيئاً في افق الموسيقى ، الى ان انتهى الفالس بصمت ما ورائي . لم تفتح الشرفة ، ولم يطل أحد الى الشارع ، حتى ولا الحارس الليلي الذي يهرع عادة بفانوسه ، محاولاً التحضر بالاستماع الى فئات موسيقى السيرنادات الليلية . لقد كان ذلك الفصل رقينة تفريج عن فلوريتينواريثا ، لانه ما ان خبا الكمان في علبة وابتعد في الشوارع الميته دون ان يلتفت الى الوراء ، حتى فقد الشعور بانه سيغادر في صباح اليوم التالي ، وأنتابه احساس بانه قد غادر منذ سنوات طويلة ويقرر قاطع ألا يعود أبداً .

كان قد أعيد تعميد السفينة ، وهي واحدة من ثلاث سفن متشابهة لدى شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، باسم مؤسس الشركة : بيوس الخامس لوثيا . كانت عبارة عن بيت عائم من طابقين خشبيين فوق هيكل من الحديد ، عريض ومستو ، وبغاطس حده الأقصى خمسة أقدام يتيح للسفينة التغلب على أعماق النهر المتفاوتة على أحسن وجه . السفن الأقدم كانت بنيت في سينسيناتي في منتصف القرن ، حسب النموذج الخرافي للسفن التي كانت تقوم بالعبور من نهر اوهيو إلى الميسيسيبي ، وكان لها في كل جانب عجلة دفع تتحرك بطاقة مرجل بخاري وقوده الحطب . ومثل هذه كانت سفن شركة الكاريبي للملاحة النهرية ، ففي الطبقة السفلية ، وعلى مستوى الماء تقريباً ، هناك الآلات البخارية والمطابخ ، والخطائر الكبيرة حيث كان البحارة يعلقون شباك نومهم ، متقاطعة على عدة مستويات . أما الطابق العلوي فكانت مقصورة القيادة وقمرات القبطان وضباطه ، وصالة اللهو وصالة الطعام ، حيث كان يدعى

المسافرون المرموقون مرة واحدة على الاقل للعشاء ولعب الورق . أما في الطبقة الوسطى فكانت توجد ست قمرات من الدرجة الاولى على جانبي عمريستخدم كصاله طعام عادية ، وهناك في المقدمة صاله جلوس مفتوحة فوق النهر ، لها شرقه خشبية مزخرفة وأعمدة من الحديد ، حيث كان المسافرون العاديون يعلقون شباك نومهم ليلاً وخلافاً للنهاذج القديمة ، لم تكن لهذه السفن عجلتا دفع على الجانبين ، وانما عجلة واحدة في المؤخرة ، ذات رياش أفقية تحت مراحيض طبقة المسافرين الخائفة . لم يتكلف فلوريتينو اريثا مشقة استكشاف السفينة فور صعوده إلى متنها ، في الساعة السادسة صباحاً من يوم أحد حزيرانى ، كما يفعل عادة من يسافرون لأول مرة بدافع الغريزة . وقد وعى الحالة التي هوفياها عند الظهيرة فقط ، وبينما كانت السفينة تبهر مقابل دسكرة كالامار ، حين ذهب للتبول في المؤخرة ورأى من فتحة المرحاض العجلة العملاقة ذات العوارض الخشبية تدور تحت قدمية بقعقة بركانية وزبد ويخار ملتهبين .

لم يكن قد سافر أبداً من قبل . كان يحمل صندوقاً من الصفيح فيه ملابس السهب ، والروايات المصورة التي كان يشتريها في اجزاء شهرية ، وكان يخططها بنفسه مع اغلفة من الورق المقوى ، وكتب أشعار الحب التي يحفظها ويلقيها عن ظهر قلب ، والتي توشك ان تتحول إلى رماد لكثرة ما أعاد قراءتها . كان قد خلف الكمان الذي يرتبط إلى حد بعيد بنبكته ، لكن أمه أجبرته على حمل صرة السفر التي تضم عدة نوم شعبية وعملية : وسادة ، ودثار ، ومبولة من التوتياء ، وكلة مخرمة للحماية من البرغش ، كل هذا ملفوف بحصيرة مربوطة بحبلين لتعليقها كأرجوحة نوم في حالة الطوارئ ، لم يكن فلوريتينو اريثا يريد حملها ، فقد ظن انها لن تفيد به شيء في قمرة مزودة بأسرة مستوية ، ولكن كان عليه ان يشكر لأمه حسن تدبيرها منذ الليلة الأولى . وفعلاً ، فقد صعد في اللحظة الاخيرة إلى المركب مسافر يرتدي ملابس بروتوكولية كان قد وصل ذلك الصباح في سفينة قادمة من اوروبا ، وكان يرافقه حاكم المقاطعة شخصياً . وهو يريد متابعة الرحلة فوراً مع زوجته وابنته ، وكذلك خادمه الذي يرتدي زي الخدم والصناديق السبعة ذات الحواشي المذهبة والتي صعدت بمشقة على السلم . وتمكن القبطان ، وهو مارد من كورثاوا ، من اثاره الشعور الوطني بين الكريولين لتأمين راحة المسافر الطارىء . وشرح لفلوريتينو اريثا بمزيج من القشتالية والبايبامنتو^(١) ان الرجل البروتوكولي هو الوزير المفوض الجديد لانكلترا المسافر إلى عاصمة الجمهورية ، وذكره بأن تلك المملكة قد قدمت موارد حاسمة لاستقلالنا من الهيمنة

(١) لهجة محلية شائعة في كوراساو ، وهي مزيج من الاسبانية والهولندية . (م)

الاسبانية، وبناء عليه فان أية توضحية ستكون ضئيلة الشأن في سبيل ان تشعر عائلة رفيعة المقام وهي في بيتنا بانها أحسن حالاً من بيتها. وطبعاً تخلى فلوريتينو اريثا عن قمرته .

لم يأسف لذلك في البدء، اذ كان ماء النهر غزيراً في تلك الفترة من السنة، وكانت السفينة تبهر دون عوائق في الليلتين الأوليين. كان افراد طاقم السفينة يوزعون على المسافرين بعد العشاء، في الخامسة مساءً، نوعاً من الاسرة المطوية سطحها من قماش الخيم المتين، وكان كل مسافر يفتح سريره حيث يستطيع، ويجهزه بالخرق التي في صرة سفره ثم ينصب فوقه الكلة المخزومة. أما الذين يملكون أراجيح نوم فكانوا يعلقونها في الصالون، والذين لا يملكون شيئاً ينامون على موائد صالة الطعام متدثرين بشراشف الطاومات التي لم تستبدل إلا مرتين خلال الرحلة. كان فلوريتينو اريثا يمضي معظم الليل ساهراً متخيلاً انه يسمع صوت فيرمينا داثا في نسيم النهر البارد، راعياً الوحدة بذكرياته، مستمعاً غناء في لهاث السفينة المتقدمة بخطوات حيوان ضخمة في الظلمات، إلى ان تظهر اولى البقع الوردية في الافق وينشق النهار الجديد فجأة على صحارى فسيحة ومستنقعات ضباب. وكانت الرحلة تبدوله حينئذ دليلاً آخر على حكمة أمه، وأحسن بحماسة لتجاوز النسيان.

بعد ثلاثة ايام من المياه المواتية، أصبح الابحار أكثر مشقة بين المصاطب الرملية المفاجئة وتعكر الماء الذي يخفي مدى عمق النهر. أصبح النهر عكراً وصار يضيق أكثر فأكثر وسط غابة عظيمة من الاشجار المتشابكة، حيث كان يظهر من حين لآخر كوخ من القش إلى جانب اكوام الخطب المعدة لمراجل السفن. وبدوان لغط البيغاوات وصياح القردة اللامرئية كان يفاقم من قيظ الظهيرة. أما في الليل، فكان لابد من ربط السفينة للنوم، فيصبح مجرد كون المرء حياً حينئذ أمراً لا يطاق. فاضافة للحروالبرغش تأتي روائح شرائح اللحم المملح المنشورة على دربزيئات السفينة لتجف. فكان معظم المسافرين، وخاصة الاوربيين منهم، يغادرون ثمانية القمرات ويفضون الليل وهم يذرعون سطح المركب، ويهشون جميع انواع افسوم بنفس المناشف التي يمسحون بها العرق المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بفعل اللسع.

وكان قد اندلع في تلك السنة أيضاً فصل جديد من الحرب الاهلية المتقطعة بين الليبراليين والمحافظين، فاتخذ القبطان احتياطات شديدة الصرامة لحفظ النظام الداخلي وأمن المسافرين. وفي محاولة لمنع وقوع الاخطاء والاستفزازات، حظر ممارسة التسلية المفضلة في رحلات ذلك الزمان، ألا وهي اطلاق النار على التماسيح القابعة تحت الشمس على الضفاف. وفيما بعد، حين انقسم المسافرون إلى فريقين متعادين اثناء احدى المناقشات،

قام بمصادرة أسلحة الجميع واعدأ بكلمة شرف ان يعيدها عند انتهاء الرحلة . كان صارماً في هذا الامر حتى مع الوزير البريطاني الذي خرج منذ صباح اليوم التالي لبدء الرحلة بملابس الصيد ، حاملاً غدارة احتياطية وبنذقية صيد بسبطين من تلك المستخدمة في صيد النمرور . ثم أصبحت القيود اكثر تشدداً بعد اجتياز مرفأ تينيريفي ، حيث التقوا بمركب يرفع راية صفراء ، هي علامة الوباء . ولم يحصل القبطان على أية معلومات حول تلك العلامة المربعة ، لان السفينة الاخرى لم تجب على اشارتهم . لكنهم التقوا في ذلك اليوم بالذات بسفينة اخرى محملة بمواش من جامايكا ، واعلمتهم هذه بان سفينة الراية الوبائية تحمل على متنها مريضين بالكوليرا ، وان الوباء كان يحدث اضراراً وخسائر في مجرى النهر الذي عليهم الابرار فيه ، عندئذ منع المسافرون من مغادرة السفينة ليس في الموانئ التالية فحسب ، بل وفي الاماكن غير المأهولة حيث كانوا يتوقفون للتزود بالخطب . وهكذا اعتاد المسافرون فيها تبقى من الرحلة حتى مرفأ النهاية ، والتي استمرت ستة أيام اخرى ، على عادات السجون . ومن هذه العادات ، المشاهدة الضارة لرزمة من بطاقات الصور الجنسية الهولندية التي كانت تنقل من يد إلى اخرى دون ان يعلم أحد علم اليقين من أين أتت ، مع أن أي مجرب للسفر في النهر لم يكن ليجهل انها لا تكاد تشكل إلا عينة من مجموعة القبطان الخرافية . ولكن حتى هذه التسلية التي لا امل فيها انتهت إلى مضاعفة السأم .

احتمل فلوريتينو اريثا قسوة الرحلة بصبر معدني كان يحزن أمه ويغيب اصدقاءه . لم يخالط أحداً . وكانت الايام بالنسبة له تمضي سهلة وهو جالس مقابل الدرايزين ، يراقب التماسيح الجاثمة تحت الشمس على الضفاف بأشداق مفتوحة لاقتناص الفراشات ، ويتأمل قطعان مالك الحزين المفزوعة التي تنطلق فجأة من المستنقعات ، والأطم^(١) التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية الضخمة وتفاجئ المسافرين بيكائها النسوي . وفي أحد الأيام رأى ثلاثة أجساد آدمية تطفو في الماء ، كانت منتفخة وخضراء ، وفوق كل منها عدد من طيور الرخمة . مر أولاً جسداً رجلين ، أحدهما بلا رأس ، ثم جسد طفلة صغيرة السن راح شعرها المفلت كشعر ميدوزا يتموج متلويماً من اثر غمر السفينة في الماء . لم يعرفوا أبداً ، لأنه لا سبيل إلى معرفة ، ان كان هؤلاء من ضحايا الكوليرا أم ضحايا الحرب ، لكن الرائحة التنته لوئت ذكرى فيرمينا دائماً في ذاكرته .

هكذا كان دائماً : فأي حدث ، خيراً كان أم شراً ، يذكره بها . في الليل ، حين كانوا

(١) الأطم : جمع أطوم وهو حيوان لبون ، يأوي إلى الماء ، مؤخره يشبه السمك ، له يذان وليس له رجلان وطوله نحو ثمانى أقدام . يعرف كذلك ببقر الماء .

يربطون السفينة ويتمشى معظم المسافرين دون عزاء على السطح، كان هويراجع عن ظهر قلب تقريباً الرويات المصورة تحت مصباح الكربور في صالة الطعام، وهو المصباح الوحيد الذي يبقى مضاء حتى الصباح. وكانت المآسي التي قرأها مرات ومرات تستعيد سحرها حين يستبدل ابطالها المتخيلين بمعارفه في الحياة الواقعية، ويحتفظ لنفسه ولفيرمينا دائماً بأدوار الحب المستحيل. وفي ليال أخرى كان يكتب لها رسائل مكروية، ما تلبث مقاطعها أن تتبدد في المياه الجارية دون توقف نحوها. وهكذا كانت تمر أقسى الساعات عليه متمصصاً شخصية أمير خجول أو فارس عاشق أحياناً، وملتحماً في أحيان أخرى بجلده المكوي كعاشق في رحلة نسيان، إلى أن تهب أولى النسبات فينصرف إلى النوم جلوساً على مقاعد الشرفة.

توقف عن القراءة في إحدى الليالي أبكر من المعتاد، وكان يتجه ساهياً إلى دورات المياه حين فُتح بابٌ لدى مروره في صالة الطعام المقفرة، وأمسكت يد صقربكم قميصه وادخلته إلى القمرة. أحس بالكاد بجسد غير محدد السن لامرأة عارية في الظلام، كانت مغطاة بعرق ساخن وتنفسها غير منتظم. دفعته على ظهره فوق السرير، وفكت إبريم حزامه، وحلت الأزرار وامتطته كفارس، وجردته من عذريته دون أمجاد. سقطا كلاهما منهكين في فراغ هوة بلا قرار لها رائحة مستنقع قريدس. وبقيت جائمة فوقه لهنية بعد ذلك وهي تلهث دون هواء، ثم لم يعد لها وجود في الظلام.

قالت له :

- انصرف الآن وانس كل شيء. فهذا لم يحدث أبداً.

كان الهجوم مباغتاً وناجحاً لا يمكن تصنيفه كحماقة مفاجئة مبعثها الضجر، وإنما كثمرة خطة محكمة بكل مراحلها وبأدق تفاصيلها. وضاعف هذا اليقين الجذاب من تلهف فلورينتينواريشا، الذي أحس وهو في ذروة اللذة باكتشاف لا يمكن تصديقه، بل نه رفض قبوله، وهو أن حب فيرمينا دائماً الخادع يمكن استبداله بعاطفة دنيوية. وهكذا كان أن صمم على كشف هوية مغتصبته الماهرة، فلربما وجد في غريزتها كفهدة علاجاً لمحتته. لكنه لم يتوصل إليها. بل على العكس. فكلما تعمق في التحري كلما شعر بأنه يبتعد عن الحقيقة.

لقد حدث الهجوم في القمرة الأخيرة، لكن هذه القمرة كانت متصلة بالقمرة قبل الأخيرة بباب داخلي، بحيث تصبح القمرتان معاً جناح نوم عائلي فيه أربع أسرة. وهناك كانت تسافر امرأتان شابتان، وأخرى متقدمة في السن إلا أنها ذات مظهر حسن، ومعهم طفل عمره بضعة شهور. كنّ قد التحقن بالرحلة من برانكودي لوبيا، وهو الميناء الذي يحملون فيه بضائع وركاب مدينة مامبوكس مذ أصبحت هذه المدينة على هامش طريق السفن البخارية بسبب

أهواء النهر، وكان فلوريتينو أريثا قد دقق بهن لكونهن يحملن الطفل في قفص غصافير ضخمة.

كن يسافرن بملابس حديثة كتلك التي ترتديها المسافرات في عابرات المحيط الضخمة، ببطانات تحت التنانير الحريرية، وياقات مخرمة وقبعات عريضة الحواف مزينة بزهور كريشولينا، وكانت الشابتان تستبدلان زيتتهما وملابسهما كلها عدة مرات في اليوم، حتى بدا وكأنهما تحملان معهما جوهن الربيعي، بينما المسافرون الآخرون يختنقون في الحر. وثلاثتهن كن يساريات في استخدام المظلات ومراوح الريش. لم يستطع فلوريتينو أريثا أن يحدد حتى نوع العلاقة التي تربطهن، رغم كونهن دون شك من أسرة واحدة. لقد فكر أول الأمر بأن الكبرى هي أم الآخرين، لكنه أدرك فيما بعد أنها ليست كبيرة في السن بما يكفي لتكون كذلك، ثم أنها ترتدي ملابس حداد لا تشاطرها إياه الآخرين. ولم يتصور أن تكون أحدهن قد تجرأت على فعل فعلتها فيما زميلتاها نائمتان في السريرين المجاورين، والافتراض الوحيد المعقول هو أنها استغلت فرصة عارضة، أو مدبرة، بقيت أثناءها وحيدة في القمرة. وتحقق من اثنتين منهن تخرجان أحياناً للاستمتاع بالبرودة حتى وقت متأخر فيما تبقى الثالثة لرعاية الطفل، لكنهن في إحدى الليالي القاتظة خرجن ثلاثتهن معاً برفقة الطفل النائم في قفص الخيزران المغطى بظلة من نسيج شفاف.

ورغم اختلاط كل هذه المؤشرات، فقد تعجل فلوريتينو أريثا إلى استبعاد أن تكون كبرى الثلاث هي منفذة الهجوم، ثم برأ في الحال ساحة الصغرى أيضاً، التي كانت أجملهن وأجبرأهن. فعلى ذلك دون مبررات مقنعة، ولأن مجرد رصده المتهلف للنساء الثلاث حثه على الاقتناع برغبته الداخلية في أن العاشقة العابرة هي أم الطفل الحبيس في القفص. ولقد فتته هذا الافتراض إلى الحد الذي جعله يفكر بها أكثر من تفكيره بغير مينا دائماً، دون أن يهتم بها كأن يبدو واضحاً في أن تلك الأم حديثة الولادة كانت تعيش لابنها فحسب. لم يكن لها من العمر أكثر من خمس وعشرين سنة، وكانت نحيلة ومذهبة، ذات أجفان برتغالية تجعلها أكثر بعداً، وكان لأي رجل أن يكتفي بفتات من حنانها الذي تغدقه على ابنها. فمنذ تناول طعام الفطور وحتى ساعة النوم كانت تهتم بشؤونهم في الصالة، فيما زميلتاها الآخران تلعبان الدمينو الصيني، وحين توفق إلى تنويمه، تعلق القفص من سقفه في أكثر الأماكن برودة على شرفة السفينة. لكنها لم تكن تتخلى عنه حتى بعد أن ينام، وإنما تهز القفص مترنمة بأغنيات العرائس، فيما أفكارها تطير مبتعدة عن مصاعب الرحلة. تشبث فلوريتينو أريثا بأنها ستكشف نفسها عاجلاً أم آجلاً ولو من خلال إساءة بسيطة. وصار يراقب حتى تبدلات تنفسها من خلال ايقاع القلادة الدينية التي تعلقها فوق بلوزتها القطنية الرقيقة، مدققاً فيها

دون تستر من فوق الكتاب الذي يتظاهر بقراءته، وارتكب الوقاحة المدروسة باستبداله مكانه في صالة الطعام ليجلس مقابلها. لكنه لم يحصل على أدنى مؤشريدل على انها هي حقاً من تملك النصف الآخر من سره. والشيء الوحيد الذي بقي له منها، عندما نادتها زميلتها الصغرى، هو اسمها: روسالبا.

في اليوم الثامن أبحرت السفينة بصعوبة بالغة عبر مضيق عكر محصور بين جرفين من صخور رخامية، وبعد الغداء رست في بويرتوناريه، حيث سينزل المسافرون الذين سيتابعون الرحلة نحو المناطق الداخلية من مقاطعة انتيوكيا، وهي إحدى أكثر المقاطعات تأثراً بالحرب الأهلية الجديدة. كان الميناء مؤلفاً من نصف دزينة من أكواخ السعف وحانة خشبية سقفها من التوتياء، تحرسه عدة دوريات من الجنود الحفاة وسيئي التسليح، اذ كانت لديهم معلومات عن خطة أعددها المتمردون للسطو على السفن. وفيما وراء البيوت ترتفع نحو السماء قمم مجموعة وعرة من الجبال عليها طريق ضيق له شكل حدوة الفرس منحوت على حافة الهاوية. لم ينم أحد ممن على ظهر المركب نوماً مطمئناً، لكن الهجوم المتظر لم يحدث اثناء الليل، واستيقظ الميناء متحولاً إلى مهرجان أحدي، حيث الهنود الذين يبيعون تماثيل مصنوعة من عاج نباتي واكاسير للحب، ووسائط للقوافل المتأهبة للانطلاق في صعود يستمر ستة أيام عبر غابات السحليات في سلسلة الجبال المركزية.

كان فلوريتينو ارثا قد سها وهو يتأمل عملية تفريغ السفينة على كواهل الزوج، رأى انزال صناديق الخزف الصيني، وآلات البيانو التي تباع لعازيات افغادو، ولم يدرك إلا متأخراً ان جماعة روسالبا هي بين المسافرين الذين سيقفون على البر. لقد رآهن يمتطين البهائم من جانب واحد، متعلات جزمات امازونية وحاملات مظلات ذات ألوان مدارية، وعندئذ خطا الخطوة التي لم يتجرأ عليها في الايام الماضية: حيا روسالبا بيده مودعاً، فردت عليه النساء الثلاث بطريقة واحدة، وبألقة آلمت أحشاه لجسارته المتأخرة. رآهن يقمن بالالتفاف حول الحانة، تتبعهن البغال المحملة بالصناديق، وعلب القبعات وقفص الطفل، ثم رآهن بعد قليل يتسلقن حافة الجرف الجبلي وكأنهن صف من النمل البغلية، واختفين من حياته. حيثئذ أحس انه وحيد في الدنيا، وجاءته الضربة القاضية من ذكرى فيرمينا داثا، التي بقيت كامنة خلال الايام الاخيرة.

كان يعلم انها ستتزوج يوم السبت القادم، في حفلة زفاف صاخبة، وكونه أحبها، وسيحبها إلى الأبد أكثر من أي كان، لا يمنحه الحق حتى بالموت من أجلها. والحسد الذي كان يفرقه حتى ذلك الحين بالدموع، أصبح سيد روحه. فأخذ يدعو الله ان ينزل صاعقة العدالة الالهية لتصعق فيرمينا داثا حين تهم بقسم يمين الحب والولاء لرجل لا يريد لها زوجة

له إلا لتكون حلية اجتماعية . وكان يستغرق في رؤيا العروس ، عروسه هو أو عروسة لا أحد ، ملقاة فوق بلاط الكتدرائية فيما ازهار البرتقال تهطل كالثلج مبلله بندى الموت ، وتموج طرحتها الزبدي فوق المرمر الجنائزي الذي يضم أربعة عشر مطرانا مدفونين مقابل المذبح الكبير . ولكن ما ان ينتهي الانتقام ، حتى يندم لأفكاره الشريرة ، وعندها يرى فيرمينا داثا وهي تنهض معافاة ، لسواه ولكن حية ، لانه غير قادر على تصور الدنيا بدونها . لم يعد ينام ، واذا كان يلتقط بضع لقيحات أحيانا فاثما يفعل ذلك لتوهمه بان فيرمينا داثا قد تكون معه على المائدة ، أو كي لا يمنحها شرف الصوم من أجلها . وكان يعزي نفسه في بعض الأحيان بالاعتناع انه لا بد لفيرمينا داثا في نشوة حفلة الزفاف ، أو في ليالي شهر العسل المحمومة ، من ان تعاني ولوللحظة ، لحظة واحدة على الأقل ، لحظة على أي حال ، حين ترفع إلى وعيها شبح الخطيب المخدوع ، المهان ، المبصوق ، فتهارسعادتها .

عشية الوصول إلى ميناء كاراكولي ، وهو المحطة النهائية للرحلة ، أقام القبطان حفل السوداع التقليدي ، بمشاركة اوركسترا آلات نفخية مؤلفة من طاقم السفينة ، وبإطلاق ألعاب نارية من مقصورة القيادة . كان وزير بريطانيا العظمى قد اجتاز الاوديسه بصبر نموذجي ، متصيداً بألة التصوير الحيوانات التي لم يتحوا له قتلها بيندقية الصيد ، ولم تكن ثمر ليلة دون ان يظهر في صالة الطعام بملابس الايتكيت . لكنه خرج إلى الحفلة النهائية بزي ماك تافيتش الاسكتلندي ، وعزف القرب بمرح ، وعلم كل من رغب رقصاته الوطنية ، وقبل الفجر اضطروا لنقله محمولاً إلى قمرته . أما فلورينتينا واريثا الذي أضناه الألم ، فقد اتخذ ركناً منعزلاً على سطح السفينة حيث لا تصله أخبار الحفلة ، وغطى نفسه بمعطف لوتاريو توغوت محاولاً مقاومة قشعريرة عظامه . كان قد استيقظ في الخامسة صباحاً ، كما يستيقظ المحكوم بالاعدام صباح يوم تنفيذ الحكم . ولم يكن قد فعل شيئاً طوال يوم السبت سوى تخيل كل طقس من طقوس زفاف فيرمينا داثا لحظة بلحظة . وفيما بعد ، عند عودته إلى البيت ، ادرك انه كان قد أخطأ في التوقيت وان كل شيء حدث بطريقة مختلفة عما تصوره ، وقد كان يتمتع بمزاج طيب جعله يضحك من اوهامه .

لكنه كان على أي حال يوم السبت عاطفي انتهى بنوبة جديدة من الحمى ، عندما هيء له بانها اللحظة التي يحاول فيها العريس ان الهرب خفية من حفلة الزفاف ليستسلما إلى لذائذ الليلة الأولى . وقد رآه احدهم وهو يرتعش من الحمى وأنذر القبطان بذلك ، فغادر هذا الحفلة مع طبيب السفينة خشية ان تكون اصابة بالكوليرا ، وبعثه الطبيب احتياطاً إلى قمرة الحجر الصحي بعد اعطائه جرعة لا بأس بها من البرومور . وعندما بانث لهم اتوار كاراكولي

في اليوم التالي ، كانت الحمى قد تراجعت وكان يتمتع بمعنويات عالية ، لانه في خلود المسكنات قرر فجأة ودون أية اجراءات اخرى بانه سيبحث بمستقبل التلغراف الباهر إلى الجحيم وسيرجع على السفينة نفسها إلى شارع القديم ، شارع لاس فينتاناس .

ولم يجد صعوبة في حملهم على اعادته معهم مقابل القمرة التي تنازل عنها لمثل الملكة فكتوريا . رغم ان القبطان حاول ثنيه عن عزمه أيضاً بحجج مفادها ان التلغراف هو علم المستقبل . وقال له ان الامر كذلك لدرجة انهم يعملون لاختراع جهاز خاص لتركيبه في السفن . لكنه فند كل حجة ، وانتهى القبطان إلى القبول باعادته معه ، ليس كرددين القمره ، وانما لانه كان يعرف حقيقة علاقته بشركة الكاريبي للملاحة النهرية .

تمت رحلة النزول في أقل من ستة أيام ، أحسن فلوريتينواريثا بعدها انه في بيته ثانية منذ دخولهم فجراً في بحيرة لاس ميرثيديس ، ورؤيته أضواء زوارق الصيد المتناثرة وهي تتلوى مع تيار السفينة . كان الوقت ما يزال ليلاً عندما رسوا في خليج نينيوبريديو ، وهو آخر مرفأ للسفن البخارية النهرية ، على بعد تسع فراسخ من البحر ، قبل ان يجرفوا قاع النهر ويعيدوا وضع الممر الاسباني القديم موضع الاستخدام . وكان على المسافرين الانتظار حتى الساعة السادسة صباحاً ليركبوا مجموعة من زوارق الاجرة الصغيرة التي تحملهم إلى هدفهم النهائي . لكن فلوريتينواريثا كان متشوقاً مما دفعه للذهاب قبل ذلك بكثير في مركب البريد ، الذي تعرف عليه موظفوه كواحد من جماعتهم . وقبل ان يغادر السفينة سمح لنفسه بالانقياد وراء اغراء حركة رمزية : ألقى بصرة السفر إلى الماء ، ولاحقها ببصره ما بين زوارق الصيادين اللامرئية ، إلى ان خرجت من البحيرة وضاعت في المحيط . كان متأكداً انه لن يحتاجها بقية حياته مطلقاً ، لانه لن يغادر مدينة فيرمينا داثا إلى الأبد .

كان الخليج حوض ماء راكد عند الفجر . وفوق الضباب الطافي رأى فلوريتينواريثا قبة الكتدرائية المذهبة بفعل الانوار الاولى ، ورأى بيوت الحمام على السطوح ، ومستديلاً بها حدد موقع شرفة قصر المركيز دي كاسالدويرو ، حيث افترض ان امرأة محنته ما زالت تنام مستندة على ذراع الزوج المشبع . وقد مزق هذا الافتراض قلبه ، لكنه لم يفعل شيئاً لقهره ، بل على العكس تماماً : كان يستمتع بالألم . وحين بدأت الشمس تبعث دفئها ، كان مركب البريد يشق طريقه وسط متاهة الزوارق الشراعية الراسية ، حيث روائح السوق العام التي لا حصر لها ، تختلط بعفونة الاعناق لتخرج بمزيج واحد من التسانة . كانت السفينة القادمة من ريوهاتشا قد وصلت لتوها ، وجماعة الحمالين الغاطسين في الماء حتى خصورهم يلتقطون المسافرين من جنب السفينة ليحملوهم إلى الشاطئ . وكان فلوريتينواريثا هو أول من قفز من مركب البريد إلى اليابسة ، ولم يعد يشعر عندها بتثانة الخليج وانما برائحة فيرمينا داثا

الشخصية تفوح في جو المدينة . كل شيء كان يعبق برائحتها .

لم يعد إلى مكتب التلغراف . ويدا ان همه الوحيد هو كتيبات الحب واجزاء المكتبة الشعبية التي ما زالت أمه تشتريها له ، والتي كان يقرأها ويعيد قراءتها وهو منبطح في ارجوحة النوم الى ان يحفظها في ذاكرته . ولم يسأل عن الكسان مجرد سؤال . واعاد اتصالاته مع اصدقائه المقربين ، وكان يلعب معهم البيليارد أحياناً ويتبادلواياهم الحديث في مقاهي الرصيف تحت قناطر ساحة الكتدرائية ، لكنه لم يعد للذهاب إلى حفلات الرقص أيام السبت : لم يكن قادراً على تصور حفلات الرقص بدونها .

في صباح يوم عودته من الرحلة التي لم تكتمل ، علم ان فيرمينا دائماً ذهبت لقضاء شهر العسل في اوروبا ، فرأى قلبه المنفطر بانها ستبقى لتعيش هناك ، ان لم يكن إلى الأبد ، فلمسنوات طويلة . ومنحه هذا اليقين الآمال الأولى بالنسيان . أخذ يفكر بروسالبيا التي أصبحت ذكراها تتقد أكثر فأكثر كلما خمدت الذكريات الاخرى . وفي هذه الفترة كان ان ترك شاربها ذا الطرفين المديبين والمثبتين ، والذي لن يحلقة فيما تبقى من حياته ، وتغيرت طريقته في الحياة ، وادخلته فكرة استبدال الحب في دروب غير متوقعة ، أخذت رائحة فيرمينا دائماً تصبح أقل حضوراً وزخماً إلى ان بقيت آخر الأمر في رائحة الياسمين الأبيض فقط .

كان يمضي مذهولاً لا يعرف كيف سيتابع حياته ، حين لجأت ارملة ناثاريث إلى بيتهم في احدى ليالي الحرب ، لان قذيفة مدفع أصابت بيتها ، أثناء حصار الجنرال المتمرد ريكاردو غايتان اوبيسو . وكانت ترانسيتواريثا هي التي التقطت الفرصة بسرعة ، فبعثت الارملة لتنام في حجرة الابن ، بحجة انه لا يوجد مجال في حجرتها ، لكنها في الحقيقة كانت تأمل بان يشفيه حب آخر من الحب الذي ما عاد يتركه يعيش . لم يعد فلوريتتينواريثا لممارسة الحب منذ اغتصبته روسالبيا في قمرة السفينة ، وبدا له طبعياً ، في ليلة طواريء ، ان تنام أرملة ناثاريث في السرير وينام هو في ارجوحة النوم . أما هي فكانت قد حسمت الأمر بدلاً منه . وفيما هي جالسة على حافة السرير حيث كان فلوريتتينواريثا مستلقياً دون ان يعرف ما عليه عمله ، بدأت تحدثه عن حزنها الذي لا عزاء له على زوجها المتوفى منذ ثلاث سنوات ، واثناء ذلك كانت تنضو عن جسدها وترمي في الهواء ملابس الحداد ، حتى لم يبق عليها ولا خاتم الزواج . خلعت بلوزة التفتا المزينة بتطريز مطعم بالخرز ، وألقت بها عبر الغرفة إلى الكرسي في الركن ، وألقت الصديري من فوق كتفها إلى الطرف الآخر من السرير ، وخلعت بسجبة واحدة التنورة السابغة مع التنورة الداخلية ذات الكشكش ، ومشد الساتان ذا الرباط ، وجرايات الحداد الحريرية ، ونثرت كل ذلك على الأرض ، فأضحت الغرفة وكأنها مفروشة بأخر بقايا الحداد . فعلت ذلك بابتهاج ، وبوقفات محسوبة باتقان ، حتى بدت قذائف مدفعية

القوات المحاصرة ، التي كانت تهزركاثر المدنية ، وكانها احتفاء بكل حركة من حركاتها . حاول فلوريتينو اريثا مساعدتها على حل مشبك المشد ، لكنها سبقته إلى ذلك بحركة بارعة ، لأنها تعلمت خلال خمس سنوات من الولاء الزوجي ان تكتفي بنفسها في جميع اجراءات الحب ، بما ذلك ديباجاته ، دون مساعدة أحد . واخيراً نزعَت سروالها الداخلي المخرم ، بجاعلة أياه ينزلق من ساقها بحركة سريعة كحركات السباحة ، وبقيت في عريها المتقد .

كان عمرها ثمان وعشرين سنة وقد انجبت ثلاث مرات ، لكن عريها ما زال يحتفظ بدوار العزباء . ولم يستطع فلوريتينو اريثا ان يتصور أبداً كيف امكن للملابس التوبة ان توارى اندفاع تلك المهرة الجامحة التي عرته وهي مختنقة بحماها ، وهو ما لم تستطع عمله مع زوجها حتى لا يظن بها الظنون ، وحاولت ان تروي ظمأ صوم حدادها الصارم دفعة واحدة ، ببلاهة وبراعة خمس سنوات من الولاء الزوجي . فقبل هذه الليلة ، ومنذ ساعة الرحمة التي ولدتها فيها أمها ، لم تنم ولو مجرد نوم في سرير واحد مع أي رجل سوى زوجها المتوفى . لم تتح لتأنيب الضمير بان ينغص عليها . ففيها كرات اللهب تدوي فوق سطوح البيوت ، استمرت تلهج حتى الصباح بفضائل زوجها ، دون ان تلومه على أية خيانة سوى موته من دونها ، وخلصت إلى اليقين بانه لم يكن يوماً لها كما كان حينئذ ، في صندوق خشبي مسمر باثني عشر مسباراً طول كل منها ثلاث بوصات ، وتحت ثلاثة امتار من التراب .

قالت :

- انني سعيدة . فقد علمت الآن علم اليقين أين كان يمضي عند خروجه من البيت . لقد نزعَت الحداد في تلك الليلة دفعة واحدة ، دون المرور بمرحلة الأسترخاء في البلوزات ذات الازهار الرمادية ، وامتألت حياتها باغنيات الحب والملابس المثيرة المزينة برسوم ببغاوات وفراشات ملونة ، وبدأت توزع جسدها على كل من يشاء طلبه . وبعد هزيمة قوات الجنرال غايتان اوبيسو ، اثر حصار دام ثلاثة وسبعين يوماً ، أعادت بناء البيت المثقوب بقذيفة مدفع ، وجعلت له مصطبة بديعة تطل على البحر فوق حائل للامواج حيث يصطدم غضب الأمواج في الايام العاصفة . وكان هذا هو عش حبها ، كما كانت تدعوه دون تهكم ، وحيث كانت تستقبل من يناسب مزاجها من الرجال ، حين تشاء وكيفما تشاء ، دون ان تتقاضى قرشاً واحداً من أي منهم ، لأنها كانت ترى ان الرجال هم الذين يسدون لها المعروف . وفي حالات نادرة قبلت بعض الهدايا ، شريطة ألا تكون من الذهب . وكانت تدبر أمورها بمهارة لم يستطع أحد معها اثبات حقيقة سلوكها الشائن بادلة قاطعة . وفي مرة واحدة وصلت إلى حافة الفضيحة العلنية ، عندما راجت شائعة تقول ان الاسقف دانتي دي لونا لم يمت خطأ بحادثة أكل طبق الفطر السام ، وانما أكله وهو عارف ، لأنها هددته بذبح نفسها ان هو اصر على محاصرتها بنواياه

الذنسنة . لم يسألها أحد ان كان ذلك صحيحاً ، ولم تتحدث هي عنه ، ولم يبدل أي شيء من حياتها . وكانت تقول منفجرة بالضحك بانها المرأة الوحيدة الحرة في المقاطعة .

لم تتخلف أرملة ناثاريت يوماً عن مواعيد فلوريتينو اريثا العرضية ، ولا حتى في اكثر أوقاتها انشغالاً ، وكانت تقابله دائماً دون الادعاء بانها تحبه ودون مطالبة بان يحبها ، ولكن على أمل العثور على شيء يشبه الحب ، انها دون مشاكل الحب . وفي بعض الأحيان كان هو الذي يذهب إلى بيتها ، وعندئذ كانا يفضلان البقاء على المصطبة المطلة على البحر للابتلال بزبد ملح البارود ، وتأمل شروق الدنيا كلها في الافق . وقد وضع كل جهده لتعليمها اساليب التهيج التي كان قد رأى آخرين يمارسونها من خلال ثقب فندق العابرين ، وكذلك المعادلات النظرية التي كان يدعو لها لوتاريو توغوت في ليالي مرحهما . حدثها للموافقة على ان يريا بعضهما اثناء ممارستها الحب ، وعلى استبدال وضعية المبشر المعروفة بوضعية الدراجة البحرية ، أو الفروج المشوي ، أو الملاك المعلق ، وكادا ان يوديا بحياتيهما عندما انقطعت بهما حبال تعليق أرجوحة النوم وهما يحاولان ابتكار وضعية جديدة في الأرجوحة . ولكنها كانت دروساً عقيمة . فالحقيقة انها كانت طالبة جسورة ، لكنها تفتقر إلى ادنى موهبة في الزنى الموجه . لم تفهم أبداً مفاتيح الصفاء في السرير . ولم تكن لها لحظة الهام ، بل كانت تهيجاتها الجنسية جلدية خارجية تأتي في غير اوانها : ياله من جماع كثيب . وقد عاش فلوريتينو اريثا زمناً طويلاً وهو مغدوع بانه الوحيد ، وكانت تشارك في بثه هذا الاعتقاد ، إلى ان جعلها سوء الطالع تتكلم وهي نائمة . وشيئاً فشيئاً ، أخذ يستجمع وهو يسمعها اثناء نومها ، اجزاء تصريح ابهار أحلامها ، وتوغل ما بين جزر حياتها السرية المتعددة . وهكذا علم انها لا تسعى إلى الزواج منه ، ولكنها تشعر بانها مربوطة إلى حياته برابطة العرفان بالجميل الكبير لانه هو الذي افسدها . وقد قالت ذلك كثيراً :

- انني اعبدك لانك جعلتني قحبة .

ولم تكن تنقصها المبررات لذلك . فقد جردها فلوريتينو اريثا من عذرية زواج عادي ، هي أشد وبالاً من العذرية الخلقية ومن زهد الترميل . وعلمها انه لا شيء مما يمارس في السرير هو لا أخلاقي ما دام يساهم في استمرار الحب . وعلمها شيئاً آخر سيكون منذ ذلك الحين هو مبرر وجودها : اقنعها ان الانسان يأتي الى الحياة بعدد محدد من الضروب ، وان تلك التي لا تستنفد ، لسبب ذاتي أو خارجي ، ارادي أو جبري ، تضيق إلى الابد . وكانت فضيلتها هي فهم ذلك وتطبيقه بحذافيره . ومع ذلك ، فان فلوريتينو اريثا ، الذي يظن بانه يعرفها اكثر من أي كان ، لم يستطع ان يفهم كيف تكون مرغوبة إلى هذا الحد ، امرأة ذات أساليب

شديدة الصبيانية ، اضافة إلى انها لا تتوقف عن الحديث في السرير عن كآبتها على زوجها الميت . والتفسير الوحيد الذي خطر له ، ولم يستطع أحد نقضه ، هو ان أرملة ناثاريت كانت تعوض برقتها الفائضة ما ينقصها من الفنون الميدانية . أصبحت يلتقيان أقل فيما هي توسع من نطاق ممتلكاتها ، ويتفحص هو ممتلكاته عساه يجد مهدناً لآلامه القديمة في قلوب مبددة اخرى ، ثم نسيا بعضهما في نهاية الأمر دون آلام .

كان ذلك هو أول حب سريري لفلوريتينو اريثا . ولكنه بدلاً من أن يقيم معها اتحاداً مستقراً ، كما كانت تحلم أمه ، استغله كلاهما للانطلاق في الحياة . فقد طور فلوريتينو اريثا أساليب بدت بعيدة عن التصديق ، بالنسبة لرجل صموت وضامر مثله ، متسربل بملابس كملايس شبح من زمن آخر . ومع ذلك ، كانت هناك نقطتان لصالحه . احدهما هي عينه الصائبة في التعرف فوراً على المرأة التي تنتظره ، حتى ولو كانت وسط حشد من الناس ، ولكنه حتى في هذه الحالة كان يغازلها بتحفظ ، لانه كان يشعر انه لا شيء يسبب العار والذل اكثر من الصد . والنقطة الثانية هي انهن كن يميزنه فوراً كمتوحد بحاجة إلى الحب ، وكمعوز من الشارع بذل كلب مضروب يقدم خدماته دون شروط ، وبلا أية مطالب ، ودون انتظار شيء آخر منه سوى راحة الضمير في اسداء المعروف اليه . وكان هذان هما سلاحاه الوحيدان ، وبهما خاض معارك تاريخية ، لكن في سرية مطلقة ، وسجلها بصرامة مدون عقود في دفتر مُشفّر؛ من النوع الذي يعرفه الكثيرون بعنوان ينم عن كل شيء : هن . وأول سجل في دفتره كان سجل الأرملة ناثاريت . وبعد خمسين سنة من ذلك ، وعندما تحررت فيرمينا داثا من حكمها القدسي ، كان لديه خمسة وعشرون دفترًا تضم ستمائة وعشرين سجلاً لغراميات مستمرة ، عدا المغامرات العابرة التي لا تحصى والتي لا تستحق ولو مجرد ملاحظة احسان صغيرة .

وبعد ستة شهور من الغراميات الخارقة للمألوف مع أرملة ناثاريت ، اقنع فلوريتينو اريثا نفسه بانه قد اجتاز عذاب فيرمينا داثا . ولم يعتقد بذلك فحسب بل انه طرحه عدة مرات مع ترانسيو اريثا خلال السنتين اللتين دامتتهما رحلة الزواج ، وتابع الايمان به بشعور من التحرر السلاخسود ، إلى ان رآها فجأة ودون ايجاء سابق من قلبه ، في يوم أحد من أيام نجمة المنحوس ، وهي خارجة من القداس ممسكة بذراع زوجها ومحاطة بفضول ورياء وسطها الجديد . فالسيدات النييلات اللواتي كن يحقرنها أول الأمر ويسخرن من كونها دخيلة بلا لقب ، رحن يتهافتن لتشعربانها واحدة منهن ، فيما تسكرهن هي بسحرها . لقد تسنمت وضعها كزوجة دنيوية بجدارة جعلت فلوريتينو اريثا يحتاج للحظة من التفكير للتعرف اليها . كانت امرأة اخرى : رصانة الشخصية الكبيرة ، الحذاء العالي ، القبة الرقيقة المزينة

بريشة طائر شرقي ملونة كل ما فيها كان مختلفاً وبسيطاً، كما لو كان فيها منذ نشأتها. وجدها اكثر جمالاً وشباباً من أي وقت مضى، ولكنها أبعد من أن تكون له اكثر من أي وقت مضى، ولم يدرك سبب ذلك إلى ان رأى انتفاخ بطنها تحت الفستان الحريري الفضفاض: لقد كانت حاملاً في شهرها السادس، لكن اكثر ما أثر فيه هو أنها تشكل مع زوجها ثنائياً محترماً، وانها يتصرفان بالدنيا بسيولة تجعلهما يبدوان وكأنهما يطفوان فوق صخور الواقع. لم يشعر فلوريتينو اريشا بالحسد ولا الغضب، وانما باحتقار شديد لنفسه. أحس بأنه بائس، وقبيح، ووضع، وانه ليس غير جدير بها فقط، بل وبأية امرأة اخرى فوق وجه الارض.

لقد عادت اذن. عادت دون اي سبب لتندم على الانقلاب الذي احدثته في حياته. ولكن على العكس: كان جزعه يتناقص، خصوصاً بعد ان اجتاز السنوات الأولى. أما بالنسبة لها فالأمر اكثر من ذلك، هي التي وصلت إلى ليلة الزفاف بغشاوة براءة، كانت قد بدأت تفقدها خلال الرحلة في مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا. ففي فايدويات فهمت اخيراً لماذا يطوف الديك حول الدجاجات، وشاهدت طقوس الحمير البهيمية، ورأت ولادة العجول، وسمعت بنات الخال يتحدثن بطبيعية عن أزواج من العائلة ما زالوا يمارسون الحب، وعن سبب وكيف توقف آخرون عن ممارسته رغم استمرارهم في العيش معاً. وكان حينئذ ان بدأت مدرسة الحب منفردة، يراودها احساس غريب بانها تكتشف شيئاً كانت غرائزها تعرفه منذ الأزل، فعلت ذلك في السرير أولاً، وهي تكتم انفاسها كي لا تفضح نفسها في حجرة النوم التي تتقاسمها مع نصف دزينة من بنات الخؤولة، ثم بعد ذلك بيديها الاثنتين وهي منبطحة على ارضية الحمام دون هم، بينما شعرها مفلت وهي تدخن سجائرهما الأولى. لقد كانت تفعل ذلك دائماً مع بعض شكوك الضمير التي لم تتجاوزها إلا بعد زواجها، وكان تفعله بسرية مطلقة، بينما بنات خؤولتها يتفاخرن فيما بينهن ليس في عدد المرات يومياً فحسب، بل وبشكل وحجم اعضاءهن أيضاً. ومع ذلك، ورغم سحر تلك الطقوس الأولية. فقد استمرت على اعتقادها بان فقدان العذرية هو توضحية دموية.

حتى ان حفلة زفافها، وهي واحدة من أضخم حفلات اواخر القرن الماضي، جرت بالنسبة لها على اعتاب الرعب. وقد اثير فيها كرب شهر العسل اكثر بكثير من الفضيحة الاجتماعية لزواجها من وجيه لاثاني له في تلك السنوات. فمنذ الاعلان عن الزفاف في القديس الكبير في الكتدرائية، عادت فيرمينا دائماً تتلقى رسائل مغلقة التوقيع، بعضها يتوعدنها بالموت، لكنها لم تكن لتشعر بها، حيث كان كل الخوف الذي بداخلها مشغول بعملية الاغتصاب الوشيك. لقد كانت تلك هي الطريقة الصحيحة - رغم انها لم تفعل ذلك عن وعي - في معاملة الرسائل المغلفة من أبناء طبقة عودتها مخزية التاريخ على احناء رأسها

أمام الوقائع الناجزة. وهكذا بدأ تحول جميع من كانوا ضدها للوقوف إلى جانبها كلما أصبح الزفاف أمراً لا رجعة فيه. وقد لاحظت هي ذلك في التبدل التدريجي لمواكب النساء الزرق المتوددات، اللواتي انزلهن التهاب المفاصل والحقن من مقامهن، واللواتي اقتنعت يوماً بعدم جدوى مكائدهن، فظهرن دون سابق انذار في حديقة البشارة، وكأنهن في بيتهن، محملات بوصفات للمطبخ ويهدايا العرافة. كانت ترانسيتواريثا تعرف ذلك العالم، رغم انها عانت منه بنفسها هذه المرة فقط، وكانت تعلم ان زبوناتهما سيأتينها في الايام السابقة للاحتفالات الكبرى ليطلبن منها اخراج جزارها المدفونة واعارتهن مجوهراتهن المرهونة، لمدة أربع وعشرين ساعة فقط مقابل دفع نائذة اضافية. ولم يحدث منذ زمن بعيد كما حدث هذه المرة، اذ فرغت الجزار كيما تخرج السيدات ذوات الألقاب الطويلة من هياكلهن المظلمة ويظهرن مشعات، بمجوهراتهن الخاصة المستعارة، في حفلة زفاف لن يتاح لهن رؤية حفلة بعظمتها في ما تبقى من القرن، والتي كان مجدها الأخير هو ان عرابها كان الدكتور رافائيل نونيث، رئيس الجمهورية لثلاث مرات، الفيلسوف والشاعر وواضع كلمات النشيد الوطني، كما جاء في بعض المعاجم الحديثة حيثئذ. وصلت فيرمينا دائماً إلى المذبح الكبير في الكتدرائية ممسكة بذراع ابوها، الذي منحته بدلة الاتيكيك مظهراً خاطئاً من الوقار لمدة يوم واحد: وتزوجت إلى الأبد مقابل مذبح الكتدرائية الكبير في صلاة تكليل شارك فيها ثلاثة اساقفة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم جمعة ترنييداد المقدسة المجيد، ودون أي خاطر من شفقة نحو فلوريتينو ارثا، الذي كان يعاني حينها الحمى، ويميت نفسه من أجلها، في مركب لن يحمله إلى النسيان. وقد احتفظت اثناء المراسم الدينية، ثم اثناء الحفلة فيما بعد، بابتسامة بدت وكأنها مثبتة بالاسيداج، لمحة بلا روح فسرها بعضهم بانها ابتسامة الفوز الساخرة، ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى وسيلة بائسة لمدارة خوفها كعذراء تزوجت لتوها.

ولحسن الحظ ان بعض المصادفات، اضافة إلى تفهم الزوج، حلت مسألة لياليها الثلاث الاولى دون ألم. لقد كان امراً صادراً عن العناية الالهية، ان سفينة الكومباني جنرال ترانساتلانتيك ببرناميج رحلاتها المتقلب رضوخاً لطقس الكاريبي السيء، أعلنت قبل ثلاث ايام من الرحلة عن تقديم موعد الانطلاق اربعاً وعشرين ساعة، اي انها لن تبحر الى روشيل في اليوم التالي للزفاف، وانما في ليلة الزفاف نفسها. لم يصدق أحد أن ذلك التغيير ليس مفاجأة. اخرى من مفاجآت هذا العرس السارة، وقد انتهت الحفلة بعد منتصف الليلة على سطح عابرة المحيطات المضاعة، بمرافقة فرقة اوركسترا من فيينا كانت تدشن في تلك الرحلة أحدث فالتات جوهان ستراوس. وهكذا جرى حمل العرايين المبلين بالشمبانيا قسراً إلى اليابسة بمساعدة زوجاتهم المكدرات، حين بدأوا يسألون النذل ان كانت هناك قمرات

غير محجوزة لمواصلة الحفلة حتى باريس . وقد رأى آخر الذين نزلوا لورينثوداثة يجلس على الأرض في عرض الطريق مقابل الخمارات نبدلة الاتيكيت المتسخة ، وهويشتحب بصرخات مولولة ، كما يبكي العرب موتاهم ، مستريحاً فوق بركة ماء آسن ريبا هي بركة دموع .

لا في الليلة الأولى ذات البحر الهائج ، ولا في الليلة التالية ذات الابحار الهادىء ، ولا في اية ليلة اخرى من ليالي حياتها الزوجية الطويلة جداً جرت أعمال بربرية من تلك التي كانت فيرمينا داثا تخافها . فالليلة الأولى ، ورغم ضخامة السفينة وفخامة القمرات ، كانت اعادة رهية للرحلة في سفينة ريوهاشاشا ، وكان زوجها طبيباً خدوماً لم ينم لحظة واحدة وأمضى الليل في مواساتها ، وهو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله طبيب بارز لعلاج دوار البحر . ولكن العاصفة هدأت في اليوم الثالث ، بعد الخروج من ميناء غوايرا ، وحتى ذلك الحين كانا قد أمضيا معاً وقتاً طويلاً وتحدثا كثيراً حتى أصبحا يشعران بانهما صديقان قديمان . وفي الليلة الرابعة ، عندما استعاد كل منهما عاداته المألوفة ، فوجىء الدكتور اورينوبان زوجته الشابة لا تصلي قبل النوم . وكانت صريحة معه : ان نفاق راهبات المدرسة قد أثار فيها عدااء للمصلوات ، لكن ايمانها كان راسخاً ، وقد تعلمت الحفاظ عليه بصمت . قالت : «أفضل التفاهم مع الرب مباشرة» . وتفهم هو مبرراتها ، ومنذ ذلك الحين مارس كل منهما الدين نفسه على طريقته . لقد كانت فترة خطوبتهما قصيرة ، لكنها خارجة عن مألوف تلك الحقبة كثيراً ، فالدكتور اورينوبان كان يزورها في بيتها ، دون رقابة ، مساء كل يوم . ما كانت تسمح له بان يمس طرفاً من أطراف أصابعها قبل المباركة الاسقفية ، لكنه لم يحاول ذلك أيضاً . وفي الليلة الأولى من هدوء البحر ، وفيما هما بملابسهما في السرير ، بدأ أولى مداعباته ، وقد فعل ذلك بحذر شديد ، حتى بدا لها انه من الطبيعي ان ترتدي قميص نومها . مضت لاستبدال ملابسها في الحمام ، ولكنها أطفأت انوار القمرة قبل ذلك ، وعندما خرجت بقميص نومها دست خرقاً في شقوق الباب ، لتعود إلى السرير في ظلام دامس . وفيما هي تفعل ذلك ، قالت بمزاج رائق :

ـ ماذا تريد ياكتور . انها المرة الأولى التي أنام فيها مع رجل غريب .

أحسن بها الدكتور اورينوبان وهي تنزلق إلى جانبه مثل حيوان صغير مضطرب ، محاولة البقاء بعيداً عنه قدر المستطاع في سرير بحري حيث من الصعب وجود اثنين معاً دون ان يمس بعضهما . امساك يدها ، الباردة والمتشنجة من الرعب ، وشبك الأصابع ، وبدأ يروي لها بصوت هامس ذكرياته عن رحلات اخرى في البحر . كانت متوترة من جديد ، لانها عندما رجعت إلى السرير انتبهت إلى انه قد تعرى تماماً اثناء وجودها في الحمام ، وهذا أحيا خوفها

من الخطوة التالية . لكن الخطوة التالية تأخرت عدة ساعات ، فقد تابع الدكتور اوربينو الحديث بتمهل شديد ، فيما هو آخذ بنيل ثقة جسدها ميليمتراً بعد ميليمتر . حدثها عن باريس ، عن الحب في باريس ، عن عشاق باريس الذين يتبادلون القبلات في الشارع ، وفي الامنيوس ، وعلى مقاهي الارصفة البديعة المفتوحة على لفحات النار وعلى او كورديونات الصيف الخافتة ، ويهارسون الحب وقوفاً على ضفاف السين دون أن يزعجهم أحد . وفيما هو يتحدث في العتمة ، داعب أنحناء عنقها برؤوس أصابعه ، وداعب زغب ذراعيها الحريري ، ويطننها المراوغ ، وعندما أحس أن التوتر قد تراجع قام بمحاولة الأولى لرفع قميص نومها ، لكنها أوقفته بحركة تقليدية من حركاتها . وقالت : « أستطيع عمل ذلك وحدي » . نزعته عنها فعلاً ، ثم بقيت ساكنة ، بحيث كان بإمكان الدكتور اوربينو أن يعتقد بأنها ليست هناك ، لولا بريق جسدها في الظلام .

عاد بعد هنيهة للامساك بيدها ، فأحسها حيثئذ دافئة ومتحررة ، لكنها ما تزال رطبة بندى طازج . بقيا لحظة أخرى صامتين وساكنين ، هو يتحين الفرصة للخطوة التالية ، وهي تنتظر تلك الخطوة دون أن تدري من أين ستأتيها ، فيما الظلام يتسع مع ازدياد حدة تنفسها . أفلتها فجأة وقام بالقفزة في الفراغ : بلل طرف أصبعه الوسطى بلسانه ولمس لمساً خفيفاً حلمة نهدا الغافل ، فأحست بشحنة موت ، كما لو لمس فيها عصياً حياً . وفرحت لكونها في الظلام حتى لا يرى تورد وجنتيها الحارق الذي هزها حتى أعماق جمجمتها . وقال لها بهدوء : « اهبطي : ولا تنسي انني أعرفهما . » أحس بها تبسم ، وكان صوتها عذباً وجديداً حين قالت في العتمة : - أذكر ذلك جيداً ، وحتى الآن لم يبارحني الغيظ .

عرف حيثئذ بأنها قد اجتازا رأس الرجاء الصالح ، فعاد يمسك بيدها الكبيرة اللدنة ، وغمرها بقبلات يتيمة ، بدأ بمشط اليد الغليظ ، فالأصابع الطويلة المتبصرة ، والاظافر الشفافة ، ثم خطوط حظها المتشابكة في الكف المتعرق . ولم تعرف كيف وصلت يدها إلى صدره ، واصطدمت بشيء لم تستطع تحديده . فقال لها : « إنها تعويذة » . داعبت شعر صدره ، ثم أمسكت اجمة الشعر كلها بأصابعها الخمس لتتزعها من جذورها . « بقوة اكبر » ، قال لها . حاولت ، إلى الحد الذي عرفت انها لا تؤذيه ، ثم كانت يدها هي التي بحثت عن يده التائهة في الظلام . لكنه لم يمكنها من شبك أصابعها بأصابعه وإنما أمسكها من معصمها وقاد يدها على جسده بقوة لا مرثية ولكنها متقنة التوجيه ، الى ان أحسنت بلفحة ملتهبة من حيوان متقد ، بلا شكل مادي محدد ، لكنه متلهف ومتصب ، وعلى العكس مما تصوره ، بل وعلى العكس مما كانت هي نفسها ستتصوره ، لم تسحب يدها ، ولم تتركها ساكنة حيث وضعها ، وإنما سلمت نفسها جسداً وروحاً للعذراء المقدسة ، وضغطت اسنانها خشية ان تضحك من

جنونها، وبدأت تتعرف باللمس على عدوها المشبوب، متعركة على حجمه، وقوة رأسه، وامتداد اجنحته، مرتعبة من تصميمه لكنها مشفقة على عزلته، وممسكة به بفضول متقص بشكل لو أن أحداً أقل خبرة من زوجها لظن أنها مداعبات. استعان بأخرقواه لمقاومة دوار هذه المبارزة القاتلة، إلى أن أفلته بظرافة طفولية، وكأنها تلقي به إلى الزبالة، وقالت :
- لم أفهم أبداً كيف هو هذا الجهاز.

عندئذ شرح لها كل شيء بجدية وبأسلوبه كاستاذ، فيما هو يقود يدها على المواضع التي يذكرها، وهي تناقده بطلاقة تلميذة مثالية. ولمح في لحظة مواتية إلى أن كل ذلك سيكون أسهل لو أن الضوء منار، ولكنها أوقفت ذراعه قائلة : «بيدي أرى أفضل». الحقيقة أنها كانت تريد إشعال النور، لكنها تريد عمل ذلك بنفسها دون أن يأمرها أحد، وهذا ما فعلته. عندئذ رآها في وضع جنيني، مغطاة بالشرشف، تحت الضوء المفاجيء. لكنه رآها وهي تعود لتمسك بحيوان الفضول دون تكلف، وتقلبه ظهراً وباطناً، وتفحصه باهتمام أخذ يبدو اهتماماً غير علمي، وقالت مستتجة : «يا لقباحتها، انه أقبح منظرأ مما للنساء». كان متفقاً معها في الرأي، وأشار إلى نقائص أخرى أكثر أهمية من القبح. قال : «انه كمثل الابن الأكبر، يقضي المرء حياته وهو يعمل من أجله مضحياً بكل شيء في سبيله، وعندما تحين ساعة الجد يتصرف كما يحلوه». تابعت تفحصه، والسؤال عما يفيد هذا، وما فائدة ذاك، وعندما رأت أنها حصلت على المعلومات الكافية رازته بيديها الاثنتين، لتؤكد من أن وزنه كذلك لا يستحق الذكر، ثم أفلته بأعوجاجه ازدراء، وقالت :

- وأرى كذلك ان فيه أشياء كثيرة لا حاجة لها.

توقف حائراً. فالفكرة الأساسية في موضوع تخرجه هي هذه :

استحسان تبسيط الجهاز البشري. اذ كان جسم الانسان يبدو له طرازاً قديماً، ذا وظائف كثيرة مكثورة أولاً فائدة منها، كانت لازمة في عصور أخرى للجنس البشري، ولكن ليس لعصرنا. أجل : يمكن أن يكون أبسط وأقل تعرضاً للعطب أيضاً. واختتم قائلاً : «هذا شيء لا يستطيعه إلا الله بالطبع، ولكن لا بأس من اقصراره بشكل نظري». ضحكت سعيدة، بطريقة طبيعية جداً، فانتهاز الفرصة لاحتضانها وقبلها القبلة الأولى من فمها. فردت عليه بقبلة مماثلة، وتابع قبلاته الخفيفة على الوجنتين، والأنف، والجفون، فيما يده تنزلق تحت الشرشف، وداعب عانتها المستديرة والبسيطة : كعانة يابانية. لم تبعد يده، لكنها احتفظت بيدها في حالة تأهب خوفاً من تقدمه خطوة أخرى.

قالت :

- لن نستمر في درس الطب.

فقال :

- لا . الدرس الآن سيكون في الحب .

عندئذ نزع الشرشف من فوقها ، فلم تكتف هي بعدم الاعتراض ، بل قذفت الشرشف عن السرير بضربة من قدميها ، لأنها لم تعد تحتل الحر . كان جسدها ملتوياً ومرناً ، وأكثر جدية مما يبدو عليه وهي بملابسها ، تنبعث منه رائحة حيوان بري يمكن تمييزها بين جميع نساء الدنيا . وفيما هي عزلاء تحت الضوء ، صعدت دفقة دم يغلي إلى وجهها ، ولم يخطر لها لاختفاء ذلك سوى التعلق بعنق زوجها ، وتقيله بعمق وقوة إلى ان استنفدا في القبلة كل الهواء الذي تنفساه .

كان واعياً انه لا يحبها : لقد تزوج منها لاجبابه بشموخها وجديتها وقوتها ، وكذلك لشيء من كبريائه ، لكنه وفيما هي تقبله للمرة الأولى تأكد من انه لن يجد أي جائق لاختراع حب جيد . لم يتحدثا بذلك في هذه الليلة الأولى التي تحدثا فيها بكل شيء حتى الفجر ، ولن يتحدثا في ذلك أبداً . ولكن أيا منهما لم يخطيء على المدى البعيد .

عند الفجر ، حين ناما ، كانت ما تزال عذراء ، لكنها لن تبقى كذلك طويلاً . وفعلاً ، فبعد ان علمها ، في الليلة التالية ، رقص فالسات فيينا تحت سماء الكاريبي النجمية ، كان عليه ان يذهب إلى الحمام بعدها ، وعندما رجع الى القمرة وجدها تنتظره عارية في السرير . وكانت هي حيثذ من اتخذ المبادرة ، فاستسلمت له دون خوف ، ودون ألم ، وبسعادة الاقدام على مغامرة في عرض البحر ، دون ان يخلف الطقس الدامي أثراً سوى وردة الشرف على شرشف السرير . كلاهما فعل ذلك جيداً ، بشكل أشبه بمعجزة ، وتابعاً عمله جيداً ليلاً ونهاراً وفي كل مرة بشكل أفضل من سابقتها خلال بقية الرحلة ، وعندما وصلا إلى لا روشيل كانا متفاهمين كعاشقين قديمين .

بقيا ستة عشر شهراً في اوربا ، متخذين من باريس قاعدة لهما ، ومنطلقين في رحلات قصيرة إلى البلدان المجاورة . وقد مارسا الحب يومياً خلال هذه الفترة ، ومارسياه أكثر من مرة خلال أيام الأحاد الشتوية ، حيث كانا يتداعبان في الفراش حتى ساعة الغداء . كان رجلاً مندفعاً اضافة إلى انه حسن التدريب ، ولم تكن مخلوقة لتسمح لأحد بالتفوق عليها ، وهكذا كان عليها ان يقبل باقتسام السلطة في السرير . وبعد ثلاثة شهور من الحب المحموم ، أدرك هو ان أحدهما مصاب بالعقم ، فخضعا لفحوص طبية صارمة في مستشفى ساليترير ، حيث كان قد أمضى فترة تدريبه العملي كطالب مقيم . كانت فحوصات مضنية ولكن دون جدوى . ومع ذلك ، وعندما تخليا عن التفكير بالامر ، حدثت المعجزة بلا أية وسيلة علمية .

وحين رجعا إلى الوطن في نهاية السنة التالية ، كانت فيرمينا حبلً في الشهر السادس ، وترى

انها أسعد امرأه على وجه الأرض . والابن الذي رغبا فيه كلاهما ، والذي ولد تحت برج الدلو ، عُمد على شرف جده الميت بالكوليرا .

كان من المستحيل معرفة ان كانت أوربا أم الحب هو ما غيرهما ، لان الامرين حدثا في وقت واحد . كلاهما كان قد تغير ، وبعمق ، ليس في علاقتهما ببعضهما فقط ، وانما كذلك مع الجميع ، وهذا ما ادركه فلوريتينو اريشا حين رآهما خارجين من القداس بعد اسبوعين من عودتهما ، في يوم أحد نكبته ذاك . عادا بمفهوم جديد للحياة ، محملين بمستجدات الدنيا : هو بمستجدات الأدب والموسيقى ، ومستجدات علمه قبل كل شيء ، كما عاد باشتراك في لوفيفارو ، كي لا يفقد خيط الواقع ، واشترك آخر في ريفيودي دوموندس كي لا يفقد خيط الشعر . كما اتفق مع عميله المكتبي في باريس لتزويده بجديد الكتاب الأوسع انتشاراً ، كانتول فرانس وبير لوتي ، ومؤلفات مفضليه ، كريمي دي غورمونت وبول بورجيه ، أما أميل زولا فلا ، فهو يرى انه لا يطاق ، رغم اقتحامه الجريء لمحاكمة دريفوس . وقد وعد المكتبي نفسه بان يرسل له بالبريد كل جديد ومغر في كاتالوج ريكورد ، وخصوصاً من موسيقى الكاميرا ، ليحتفظ باللقب الذي اكتسبه ابوه عن جدارة كأول داعية لموسيقى الكونشيرتو في المدينة .

أما فيرمينا داثا ، المعارضة دائماً لصرامة الموضة ، فقد أحضرت معها ستة صناديق ملابس لمختلف الفصول ، اذ ان الماركات الشهيرة لم تقنعها . كانت قد ذهبت إلى توليرياس ، في عز الشتاء ، لحضور استعراض مجموعة ازياء وورث ، طاغية الأزياء الراقية الذي يفرض ما يشاء ، والشيء الوحيد الذي حصلت عليه كان التهاب قصبات طرحها في الفراش خمسة أيام . وبدا لها ليفيرير أقل غطرسة وطمعاً ، لكنها اتخذت قرارها الحكيم بالحصول على ما يعجبها من محلات التصفيات ، رغم ان زوجها كان يقسم لها أغلظ الايمان بانها ملابس موتى . وهكذا أحضرت كميات من الاحذية الايطالية التي بلا ماركة ، فضلتها على موديلات فيري الذائعة الصيت والشاذة ، وجلبت مظلة من دويوي ، حمراء كنيران جهنم ، كانت موضوعاً كتب فيه كثيراً صحفيو مجتمعنا المرتعدون . واشترت قبعة واحدة من تصميم مدام ريسو ، لكنها ملأت صندوقاً كاملاً بعناقيد الكرز الاصطناعي ، وفروع مختلف انواع الزهور التي وجدتها ، وكميات من ريش النعام ، وريش الطواويس ، وذبول ديكه أسيوية ، وطيور تدرج ، وأفاع وتشكيلة متنوعة من الطيور الغريبة المحنطة ذات الاجنحة المفتوحة ، أو الافواه الصارخة ، أو العيون المحتضرة : كل هذه الاشياء جعلت القبعات نفسها تبدو وكأنها قبعات اخرى طوال السنوات العشرين الاخيرة . أحضرت مجموعة مرواح يدوية من بلاد العالم المختلفة ، كل واحدة منها مخصصة لمناسبة . وأحضرت عطراً جذاباً انتقته من بين

أصناف كثيرة في محل عطورات بازار تشاريت، قبل ان تخربه رياح الربيع برمادها، لكنها لم تستخدمه سوى مرة واحدة، لأنها لم تعد تتعرف على نفسها بهذا العطر المختلف. وأحضرت كذلك علبة مكياج كانت آخر صرعة في سوق الاغراء، وكانت أول امرأة خرجت به إلى الحفلات، حين كان مجرد التجميل في مكان عام يعتبر عملاً منافياً للحشمة.

وحملت معها كذلك ثلاث ذكريات لا تمحى: الافتتاح الذي لم يسبق له مثيل لمسرحية حكايات هوفمان في باريس، والحريق الرهيب الذي أتى على جميع جندولات البندقية تقريباً مقابل ساحة سان ماركوس، والذي شاهدها بقلب يعتصره الألم من نافذة فندقها، ورؤية اوسكار وايلد الخاطفة اثناء هطول أول الثلوج في كانون الثاني. ولكن بين هذه الذكريات وغيرها الكثير، احتفظ الدكتور خوفينال اورينوبذكري رغبة كان يأسف دوماً لأنه لم يستطع تقاسمها مع زوجته، وتعود إلى الوقت الذي كان ما يزال فيه طالباً عازباً في باريس. انها ذكرى فيكتور هوغو، الذي كان ينعم عندنا بشهرة مثيرة ليست مرتبطة بشهرة مؤلفاته. ذلك ان احداً قال عنه بانه قال، دون أن يكون هناك من سمعه في الواقع، بان دستورنا ليس لموطن بشرواننا لموطن ملائكة. فأصبحت له منذ ذلك الحين منزلة خاصة، وصار معظم مواطنينا الكثيرين الذين يسافرون إلى فرنسا يتهاكون لرؤيته. وقد قام ستة طلاب، بينهم الدكتور خوفينال اورينو، بتنظيم حراسة مقابل بيته في شارع ايليا، وفي المقاهي التي يقال بانه سيأتيها بالتأكيد، دون ان يأتي أبداً، ثم تقدموا آخر الامر بطلب خطي للقاء خاص معه، باسم ملائكة دستور ريونغرو. ولم يتلقوا أي رد. وفي احد الأيام، وفيما خوفينال اورينو يمر مصادفة مقابل حديقة اللوكسمبورغ رآه وهو يخرج من مجلس الشيوخ برفقة امرأة شابة تقوده من ذراعه. كان هزماً جداً، يتحرك بمشقة، لحيته وشعره أقل اشعاعاً مما هما عليه في صورته، ويرتدي معطفاً يبدو وكأنه لشخص أضخم منه جسداً. ولم يشأ افساد الذكرى بتحية وقحة: كانت تكفيه هذه الرؤيا شبه اللاواقعية كزاد للحياة كلها. وعندما عاد إلى باريس متزوجاً، في ظروف تمكنه من رؤيته بشكل شبه رسمي، كان فيكتور هوغو قد مات.

وكعزاء على ذلك، حمل خوفينال وفيرمينا الذكرى المشتركة لمساء يوم ثلجي، اختلطاً فيه بجماعة كانت تتحدى العاصفة مقابل مكتبة صغيرة في بولفار لوس كابوتشينوس، وكان اوسكار وايلد في الداخل. وحين خرج اخيراً، أنيقاً حقاً، وربما واعياً جيداً انه كذلك، أحاطت به المجموعة تطلب منه التوقيع على كتبه. توقف الدكتور اورينو لرؤيته فقط، لكن زوجته المندفعة أرادت اجتياز البولفار ليقع لها على الشيء الوحيد الذي رآته مناسباً في غياب الكتاب: قفازها البديع الطويل الأملس، المصنوع من جلد الغزال، بلونه الذي يشبه لون بشرتها الحديثة الزواج، كانت متأكدة ان رجلاً بهذه الرقة سيقدر عالياً لفظة كهذه. لكن الزوج

عارض بإصرار، وحين حاولت التقدم رغم حججه، لم يعد يشعر بأنه سيكون قادراً على العيش متجاوزاً العار. فقال لها :

- إذا اجتزت الشارع، فستجديني ميتاً حين ترجعين.

كان سلوكاً طبيعياً فيها. فقبل زواجها بسنة واحدة كانت تتحرك في الدنيا بنفس الطلاقة التي كانت عليها وهي طفلة في بلدة سان خوان دي لاثيناغا المميتة، وكأنها ولدت وهي تعرف الدنيا، وكانت تتمتع بسهولة في معاملة الغرباء تاركة زوجها في حيرة من أمره، وبموهبة سحرية في التفاهم بالقشتالية مع أي كان وفي أي مكان. وكانت تقول وهي تضحك ساخرة : «المرء يتعلم اللغات حين يريد ان يبيع، أما عندما يريد الشراء فالجميع يفهمونه كيفما كان». من الصعب تصور أحد قادراً على تمثل حياة باريس اليومية بهذه السرعة وهذه الغبطة، وعلى تعلم حبها في الذكرى رغم امطارها الدائمة. ومع ذلك، فعندما رجعت إلى الوطن مثقلة بهذه التجارب المجتمعة، منهكة من السفر وناعسة من الحبل، كان أول ما سألوها اياه في الميناء هو كيف بدت لها عجائب اوربا، فلخصت ستة عشر شهراً من السعادة في أربع كلمات من فظاظتها الكاريبية :

- انها الصخب قبل أي شيء.

يوم رأى فلوريتينو اريشا فيرمينا داثا عند مدخل الكتدرائية، وهي حبلى في الشهر السادس و متمكنة تماماً من مكانتها الجديدة كامرأة حياة، اتخذ قراره الصارم بالحصول على لقب وثروة ليصبح جديراً بها. لم يتروليفكر حتى بالعائق المائل في كونها متزوجة، لانه قرر في الوقت ذاته، وكان الأمر بيده، ان الدكتور خوفينال اوربينو سيموت. لم يكن يعرف متى ولا كيف، لكنه طرح الأمر وكأنه حدث محتم، لا يحتاج إلا إلى الانتظار دون تسرع ولا هيجان، وحتى لو بقي إلى نهاية العصور.

بدأ من البداية. مثل دون سابق اعلان في مكتب العم ليون الثاني عشر، رئيس مجلس الادارة والمدير العام لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وأبدى له استعداد له لوضع نفسه تحت تصرفه. كان العم مستاء منه للطريقة التي تخلى بها عن وظيفة التلغراف المحترمة في لافيا دي ليفا، لكنه انساق مع قناعته بان البشر لا يولدون يوماً بل يولدون يوماً بملهم امهاتهم، وانما تجبرهم الحياة على ولادة انفسهم بأنفسهم ثانية ولمرات عديدة. ثم ان ارملة الاخ كانت قد توفيت في السنة السابقة، مع احقادها المتقدة ولكن دون ان تنجب ورثة. وهكذا منح ابن اخيه التائه عملاً.

كان ذاك قراراً تقليدياً من قرارات العم ليون الثاني عشر لوائيا. فتحت قشرة التاجر القاسي، كان يخشى عبقرياً مجنوناً، سيان لديه تفجير ينبوع ليمونادة في صحراء غواخيرا، أو اغراق جنازة ترفع الصليب بالدموع باغنيتة المؤثرة في هذا القبر المظلم، ولم يكن ينقصه برأسه المجمعد وشفته السفلى سوى القيشارة واكليل الغار ليصبح نسخة مطابقة لنيرون الحارق في الميثولوجيا المسيحية. اما ساعات فراغه ما بين ادارته لسفنه العاجزة، التي ما زالت تعوم بمحض غفلة من الهلاك، ومشاكل الملاحة النهرية المتزايدة الخطورة يوماً بعد يوم، فكان يكرسها لاغناء قائمته الغنائية. ولم يكن يحب الغناء إلا في الجنازات. بصوته الذي يشبه

صوت مجدف في سفينة ، والحالي من أي نظام أكاديمي ، انما القادر على اداء نغمات شجية . وقد روى له أحدهم ان انريكي كاروسو يستطيع تهشيم مزهرية وتفتيتها إلى شظايا بقوة صوته فقط ، فحاول خلال سنوات عديدة ان يقلده بزجاج النوافذ . وكان اصدقاؤه يأتونه بأرق أنواع المزهريات التي يجدونها في رحلاتهم عبر العالم ، وينظمون له احتفلات خاصة ليتمكن اخيراً من تحقيق حلمه . لكنه لم يتوصل إلى ذلك أبداً . ومع ذلك ، فقد كان في اعماق صوته الراعد بصيصاً من الرقة التي تفتت قلب سامعيه كما تفتت مزهريات كاروسو العظيم الزجاجية ، وكان هذا هو سبب مكانته المحترمة في الجنازات . باستثناء جنازة واحدة ، خطرت له فيها فكرة غناء When wake up in Glory ، وهي اغنية جنائزية من لوزيانا ، جميلة ومؤثرة ، فأسكتة القسيس الذي لم يفهم ذلك التدخل اللوثري في كنيسة .

وهكذا استطاع ، وسط الاوبريات والسيرنادات النابولية ، ان يتبوأ بعبقريته الخلاقة وروحه العملية التي لا تلين ، اشارة الملاحاة النهرية في عصره الزاهر . لقد بدأ من لا شيء ، مثل شقيقه المتوفين ، ووصلوا جميعهم إلى حيث يشاؤون رغم وصمة كونهم أبناء طبيعيين ، لم يعترف بهم آباؤهم أبداً . لقد كانوا زهرة ما كان يدعى حينئذ ارسقراطية منضدة التاجر ، التي كان النادي التجاري هو هيكلها المقدس . ومع ذلك ، وعندما امتلك الموارد التي تؤهله للعيش كالامبراطور الروماني الذي يشبهه ، بقي العم ليون الثاني عشريعيش في المدنية القديمة ، لسهولة ممارسة أعماله ، مع زوجته وابنائها الثلاثة ، حياة تقشف في بيت صغير ، مما ألصق به سمعة البخل ظلاً . وكانت رفاهية الوحيدة اكثر بساطة : بيت على البحر ، يبعد مسافة فرسخين عن مكاتب الشركة ، لا اثاث فيه سوى ستة كراسي بلا مساند ، وخابية ماء ، وارجوحة نوم على الشرفة يستلقي عليها أيام الاحاد للتفكير . ولم يصفه أحد خيراً مما وصف هو نفسه حين اتهمه احدهم بانه ثري ، اذ قال :

- لست ثرياً . . أنا فقير يملك مالاً ، وهو شيء مختلف . هذه الطريقة الغريبة في الحياة ، التي امتدحها أحدهم يوماً في خطبة صحوجنوني ، اتاحت له ان يرى على الفور ما لم يره أحد من قبل ولا من بعد في فلوريتينوارشا . فمنذ اليوم الذي جاءه فيه طالباً منحه وظيفة في مكاتب الشركة ، بمظهره الكثيب وسنوات عمره السبع والعشرين المبددة ، أخضعه لاختبار صارم صرامة نظام عسكري قادر على قهر أشجع الشجعان . لكنه لم يتوصل إلى اخافته . وما لم يشك فيه العم ليون الثاني عشر أبداً هو ان شجاعة ابن اخيه هذه ليست وليدة الحاجة لكسب لقمة العيش ، ولا وليدة صبر بهيمي ورثه عن ابيه ، وإنما هي وليدة طموح غرامي لا يمكن لأية قوة في هذا العالم أو العالم الآخر ان تحطمه .

أسوأ سنوات العمل كانت هي الأولى ، حين عينوه كاتباً في الادارة العامة ، والتي كانت

تبدو مكتباً مفصلاً على مقاسه . كان لوتاريو توغوت ، استاذ العم ليون الثاني عشر القديم في الموسيقى ، هو الذي نصح هذا الاخير بتعيين ابن اخيه في وظيفة كتابية ، لانه مستهلك للأدب لا يكل ، رغم ان ما يقرأه من الأدب الرديء هو أضعاف ما يقرأه من الأدب الجيد . لم يول العمل ليون الثاني عشر اهتماماً لهذا التحديد عن نوعية الادب الرديئة التي يقرأها ابن اخيه ، لان لوتاريو توغوت نفسه قال عنه دوماً انه أسوأ تلاميذه في الغناء ، ومع ذلك فهو يكي حتى شواهد القبور . لكن الألماني كان محقاً على أية حال في أقل أمر فكريه . ففلورينتينواريثا يكتب أي شيء بعاطفة جياشة ، مما جعل الوثائق الرسمية تبدو أشبه بوثائق حب ، وكانت اذونات الابحار تخرج معه مقفاة رغم جهده لتفادي ذلك ، وكان يسكب في الرسائل التجارية نفساً غنائياً يقلل من هيبتها . وهكذا جاءه العم بنفسه في أحد الايام برزمة من المراسلات التي لم تكن جديرة بان يضع توقيع عليه ، ومنحه الفرصة الاخيرة لانقاذ روحه .

قال له :

- اذا كنت عاجزاً عن كتابة رسالة تجارية فستحول إلى جمع القمامة عن رصيف الميناء . قبل فلورينتينواريثا التحدي ، وقام بجهود جبارة ليتعلم بساطة الشرائع التجارية الدنيوية ، مقلداً نماذج من الأرشف الموثق ومرصعاً رسائله بمقاطع منها كما كان يفعل باشعار الشعراء الراجين من قبل . حدث هذا في الفترة التي أخذ يقضي فيها ساعات فراغه في زقاق الكتبة العموميين ، مقدماً العون للعشاق الذين لا يحسنون الكتابة ، بكتابة رسائلهم الغرامية المعطرة ، ليفضض عن قلبه كلمات الحب الكثيرة التي لم يعد يستطيع استخدامها في التقارير الجمركية . لكنه بعد ستة شهور ، ورغم جميع محاولاته ، لم ينجح في ليّ عنق اوزانه المتبادية .

- الشيء الوحيد الذي يهمني هو الحب .

فقال له العم :

- من المؤسف انه لا وجود للحب دون الملاحة النهرية .

نفذ تهديده بنقله لجمع القمامة من رصيف الميناء ، لكنه وعد بترقيته خطوة خطوة على سلم الخدمة إلى ان يجد مكانه المناسب . وهكذا كان . لم يستطع أي عمل ، مهما كان قاسياً أو مذلاً ، هزيمته ؛ ولم يشبط بؤس الاجر من عزيمته ، كما انه لم يفقد أعصابه للحظة واحدة أمام عجرفة مسؤوليه . ولكنه لم يكن ساذجاً أيضاً : فكل من اعترض سبيله قاسى من نتائج تصميم كاسح ، قادر على أي شيء ، وراء مظهر البؤس الذي كان عليه ، وكما رغب العم

ليون الثاني عشر وخطط بجعله يتعرف على كل سر من أسرار المؤسسة، فقد مر على جميع المناصب خلال ثلاثين عاماً من المثابرة والعناد في مواجهة كل الاختبارات. وقد ادارها جميعاً بكفاءة تستحق التقدير، دارساً كل خيط في تلك التيلة السحرية التي لها علاقة ما بصناعة الشعر، انها دون التوصل إلى احراز الميدالية الحربية التي طالما تاق اليها، ألا وهي كتابة رسالة تجارية مقبولة. . رسالة واحدة فقط. ودون أن يخطط لذلك، بل ودون أن يذريه، راح يثبت بحياته سداد رأي ابيه الذي ردد حتى النفس الاخير انه لا أحد اكثر عملية، ولا حجارين اكثر اصراراً ولا مدراء أكثر نباهة وخطراً من الشعراء. هذا على الأقل ما أخبره به العم ليون الثاني عشر، الذي اعتاد انه يحدثه عن ابيه اثناء اوقات الفراغ، وأعطاه عنه فكرة تصوره كحالم اكثر منه رجل أعمال.

روى له ان بيو الخامس لواثيا كان يستخدم المكاتب لأمر أكثر لطفاً من شؤون العمل، وانه رتب أموره ليخرج من البيت في جميع ايام الاحاد، متذرعاً بأنه سيستقبل أو يودع سفينة ما. بل وصل به الأمر إلى وضع مرجل غير ذي نفع، مع صفارة بخارية في فناء الخانات، حيث كان أحدهم يقوم باطلاق الصفارة برموز الابحار حتى تسمع الزوجة ان هي كانت مصغية. وبعد حسابات اجراها، ابدى العم ليون الثاني عشر اقتناعه بان أم فلورينتينا اريثا قد حبلت به فوق طاولة مكتب غير مغلق في مساء يوم أحد لاهب، فيما زوجة ابيه تسمع من بيتها صفير وداع يطلقه مركب لم يسافر أبداً. وعندما اكتشفت امره كان الوقت قد فات لجعله يدفع ثمن سلوكه المشين، لانه كان قد مات. لقد عاشت سنوات طويلة بعده محطمة بمرارة عقمها، وطالبة من الله في صلواتها ان ينزل لعنته الابدية على البندوق.

لقد شوشت صورة الأب افكار فلورينتينا اريثا. كانت امه تحدثه عنه كرجل بلا ميول تجارية، وانه انتهى إلى العمل التجاري في الملاحة النهرية لأن شقيقه الاكبر كان معاوناً للربان الألماني جان ب. ايلبرس، أحد أوائل العاملين في الملاحة النهرية. وانه واخوه كانوا ابناء طبيعيين لأم واحدة، تعمل طاهية، وجميعهم يحملون لقبها بعد اسم أحد الباباوات الذي كانت تختاره لاعلى التعيين من سجل القديسين، باستثناء العم ليون الثاني عشر، فهو يحمل اسم الملك الذي كان يحكم عند مولده. ومن يدعى فلورينتينو هو جداهم لأهمهم، وهذا وصل الاسم إلى ابن ترانسيثواريثا قافزاً فوق جيل كامل من الاحبار العظام.

لقد احتفظ فلورينتينو بدفتر كان ابوه يدون فيه أشعار الحب، وكانت ترانسيثواريثا هي ملهمة بعض تلك القصائد، وكانت اوراق الدفتر مزينة برسوم قلوب جريحة. وقد فوجيء بامرین: احدهما هو خط أبيه المطابق تماماً لخطه، رغم انه اختار هذا الاسلوب في الكتابة من أحد مناهج تعليم الخط لانه أعجبه أكثر من سواه. والامر الثاني هو عثوره على عبارة كان

يعتقد انها من بنات افكاره، ووجد أن أباه قد دونها في دفتره قبل ان يولد هو بكثير: ما يؤلني في الموت هو ألا أموت حياً.

كان قد رأى كذلك صورتني ابيه الوحيدتين. احدهما ملتقطة في سانتافي، وهو صغير، كما كان عمره هوحين رآه لأول مرة، يرتدي معطفاً سميكاً يبدو فيه وكأنه محشور في جوف دب، ويستند إلى قاعدة تمثال لا تظهر منه سوى ساق جزمته الطويلة المبتورة. والطفل الذي يقف إلى جانبه هو العم ليون الثاني عشر معتمراً قبعة ريان سفينة. وفي الصورة الثانية كان أبوه مع مجموعة من المحاربين، من يدري في أي من الحروب الكثيرة، وكان يحمل أطول بندقية بين أفراد المجموعة وتفوح من شاربه في الصورة رائحة البارود. كان ليبرالياً وماسونياً، كماهما شقيقاه، ورغم ذلك كان يريد لابنه ان يدخل مدرسة الاكليروس، لم يشعر فلورينتينواريثا بالشبه بينه وبين ابيه كما كانوا يدعون، ولكن استناداً إلى اقوال العمل ليون الثاني عشر، فانهم كانوا يؤنبون بيوا الخامس أيضاً لاسلوبه الغنائي فيما يكتبه من وثائق. لم يكن يشبهه على اي حال كما هو في صورتيه، وهو لا يشبهه فيما يحفظه عنه في ذكرياته، ولا في الصورة التي كانت ترسمها له أمه، وقد حسن الحب منها، ولا في الصورة التي يشوهها العم ليون الثاني عشر بقسوته الظرفية. ومع ذلك، فقد اكتشف فلورينتينواريثا هذا الشبه بعد سنوات طويلة، فيما هو يسرح شعره أمام المرأة، وعندها فقط أدرك ان المرء يعرف انه قد بدأ يشيخ حين يبدأ بالتشابه مع ابيه.

لا يتذكر بانه رآه في شارع لاس بتاناس. ويظن بانه كان يأتي للنوم هناك في مرحلة ما، في بداية حبه لترانسيتواريثا، لكنه لم يعد إلى زيارتها بعد ولادته. لقد كانت وثيقة العمد لسنوات طويلة خلت هي وسيلتنا الوحيدة لتحديد الهوية، ووثيقة تعميد فلورينتينواريثا، المثبتة في خورانية سانتوتوريو، كانت تقول فقط انه ابن طبيعي لابنة طبيعية عازبة اخرى تدعى ترانسيتواريثا. ولم يكن يظهر في الوثيقة اسم الأب، الذي واظب رغم ذلك على تأمين حاجات ابنه الضرورية سراً حتى اليوم الاخير في حياته. وقد أقفل هذا الوضع الاجتماعي أبواب مدرسة الاكليروس في وجه فلورينتينواريثا، ولكنه نجا في الوقت ذاته من الخدمة العسكرية في الحقبة الاكثر دموية من حروبنا الاهلية، لكونه ابناً وحيداً لعزباء.

كان يجلس كل يوم جمعة، بعد العودة من المدرسة، أمام مكاتب شركة الكاريبي للملاحة النهرية، متصفحاً كتاباً يضم صور حيوانات يكاد يتمزق تنقاً لكثرة ما تصفحه. كان الاب يدخل دون ان ينظر اليه، مرتدياً السترة الكتانية التي كان على ترانسيتواريثا ان تقيفها فيما بعد على مقاسه، ويوجه يشبه وجه سان خوان الانجليكي الذي يوضع فوق المذابح. وعند خروجه، بعد عدة ساعات، كان يعطيه نقوداً تغطي حاجاته لاسبوع، محاذراً ألا يراه أحد

حتى ولا حوذي عربته . ما كان يكلمه ، ليس لان الأب لم يحاول ذلك فقط ، بل لانه كان يرهبه أيضاً . وفي أحد الايام ، وبعد ان انتظر وقتاً أطول مما اعتاد عليه ، اعطاه الأب النقود قائلاً له :

ـ خذ ولا تعد هنا بعد اليوم .

كانت تلك هي آخر مرة يراه فيها . لكنه سيعلم بعد حين ان العم ليون الثاني عشر ، الذي كان أصغر من أبيه بعشر سنوات ، سيواصل حمل النقود إلى ترانسيثواريثا ، كما سيتولى شؤونها بعد موت بيو الخامس اثر مغص لم يعالج جيداً ، دون ان يترك اثراً مذكوراً ، ودون ان يتاح له الوقت لاتخاذ أية تدابير لصالح ابنه الوحيد : ابن الشارع .

كانت مأساة فلورينتينواريثا اثناء عمله كاتباً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، تكمن في انه لم يستطع تفادي غنائيه لانه لم يكن قادراً على عدم التفكير بفيرمينا دائماً ، ولم يتعلم ان يكتب أبداً دون التفكير بها . وفيما بعد ، حين نقلوه لاداء أعمال أخرى ، كانت دواخله تفيض حباً لا يدري ما يفعل به ، فراح يهديه إلى العاشقين الذين لا يتقنون الكتابة بكتابة رسائل حب مجانية لهم في زقاق الكتبة العنوميين ، حيث كان يذهب بعد انتهائه من العمل . كان ينزع سترته بحركاته الوقورة ويعلقها على مسند الكرسي ، ثم يضع الأكمام المستعارة كي لا يلوث قميصه ، ويحل ازرار الصدرية ليفكر بشكل أفضل ، ويبقى أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل ، باعشاً الأمل في البائسين برسائل حب تبعث على الجنون . وبين حين وآخر كان يجد امرأة فقيرة تعاني مشكلة مع ابنها ، أو محارباً قديماً يلح في طلب دفع تعويضاته ، أو أحداً سرق منه شيء ويريد الشكوى أمام الحكومة ، ولكنه كان عاجزاً عن تلبية رغباتهم مهما بذل من جهد ، لانه لم يكن قادراً على اقناع أحد إلا في رسائل الحب . لم يكن يسأل زبائنه الجدد أي سؤال ، إذ كان يكتفي برؤية بياض عيونهم ليعرف حالتهم ، فيملأ ورقة بعد ورقة بكلمات حب خارقة ، وذلك بمعادلة مضمونة النتائج هي الكتابة مفكراً بفيرمينا دائماً ، ولا شيء سواها . ومع انتهاء الشهر الأول أصبح عليه ان يضع نظام حجز مسبق ، حتى لا تجعله اشراق العاشقين يفيض متجاوزاً الحدود .

ان أجمل ذكرياته عن تلك الحقبة هي ذكرى صبية خجول ، تكان تكون طفلة ، طلبت منه وهي ترتعش ان يكتب لها رداً على رسالة ملحة تلقتها لتوها ، وعرف فلورينتينواريثا بانه كان قد كتبها في مساء اليوم السابق . رد عليها بأسلوب مختلف ، بما يتناسب مع انفعالات الصبية وسنها ، وبخط يبدو كذلك وكأنه خطها ، اذ كان يحسن اصطناع خطوط لكل مناسبة حسب طبيعة كل شخص . كتبها متصوراً ما كانت سترد به عليه فيرمينا دائماً لو كانت تحبه كثيراً كما تحب تلك المخلوقة المرتعدة عاشقها . وبعد يومين ، طبعاً ، كان عليه ان يكتب كذلك رد

الحبيب بالخط والاسلوب ونوع الحب الذي خصه به في الرسالة الأولى ، وهكذا وجد نفسه متورطاً في مراسلة محمومة مع نفسه . وقبل انقضاء شهر ، جاءه كل على انفراد ليشكراه لما كان قد اقترحه في رسالة الشاب ووافق عليه باخلاص في رد الفتاة : انهما سيتزوجان .

وحين انجبا ولدهما الاول فقط ، واثناء حديث عرضي ، انتبها إلى ان رسائلهما قد كتبها الكاتب العمومي نفسه ، فذهبا لأول مرة معاً إلى الزقاق لتسميته عراباً لابنهما . ولقد تحمس فلوريتينو اريثا لتجلي اجلامه العملي ، فأفرغ وقتاً حين لم يكن لديه متسع من الوقت ليؤلف كتاب سكرتير العاشقين وهو أشمل واكثر شاعرية من الكتب المماثلة التي كانت تباع بعشرين سنتافوحتى ذلك الحين في الازقة ، والتي كان نصف أهل المدينة يحفظونها عن ظهر قلب . لقد تخيل ورتب الحالات التي قد يجد نفسه فيها ، هو وفيرمينا دائماً ، وكتب لكل حالة عدة نماذج تغطي جميع الاحتمالات التي بدت له ممكنة واجتمع لديه في نهاية المطاف حوالي ألف رسالة في ثلاثة اجزاء مجلدة كتجليد معجم كوفاروبيناس ، انما لم يغامر أي ناشر في المدينة بطباعتها ، فانتهدت إلى احد اماكن المهملات في البيت ، مع أوراق اخرى من الماضي ، لان ترانسيو اريثا رفضت باصرار استخراج خوابيها المطمورة وتبديد مدخرات حياتها في حماقة نشر . وبعد عدة سنوات ، حين أصبح لدى فلوريتينو اريثا الموارد اللازمة لنشر الكتاب ، تكلف مشقة للاقتناع بان رسائل الحب أصبحت موضوعة قديمة .

فيما هو يخطط لخطواته الاولى في شركة الكاريبي للملاحة النهرية ويكتب رسائل حب مجانية في زقاق الكتبة العموميين ، كان اصداقاً صبا فلوريتينو اريثا يوقنون بانهم يخسرونه شيئاً فشيئاً وبلا عودة . وهكذا كان . فبعد عودته من الرحلة النهرية كان ما يزال يلتقي ببعضهم على أمل التخفيف من ذكرى فيرمينا دائماً ، فلعب معهم البليارد ، وذهب الى حفلات رقصه الاخيرة ، واهتم بان يكون محط اعجاب الفتيات ، وفعل كل ما بدا له مناسباً ليعود كما كان . وفيما بعد ، عندما اعتمدته العم ليون الثاني عشر موظفاً ، صار يلعب الدومينو في النادي التجاري مع زملائه في العمل ، وبدأ هؤلاء يعترفون به كواحد منهم حين لم يعد يتحدثهم الا عن شركة الملاحة ، والتي ما عاد يذكر اسمها كاملاً ، بل يكتفي للإشارة اليها بالحروف الاولى : ش . ك . م . ن . وغير حتى طريقته في الاكل . فبعد ان كان لا مبالياً ومضطرباً على المائدة ، أصبح منتظماً ومتقشفاً حتى اخر أيامه : فنجان قهوة كبير كفتور ، وقطعة سمك مسلوق مع الارز الابيض للغداء ، وفنجان قهوة بالحليب مع قطعة جبن قبل النوم . وصار يشرب قهوة مرة في كل وقت ، وفي أي مكان وتحت اية ظروف ، بكميات تصل الى ثلاثين فنجاناً في اليوم : كانت قهوة أشبه بالبرول الجام يفضل تحضيرها بنفسه ، ويضعها دائماً في ترمس بمتناول يده . لقد أصبح شخصاً آخر ، رغم قراره الثابت وجهده المضني لتابعة حياته كما كان قبل عشرة

الحب القاتلة .

الحقيقة انه لن يعود ابدا كما كان . فاستعادة فيرمينا دائما كان هدف حياته الوحيد ، وكان متأكدا من انه سيصل اليه عاجلا ام آجلا ، حتى انه اقتنع ترانسيتواريثا بمتابعة اعداد البيت ليكون مناسبا لاستقبالها في اية لحظة تحدث فيها المعجزة . وعلى العكس من ردة فعلها حيال نشر سكرتير العاشقين ، مضت ترانسيتواريثا بعيدا جدا في هذا الامر : اشترت البيت نقدا ، وبدأت عملية اصلاح شاملة . أقاما صالة استقبال حيث كانت حجرة النوم ، أقاما في الطابق العلوي مخدعا للزوجين واخر للأولاد الذين سينجبونها ، كلاهما فسيح وحسن الاضاءة ، ومكان مشغل السيجار القديم أقاما حديقة فسيحة فيها جميع انواع الزهور ، كرس لها فلوريتنو اريثا شخصا فترة بطالته الصباحية . والشيء الوحيد الذي بقي على حاله كامتنان للماضي ، هو دكان الخردوات . اما القسم الخلفي من الدكان ، حيث كان ينام فلوريتينو اريثا ، فتركاه كما كان دوما ، بأرجوحة النوم المعلقة وطاولة الكتابة الصغيرة المغطاة بكتب متراكمة بفوضى ، بينما انتقل هو الى الحجرة المقررة كمخدع زوجي في الطابق العلوي . وكانت هذه الغرفة هي أوسع حجرات البيت واكثرها برودة ، لها شرفة داخلية من المتع البقاء فيها ليلا لاستنشاق نسيم البحر ورائحة الورود ، لكنها كانت كذلك الحجرة التي تستجيب اكثر من سواها لرهينة فلوريتينو اريثا الصارمة . كانت جدرانها ملساء وخاوية ، مطلية بالكلس ، وليس فيها من الاثاث سوى سرير سجن ضيق ، وكوميدينو عليه شمعة مثبتة فوق فتحة قنينة ، وخزانة ملابس قديمة وابريق لغسل الايدي مع صحنه وطشت لسكب ماء الغسل .

استمر العمل في البيت حوالي ثلاث سنوات ، وقد توافق مع مرحلة استقرار مؤقت مرت بها المدينة ، نتيجة ازدهار الملاحة النهرية والتجارة العابرة ، وهي نفس العوامل التي كانت سبب عظمتها أثناء الحكم الاستعماري وحولتها خلال اكثر من قرنين الى بوابة اميركا . ولكن هذه المرحلة كانت كذلك في الفترة التي بدا فيها على ترانسيتواريثا أول أعراض مرضها الذي لا شفاء منه . أصبحت زبوناتا الدائيات يأتينها الى دكان الخردوات وهن اكثر هرما في كل مرة ، واكثر شحوبا واكثر انحدارا ، ولم تكن تتعرف عليهن بعد معاملة معهن استمرت نصف حياة ، أو انها كانت تخلط شؤون بعضهن بشؤون اخريات . وكان هذا شيئا خطيرا في تجارة كتجارتها ، لا مكان فيها لأوراق موقعة ووثائق كاحتياط لحماية الشرف ، شرفها وشرف الآخرين ، وكانت كلمة الشرف تعطى وتقبل كضمانة كافية . بدت أول الامور وكأنها آخذة بالصمم ، ولكن سرعان ما تبين ان ذاكرتها هي التي تتسرب من الثقوب ، وهكذا صفت تجارة الرهونات ، واصبحت البيت بكنز الخوابي المخبأة واثته ، ثم بقي لديها بعد ذلك كثير من المجوهرات القديمة المشهورة في المدينة ، والتي لم تتوفر لأصحابها الموارد اللازمة لاستردادها .

عندئذ أصبح على فلوريتينواريثا ان يتحمل في الوقت ذاته مسؤولية التزامات عديدة، لكن حماسه لم يضعف لزيادة أعماله كصياد خفي . فبعد تجربته غير المنتظمة مع ارملة ناثاريت، التي شقت له طريق غراميات الازقة، تابع اصطياد عصفورات الليل اليتيمات لعدة سنوات، بحثا عن مهديء من الام فيرمينا داثا . لكنه لم يعد قادراً فيها بعد على معرفة ان كانت عادته في الزنى دون آمال هي ضرورة للضمير أم مجرد ادمان للجسد . صار تردده على فندق العابرين أقل، ليس لان اهتماماته كانت في جهة اخرى وحسب، بل لانه لم يكن يرغب بان يروه في مسيرة مختلفة جدا عن الصورة المألوفة التي عرفوها بها . ومع ذلك، فقد لجأ في ثلاث مناسبات مستعجلة الى الوسيلة السهلة لفترة لم يعيشها : كان يجعل صديقاته المتخوفات من انكشاف امرهن يتكرن بزي الرجال، ويدخل معهن الى الفندق بخيلاء سكارى متأخرين في السهر . لكنه لم يعدم من يلاحظ انه في مناسبتين على الاقل لم يكن يذهب مع صديقه المزيف الى الحانة وانما الى الحجرة، فتعرضت بذلك سمعته التي كانت قد تهشمت الى الضربة القاضية . الى ان توقف اخيراً عن الذهاب الى هناك . وفي المرات القليلة التي ذهب فيها، لم يفعل ذلك للحاق ما فاتته، وانما على العكس تماماً : كان يبحث عن ملجأ ليستعيد انفاسه بعد الافراط .

وكان ذلك ضروريا . فهو يغادر المكتب في الخامسة مساءً، ويمضي عندئذ متنقلاً كباشق جوال . كان يكتفي في البدء بما يمد به الليل . فيصطاد خادومات في الحدائق، وزنجيات في السوق، ومتأنقات في الشواطئ، وأميركيات شماليات في سفن نيو اورليانز . فيأخذهن الى ملطم الامواج حيث نصف اهل المدينة يفعلون الشيء نفسه منذ غروب الشمس، يأخذهن حيث يستطيع، واحيانا الى حيث لا يستطيع، اذ لم تكن قليلة المرات التي اضطر فيها الى حشر نفسه بسرعة في مدخل مظلم لأحد البيوت وعمل ما يستطيعه كيفما اتفق وراء البوابة . كان برج الفئار ملجأً محظوظاً يذكره بحنين بعد ان حلت جميع اموره وهو على اعتاب الشيخوخة، لانه كان مكاناً جيداً للسعادة، وخصوصاً في الليل، حيث كان يرى ان شيئاً من غرامياته يصل الى المبحرين في السفن مع كل لفة من وميض الفئار . وقد تابع الذهاب الى هناك، اكثر من ذهابه الى اي مكان آخر، فيما صديقه عامل الفئار يستقبله سعيداً، بوجه أحق كان أفضل دليل على الكتمان بالنسبة للعصفورات المرتعدات . كان هناك بيت في أسفل الفئار، حيث تزجر الامواج وهي تتحطم على الصخور، وحيث البحر اكثر زخماً لان فيه شيئاً من الاخفاق . لكن فلوريتينواريثا كان يفضل برج النور بعد ساعات الليل الاولى، لانه يرى المدينة كلها واضواء زوارق الصيادين في البحر، وكذلك في المستنقعات النائية . ومن هذه الحقة اتت نظرياته الاقرب الى التبسيط حول العلاقة بين التكوين الجسدي

للنساء وكفاءتهن للحب . لم يكن ليثق بالصنف الحسي من النساء . اولئك اللواتي يبدون قدرات على التهام تمساح نيء . ويكن عادة الاكثر سلبية في الفراش ، نموذج المفضل كان النقيض : تلك الضفادع الضامرة التي لا يتكلف أحد عناء النظر اليهن ثانية في الشارع ، اللواتي يبدون وكأنهن لا شيء بعد نزع ملابسهن ، ويثرن الشفقة بقطعة عظامهن عند الصدمة الاولى ، ولكنهن رغم ذلك قدرات على جعل اعنى المتغنين بفحولتهم لقمة سائغة لصندوق القمامة . وكان قد سجل رؤوس أقلام عن ملاحظاته المبكرة هذه بنية تأليف ملحق عملي لكتاب سكرتير العاشقين ، لكن المشروع لقي مصير سابقه بعد ان قلبته اوسينثا سانتاندير ظهرا وباطنا بحنكتها التي كحنكة كلب عجوز . . . أوقفته على رأسه ، رفعتة وانزلته ، واعادت ولادته كمخلوق جديد ، وجعلته يمزق مهارته النظرية ارباً ارباً وعلمته الشيء الوحيد الذي عليه ان يتعلمه عن الحب ، هو ان أحداً لا يستطيع تعليم الآخرين الحياة .

كانت اوسينثا سانتاندير قد تزوجت زواجا عاديا دام عشرين سنة ، وبقي لها من ذلك الزواج ثلاثة ابناء تزوجوا بدورهم وانجبوا ابناء ، بحيث انها كانت تفاخر بانها الجدة صاحبة أفضل فراش في المدينة . ولم يتضح أبداً ان كانت هي التي هجرت زوجها ، أم انه هو الذي هجرها ، أم انها هجرا بعضهما في الوقت ذاته حين ذهب هوليعيش مع عشيقته الدائمة ، وشعرت هي بأنها تحررت لتستقبل في وضع النهار ، ومن الباب الرئيسي ، روسندودي لا روسا ، ربان السفينة النهرية ، الذي كانت قد استقبلته ليلا مرات كثيرة من الباب الخلفي ، وكان هو نفسه ، ودون ان يفكر مرتين ، من أخذ فلوريتينو اريثا اليها .

دعاه للغذاء عندها . وحمل معه دجاجة خمر بيتي قوي وأفخر نوعية من المواد لاعداد وجبة ملحمية لا يمكن تحضيرها الا بدجاج بيتي ، ولحم طري العظام ، وخنزير معلوف على المزيلة ويقول وخضروات قري النهر . ومع ذلك ، لم يسد فلوريتينو اريثا منذ البدء اهتماما بلذائذ المطبخ ، ولا بكرم سيدة لبيت ، كاهتمامه بجمال البيت . لقد اعجبه البيت بحد ذاته ، بانارته وبرودته ، بنوافذه الاربع المظلة على البحر ، واطلالته من الخلف على مشهد كامل للمدينة القديمة . اعجبته كمية ورونق الاشياء التي كانت تمنح الصالة مظهراً مشوشاً وصارماً في الوقت نفسه ، والتي كانت تضم جميع انواع المهارات الحرفية التي يجلبها القبطان روسيندودي لا روسا في كل رحلة من رحلاته ، حتى لم يبق مكان لمزيد . وعلى الشرفة المظلة على البحر ، فوق منصة خاصة ، كانت تقف ببغاء مالا سيه يغطيها ريش ناصع ، بياضه لا يُصدق ، وتطرق بسكينة تأملية تبهث كثيرا على التأمل : انها أجمل حيوان رآه فلوريتينو اريثا على الاطلاق .

تحمس القبطان روسيندودي لا روسا لحماسة الضيف، فروى له بالتفصيل قصة كل شيء من الاشياء. وفيما هو يفعل، كان يشرب الخمر بجرعات قصيرة انها دون فاصل بين جرعة واخرى. كان يبدو وكأنه مبني من الاسمنت المسلح: ضخمة، كثيف الشعر في كل انحاء جسده باستثناء رأسه، له شارب كفرشاة نقاش، وصوت رحوي لا يمكن الا ان يكون كذلك، وصاحب نخوة ممتعة، ولكن ليس هناك من جسد قادر على احتفال طريقته في الشرب. وقبل الجلوس الى المائدة كان قد انتهى نصف الدجاجة، وهوى على وجهه فوق الكؤوس والزجاجات بجلبة انهزام بطيئة. وكان على اوسيتشا سانتاندير ان تطلب مساعدة فلورينتينو اريثا لسحب الجسد الخامد كجسد حوت مرتطم بالبر ونقله الى السرير، ونزع ملابسه وهونائهم. بعد ذلك، وفي ومضة الهام شكرها كلاهما لاقتراان برجيهما، تعرياً معا في الحجرة المجاورة دون اتفاق فيما بينهما، بل ودون ايحاء بذلك، ودون اعداد له. وتابعا التعري بعدها كلما سنحت لهما الفرصة خلال اكثر من سبع سنوات، اثناء غياب القبطان في رحلاته. لم تكن ثمة مخاطرة بان يفاجئهم، اذ كان يتمتع بعادة بحار طيب، فهو يطلق صافرة سفينته مخبراً بقدومه، حتى ولو وصل فجراً، كان يطلق ثلاث صافرات حادة وطويلة لزوجته واولاده التسعة، ثم صافرتين متقطعيتين وكثيبتين لعشيته.

كان لاوسيتشا سانتاندير حوالي خمسين سنة من العمر، وكان ذلك بادياً عليها، ولكنها كانت تتمتع بغريزة خاصة جداً في الحب، ليس بوسع النظريات العملية او العلمية ان تشوشها. وكان فلورينتينو اريثا يعرف من دليل رحلات السفن متى يستطيع زيارتها، وكان يذهب اليها دوماً دون اعلان مسبق ساعة يشاء، سواء في النهار او الليل، ولم يحدث مرة واحدة ان لم تكن في انتظاره. كانت تفتح له الباب كما ربتها امها حتى السابعة من عمرها: عارية تماماً، لكنها تضع على رأسها عصابة نايلون. لم تكن تسمح له بالتقدم خطوة واحدة قبل ان تنزع عنه ملابسه، لانها تعتقد ان وجود رجل بملابسه في البيت هو نذير شؤم. وكان هذا سبباً للنزاع دائم مع القبطان روسيندودي لا روسا، لانه كان يؤمن بخرافة ان التدخين عارياً هو امر وخيم العواقب، كما انه يفضل أحياناً تأجيل الحب على ان يطفىء سيجاره الكوبي الاصيل. أما فلورينتينو اريثا، فكان محباً جداً لمفاتن التعري، فكانت تخلع عنه ملابسه بلذة فور اغلاقها الباب، دون ان تتيح له الفرصة لتحيتها، ولا لتنزع قبعته ونظارته، مقبلة اياه ومتلقية القبل المبعثرة، وحالة ازواره من أسفل الى أعلى، بادءاً بأزرار فتحة السروال، واحداً بعد كل قبلة، ثم ابزيم الحزام، واخيراً ازرار الصديرية والقميص، الى ان تتركه كسمكة حية مشقوقة البطن. ثم تجلسه في الصالة وتنزع حذائه، وتشد بنطاله من عند الفخذ لتنزعه دفعة واحدة مع السروال الداخلي الطويل وتنزله الى الكاحلين، واخيراً تفك اربطة واقية

الساق المطاطية وتنزع جوربيه ، عندئذ يتوقف فلوريتينواريثا عن تقبليها وعن السماح لها بتقبيله ، ليفعل الشيء الوحيد الذي يقوم به في تلك الطقوس الدقيقة : فك الساعة ذات السلسلة من عروة الصدرية وتنزع النظارة ووضعها معا في حذائه ليتأكد من انه لن ينساها . لقد ثابر دوماً على اتخاذ هذا الاحتياط ، دائما دون نسيان ، كلما تعرى في بيت غريب .

ما ان ينتهي من عمل ذلك حتى تهاجمه دون ان تتيح له الوقت لأي شيء ، وتلقي به ولو على الكنبه التي انتهت من تعريته عليها . وفي أحيان قليلة على السرير . كانت تحشره تحتها ، وتسيطر عليه كله لها كلها ، محبوسة في ذاتها ، مقدرة الابعاد بعينيها المغمضتين في ظلمتها الداخلية المطبقة ، متقدمة من هنا ، متراجعة ، ضابطة اتجاهها اللامرئي ، محاولة عبر سبيل آخر أكثر زخما ، طريقة أخرى للمشي دون غرق في مستنقع الزوجة الذي يطفو من بطنها ، سائلة ومجبية بنفسها بأزيز ذبابة في رطانتها الخلقية أين هو في الظلام هذا الشيء الذي تعرفه هي وحدها وتريده لها وحدها فقط ، الى ان تحردون انتظار أحد ، وتهوي وحدها في هوتها بانفجار نصر شامل يجعل العالم كله يرتعش . ويبقى فلوريتينواريثا منهكا ، ناقصا ، طافيا في بركة عرقها ، يسيطر عليه انطباع بانه ليس سوى اداة للذة . كان يقول لها « انك تعامليني كما لو كنت واحدا زائدا » فتطلق ضحكة انثى حرة وتقول : « بل كانك واحد أقل » . ويبقى على قناعة بانها تستولي على كل شيء بشراهة وبخل ، فتقلب الكبرياء مزاجه ويخرج من البيت مقررا عدم الرجوع . لكنه ما يلبث ان يستيقظ ناسيا ، مع صحوة الوحدة الرهيبة وسط الليل ، وتنكشف له ذكرى حب اوسيتا سانتاندير الشارد على حقيقته : مصيدة سعادة يملها ويحن اليها في الوقت ذاته ، انما يستحيل عليه الفرار منها .

وفي يوم أحد ، بعد سنتين من تعارفهما ، كان أول ما فعلته عند وصوله ، بدلا من تعريته ، ان نزع نظارتيه لتقبيله بشكل أفضل ، وهكذا علم فلوريتينواريثا انها بدأت تحبه . ورغم شعوره لأول مرة بأنه على أحسن حال منذ دخوله ذلك البيت الذي صار يحبه كبيته ، فانه لم يبق فيه من قبل أكثر من ساعتين متواصلتين ، ولم يبق للنوم فيه أبدا ، بينما بقي مرة واحدة لتناول الطعام ، لانها كانت قد وجهت اليه دعوة رسمية . والحقيقة انه لم يكن يذهب هناك الا لما كان يذهب من اجله ، حاملا معه دوما هديته الوحيدة التي هي وردة منفردة ، ثم يختفي الى ان تحين الفرصة التالية المعلومة لديه . أما في يوم الأحد الذي نزعته فيه نظارتيه ، وبسبب هذه الحركة من جهة ، ولانها استسلما للنوم بعد حب مريح من جهة أخرى ، أمضيا المساء كله عارين في سرير القبطان الفسيح . وبعد الاستيقاظ من القيلولة ، كان فلوريتينواريثا ما يزال يحتفظ في ذاكراته بصرخات البيغاوات ، التي كان صريفها النحاسي يتناقض مع جمال الحيوان . لكن الصمت كان صافيا في قيظ الساعة الرابعة ، ومن نافذة غرفة النوم كان يظهر

جانب من المدينة القديمة مع شمس الاصيل التي تلهب ظهرها، وقيابها المذهبة، وبحرها الملتهب حتى جامايكا. مدت اوسيتشيا سانتاندير يدها المغامرة باحثه باللمس عن الحيوان الراقد، لكن فلوريتينو اريثا ازاحها قائلاً : «الآن لا . . أحس شيئاً غريباً، وكأن هناك من يرانا»

عادت تهيج البيغاء بضحكها اللعوب. وقالت : «هذه حجة لاتنطلي حتى على امرأة يونس». ولم تكن لتنطلي عليها كذلك، لكنها قبلت بها كحجة جيدة، وأحبا بعضها بصمت لوقت طويل دون ان يعيدا ممارسة الحب. وفي الساعة الخامسة، حين كانت الشمس ما تزال مرتفعة، قفزت هي من السرير، عارية تماماً وبعضابة النايلون على رأسها، ومضت تبحث عن شيء يشربانه في المطبخ. لكنها لم تكن قد خطت خطوة واحدة خارج حجرة النوم عندما أطلقت صرخة مرعبة.

ما كانت قادرة على التصديق. كانت المصابيح المعلقة هي الشيء الوحيد المتبقي في البيت. أما ما عداها، الاثاث المحفور، والسجاد الهندي، والتماثيل والتحف وترهات الزجاج والمعادن الثمينة التي لاحصر لها، وكل ما كان يجعل من بيتها أحد أطف البيوت وأكثرها زينة في المدينة، كل شيء، حتى البيغاء المقدسة، كله قد تبخر. لقد حملوه من الشرفة المطلة على البحر دون ازعاج الحب. لم يبق سوى الصالون المقفر بنوافذه الاربع المفتوحة، وكتابة بفرشاة نقاش على الجدار المقابل تقول : هذا ما يحدث لمن ينشغلون بالشّد. ولم يستطع القبطان روسيندودي لاروسا ان يفهم أبداً سبب امتناع اوسيتشيا سانتاندير التبليغ عن السرقة، أو عدم محاولتها الاتصال بتجار المسروقات، وعدم سماحها بالعودة للحديث عن نكبتها.

تابع فلوريتينو اريثا زيارتها في البيت المنهوب، الذي اقتصر اثاثه على ثلاث كراس جلدية بلا مسند نسيها اللصوص في المطبخ، وحجرة النوم حيث كانا. لكن زيارته أصبحت أقل من السابق، ليس بسبب كآبة البيت، كما ظنت هي وقالت له ذلك، وإنما بسبب حافلة البغال الجديدة التي انشئت في مطلع القرن الجديد، وكانت بالنسبة له عشا مفعماً وأصيلاً للعصفورات الطليقات. كان يركب الحافلة أربع مرات في اليوم، مرتين للذهاب الى المكتب ومرتين للعودة الى البيت. وفيما هو يقرأ حقاً في بعض الاحيان، اويتظاها بالقراءة في معظم الاحيان، يتمكن من اقامة أول الاتصالات من أجل موعد لاحق. وحين وضع العمليون الثاني عشر تحت تصرفه فيما بعد، عربة تجرها بغلتان بنيتان، ذهبتا السروج، كبغلي الرئيس رافائيل نونيث، أصبح يحن الى ايام الحافلة، كأكثر الايام ازدهاراً في سيرته كصقر متصيد.

ولقد كان محقا : فليس من عدو للمغراميات السرية أسوأ من عربية خاصة تنتظر أمام الباب .
لدرجة انه كان يترك العربية مخبأة في بيته ويمضي مشيا على الاقدام في جولاته المتغطسة ،
حتى لا يترك ولو مجرد اثار العجلات على التراب . ولهذا ، كثيرا ما كان يذكر بحنين الحافلة
القديمة ذات البغال الضامرة ، المتوفة الوبر ، حيث كان يكفيه القاء نظرة سريعة بداخلها
ليعرف أين هو الحب . ومع ذلك ، فانه لم يستطع ، وسط كل هذه الذكريات المثيرة ، ان
ينسى ذكرى عصفورة مهجورة لم يعرف اسمها ، ولم يكذب يمضي معها سوى نصف ليلة
مجنونة ، كانت كافية لتملأ فوضى الكرنفال البريئة بالمرارة فيما تبقى من حياته .

كانت قد لفتت انتباهه في الحافلة لمضيها وسط صخب الاحتفال العام بلامبالاة . لا بد
انها كانت دون العشرين من العمر ، ولم يكن يبدو عليها الحماس للكرنفال ، اللهم الا اذا
كانت متنكرة بهيئة اللامبالاة : كان شعرها فاتحا ، طويلا وناعما ، مفلتا على سجيته فوق
كتفيها ، وكانت تلبس عباءة من قماش عادي بلا أية زينة . ولم تكن تعباً أبداً بصخب الموسيقى
في الشوارع ، ولا بحفلات الرز ، ولا بوابل عطر انيلين الذي يرشونه على الركاب لدى مرور
الحافلة ، التي كانت بغالها بيضاء مطلية بالنشاء وعلى رؤوسها قبعات من الزهور هي زينتها
خلال ايام الجنون الثلاثة تلك . انتهز فلوريتينواريثا حالة الفوضى السائدة ودعاها لتناول
البوظة ، لانه لم يكن يعتقد بانها ستتجيب لشيء آخر . فنظرت اليه دون ان تباغت وقالت :
«أوافق بكل سرور ، لكنني أحذرك من انني مجنونة» . ضحك لهذا الخاطر ، ورافقها لمشاهدة
استعراض العربات المزينة من شرفة محل البوظة . بعد ذلك وضع طرطوراً مستأجرا ، واندسا
معا وسط حلقة الرقص في ساحة الجمارك ، واستمتعا معا وكأنهما عروسين ولدا لتوهما ، اذ ان
لامبالاتها وصلت الى اقصاها النقيض مع صخب الليل . كانت ترقص كمحترفة ، وكانت
واسعة المخيلة وجريئة للاحتفال ، وذات سحر ماحق . وكانت تضحك ضحكة مجلجلة في
حمى الكرنفال وتقول له :

.. انت لا تعرف الورطة التي اوقعت بها نفسك معي . أنا مجنونة من مشفى المجاذيب .

لقد كانت تلك الليلة بالنسبة لفلوريتينواريثا بمثابة عودة الى مبالغات المراهقة
الساذجة ، حين لم يكن قد ابتلى بالحب بعد . لكنه كان يدرك بحسه المعذب ، اكثر من ادراكه
بفعل التجربة ، ان سعادة بهذه السهولة لا يمكن لها ان تدوم طويلا . وهكذا فانه اقترح على
الصبيبة ، كما هي العادة دائما بعد توزيع الجوائز على أفضل المتنكرين ، ان يذهبا لمشاهدة
الفجر من الفنار . وافقت شاكرة ، على ان يكون ذلك بعد الانتهاء من توزيع الجوائز .

لقد بقي لفلوريتينواريثا الايمان بان ذلك التأخير قد انقذ حياته . وفعلا ، كانت الفتاة قد
اشارت عليه بان ينطلقا الى الفنار ، حين هجم حارسان وممرضة من مشفى الراعية الالهية

للامراض العقلية وألقوا بأنفسهم عليها . كانوا يبحثون عنها منذ هروبها ، في الثالثة بعد الظهر ، ليس هم وحدهم ، وانما القوة العامة بأسرها . كانت قد قطعت رأس أحد الحراس وجرحت اثنين آخرين بجراح بليغة بمنجل انتزعته من الجناثي ، لانها أرادت الخروج للرقص في الكرنفال . ولكن لم يخطر ببال أحد انها ترقص في الشارع ، وانما ظنوا بانها مختبئة في أحد البيوت الكثيرة التي فتشوا كل شيء فيها بما في ذلك الصهاريج .

لم يكن من السهل حملها . فقد دافعت عن نفسها بمقصد كانت تحبته في صدريتها ، وقد احتاجوا لستة رجال لالباستها قميص الثييت ، فيما الحشد المجتمع في ساحة الجمارك يصفق ويصفربمرح ، معتقدا ان عملية الاعتقال الدامية هي واحدة من مشاهد الكرنفال التهريجية الكثيرة . تأثر فلوريتينو اريثا جداً ، وأخذ يتردد منذ أربعاء الرماد على شارع الراعية الالهية حاملاً لها علبة شوكولاته انكليزية . وكان يراقب السجينات اللواتي يطلقن عليه جميع انواع الشتائم والمغازلات من خلال النوافذ ، فيثيرهن بعلبة الشوكولاته ، عل الحظ يحالفه وتصل هي أيضا من بين القضبان المعدنية . لكنه لم يرها أبدا . وبعد عدة شهور ، وفيما هو ينزل من حافلة البغال ، طلبت طفلة كانت تسير مع ابيها قطعة شوكولاته من العلبة التي يحملها بيده . أنبها ابوها وطلب منها ان تعتذر لفلوريتينو اريثا . لكن هذا أهدي العلبة كلها للطفلة مفكراً بان تلك اللفتة قد تنجيه من المارة ، وهذا من روع الأب بان ريت على كتفه قائلاً :
- كنت قد احضرتها لحب ذهب مع الشيطان .

وكتعويض من القدر ، تعرف فلوريتينو اريثا في حافلة البغال أيضا على ليونا كاسياني ، التي كانت امرأة حياته الحقيقية ، رغم انها ، هو وهي ، لم يعلما ذلك أبدا ، ولم يمارسا الحب مطلقاً . كان قد أحس بها قبل ان يراها اثناء عودته الى البيت في حافلة الساعة الخامسة : كانت نظرة مادية قد لامسته وكأنها أصبع . رفع بصره ورآها في الطرف المقابل ، محددة تماماً بين الركاب الآخرين . ولم ترفع نظرها عنه . بل على العكس : بقيت تنظر اليه بوقاحة لم تمكنه من الظن بشيء آخر سوى ما ظنه : زنجية ، شابة جميلة ، لكنها عاهرة دون شك . أزاحها من حياته ، لأنه ما كان يتصور شيئاً أبشع من دفع ثمن الحب : وهذا ما لم يفعله أبداً .

نزل فلوريتينو اريثا في ساحة العربات ، وهي المحطة الاخيرة للحافلة ، وانسل بأقصى سرعة عبر متاهة المتاجر لان أمه تنتظره في الساعة السادسة ، وعندما خرج من الجانب الاخر للحشد سمع وقع كعب نسائي مرح على بلاط الرصيف ، فعاد ينظر ليتأكد مما كان يعرفه : انها هي . كانت ترتدي ملابس كملايس العبيد التي في الصور ، مع تنورة ذات كشاكش واسعة ترفعها بخركة راقصة لتعرف فوق برك الماء المتجمعة في الشوارع ، وفتحة عنق تكشف عن كتفيها ، وعقد ملون يلتف حول عنقها عدة لفات وعمامة بيضاء . انه يعرف هذا النوع من

النساء في فندق العابرين . وكثيراً ما يحدث لاحداهن ان تبقى بلا فطور حتى السادسة مساءً ، ولا يجدن حينئذ من وسيلة للحصول على الطعام الا باستخدام الجنس كخنجر قاطع الطريق ، فيضعنه على عنق أول من يلتقيه في الشارع : عضوك أو حياتك . وبحثا عن دليل نهائي ، بدل فلورينتينو اريثا اتجاهه ، ودخل في زقاق الكانديليخو المقفر ، فلحقت به مقربة منه اكثر فأكثر . عندئذ توقف ، والتفت اليها ، وسد عليها الطريق فوق الرصيف مستندا على المظلة بيديه الاثنتين . ووقفت هي مقابلة .
قال لها :

- انك مخطئة يا جميلتي . فانا لست كذلك .

- بل أنت كذلك . وهوباد في وجهك .

وتذكر فلورينتينو اريثا عبارة كان قد سمعها وهو طفل صغير من طبيب العائلة ، عرابه ، معلقا على امساكه المزمن : «العالم مقسوم الى من يتغوطون جيدا ومن يتغوطون بشكل سيء» . وعلى هذا المبدأ أقام الطبيب نظرية متكاملة حول الخصائص الانسانية التي يعتبرها اكثر دقة من التنجيم . ومع تجارب السنين ، طرح فلورينتينو اريثا النظرية بطريقة اخرى : «العالم مقسوم بين الذين يشدون والذين لا يشدون» . وكان يرتاب بهؤلاء الاخيرين ، لانهم يعتبرون خروجهم عن السكة أمرا خارقا ، فيتبجحون بالحب وكأنهم هم الذين اخترعوه لتوهم . أما الذين يمارسونه بكثرة ، فانهم يعيشون له فقط . ويشعرون بانهم على أحسن حال ، حتى انهم يبدون كأحداث مغلقة ، فهم يعلمون ان حياتهم تعتمد على التكتم . لا يتكلمون أبدا عن مآثرهم ، ولا يثقون بأحد ، ويتظاهرون بالسهو حتى يوصمون بالعجز وبالضعف الجنسي ، ويانهم مخثثون رعاديدي ، كما هو حال فلورينتينو اريثا . لكنهم يساهمون في تعميم هذا الخطأ ، لانه يؤمن لهم الحماية . انهم محفل مغلق ، يتعارف اعضاؤه على بعضهم في العالم بأسره ، دون الحاجة الى لغة مشتركة . ومن هنا لم يفاجيء رد الفتاة فلورينتينو اريثا : انها واحدة من جماعته ، وبالتالي فهي تعرف بانه يعرف انها تعرف .

كان هذا هو خطأ حياته الذي سيتذكره بوعيه كل ساعة في كل يوم ، وحتى آخر يوم . ما كانت تريد طلبه منه ليس الحب ، وليس الحب المدفوع الاجر كذلك بالطبع ، وانما كانت تريد عملا ، أي عمل كان ، وكيفما كان وبأي اجر كان ، في شركة الكازيني للملاحة النهرية . أحس فلورينتينو اريثا بخجل عارم لتصرفه معها دفعه لمرافقتها الى مدير التوظيف الذي منحها عملا من الدرجة الدنيا في القسم العام ، تولته بكل جدية وتواضع وانكباب خلال ثلاث سنوات .

كانت مكاتب ش . ك . م . ن . تقوم منذ تأسيسها مقابل الميناء النهرى الذي لا يشبه

بشيء ميناء عابرات المحيطات في الجانب الآخر من الخليج ، ولا مرسى السوق عند شاطئ لاس اينساس . وكانت تلك المكاتب عبارة عن مبنى خشبي سقفه من التوتياء المضلع ، وله شرفة طويلة متصلة تستند على دعائم خشبية من الجهة الامامية ، وعدة نوافذ ذات شباك معدنية من الجهات الاربع ، تبدو منها السفن في الميناء وكأنها لوحات معلقة على الجدار . عندما بناه الألمان الأوائل ، ظلوا توتياء السقف باللون الأحمر والجدران الخشبية باللون الأبيض البراق ، بحيث كان في المبنى ذاته شيء من السفن النهرية . ثم دهنوه بكامله فيما بعد باللون الأزرق ، وفي الزمن الذي دخل فيه فلورينتينوارثا للعمل في الشركة كان المبنى قرميديا معفرا بلالون محدد ، وعلى السقف الصديء كانت توجد رقع من صفائح توتياء جديدة فوق الصفائح الأصلية . ووراء المبنى ، في فناء مرصوف ببلاط متآكل ومسيج بشبكة أسلاك كشباك اقنان الدجاج ، كانت توجد حائتان كبيرتان حديثتا البناء ، وفي نهاية الفناء ثمة انبوب تصريف مغلق ، قذرومتن ، حيث تتعفن فضلات نصف قرن من الملاحة النهرية : حطام سفن تاريخية ، بدءا من السفن البدائية ذات المدخنة الوحيدة ، التي دشنها سيمون بوليفار ، وحتى بعض السفن الحديثة المزودة بمراوح كهربائية في القمرات . وكان معظم تلك السفن مفككا لاستخدام اجزاء منها في سفن اخرى ، ولكن عددا لا بأس به منها كانت في حالة تبدو معها انها لا تحتاج الا لطلائها بوجه من الدهان واطلاقها للبحار ، دون إخافة العظائيات او تقطيع الاياك ذات الازهار الكبيرة الصفراء التي تجعلها اكثر تشويقا .

في الطابق الأعلى من البناء كان يقوم القسم الاداري ، وذلك في مكاتب صغيرة لكنها مريحة وحسنة التجهيز ، كقمرات السفن ، اذ انها لم تصمم على يد مهندسين مدنيين وانما مهندسين بحريين . وفي نهاية الممر ، كان العمليون الثاني عشر ، كأي موظف آخر ، يصرف الاعمال في مكتب كالمكاتب الاخرى كلها ، مع فارق وحيد هو انه كان يجده فوق منصده صباح كل يوم مزهرية زجاجية فيها أي نوع من الزهور ذات الرائحة الذكية . وفي الطابق السفلي كانت شعبة المسافرين ، مع صالة انتظار ذات مقاعد خشنة وطاولة لإصدار بطاقات السفر وتسيير الامتعة . واخيرا كان هناك القسم العام ، وبمجرد تسميته توحى بغموض اختصاصه ، حيث تنتهي المشاكل التي تبقى دون حل في بقية أقسام الشركة ، لتموت فيه أسوأ ميتة . هناك كانت ليونا كاسياني ، منسية وراء طاولة مدرسية صغيرة بين رزم من الاوراق التي لا حل لها ، يوم ذهب العمليون الثاني عشر بنفسه ليرى أية شياطين ستخطر له ليجعل القسم العام نافعا في شيء . وبعد ثلاث ساعات من الاسئلة ، والاقتراحات النظرية والاستقصاءات المحددة مع جميع الموظفين في اجتماع موسع ، رجع الى مكتبه معذبا ليس بيقين انه لم يجد أي حل لكل هذه المشاكل ، بل على العكس تماما : ثمة مشاكل جديدة

ومتنوعة لا حل لها .

وفي اليوم التالي ، حين دخل فلوريتينو اريثا الى مكتبه ، وجد مذكرة من ليونا كاسياني ، مع رجاء بان يدرس المذكرة وان يعرضها على عمه فيما بعد ، إن بدت له مناسبة . كانت الوحيدة التي لم تنطق كلمة واحدة خلال جلسة التفتيش في مساء اليوم السابق . فقد حافظت بوعي على مكانتها كموظفة بالشفقة ، وذكرت في المذكرة بانها لم تفعل ذلك تهاونا واهمالا وانما احتراما لمسؤولي القسم . وكان حلها على جانب مثير من البساطة . كان العم ليون الثاني عشر قد اقترح اعادة تنظيم جذرية ، لكن ليونا كاسياني كانت تفكر في اتجاه معاكس ، انطلاقا من البديهية البسيطة بان القسم العام لا وجود له عمليا : انه مزيلة المشاكل المعلقة وعديمة الجدوي التي ترفعها الاقسام الاخرى عن كواهلها . وبالتالي فان الحل في الغاء القسم العام ، واعادة المشاكل ليتم حلها في اقسامها الاصلية .

لم تكن لدى العم ليون الثاني عشر ادنى فكرة عن هي ليونا كاسياني ، ولم يذكر انه رأى أحداً يمكن ان يكونها في اجتماع مساء اليوم السابق ، لكنه عندما قرأ المذكرة استدعاها الى مكتبه وتحادث معها على انفراد لمدة ساعتين . تحدثا قليلا في كل موضوع ، انسجاما مع منهجه في التعرف على الناس . كانت المذكرة بسيطة وعادية ، وقد اعطى الحل النتائج المرجوة فعلا . لكن العم ليون الثاني عشر لم يهتم بهذا : كان مهتما بها . وكان اكثر ما لفت انتباهه ان دراستها الوحيدة بعد المدرسة الابتدائية كانت في مدرسة صناعة القبعات . كما انها كانت تتعلم الانكليزية في بيتها مستخدمة لذلك منهجاً سريعاً دون معلم ، وانها تتلقى منذ حوالي ثلاثة شهور دروساً ليلية لتعلم الضرب على الآلة الكاتبة ، وهي مهنة مستجدة ذات مستقبل باهر ، كما كان يقال فيما مضى عن التلغراف ، وكما قيل من قبل عن الآلات البخارية .

ما ان خرجت من المقابلة حتى كان العم ليون الثاني عشر قد بدأ بمناذاتها كما سيناديا دائما : مثيلتي بالاسم ليونا . كان قد قرر الغاء القسم موضع الخلاف بجرة قلم وتوزيع المشاكل ليجري حلها من قبل مسيبيها انفسهم ، مثلما اقترحت ليونا كاسياني ، كما ابتدع لها منصبا بلا اسم وبلا مهمات محددة ، وهو عمليا منصب معاونته الخاصة . وفي مساء هذا اليوم ، بعد دفن القسم العام دون تكريم ، سأل العم ليون الثاني عشر فلوريتينو اريثا من أين اتى بليونا كاسياني ، فأجابه هو بالحقيقة .

فقال له العم ليون :

- عد اذن إلى الحافلة واثنى بمن هن مثلها . فبائتين أو ثلاث من هذا النوع سنقوم مركبك .

فهم فلوريتينو اريثا الأمر كمزحة تقليدية من مَزَح العم ليون الثاني عشر ، ولكنه وجد

نفسه في اليوم التالي بدون العربة التي اعطيت له قبل ستة شهور، والتي انتزعوها من الآن ليتابع البحث عن المواهب المخبأة في الحافلات. أما ليونا كاسياني فان ترددها الأولي ما لبث ان اختفى، واخرجت من اعماقها كل ما كانت تخفيه بدهاء شديد في السنوات الأولى الثلاث. وبعد ثلاث سنوات أخرى كانت قد أحاطت بكل شؤون المؤسسة، وفي السنوات الأربع التالية وصلت إلى ابواب الامانة العامة، لكنها رفضت الدخول لان درجة واحدة كانت تفصلها عن فلوريتينواريثا. لقد كانت حتى ذلك الحين تحت امرته، وكانت تريد البقاء كذلك، رغم ان الحقيقة لم تكن كذلك: ففلوريتينواريثا نفسه لم يكن واعياً إلى انه هو من كان تحت امرتها. فهو لم يفعل شيئاً سوى تنفيذ اقتراحاتها في الادارة العامة لمساعدته في الصعود أمام مكائد اعدائه الخفيين.

كانت ليونا كاسياني تتمتع بمواهب شيطانية في الوصول إلى الاسرار، فهي تعرف دوماً كيف تكون حيث يجب عليها ان تكون وفي الوقت المناسب. كانت ديناميكية، صامته، وذات عذوبة حكيمة، ولكنها عند الضرورة، وبكل آلام روحها، تفلت الاعنة لطبعها الفولاذي. رغم انها لم تكن تستخدم هذا الطبع لصالحها. اذ كان هدفها الوحيد هو كنس سلم الترقيات بأي ثمن، وبالدّم ان لم تكن ثمة وسيلة أخرى، ليصعد عليه فلوريتينواريثا ويصل إلى حيث أراد الصعود دون ان يحسب مسبقاً قواه الذاتية. كانت قادرة بكل تأكيد على عمل ذلك تلبية لميلها الجامح إلى السلطة، لكنها فعلت ذلك في الحقيقة وهي واعية ان ما تفعله ليس إلا مجرد امتنان. لقد كان قرارها حاسماً، حتى ان فلوريتينواريثا اختلطت عليه تكتيكاتها، وحاول في لحظة شؤم ان يغلق الطريق امامها معتقداً انها تحاول سد السبيل في وجهه. فوضعت ليونا كاسياني في موضعه الصحيح قائلة له:

- لا تخطيء. أنا مستعدة للتخلي عن كلي هذا عندما تشاء، ولكن فكر بالامر جيداً. وفلوريتينواريثا، الذي كان قد فكر فعلاً، أعاد التفكير حيثد على أحسن وجه استطاعه، وسلمها أسلحته. الحقيقة انه وسط تلك الحرب القذرة في مؤسسة تعاني أزمة دائمة، ووسط كوارثه كصقر صيد لا يهدأ، وحلم فيرمينا داثا الذي أصبح اكثر بعداً عن التحقيق، لم يتوصل فلوريتينواريثا العصي على التأثر الى لحظة سلام داخلي أمام مرأى تلك الزنجية الباسلة، الملوثة بالبراز والحب في حمى الصراع. حتى انه كان يتألم سراً في أحيان كثيرة لانها لم تكن في الواقع كما ظنها مساء اليوم الذي تعرف فيه عليها، لانه كان سيمسح مؤخرته بمبادئه حيثد ويمارس الحب معها حتى ولو دفع في سبيل ذلك تبر الذهب اللماع. لكن ليونا كاسياني بقيت كما كانت مساء ذلك اليوم في الحافلة، بملابسها التي كملابس عبدة مشعثة هاربة، وعيائهم المجنونة، وأقراطها واساورها العظمية، ومجموعة عقودها وخواتمها

ذات الفصوص المزيفة في كل اصبع من اصابعها: لبوة شارع . والتبدل الوحيد الذي اصفته عليها السنون كان لصالحها: كانت تبهر في نضوج رائع ، وصارت مفاتها كامرأة اكثر اثارة ، وجسدها الافريقي المتقد أخذ يصبح أشد زخماً مع نضجها . لكن فلوريتينو ارثا لم يعد ينتبه اليها مدة عشر سنوات ، دافعاً بذلك كفارة خطاه الأول ، ولقد ساعدته هي في كل شيء ، سوى هذا .

وفي احدى الليالي التي بقي يعمل فيها حتى ساعة متأخرة ، كما كان يفعل بكثرة بعد وفاة أمه ، رأى فلوريتينو ارثا وهو يخرج ان هناك نوراً مضاء في مكتب ليونا كاسيان . فتح الباب دون ان يقرعه ، ووجدها أمامه : وحيدة وراء الطاولة ، غارقة في التفكير وجدية ، بنظارة جديدة تمنحها مظهراً اكاديمياً . وانتبه فلوريتينو ارثا بلفحة سعادة إلى انها وحيدان في المبنى ، كانت ارضفة الميناء مقفرة ، والمدينة هاجعة ، والليل السرمدي فوق البحر المظلم ، والجو اراكثيب لسفينة يحتاج وصولها لاكثر من ساعة . استند فلوريتينو ارثا على مظلة بكتا يديه ، تماماً كما فعل في زقاق الكانديليخوليسد عليها الطريق ، إلا انه اليوم فعل ذلك كي لا تلاحظ ارتعاش ركبتيه ، وقال لها :

- أخبريني يا لبوة روجي : متى سنخرج من هذا ؟

رفعت نظارتها عن عينيها دون ان تفاجأ ، بسيطرة مطلقة ، وأبهرت بابتسامتها الشمسية . ولم تكن قد خاطبته برفع الكلفة أبداً من قبل ، وقالت :

- آه يا فلوريتينو ارثا ، عشر سنوات وأنا جالسة هنا أنتظر ان تسألني هذا السؤال .

لقد جاء متأخراً : كانت الفرصة معها وهي في حافلة البغال ، وكانت تجلس معها دوماً على الكرسي نفسه الذي تجلس عليه ، أما الآن فقد مضت إلى الابد . والحقيقة انها بعد كل المكائد الخفية التي قامت بها من أجله ، وبعد كل البذاعات التي احتملتها من أجله ، كانت قد سبقته في الحياة ، فصارت تبدو اكبر بكثير من السنوات العشرين التي تكبره بها . كانت تحبه كثيراً ، لذلك فضلت الاستمرار بحبه بدلاً من ان تخدعه ، حتى ولو جعلته يدرك ذلك بأسلوب قاسي .

قالت له :

- لا . سأشعر بانني أنام مع الابن الذي لم أنجبه أبداً .

بقي فلوريتينو ارثا وفي حلقه شوكة لانه لم يكن صاحب الكلمة الاخيرة . فكر بان المرأة حين تقول لا ، فانها تنتظر الاحاح قبل اتخاذ قرارها النهائي ، لكن الأمر معها كان مختلفاً : لا يستطيع ان يغامر بالخطأ ثانية . انسحب عن طيب خاطر ، بل وبيعش الرشاقة التي لم تكن سهلة عليه . ومنذ تلك الليلة ، تبددت دون مرارة أية ظلال قد تكون بينهما ، وفهم فلوريتينو

أريثا أخيراً أنه يستطيع أن يكون صديقاً لامرأة دون أن يضاجعها.

كانت ليونا كاسياني هي الكائن البشري الوحيد الذي حاول فلوريتينو أريثا أن يكشف لها سر فيرمينا داثا. فالأشخاص القلائل الذين يعرفون السر بدأوا بنسيانهم لأسباب قاهرة. فثلاثة منهم حملوه معهم إلى القبر دون شك: أمه، وكانت قد محتته من ذاكرتها قبل موتها بكثير. وغالا بلاثيديا، التي ماتت بشيخوخة متقدمة وهي في خدمة من كانت كابنة لها. وطيبة الذكر اسكولاستيكا داثا، التي حملت له في كتاب الصلوات أول رسالة حب تلقاها في حياته، والتي لا يمكن لها أن تكون على قيد الحياة بعد كل هذه السنين. ولورينثوداثا، الذي لم يكن يعرف حينئذ أن كان ميتاً أم حياً، ويمكن أن يكون قد كشف السر للاخت فرانكا دي لا لوث محاولاً الحيلولة بذلك دون طرد ابنته من المدرسة، ولكن احتمال اشاعته الأمر ضئيل جداً. يبقى هناك أحد عشر عامل تلغراف من مقاطعة هيلديبراندا سانتشيث النائية، الذين تداولوا فيما بينهم برقيات تحمل اسميهما الكاملين وعناوينهما الدقيقة، وأخيراً هيلديبراندا سانتشيث وبطانتها من بنات الخؤولة الجامحات.

ما كان يجهله فلوريتينو أريثا هو ما إذا كان عليه ضم الدكتور خوفينال أوربينو إلى القائمة. فهيلديبراندا سانتشيث كانت قد كشفت له السرائر أثناء إحدى زياراتها الكثيرة في السنوات الأولى. لكنها فعلت ذلك بشكل عرضي جداً وفي لحظة غير مناسبة، بحيث أن الخبر لم يدخل من إحدى أذني الدكتور أوربينو ليخرج من الأذن الأخرى كما ظنت هي، وإنما لم يدخل إلى أي من الأذنين أبداً. الواقعة هي أن هيلديبراندا ذكرت اسم فلوريتينو أريثا كواحد من الشعراء المغمورين المؤهلين حسب رأيها للفوز بجائزة مهرجان الزهور. وقد تذكره الدكتور أوربينو بصعوبة بالغة، وقالت له دون حاجة القول، ولكن دون أدنى نية للأساء، بأنه الشاب الوحيد الذي ارتبطت به فيرمينا داثا بعلاقة قبل زواجها. قالت ذلك وهي مقتنعة تماماً من أنه قول بريء وعابر، أكثر مما هو مؤثر. ورد عليها الدكتور أوربينو دون أن ينظر إليها: «لم أكن أعلم أن هذا الشخص شاعر». ومحا من ذاكرته في الحال، مثلما يمحو أموراً أخرى، لأن مهنته قد عودته استخداماً أخلاقياً للنسيان.

ولاحظ فلوريتينو أريثا أن جميع المطلعين على السر، باستثناء أمه، كانوا يتمنون إلى عالم فيرمينا داثا. أما من جهته فلم يكن أحد سواه، وحيداً تحت وطأة حمل كثيراً ما احتاج إلى من يقاسمه آياه، لكنه لم يجد من هو جدير بكل هذه الثقة. وكانت ليونا كاسياني هي الاحتمال الوحيد، وكان يحتاج إلى الأسلوب والمناسبة فقط. كان يفكر بالأمر في ذلك المساء الصيفي القاطظ، حين صعد الدكتور خوفينال أوربينو درج ش.ك.م.ن. المائل، باستراحة على كل

درجة لتجاوز قيظ الساعة الثالثة، وظهر لاهثاً في مكتب فلوريتينو اريثا ومبللاً بالعرق حتى بنطاله، وقال بالنفس الاخير: «أرى ان اعصاراً سيدهمنا». كان فلوريتينو اريثا قد رآه هناك عدة مرات، باحثاً عن العم ليون الثاني عشر، لكنه لم يشعر أبداً بوضوح كما شعر ذلك اليوم بان لتلك الزيارة وهذا المظهر الغريب علاقة ما بحياته.

كان ذلك في الحقبة التي تجاوز فيها الدكتور خوفينال اوريينو كذلك عشرات المهنة، وأخذ يمضي منتقلاً من باب لباب كمتسول، حاملاً قبعته بيده، لجمع التبرعات لدعم مشاريعه في تشجيع الفنون. وقد كان العم ليون الثاني عشر دوماً هو أحد متبرعيه المواظبين والاسخياء، والذي كان قد بدأ في تلك اللحظة بالذات قيلولته اليومية التي تستغرق عشر دقائق، يغفوها وهو جالس على كرسي المكتب ذي النوابض. طلب فلوريتينو اريثا من الدكتور خوفينال اوريينو التفضل بالانتظار في مكتبه، المجاور لمكتب العم ليون الثاني عشر، والذي كان يُستخدم إلى حد ما كصاله انتظار.

كانا قد التقيا في مناسبات عديدة، لكنهما لم يتقابلا وجهاً لوجه كما هما اليوم، وعانى فلوريتينو اريثا مرة اخرى من احساسه بالوضاعة. لقد كانت عشر دقائق ابدية، نهض خلالها ثلاث مرات آملاً أن يكون العم قد استيقظ قبل مواعده. وتناول ترمساً كاملاً من القهوة المرة، لم يقبل الدكتور اوريينو فنجاناً واحداً منه. اذ قال: «القهوة سم». وتابع وصل موضوع بآخر دون ان يهتم ان كان يستمع اليه. لم يكن فلوريتينو اريثا قادراً على احتمال وجاهته الطبيعية، وانسياب كلماته ودقتها، ورائحة نفسه العميق المشبع بالكافور، وسحره الشخصي، واسلوبه البسيط والمرتب الذي يجعل أتفه العبارات تبدو جوهريه لمجرد انه هو من ينطق بها، وفجأة، غير الطبيب موضوع الحديث على نحو مباغت.

- أتحب الموسيقى ؟

أخذه على حين غرة. فالحقيقة ان فلوريتينو اريثا يذهب لحضور كل كونسيرت أو عرض او برا يقام في المدينة، لكنه لم يكن يشعر بانه قادر على ادارة حوار نقدي ومطلع. كان ميالاً إلى الموسيقى الدارجة، وخصوصاً الفالسات العاطفية، التي لا يمكن تجاهل شبهها بالموسيقى التي كان يعزفها في مراهقته، أو بأشعاره السرية. وكان يكفيه سماعها مرة واحدة بشكل عابر، حتى يعجز الرب نفسه عن انتزاع خيط اللحن من رأسه لعدة ليال. ولكن هذا كله لا يشكل رداً جدياً على سؤال بهذه الجدية يطرحه متخصص.

قال:

- يعجبني غارديل.

تفهم الدكتور اوريينو الأمر بقوله: «أرى ذلك. انه منتشر كموضة.» وانطلق يعدد مشروعاته

الجديدة والمتنوعة، والتي عليه تحقيقها كالعادة بلا اعانة رسمية. ولفت نظره إلى مستوى الاستعراضات الهابط المثبط للعزيمة، التي يجري احضارها الآن، وروعة استعراضات القرن الماضي. وهكذا كان: فمئذ سنة وهو يبيع سندات من اجل دعوة ثلاثي كورتوت-كاسالس- ثيباور إلى مسرح الكوميدي، وليس هناك في الحكومة من يعرف من هم هؤلاء، بينما نفذت في ذلك الشهر بالذات بطاقات فرقة المآسي البوليسية رامون كارلت، وفرقة دون مانوللودي لابريرا للأوبريت الشعبي، وفرقة لوس سانتانيلاس الايمائية- الخيالية التي تحوّر النصوص بشكل غريب، والتي يبدل أعضاؤها ملابسهم على المنصة في لحظة خاطفة، وفرقة دانس دي التاين، التي يُعلن عنها بانها جماعة الرقص السابقة في فرقة فوليس بيرغر، بل وتنفذ كذلك بطاقات استعراضات اورسوس الفظيعة، هذا الباسكي المعتوه الذي يصارع الثيران بجسده. ومع ذلك، فلا مجال للشكوى، لأن الاوربيين انفسهم يقدمون من جديد أسوأ مثل باشعالم نارحرب همجية، بينما بدأنا نحن نعيش بسلام بعد تسعة حروب اهلية خلال نصف قرن، بالامكان، بعد حسابات جيدة: اعتبارها حرباً واحدة: الحرب ذاتها دائماً. واكثر ما لفت انتباه فلورينتينواريثا في تلك الخطبة الساحرة، هو امكانية بعث مهرجان الزهور من جديد، والذي كان اكثر مبادرات الدكتور خوفينال اوربينوشهرة وديمومة. وكان عليه ان يعرض لسانه كي لا يقول له بانه كان مشاركاً مثابراً في تلك المسابقة السنوية التي أصبحت تثير اهتمام شعراء بارزين، ليس في بقية انحاء البلاد وحسب، وانما كذلك في بلدان الكاريبي الاخرى.

ما كادت المحادثة تبدأ، حتى برد بخار الهواء الساخن فجأة، وصفقت عاصفة رياح متقاطعة الابواب والنوافذ، بقوة، واهتزت المبنى وأنت ركائه وكأنه زورق في مهب الريح. لم يبد على الدكتور خوفينال اوربينو أنه أحس بما يجري. اذ اشار بشكل عرضي إلى أعاصير حزينان المجنونة، ثم انتقل فجأة، وبلا مناسبة، للحديث عن زوجته. لم يكن يعتبرها مساعدة نشيطة في مبادراته فقط، بل وروح تلك المبادرات ذاتها. قال: «لست شيئاً يذكر دونها». استمع اليه فلورينتينواريثا بلا تأثر، موافقاً على كل ما يقوله بحركة خفيفة من رأسه، دون ان يتجرأ على قول اي شيء خوفاً من ان يخونه الصوت. ومع ذلك، فان عبارتين او ثلاث عبارات اخرى كانت كافية لجعله يدرك ان الدكتور خوفينال اوربينو، وسط كل هذه الالتزامات المرهقة، كان يجد فائضاً من الوقت لعبادة زوجته كما يعبدها هو، وقد اذهلته هذه الحقيقة. لكنه لم يستطع اتيان رد الفعل الذي شاءه، لان قلبه عاجله حينئذ بخاطر عاهر من تلك الخواطر التي تراود القلوب فقط: كشف له انه وذلك الرجل الذي اعتبره دوماً عدوه الشخصي، ضحيتا المصير نفسه، وانها يتقاسمان محنة عاطفة مشتركة. بهيمتان مربوطتان

معاً إلى النير نفسه . وللمرة الأولى خلال السنوات السبع والعشرين اللانهائية التي امضاها منتظراً ، لم يستطع فلوريتينو اريثا مقاومة وخز الألم لاحساسه بانه لا بد من موت ذلك الرجل الموقر لينعم هو بالسعادة .

مر الاغصار سريعاً ، لكن عواصفه خربت خلال خمس عشر دقيقة أحياء المستنقعات ، وسببت دماراً في نصف احياء المدينة . ولم ينتظر الدكتور خوفينال اوربينو ، السعيد ثانية بكرم العم ليون الثاني عشر ، إلى ان يتوقف المطر نهائياً ، وحمل معه سهلاً مظلة فلوريتينو اريثا الخاصة التي اعاره اياها للوصول إلى العربة . لكن هذا الاخير لم يهتم . بل على العكس : أحس بالسعادة وهو يفكر بما ستفكر فيه فيرمينا داثا عندما تعرف من هو صاحب المظلة . كان ما يزال مضطرباً بانفعالات المقابلة حين مرت ليونا كاسياني من مكتبه ، فرأى انها الفرصة الوحيدة المناسبة لكشف السر لها دون مزيد من المواربة ، والافضاء به كما يشق دماً ينغص عليه حياته : الآن أو أبداً . بدأ بسؤالها عن رأيها بالدكتور خوفينال اوربينو . فاجابته دون ان تفكر بالامر تقريباً : « انه رجل يساهم بأعمال كثيرة ، وربما هي كثيرة جداً ، لكنني أظن أن أحداً لا يعرف ما الذي يفكر به » . ثم تروت قليلاً ، وهي تقضم ممحاة قلم الرصاص بأسنانها الحادة والكبيرة ، أسنان زنجية كبيرة ، ثم هزت كتفيها لتصفى مسألة لا تهمها بشيء ، وقالت : - ربما هذا هو سبب قيامه بكل تلك الاعمال : حتى لا يضطر للتفكير .

فقال :

- ما يؤلمني هو أنه يجب أن يموت .

قالت :

- جميع الناس سيموتون .

قال :

- أجل ، انها هذا أكثر من جميع الناس .

لم تفهم شيئاً . وعادت تهز كتفيها دون ان تتكلم ، وانصرفت . حيثئذ عرف فلوريتينو اريثا انه في ليلة مستقبلية غير محددة ، وفي سرير سعيد مع فيرمينا داثا ، سيروي لها انه لم يكشف سر حبها حتى للاتسانة التي اكتسبت حق الاطلاع عليه ، لا . . . لن يكشفه أبداً ، حتى ولا لليونا كاسياني . ليس لانه لا يريد فتح الصندوق الذي خبأ فيه سره بحرص خلال نصف حياة ، وانما لانه ادرك حيثئذ فقط بانه قد أضاع المفتاح .

لم يكن هذا مع ذلك ، هو أكثر ما أثير فيه يومذاك . لقد أعاد له اللقاء حنين أيام شبابه ، وذكرى حية من مهرجان الزهور ، الذي كانت اصداؤه تدوي في كل خامس عشر من نيسان مائة أجواء الانيل . ولقد كان دائماً واحداً من أبطال المهرجان ، انها كعادته في كل شيء

دوماً، كان بطلاً سريعاً. شارك مرات عديدة منذ مسابقة الافتتاح الأولى، قبل اربع وعشرين سنة خلت، ولم ينل أبداً اية جائزة، بل ولا التنويه الاخير. لكنه لم يكن يبالي، لانه لا يشارك طمعاً بالجائزة، وانما لانه يجد في المسابقة جاذبية خاصة: ففيرمينا دائماً تولت مسؤولية فتح المغلفات المختومة بالشمع وعلان النتائج في الدورة الأولى، وأقر منذ ذلك الحين ان تتولى القيام بهذا الدور في السنوات التالية.

وفىما هو مختبئ في عتمة المقاعد في الصالة، وفي عروة سترته زهرة كاميليا ندية تنبض بقوة الشوق، رأى فلورينتينو اريثا فيرمينا دائماً وهي تفتح المغلفات الثلاثة المختومة بالشمع الاحمر من فوق منصة المسرح لوطني القديم، ليلة المسابقة الأولى. تساءل ما الذي سيصيب قلبها حين تكتشف انه هو الفائز بالسحلبة^(١) الذهبية. كان متأكداً انها ستعرف على خطه، وانه ستداعى إلى مخيلتها في تلك اللحظة امسيات التطريز تحت اشجار اللوز في الحديقة الصغيرة. ورائحة الياسمين الذابل في الرسائل، وفالس الربة المتوجة، الذي يعرفه كلاهما، في الصباحات ذات الرياح. لكن ذلك لم يحدث. بل ان ما حدث كان أسوأ من اي تصور: فالسحلبة الذهبية، جائزة الشعر الوطنية المنشودة، خصصت لمهاجر صيني. والفضيحة العامة التي اثارها ذلك القرار العجيب وضع جدية المسابقة موضع الشك. لكن الخطيئة كانت عادلة، وكان لاجماع لجنة التحكيم ما يبرره في جودة القصيدة وتفوقها.

لم يصدق أحد ان يكون ناظمها هو الصيني الفائز. كان قد وصل إلى المدينة في اواخر القرن الماضي هرباً من آفة الحمى الصفراء التي عاثت خراباً بينا اثناء مد السكة الحديد ما بين المحيطين، إلى جانب صينيين آخرين استقبروا هنا حتى موتهم، وكانوا يعيشون بالصينية، ويتناسلون بالصينية، ويشبهون بعضهم بعضاً حتى لم يكن هناك من هو قادر على تمييزهم. لم يتجاوزوا أول الأمر العشرة أشخاص، وكان برفقة بعضهم زوجاتهم وأولادهم وكلابهم التي يأكلونها، ولكن ما ان انقضت عدة سنوات حتى فاضت أربعة أزقة في أحياء الميناء بصينيين جدد كانوا يدخلون البلاد دون ان يتركوا أثراً في سجلات الجمارك. وقد تحول بعض الشباب منهم إلى شيوخ موقرين بسرعة كبيرة جداً لم يدرك أحد معها كيف اتيج لهم الوقت ليشيخوا. وقد قسمتهم البديهة الشعبية إلى صنفين: الصينيون الاشرار والصينيون الاخيار. الاشرار هم أصحاب حانات الميناء الصغيرة الكثيرة. حيث يسكن للمرء أن يأكل كملك أو أن يموت فجأة على الطاولة أمام طبق فئران محضر مع عباد الشمس، وكانت الشكوك تحوم حول تلك الحانات بانها ليست سوى ستار يخفي وراءه تجارة رقيق ابيض.

(١) السحلبة: زهرة نبتة السحلبية. وهي نبتة برية ازهارها ذات لون ارجواني.

وغيرها. أما الصينيون الأخيار فهم صينيو محلات كي الملابس، ورثة هذا العلم المقدس، الذي يعيدون القمصان أنصع مما كانت عليه وهي جديدة، جاعلين ياقاتهما ومعاصمها تبدو وكأنها خبز قربان طازج. وكان أحد هؤلاء الصينيين الطيبين هو الذي هزم في مهرجان الزهور اثنين وسبعين منافساً معروفاً.

لم يفهم أحد من الحضور الاسم حين قرأته فيرمينا داثا مبهورة ليس لانه كان اسماً غريباً وحسب، بل لأن أحداً ما كان يعلم علم اليقين كيف هي أسماء الصينيين أيضاً. لكنهم لم يفكروا بالأمراً طويلاً، اذ برز الصيني الفائز من آخر الصالة بتلك الابتسامة السماوية التي يتسمها الصينيون حين يصلون إلى بيوتهم في وقت مبكر. لا بد انه جاء وهو متأكد من الفوز، فارتدى لاستلام الجائزة قميص الحرير الاصفر الذي يلبسونه في طقوس الربيع. تلقى السحلبة الذهبية من عيار اربعة وعشرين قيراطاً، وقبلها بسعادة وسط استهزاء المستكرين الصاخب. لم يتأثر. وانتظر في منتصف المنصة. ثابت الجنان كرسول عناية الهية أقل دراماتيكية من التي نؤمن بها، وانتهاز أول لحظة صمت ليقرأ القصيدة. فلم يفهمها أحد. ولكن حين توقف تيار السخرية الجديد، أعادت فيرمينا داثا قراءتها دون تأثر، بصوتها الأبح اللهاج، فسيطر الذهول على الجميع منذ البيت الأول. لقد كانت سوناتة من أنقى سلالات السوناتات البرناسية، متقنة، ومخرقة بنفحة الهام تشي بمشاركة يد بارعة في نظمها. التفسير الوحيد المقبول هو ان أحد الشعراء الكبار قد خطط لتلك المزحة ليسخر من مهرجان الزهور، وان الصيني قد شارك فيها مقررأ كتمان السر حتى الموت. صحيفة ديار يوديل كوميرثيو، جريدتنا العريقة، حاولت ترقيع شرفنا الحضاري بمقال ضليع وأقرب إلى عسر الهضم حول عراقية تأثير الصينيين بمنطقة الكاريبي، وحقهم بالاشتراك عن جدارة في مهرجان الزهور. ولم يشك كاتب المقال في ان واضع السوناتة هو من يدعي ذلك فعلاً، وبرر الأمر دون لف ولا دوران بدءاً من العنوان: الصينيون كلهم شعراء. مدبرو المؤامرة، ان كان لها من مدبرين، تعفنوا في قبورهم مع السر. وكذلك مات الصيني الفائز بعد عمر شرقي دون ان يعترف، وقد دُفن مع السحلبة الذهبية في التابوت، وكذلك مع غصّة انه لم يستطع ان يحقق في حياته الشيء الوحيد الذي كان يتوق اليه، ألا وهو اعتماده كشاعر. وبمناسبة موته ذكرت الصحافة حادث مهرجان الربيع المنسي، وأعيد توزيع السوناتة على ألحان كمان محدثة وبغناء فتيات متفخات بنبات قرن الرخاء الذهبي، وانتهاز الأرياب القيمون على الشعر المناسبة ليضعوا الامور في نصابها: كانت السوناتة تبدو للجيل الجديد على درجة من السوء بحيث لم يعد أحد يشك في ان كاتبها هو الصيني الميت فعلاً.

لقد ارتبطت تلك الفضيحة في ذاكرة فلوريتينواريثا بذكرى متأنقة مجهولة كانت تجلس إلى جانبه : كان قد تأملها عند بدء الاحتفال . لكنه ما لبث ان نسيها في رعب الانتظار . لقد لفتت انتباهه لبياضها اللؤلؤي ، وشذى البدينة السعيدة الذي يفوح منها ، ولصدرها الضخم الندي المتوج بزهرة مانوليا اصطناعية . كانت ترتدي فستاناً مكسراً من المخمل الاسود ، شديد السواد كعينيهما الدسمتين ، وكان شعرها أشد اسوداداً ، تثبته على العنق بمشط زينة كالذي تستخدمه الغجريات . كانت تضع اقراطاً متدلية ، وعقدأ من النوع ذاته وخواتم مشابهة في عدة أصابع ، جميعها ذات طبعة براقية ، وخالاً مرسوماً بالقلم على وجنتها اليمنى . وفي ضجة التصفيق النهائي ، نظرت إلى فلوريتينواريثا بكآبة صريحة وقالت له :
- صدقني انني آسفة من أعماق روحي .

ذهل فلوريتينواريثا ، ليس للتعزية التي كان يستحقها فعلاً ، وانما لاندهاشه بان هناك من يعرف سره . وأوضحته له : « ادركت ذلك للطريقة التي كانت تنبض بها الزهرة فوق صدرك اثناء فتح المغلفات » . أرتته زهرة المانوليا الاصطناعية التي كانت تحملها بيدها ، وفتحت له قلبها قائلة :

- لهذا السبب نزعت زهرتي .

كانت على وشك البكاء للهزيمة ، لكن فلوريتينواريثا أبدل مزاجها بغريزته كصياد ليلي حين قال لها :

- هلمي بنا إلى مكان نبكي فيه معاً .

أصطحبها إلى بيتها . وفيما هما أمام الباب ، ونظراً لأن الوقت كان منتصف الليل تقريباً ولا وجود لأحد في الشارع ، فقد أقنعها بان تدعوه لتناول كأس من البراندي ورؤية ألبومات قصاصات وصور أحداث اكثر من عشرة أعوام من الحياة العامة ، أخبرته انها تملكها . انها خدعة قديمة جداً ، ولكنها كانت لا ارادية هذه المرة لانها هي التي تحدثت عن البوماتها فيما هما قادمان من المسرح الوطني . دخلا . وأول ما لاحظته فلوريتينواريثا هو ان باب غرفة النوم الوحيدة كان مفتوحاً ، وان سريرها كان فسيحاً وفخماً ، عليه غطاء من البروكار وله مسند علوي من البرونز المزخرف . لقد بلبله هذا المشهد . ولا بد انها انتبهت لذلك ، اذ تقدمت عبر الصالة وأغلقت باب حجرة النوم . ثم دعتة للجلوس على متكأ من اكريتون المزين برسوم أزهار حيث كان ينام هر ، ووضعت على طاولة صغيرة أمامه مجموعة ألبوماتها . بدأ فلوريتينواريثا بتصفحها دون اسراع ، مفكراً بخطواته التالية اكثر من تفكيره بما يراه ، وفجأة رفع بصره فرأى عينيها ممتلئتين بالدموع . فنصحها بان تبكي متى شاءت ، دون خجل ، ، فلا شيء يخفف الآلام كالبكاء ، لكنه اشار عليها بان تحل الصديري لتبكي براحة . وسارع

لمساعدتها، لأن الصديري كان مثبتاً بقوة على الظهر بواسطة رباط متقاطع . ولكنه قبل ان ينتهي من حلّ الرباط، اذا بالصديري يفلت وحده بالضغط الداخلي، وتنفست الاثداء الفلكية براحتها.

فلوريتينو اريثا الذي لم يفقد أبداً رهبة المرة الأولى، حتى في المناسبات الأكثر سهولة، غامر بمداعبة سطحية على العنق برؤوس أصابعه، فتلوت بأهة طفلة مدللة دون ان تتوقف عن البكاء. عندئذ قبلها في الموقع ذاته، بنعومة، وكأنه يقبلها بأصابعه، ولم يستطع عمل ذلك ثانية لأنها التفتت اليه بكامل جسدها العظيم، الشره والدافئ، وتدحرجا معاً على الأرض. استيقظ القط النائم على المتكأ مطلقاً مواء حاداً، وقفز فوقهما. بحثا عن بعضهما باللمس كمبتدئين متهورين ووجدنا نفسيهما كيفما اتفق، منقلين فوق الألبومات المتزعة اغلفتها، بملايسهما، غارقين في العرق، واكثر انشغالا بتفادي خرمشات القط الغاضبة من اهتمامهما بكارثة الحب التي يقترفانها. ولكنها منذ تلك الليلة، بجراحهما التي ما زالت تنزف، تابعا ممارسة الحب لعدة سنوات.

عندما انتبه إلى انه بدأ يحبها، كانت قد أصبحت في أوج الأربعينات، وكان يكاد ان يكمل الثلاثين. اسمها سارا نوريغا، وقد نعمت بربع ساعة من الشهرة في شبابه، حين فازت في مسابقة بديوان شعر عن حب الفقراء، لم يجد طريقه إلى النشر أبداً. كانت معلمة لمادة التمدن والتربية المدنية في المدارس الرسمية، وتعيش على راتبها في بيت مستأجر في زقاق لوس نوفيوس المضطرب، في حي خيتشيانى القديم. لقد عرفت عدداً من العشاق الطارئين، دون ان تراود أيأ منهم آمال الزواج منها، لانه كان يصعب على رجل من وسطها وفي زمنها الاقتران بامرأة ضابحةها. كما انها لم تعد تغذي هذا الأمل في نفسها بعد ان هجرها خطيبها الرسمي الأول، الذي أحبته بالعاطفة شبه المجنونة التي كانت قادرة عليها وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وقد هرب من التزامه قبل اسبوع من الموعد المحدد للزفاف، وتركها ضائعة كهروس مخدوعة، أو كعزباء مستعملة، كما كان يقال في ذلك الحين. ورغم قسوة تلك التجربة وسرعة انتهائها، فانها لم تسبب لها أية مرارة، بل رسخت لديها قناعة طاغية بان الحياة بالزواج اودونه، بدون رب أو قانون، لا تستحق ان تعاش ان لم تكن بوجود رجل في الفراش. واكثر ما كان يعجب فلوريتينو اريثا فيها هو انها كانت تمص مصاصة طفل رضيع وهي تمارس الحب لكي تصل إلى ذروة المجد. وقد اقتنيا مجموعة من مختلف الاحجام والاشكال والألوان التي وجداهما في السوق، وكانت سارا نوريغا تعلقها على مسند السرير لتجدها وهي مغمضة العينين في لحظات الحاجة الماسة لها.

ورغم انها كانت حرة مثله، وربما انها ما كانت لتعارض كشف علاقتها للملأ، إلا ان فلوريتينو اريثا طرح العلاقة كمغامرة سرية. كان ينسل من باب الخدمة، في وقت متأخر من الليل دوماً، ويهرب على رؤوس أصابعه قبيل الفجر بقليل. وكان يعرف مثلما تعرف هي انه في بيت مشترك يعيش فيه عدد كبير من السكان كذاك البيت، لابد للجيران في النهاية من أن يكونوا اكثر اطلاعاً مما يتظاهرون. ولكن فلوريتينو اريثا كان هكذا، حتى ولو كان الأمر مجرد معادلة نظرية، وسيبقى كذلك خلال بقية حياته. لم يقترف أي خطأ أبداً، سواء معها أو مع أي واحدة اخرى، ولم يرتكب أبداً أي خروج على هذا المبدأ. لم يكن يبالغ. وفي مناسبة واحدة فقط ترك اثراً مشبوهاً أو دليلاً مكتوباً، كاد يكلفه حياته. والحقيقة انه تصرف دائماً كما لو كان الزوج الابدي لفيرمينا دائماً، زوج غير مخلص ولكنه متمسك بزوجه، يناضل دون هوادة ليتحرر من عبوديتها، ولكن دون ان يسبب لها غم الخيانة الزوجية.

لم يكن ممكناً لهذه السرية المحكمة ان توفق دونها خطأ. فحتى ترانسيو اريثا توفيت وهي مقتنعة ان ابنها الذي حبلى به بالحب وترعرع للحب كان محصناً ضد أي شكل من اشكال الحب بسبب محنته الأولى في شبابه، ومع ذلك، فان اناساً كثيرين أقل ارحية ممن هم قريبون منه، ويعرفون طبيعته السرية وميله إلى الملابس الزاهدة والمستحضرات الغريبة، كانوا يشاركون في الشكوك بانه ليس محصناً ضد الحب وانما ضد المرأة فقط. وكان فلوريتينو اريثا يعرف ذلك ولكنه لم يفعل شيئاً لتكذيبه. كما ان الامر لم يكن يقلق سارا نوريفا، وغيرها من النساء الكثيرات اللواتي احبهن، بل وأولئك اللواتي كن يمتعنه ويستمتعن معه دون ان يحببته، ويقبلن به كما هو في الواقع: رجل عابر.

صار يذهب إلى بيتها في أي وقت، وخصوصاً في صباحات أيام الاحاد، التي كانت أهدأ الأوقات. فكانت تترك ما تقوم به، مهما كان، وتكرس نفسها بكامل جسدها محاولة اسعاده في السرير التاريخي الفسيح الذي كانت متأهبة له دوماً، والذي لم تكن تسمح بممارسة الحب عليه بطقوس شكلية. ولم يكن فلوريتينو اريثا ليفهم كيف يمكن لعزباء بلا ماض استخداهما جسدها الدلفيني العذب بكل هذه الخفة وهذا الحنان كما لو انها تتحرك تحت الماء. وكانت تدافع عن نفسها بالقول ان الحب، قبل كل شيء، هو موهبة طبيعية. وتقول: «اما ان يولد الانسان وهو يعرفه أو انه لن يعرفه أبداً». كان فلوريتينو اريثا يتلوى بغيرة تفكيره بانها ربما تكون اكثر استعمالاً مما تتظاهره، وكان عليه ان يتلع غيرته كلها، لانه كان يقول لها ما قاله للاخريات جميعهن، بانها عشيقته الوحيدة. ومن الاشياء الكثيرة التي لم يكن يحبها، كان صبره على وجود القط الهائج في السرير، والذي كانت سارا نوريفا تقلم مخالبه حتى لا

يمزقهما بخرمشته اثناء ممارستها الحب .

ومع ذلك ، وكفرحها في السرير حد الانهاك ، كانت تحب تكريس تعب الحب لعبادة الشعر . ولم تكن تتمتع بذاكرة مذهلة في حفظ أشعار عصرها العاطفية وحسب ، تلك التي يباع جديدها في كتيبات بستانفين في الأزقة ، بل انها كانت تعلق بمسامير على الجدران قصائدها المفضلة ، لتقرأها بأعلى صوت في أي وقت . وكانت قد نظمت في مقاطع احد عشرية مزدوجة نصوص دروس التمدن والتربية المدنية ، على طريقة المنظومات المستخدمة في تعليم الاملاء حينئذ ، ولكنها لم تحصل على الموافقة الرسمية باقرارها . لقد كان اندفاعها الخطابى يحملها أحياناً إلى مواصلة اللقاء الشعرباعلى صوتها اثناء ممارستها الحب ، مما يضطر فلوريتينو اريثا لدس مصاصة في فمها ، مثلما يفعلون بالاطفال لوقفهم عن البكاء .

كان فلوريتينو اريثا بتساءل وهما في أوج علاقتهما ، أي الحالتين اللتين يتخذان هي الحب . . هل هي في ما يفعلانه في السرير المضطرب أم تأملهما في أمسيات الأحاد الهادئة فتطمثنه سارا نوريغا بحجة بسيطة هي ان كل ما يفعلانه عاريين هو الحب . وكانت تقول : «حب الروح من الخصر فما فوق وحب الجسد من الخصر فما تحت» . وقد بدا لها هذا التصنيف مناسباً لقصيدة حول الحب المقسوم ، كتبها بأربعة أيد ، وتقدمت بها إلى مهرجان الزهور الخامس ، موقنة ان أحداً لم يشارك حتى ذلك الحين بقصيدة على هذا النحو من الاصاله . لكنها خسرت من جديد .

كانت نائرة عندما اصطحبها فلوريتينو اريثا إلى بيتها . ولم تستطع تفسير سبب ثورتها . كانت مقتنعة ان ثمة مؤامرة تدبرها فيرمينا داثا ضدها ، لتحول دون فوز قصيدتها بالجائزة . لم يولها فلوريتينو اريثا اذناً صاغية . لقد كان مكتب المزاج منذ تسليم الجوائز ، فهو لم ير فيرمينا داثا منذ زمن بعيد ، وقد أحس تلك الليلة بانها قد تغيرت تغيراً عميقاً : فللمرة الأولى تظهر جليلة لأول وهلة حالتها كأم . لم يكن هذا بالأمر الجديد عليه ، فقد كان يعلم ان ابنها بدأ الذهاب إلى المدرسة . ولكن عمرها الامومي لم يكن قد بدا له رغم ذلك بمثل هذا الوضوح الذي رآه في تلك الليلة ، سواء في محيط خصرها أو في مشيتها اللاهثة إلى حد ما ، أو في عثرات صوتها حين قرأت قائمة الجوائز .

وفي محاولة لتثيت ذكرياته عاد يتصفح ألبومات مهرجانات الزهور فيما سارا نوريغا تعد شيئاً للأكل . رأى صوراً مأخوذة من مجلات ، وبطاقات مصفرة من تلك التي تباع كتذكارات في الأزقة ، وبدا له ذلك كمراجعة وهمية لخداع حياته بالذات . فقد كان يركز حتى ذلك الحين على وهم ان الدنيا هي التي تتغير ، فالعادات تتغير وكذلك الموضة . . كل شيء يتغير إلا هي . لكنه رأى في تلك الليلة ، للمرة الأولى ، وبشكل جلي كيف كانت حياة فيرمينا داثا

تمضي ، وكيف كانت حياته هو تمضي ، بينما لا يفعل شيئاً سوى الانتظار . لم يكن قد تحدث عنها لأحد أبداً ، لأنه يعرف انه عاجز عن نطق اسمها دون ان يظهر الشحوب على شفتيه . أما في هذه الليلة ، وفيما هو يتصفح الالبومات كما يفعل في معظم سهرات الاحد المملة ، حققت سارا نوريغا صدفة ، اصابة من تلك التي تجمد الدم حين قالت :
- انها لعاهرة .

قالت ذلك لدى مرورها ، ناظرة إلى صورة تظهر فيها فيرمينا داثا متكرة كفهدة سوداء في حفلة رقص تنكرية ، ولم يكن عليها ان تذكر اسماً ليعرف فلوريتينو اريثا عمن تتحدث . سارع إلى الدفاع بحذر ، خائفاً من الانزلاق إلى كشف يززع حياته . نبه إلى انه لم يعرف فيرمينا داثا إلا عن بعد ، وان معرفته بها لم تتجاوز التحيات الرسمية وانه لا يمتلك أية أخبار عن حياتها الخاصة ، لكنه ابدى قناعته بانها امرأة محترمة ، خرجت من لا شيء . وارتفعت بمواهبها الذاتية .

فقاطعت سارا نوريغا :

- بفضل زواج مصلحة من رجل لا تحبه . انها أخط وسيلة للدعارة .

كانت أم فلوريتينو اريثا قد قالت له ذلك يوماً بفضاظة أقل ، انها بالصراحة نفسها لتواسيه في محنته . ولم يجد وهو مضطرب حتى النخاع رداً مناسباً على قسوة سارا نوريغا ، فحاول الهرب من الموضوع . لكن سارا نوريغا لم تسمح بذلك قبل ان تفرج عن نفسها ضد فيرمينا داثا . وبضربة حدس لم تكن قادرة على تفسيرها ، أبدت قناعتها بانها هي من دبر المؤامرة لحجب الجائزة عنها . لم يكن ثمة سبب لتصديق ذلك : فهما لا تعرفان بعضهما ، ولم تلتقيا أبداً ، وليس لفيرميناداثا أية علاقة بقرارات المسابقة ، هذا اذا كان لها أي اطلاع على اسرارها . وقالت سارا نوريغا بشكل قاطع : «انا معشر النساء عرافات» . ووضعت حداً للنقاش .

منذ هذه اللحظة ، رآها فلوريتينو اريثا بعينين اخريين . فالسنوات كانت تمضي بالنسبة لها كذلك . وكانت طبيعتها الخصبية تذوي دون أمجاد ، وصار حجبها يتماطل في النحيب ، وبدأت المرات القديمة تظهر على اجفانها . انها زهرة الأمس . ثم انها ، في فورة غضب الهزيمة ، أهملت حساب كؤوس البراندي التي تجرعها . لم تكن في ليلها . وفيما هما يأكلان رز جوز الهند الذي اعادت تسخينه ، حاولت ان تحدد مدى مساهمة كل منهما في كتابة القصيدة الخاسرة ، لتعرف كم ورقة من أوراق السحلبة الذهبية سيكون نصيب كل واحد منهما لو انها فازا . ولم تكن المرة الأولى التي ينشغلان فيها بمناقشات بيزنطية ، لكنه انتهز الفرصة ليتنفس من الجرح الذي انفتح لتوه ، واشتبكا في نزاع بائس أحيا احقادهما المتراكمة خلال خمس

سنوات من الحب المنقسم .

وقبل عشر دقائق من الساعة الثانية عشرة، صعدت سارا نوريغا على كرسي لتبدأ ساعة البندول المعلقة، وضبطتها على الثانية عشرة تماماً دون ان تنظر اليه، ربما كانت راغبة ان تقول بذلك دون ان تقوله بان وقت انصرافه قد حان . أحس فلوريتينو اريثا حينئذ بضرورة بتر تلك العلاقة الخالية من الحب من جذورها، ويبحث عن الفرصة ليكون هو صاحب المبادرة، كما اعتاد ان يفعل دوماً . كان يدعو الله بان تسمح له سارا نوريغا بالبقاء للنوم في سريرها ليقول لها ان لا، وان كل شيء قد انتهى بينهما، وطلب منها ان تجلس إلى جانبه حين انتهت من ضبط الساعة . لكنها فضلت البقاء بعيدة عنه، على كرسي من كراسي الزيارات . عندئذ مد لها فلوريتينو اريثا اصبعه السبابة مبللة بالبراندي لتمصها، كما كانت تحب ان تفعل قبل الحب في ازمان اخرى . فتجنبتها قائلة :
- ليس الآن . انني انتظر شخصاً .

منذ صدته فيرمينا داثا، تعلم فلوريتينو اريثا كيف يحتفظ لنفسه دوماً بالقرار الاخير . كان بإمكانه الاستمرار بمحاورة سارا نوريغا لو ان الظروف كانت أقل مرارة، متأكداً من انه سينتهي إلى قضاء الليل متقلباً معها على السرير، لانه يعرف ان امرأة ضاجعت رجلاً مرة واحدة، ستتابع مضاجعته كلما شاء، طالما عرف كيف يلينها في كل مرة . لقد احتمل كل شيء بفضل هذه القناعة، ومر على كل شيء دون مبالاة، بما في ذلك أقذر أنواع الحب، حتى لا يتيح الفرصة لأي امرأة ولدتها امرأة اتخاذ قرار القطيعة النهائي . لكنه أحس في تلك الليلة بانه ذليل جداً، فجرع البراندي دفعة واحدة، فاعلاً كل ما يجعل الغضب يبدو عليه، ومضى دون ان يودعها . ولم يريا بعضهما بعدها .

كانت العلاقة بسارا نوريغا احدى أطول علاقات فلوريتينو اريثا واكثرها استقراراً، رغم انها لم تكن العلاقة الوحيدة التي نسجها خلال تلك السنوات الخمس . وعندما أحس بانه يشعر بالراحة معها، وخصوصاً في الفراش، ودون ان يتوصل إلى احلالها مع فيرمينا داثا، استفحلت ليااليه كصياد متوحد، وكان يتدبر أمره لتوزيع وقته وقواه إلى حيث يمكنه الوصول . ومع ذلك، استطاعت سارا نوريغا تحقيق معجزة تهدئته مع مرور الوقت . واستطاع العيش على الأقل دون رؤية فيرمينا داثا، على العكس مما كان عليه من قبل، حين كان يتوقف عن عمله الذي يؤديه في أي وقت كان ليخرج بحثاً عنها في اتجاهات غير صحيحة تمليها عليه افكاره، وفي شوارع لا تخطر على بال، وامكن وهمية يستحيل وجودها فيها، هائلاً على غير هدى وفي صدره شوق لن يهدأ ما لم يرها ولو للحظة واحدة . لقد اثار قطع علاقته بسارا نوريغا اشواقه الكامنة، وأحس مجدداً بالاحساسيس التي كانت تتأبه في امسيات

الحديقة الصغيرة اثناء قراءته اللاتينية، ولكنه كان احساساً مثقلاً بالرغبة في استعجال موت الدكتور خوفينال اورينو.

كان يعرف منذ زمن انه مرصود لاسعاد أرملة، وانها مرصودة لاسعاده، ولم يكن هذا ليقلقه. بل على العكس: كان مستعداً للأمر. ولكثرة ما عرف منهم في غزواته كصياد متوحد، أصبح فلوريتينو ارثا يعرف ان الدنيا مليئة بأرامل سعيدات. لقد رآهن يفقدن صوابهن أسى أمام جثة الزوج، ويتوسلن دفنهن بالحياة في التابوت ذاته كي لا يواجهن نائبات المستقبل من دونه، ولكنهن كلما أخذن بالانسجام مع واقعهن الجديد كن ينبعثن من الرماد بحيوية مخضوضرة. يبدأن الحياة كاشباح طفيليات في البيوت الكبيرة المقفرة ويصبحن نجيات خادماتهن، عاشقات وسائدهن، ليس لديهن ما يفعلنه بعد سنوات طويلة من الأسر المجذب. يضيعن فائض الوقت في تثبيت الازرار التي لم يكن لديهن متسع من الوقت لتثبيتها على ثياب الميت، ويكوين ثم يعدن كي قمصانه ذات المعاصم والياقات البارافينية لتكون جاهزة دوماً. ويتابعن وضع الصابون له في الحمام، ووضع وجوه الوسائد التي تحمل الحرف الأول من اسمه على السرير، وطبقه وادوات طعامه في مكانه على المائدة، فلربما عاد من الموت دون اشعار مسبق، كما كانت عاداته في الحياة. ولكنهن في طقوس العزلة تلك، يعين شيئاً فشيئاً بأنهن أصبحن سيدات مصيرهن، بعد تخليهن ليس عن لقب اسرتهن فقط، بل وعن هويتهم ذاتها، كل ذلك مقابل أمان لم يكن اكثر من حلم آخر من احلامهن وهن عرائس. هن وحدهن كن يعرفن كم كان ثقل الرجل الذي احبين بجنون، والذي ربما احبهن، اذ كان عليهن ان يتابعن تربيته حتى النفس الاخير. كان عليهن ارضاعه، وتبديل حفاظاته الملوثة، وتسليته بخدع الأمهات لتهدئة مخاوفه عند خروجه صباحاً لمواجهة وجه الواقع. ولكنهن ما ان يرينه يخرج من البيت لابتلاع العالم بإغواء منهم، حتى يداخلهن الخوف من ألا يعود الرجل أبداً. هكذا كانت حياتهن. أما الحب، ان كان له من وجود فهو شيء آخر. . . حياة أخرى.

في بطالة الوحدة الشافية، تكتشف الأرامل أيضاً ان الطريقة الشريفة في الحياة هي المرتبطة بالجسد، بالأكل حين يجعن فقط والحب دون نفاق، والنوم دون حاجة إلى تصنع النوم للافلات من الحب الرسمي، وسيادتهن اخيراً على سرير كامل لهن وحدهن لا يشاركهن أحد نصف الدثار ولا نصف الهواء الذي يتنفسن ولا نصف ليلهن، وقدرتهن على النوم إلى ان يرتوي الجسد من الحلم باحلامهن وحدهن واستيقاظه حين يحلوه. لقد كان فلوريتينو ارثا يلتقي بهن في صباحاته كصياد متخفي وهن خارجات من قداس الخامسة صباحاً، مكفئات بالأسود ويوم القدر على اكتافهن. وما ان يرينه في ضوء الفجر حتى يجتزئ

الشارع وينتقلن إلى الرصيف الآخر بخطوات ضيقة ومتقطعة، كخطوات عصفور، لأن مجرد مرورهن قريباً من رجل قد يلوث شرفهن. ولكنه كان موقناً رغم ذلك من أن أي أرملة حزينة تحمل في داخلها، أكثر من أي امرأة أخرى، بذرة السعادة.

أراميل كثيرات في حياته، ابتداء من أرملة ناثارييت، اتحن له أن يرى كيف يمكن للمتزوجات أن يكن سعيدات بعد وفاة أزواجهن وما كان بالنسبة له مجرد خلم تحول بفضلهن إلى احتمال يمكن لمسه باليد. ولم يجد اسباباً تحول دون أن تكون فيرمينا دائماً أرملة ممائلة، دربتها الحياة على القبول به كما هو، دون اوهام الشعور بالذنب نحو الزوج الميت، حاسمة امرها على اكتشاف السعادة الأخرى معه لتتعم بالسعادة مرتين، بحب جسدي يومي يتحول في كل لحظة إلى معجزة حياة، وحب آخر لها وحدها، محصن ضد أية عدوى بمناعة الموت. ربما أنه ما كان ليتحمس لو ارتاب مجرد ارتياب بان فيرمينا دائماً بعيدة عن تلك الحسابات الحائلة، حين كان يلوح بالكساد افق عالم بكل شيء فيه مهياً مسبقاً باستثناء الخذلان. وقد كان لثراء المرء في ذلك الزمن منافع كثيرة، وكذلك مضار كثيرة بالطبع، ولكن نصف الناس كانوا يتشوقون للشراء ويرون فيه الوسيلة الأكثر احتمالاً للخلود. وكانت فيرمينا دائماً قد صدت فلورينتينو أريشا في ومضة نضوج دفعت ثمنها فوراً في نوبة حسرة، لكنها لم تشك للحظة في صواب قرارها. لم تكن قادرة للوهلة الأولى على تفسير الأسباب الخفية التي منعتها تلك البصيرة، ولكنها بعد سنوات طويلة جداً، وهي على اعتاب الشيخوخة، اكتشفت تلك الأسباب فجأة ودون أن تدري كيف، وذلك أثناء حديث عرضي عن فلورينتينو أريشا. جميع المشتركين في الحديث كانوا يعرفون أنه ولي العهد في شركة الكاريبي للملاحة النهرية في حقبة ازدهارها، وجميعهم كانوا متأكدين من أنهم قد رأوه مرات عديدة، بل ودخلوا معه في صفقة ما، لكن اياً منهم لم يستطع تحديد ملامحه في ذاكرته عندئذ انكشفت لفرمينا دائماً الأسباب الكامنة في اللاوعي والتي منعتها من حبه. وقالت: «يبدو وكأنه ليس شخصاً وانما طيفاً». وهكذا كان: طيف شخص لم يره أحد من قبل. ولكن فيما هي تصد حصار الدكتور خوفينال أورينيو، الرجل النقيض، كانت تشعر بانها تتعذب بشبح الذنب، وهو الاحساس الوحيد الذي كانت تعجز عن احتياله. فحين تشعر به، يسيطر عليها نوع من الذعر لا تستطيع التحكم به إلا عندما تجد من يطمئن ضميرها. فمنذ طفولتها المبكرة، عندما كانت تكسر صحناً في المطبخ، أو عندما يقع أحد، أو حين تعصر أحد أصابعها بباب، كانت تلتفت مذعورة نحو أقرب شخص كبير، وتسارع إلى اتهامه: «انت السبب». مع انها ما كانت تهتم في الحقيقة بمن هو المذنب ولا بالاعتناع ببراءتها. كان يكفيها اقرار الامر هكذا.

كان شبح عقدة الذنب واضحاً وقد أدرك الدكتور أورينيو في الوقت المناسب مدى تهديده

لجو الانسجام في بيته ، فكان كلما لمح يسارع القول لزوجته : « لا تقلقي يا حبي ، أنا السبب » . اذ لم يكن يخيفه شيء كخوفه من قرارات زوجته المفاجئة والحاسمة ، وكان مقتنعاً ان منشأ كل ذلك في احساسها بالذنب . ومع ذلك ، فان قلقها لصدها فلورينتينا اريثا لم يُحلّ بعبارة مواساة . والت فيرمينا داثا بفتح الشرفة في الصباح لعدة شهور ، وكانت تحن دوماً للشبح المتوحد الذي كان يترصدها في الحديقة الصغيرة المقفرة ، وتراقب الشجرة التي كان يجلس تحتها ، والمقعد المختفي حيث كان يجلس ليقراً مفكراً بها ، ومتألماً من اجلها ، ثم تغلق النافذة من جديد ، وتتنهد : « يا للرجل البائس » . ولقد قاست من خيبة الأمل لانه لم يكن عنيداً ومثابراً كما ظنت ، حين كان الوقت قد فات لترقيع الماضي ، ولم تتوان عن الشعور بالجزع المتأخر يوماً لرسالة لم تصلها أبداً . ولكنها حين اضطرت لمواجهة قرار الزواج من خوفينال اوريينو وقعت في ازمة رهيبية ، اذ ادركت انها لا تملك مبررات ملائمة لقبوله بعد ان رفضت فلورينتينا اريثا دون مبررات ملائمة . والواقع انها ما كانت تحبه اكثر مما أحبت الآخر ، اضافة إلى ان معرفتها به كانت أقل بكثير ، ولم تكن تجد في رسائله تلك الحمى التي وجدتتها في رسائل الآخر ، كما انه لم يقدم لها ما يكفي من الادلة المؤثرة على قراره . فالحقيقة ان خوفينال اوريينو لم يطرح مطالبه يوماً بتعابير الحب ، ومن المثير للفضول ان مؤمناً كاثوليكياً مثله لم يكن يعرض عليها سوى مكاسب دنيوية : الأمن ، النظام ، السعادة ، وهي أرقام ما ان تجمع إلى بعضها حتى تتحول مباشرة إلى شيء كالحب : الحب تقريباً . ولكنها ليست الحب ، وقد كانت هذه الشكوك تضاعف من قلقها ، لانها لم تكن مقتنعة كذلك بان الحب هو ما تحتاجه بالحاح للحياة .

وعلى كل حال ، فان العامل الاساسي ضد الدكتور خوفينال اوريينو كان في شبهه الاكثر من مريب مع الرجل المثالي الذي كان يأمل فيه لورينثوداثا كزوج لابنته . كان مستحيلاً عليها ألا تراه كشخصية خارجة من اسطورة ابوية ، مع انه لم يكن كذلك في الواقع . لكن فيرمينا داثا كانت مقتنعة بانه كذلك مذ رأتة يدخل بيتها للمرة الثانية في زيارة طبية لم يدع اليها . ثم جاءت احاديثها مع ابنة خالها هيلديبراندا لتزيد من بلبلتها . فبسبب احساس هذه الاخيرة بانها ضحية ، كانت تجد نفسها في فلورينتينا اريثا ، متناسية ان لورينثوداثا انها بعث بطلبها لتمارس تأثيرها لصالح الدكتور اوريينو . والله وحده يعلم الجهد الذي بذلته فيرمينا داثا لتمنع نفسها من مرافقة ابنة خالها حين ذهبت لتعرف على فلورينتينا اريثا في مكتب التلغراف . فقد كانت ترغب أيضاً برؤيته ثانية لمواجهة بشكوكها ، التحدث اليه على انفراد ، ومعرفة بعمق للتأكد من ان قرارها المتهور لن يورطها في اتخاذ قرار آخر أشد خطورة ، يكون استسلاماً في حرها الشخصية ضد ابيها . ولكنها فعلت ذلك في اللحظة الحرجة من حياتها ، دون ان

تأخذ بعين الاعتبار جمال المتقدم اليها الذكوري، ولا ثروته الخرافية، ولا مجده المبكر، ولا أي ميزة أخرى من ميزاته الواقعية، وإنما فعلت ذلك وهي ذاهلة. يساورها الخوف من أن تفلت الفرصة من يدها، ومن اقترابها من اكمال إحدى وعشرين سنة، وهو السن المتعارف عليه، الذي عليها بعده الاستسلام للقدر. كانت لحظة كافية لاقدامها على اتخاذ القرار المبين في قوانين الرب والبشر: حتى الموت. عندئذ زالت جميع الشكوك، وفعلت دون ندم ما أملاه عليها العقل ورأته لائقاً: مرت بأسفنجة دون دموع فوق ذكرى فلورينتينو أريثا، ومسحته تماماً، مفسحة المجال ليفتح في المكان الذي كان يحتله من ذاكرتها مرجاً من شقائق النعمان. والشيء الوحيد الذي سمحت لنفسها به كان إطلاق تهيدة أعمق من المعتاد، التهيدة الأخيرة: «ياللرجل البائس!».

لكن أكثر شكوكها اخافة بدأت فور عودتها من رحلة الزفاف. فما إن فتحت الصناديق، وحلت الحزم والطرود وأفرغت محتويات الاحد عشر صندوقاً التي أحضرتها معها لتتسلم موقعها كربة بيت وسيدة قصر المركيز دي كاسالدويرو القديم، حتى تنبعت بانبهار قاتل إلى انها سجين في بيت خاطيء، والأسوأ من ذلك انا كانت تعيش مع الرجل الذي لم يكن رجلاً. لقد احتاجت ست سنوات للخروج، كانت أسوأ سني حياتها، قضتها في يأس من مرارة دونيا بلانكا، حماها، وتخلف اختي زوجها العقلي، اللتين ان لم تذهبا للتعفن وهما في الحياة بزنزانة في دير فلأنهما كانتا تحملان تلك الزنزانة بداخلهما.

الدكتور أورينيو المستسلم لدفع ضريبة اصله النبيل، صمّ اذنيه عن رجائها، موقناً ان حكمة الله وقدرة الزوجة اللانهاية على التأقلم كفيلا بوضع الأمور في نصابها. كان حزينا لانبيار أمه، بعد ان كان حبها للحياة في زمن أخريث الرغبة بالحياة حتى في اعنى الكفرة. هذا صحيح: فتلك المرأة الجميلة، الذكية، ذات الحساسية الانسانية التي لا مثيل لها في وسطها، كانت خلال ما يقرب من اربعين سنة روح وجسد فردوسها الاجتماعي، الى ان اذاقها الترميل المرارة حتى استحال التعرف عليها، وجعلها مترهلة وساخطة، ومعادية للعالم. والتفسير الوحيد لتخليها عن مكانتها الاجتماعية كان في غضبها على زوجها الذي ضحى بحياته وهو واعي في سبيل كومة من الزنوج، كما كانت تقول، في حين ان التضحية الوحيدة العادلة هي نجاته من الموت في سبيلها. ولقد استمر زواج فيرمينا داثا السعيد على أية حال ما دامته رحلة الزفاف، والشخص الوحيد القادر على مساعدتها في منع الانبيار النهائي يشله الخوف أمام تسلط الأم. وعليه، وليس على شقيقي زوجها المعتوهتين وحماها نصف المخبولة، كانت فيرمينا داثا تلقي مسؤولية وقوعها في مصيدة الموت تلك. وبدأت تشك بعد فوات الآوان بان الرجل الذي تزوجت منه يخفي وراء جبروته المهني وسحره

الديوي شخصاً ضعيفاً بلا خلاص... شيطاناً بائساً يتغطرس بوزن القابه الاجتماعي .
لجأت حينئذ الى الابن حديث الولادة . كانت قد أحست عند خروجه من جسدها براحة
التحرر من شيء ليس منها ، وعانت الهول من نفسها حين رأت انها لا تشعر بأدنى عاطفة تجاه
عجل البطن ذاك الذي عرضته عليها القابلة وهو عار تماماً ، وملوث بالدهن والدم ، وحبل
الخلاص ملتف حول عنقه . لكنها تعلمت في عزلة القصر التعرف عليه ، فتعارفاً ، واكتشفت
بفرح شديد ان حب الأولاد ليس نابعاً من كونهم أبناء ، وانما منشأ صداقة التربية .
وأصبحت لا تطيق شيئاً ولا أحداً سواه في بيت محتتها . كان الحزن يقل عليها ، وكذلك
الحديقة المأتمية ، وترهل الزمن في الحجرات الفسيحة التي لا نوافذ لها . أحست بالجنون في
الليالي المتطولة بصراخ المجنونات في مشفى الامراض العقلية المجاور . وكانت تُجملها عادة
اعداد مائدة الولائم كل يوم ، بشراشف مطرزة ، وأدوات طعام فضية وشمعدانات مأتمية ،
لخمسة أشباح يتعشون فنجان قهوة بالحليب وشطائر الدقيق بالجن . مقتت صلوات
الظهرية ، والتكلف على المائدة ، والانتقادات المتوالية لطريقتها بامساك أدوات الطعام ،
ومشيتها بهذه الخطوات المستخفة كخطوات امرأة من الشارع ، ولا رتدائها ملابس كملايس
السيرك ، بل ولا سلوكها القروي في معاملة زوجها وارضاع طفلها دون تغطية ثديها بدثار
الرضاعة . وعندما وجهت الدعوات الأولى لتناول الشاي في الساعة الخامسة مساءً ، مع
بسكويت امبراطوري وحلوى زهور ، تماشياً مع عادة محدثة في انكلترا ، عارضت دونيا بلانكا
لانه لا يمكن تناول المشروبات الطبية المستخدمة للتعرق عند الحمى في بيتها بدلاً من
الشوكولاته مع الجبن وأقراص خبز اليكة . ولم تفلت منها حتى الاحلام . ففي صباح أحد
الأيام روت فيرمينا داها انها رأت في الحلم رجلاً مجهولاً يمضي عارياً ويرش حفنات من الرماد
في صالات القصر ، فقاطعتها دونيا بلانكا بجفاء :

- لا يمكن لامرأة محتشمة ان تحلم هذا النوع من الاحلام .

والى احساسها بانها تعيش في بيت غريب أضيفت نكبتان كبيرتان . احدهما طبق
الباذنجان اليومي بجميع اشكاله ، والذي كانت دونيا بلانكا ترفض استبداله احتراماً للزوج
الميت ، بينما ترفض فيرمينا داها أكله بأي حال . كانت تمقت الباذنجان منذ طفولتها ، وقبل ان
تذوقه ، لانه بدا لها دوماً بلون السم . ولكن لا بد لها من القبول على كل حال بان شيئاً من
اعتقادهما قد تبدل ، وكان في صالح حياتها . فقد قالت وهي في الخامسة من عمرها ما كانت
تقوله دوماً على المائدة ، فأجبرها أبوها على أكل طنجرة كاملة كانت معدة لسته أشخاص .
ظنت انها ستموت ، بسبب قيء الباذنجان المهروس أولاً ، ثم بسبب فنجان زيت الخروع
الذي اجبروها على تناوله لمعالجتها من العقاب . وقد بقي الباذنجان وزيت الخروع مختلطان

في ذاكرتها على انها مُسهل ، سواء بطعمها أو برعب السم ، واثناء وجبات الغذاء الفظيعة في قصر المركيزدي كاسالدويرو كانت تضطر لصرف نظرها حتى لا تستعيد ذكرى الغثيان الجليدي لزيت الخروج .

وكانت النكبة الثانية هي القيثارة . ففي أحد الأيام قالت دونيا بلانكا وهي تعني تماماً ما تقول : « لا أو من بوجود نساء محترمات لا يتقن العزف على البيانو » . كانت تُصدر بذلك أمراً مما دفع ابنها لمجادلتها . فأفضل سنوات حياته امضاها سجيناً في دروس البيانو ، رغم انه حمد ذلك في رشده . لكنه لم يكن قادراً على تصور زوجته ذات الخمسة والعشرين عاماً والطبع الحاد ، خاضعة إلى العقوبة ذاتها . فكان ما ناله من الألم هو موافقتها على استبدال البيانو بالقيثارة ، بذريعة صبيانية تقول انها الاداة الموسيقية التي يستخدمها الملائكة . وهكذا جلبوا من فيينا القيثارة الرائعة ، التي بدت وكأنها من الذهب ، وكانت أنغامها تصدح وكأنها كذلك فعلاً ، والتي صارت فيما بعد أحد ابرز مقتنيات متحف المدينة ، إلى ان التهمت النيران مع كل ما كان فيه . خضعت فيرمينا دائماً الى عقوبة الرفاهية هذه محاولة وقف الانهيار بتضحية اخيرة . بدأت الدروس مع معلم معلمين أحضروه خصيصاً من مدينة مومبوكس ، فمات فجأة بعد خمسة عشر يوماً من مجيئه ، وتابعت الدروس لعدة سنوات مع موسيقيّ الدير ، الذي كانت روحه الجنائزية تشوه موسيقاه القيثارية .

لقد فوجئت هي نفسها لانصياعها . فمع انها ماكانت تقبل ذلك في قرارة نفسها ، ولا في مجادلاتها الصماء مع زوجها خلال الساعات التي كانا يكرسانها للحب من قبل ، الا انها تورطت باسرع مما كانت تظن في شبكة تقاليد عالمها الجديد ومكائده . كانت تردد أول الأمر عبارة طقسية لتؤكد حرية رأيها : « إلى الجحيم أيتها المروحة فهذا وقت النسيم » . ولكنها ما لبثت ان تحمست لامتيازاتها التي احسنت كسبها ، وخافت من الخزي والسخرية ، فأبدت استعدادها لاحتمال كل شيء ، حتى المذلة ، على أمل ان يعطف الله اخيراً على دونيا بلانكا ، التي لم تكن تمل دعوته في صلواتها بان يبعث اليها الموت .

كان الدكتور اورينويرز ضعفه بذرائع واهية ، حتى دون ان يتساءل ان لم يكن يعارض بذلك تعاليم كنيسته . فهو لا يوافق على ان منشأ الخلافات مع زوجته هو جوالبيت المفكك ، وانما في طبيعة الزواج بحد ذاته . انه ادعاء سخيف لا وجود له إلا في بركات الله اللانهائية ، يتناقض مع اي سبب علمي في ان شخصين لا يكادان يعرفان بعضهما ، ولا تربطهما أية صلة قرى ، مختلفي الطبائع والثقافة ، بل ومختلفي الجنس أيضاً وجدا نفسيهما ملزمين فجأة بالعيش معاً ، والنوم في السرير نفسه والمشاركة في مصيرين ربما كانا مقررين في اتجاهين مختلفين . كان يقول : « مشكلة الزواج هي انه ينتهي كل ليلة بعد ممارسة الحب ، ولا بد من

العودة إلى بنائه كل صباح قبل تناول الفطور. أما زواجهما، كما يقول، القائم بين طبقتين متناحرتين، في مدينة ما زالت تحلم بعودة الحكام الاستعماريين، فالملاط الوحيد القادر على حفظ تماسكه هو شيء صعب ومتقلب كالحب، ان كان له من وجود، وفي حالتها لم يكن له وجود عند زواجهما، ولم يفعل القدر شيئاً سوى جعلهما يواجهان الواقع حين كانا على وشك اختراع الحب.

هكذا كانت حياتها في مرحلة القيشارة. لقد تراجعت المصادفات السعيدة حين كانت تدخل عليه وهو يستحم، ورغم المجادلات، والباذنجان السام، ورغم الشقيقتين المعتوهتين والأم التي انجبتهم، كان لديه ما يكفي من الحب ليطلب منها ان تليقه. فتبدأ عمل ذلك مستعينة بفتات الحب الذي بقي لديها من اوروبا، ثم يتيح كلاهما للذكريات ان تخدعها، متحدثين دون ان يشاءا، وراغبين دون ان يقولوا، ويتنهيان إلى الموت حباً على الأرض، ملوثين بالرغوة المعطرة، فيما هما يسمعان الخادمت تتحدثن عنهما في حجرة الغسيل: «إذا كانا لاينجبان أولاداً فلأنهما لا يشدان». وبين الفينة والاخرى. ولدى عودتهما من احدى الحفلات المحلية، كان الشوق القابع وراء الباب يطرحهما بضربة من مخبئه، فيحدث حينئذ انفجار رائع يعود كل شيء اثناءه إلى ماكان عليه من قبل، ويعودان خلال خمس دقائق ليكونا العاشقين المتيمن كما كانا في شهر العسل.

وباستثناء هذه الفرص النادرة، فان احدهما كان يشعر بالارهاق اكثر من الاخر عند موعد النوم. وكانت هي تتأخر في الحمام لتلف سجائرها بأوراق معطرة، وتدخن وحدها، ممارسة من جديد غرامياتها الموسمية كما كانت تفعل وهي فتية وحرّة في بيتها، حين كانت سيدة وحيدة على جسدها. ثم انها صارت تعاني من آلام رأس دائمة، او تشعر بالحرق الخانق دوماً، او تتصنع النوم، او تدعي انها في العادة الشهرية ثانية، العادة الشهرية، ودائماً العادة الشهرية. لدرجة ان الدكتور اورينوتجراً على القول في أحد دروسه، لمجرد التفريج عن نفسه من اختناق لايعترف به ان العادة الشهرية بعد عشر سنوات من الزواج، تأتي النساء حتى ثلاث مرات في الاسبوع.

نكبات تضاف إلى نكبات، وعلى فيرمينا داثا ان تواجه في أسوأ سني حياتها ما كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً دون مفر: حقيقة تجارة ابوها السحرية والتي لم تعرفها أبداً. لقد حدد حاكم الولاية موعداً في مكتبه للدكتور خوفينال اورينوليطلعه على سوء سلوك حماه، وقد اختصر تلك المساوىء في جملة واحدة: «لا يوجد قانون الهي أوبشري يوضح كيف امكن لهذا الرجل ان يتقدم». لقد قام ببعض اخطر عملياته مُستظلاً بسلطة صهره. وكان يصعب التفكير بان هذا الاخير وزوجته ليسا مطلعين على نشاطاته. ولمعرفة الدكتور اورينوبان

السمعة الوحيدة القادرة على حماية جناه هي سمعته بالذات ، لانها الوحيدة التي ما زالت واقفة على قدمين ، فقد وضع كل ثقل سلطته ، وتمكن من لقلقة الفضيحة بكلمة شرف منه . وهكذا كان علي لورينثو دائماً ان يغادر البلاد على أول سفينة وألا يعود أبداً . عاد إلى موطنه الأصلي كما لو كان في رحلة من تلك الرحلات التي يقوم بها المرء بين الحين والآخر لخداع حنينه ، وفي أعماق هذا الظاهر كان يوجد شيء من الحقيقة : فمنذ زمن وهو يصعد إلى السفن القادمة من وطنه ليتناول كأس ماء من خزانات التموين المملوءة من ينابيع مسقط رأسه . لقد مضى دون حاجة لأي ذارعه ، مصرحاً ببراءته ، ومحاولاً اقناع صهره بأنه وقع ضحية مؤامرة سياسية . مضى وهويبيكي على الطفلة ، كما كان يسمي فيرمينا دائماً منذ تزوجت ، وببيكي فراق حفيده والأرض التي عرف فوقها الثراء والحرية ، والتي استطاع ان يحقق فوقها ماثرة تحويل ابنته إلى سيّدة مجتمع راقية معتمداً على صفقات غامضة . مضى هراً ومريضاً ، لكنه عاش بعد ذلك زمناً أطول مما تمناه أي من ضحاياها . ولم تستطع فيرمينا دائماً قهر تنهدة الراحة حين وصلها خبر مرته ، ولم تحدّ عليه منعاً لاثارة التساؤلات ، لكنها بكت طوال شهور عديدة بغضب أصم دون ان تدري السبب حين كانت تحبس نفسها للتدخين في الحمام ، وكان انها تبكيه .

أسخف ما في وضعهما ان السعادة لم تبد عليهما يوماً في الأماكن العامة كما كانت تبدو في سنوات المحنة تلك . لقد كانت في الواقع سنوات انتصاراتها الكبرى على عداوات وسطهما الخفية ، الوسط الذي ما كان ليتنازل بقبولها كما هما : مختلفين ومجدين ، ومخالفين بالتالي للتقاليد القائمة . ومع ذلك . فقد كان هذا هو الجزء السهل بالنسبة لفيرمينا دائماً ، فحياة المجتمع ، التي كانت تُخيفها كثيراً قبل ان تعرفها ، لم تكن أكثر من مجموعة من التحالفات المتوارثة ، والطقوس التافهة المتبدلة ، والكلمات الجاهزة ، التي يسلي بها بعض أهل المجتمع بعضهم الآخر كي لا يغتالوا بعضهم . ان السمة السائدة في فردوس التفاهة هذا هي الخوف من المجهول . وقد حددت فيرمينا دائماً ذلك بطريقة أكثر بساطة : « مشكلة الحياة العامة هي في تعلم السيطرة على الرعب ، ومشكلة الحياة الزوجية هي في تعلم السيطرة على الضجر » . اكتشفت ذلك فجأة بوضوح مذ دخلت وهي تجر اذيال فستان الزفاف اللانهاية إلى النادي الاجتماعي ، العابق بروائح كل تلك الزهور المتنوعة ، ويريق الفالسات ، وصخب الرجال المتعرقين والنساء المرتعشات اللواتي رمقنها دون ان يدرين حتى ذلك الحين كيف سيواجهن ذلك التهديد المبهر الذي قذفهم به العالم الخارجي . كانت قد اتمت احدي وعشرين سنة من عمرها دون ان تخرج من بيتها إلا إلى المدرسة ، لكن جولة واحدة من نظرها كانت كافية لتدرك ان خصومها ليسوا منكمشين حقداً وانما هم مشلولون خوفاً . وبدلاً من أن تبعث فيهم

مزيداً من الرعب، مثلما تعاني، أحسنت اليهم بمساعدتهم على التعرف إليها. ولم يختلف أحد من الحضور عما أرادت له ان يكون، تماماً كما يحدث لها مع المدن، التي لا تبدو لها أفضل أو أسوأ من سواها، وإنما كما رسمتها هي في قلبها. فباريس، ورغم مطرها الازلي، وبائعها البخلاء، ورغم هذرحوذيتها الموميري، ستتذكرها دوماً كأجمل مدينة في العالم، لأنها كذلك أوليست كذلك في الواقع، وإنما لأنها ارتبطت بحنينها إلى أسعد سنوات حياتها. أما الدكتور أوربينو، فقد واجه المجتمع بأسلحة كتلك التي شهدت ضده، والبارق الوحيد انه استخدمها بذكاء أشد، وبوقار محسوب. لم يكن يحدث شيء دون وجديهما: الثراث التمدنية، مهرجانات الزهور، الاحداث الفنية، اليانصيبات الخيرية، الاحتفالات الوطنية، الرحلة الأولى بالمنطاد. لقد كان لهما دور في كل شيء، وغالباً ما كان دورهما هو الاساس والمقدمة. ما كان لأحد ان يتصور في سنوات محنتها، انه يمكن ان يكون هناك من هو أشد سعادة منها أو من ينعم بزواج اكثر انسجاماً من زواجهما.

البيت الذي هجره الأب، منح فيرمينا دائماً ملجأ خاصاً بديلاً للاختناق في القصر العائلي. فكانت ما ان تفلت من الانظار العامة حتى تمضي خفية إلى حديقة البشارة، لتستقبل هناك صديقاتها الجدييدات وبعض صديقاتها القدييات من أيام المدرسة وأدروس الرسم: بديل بريء للخيانة. كانت تعيش هناك ساعات هادئة كأم عزباء، مستحضرة ذكريات الطفولة الكثيرة التي ما زالت في ذاكرتها. أعادت شراء الغريبان العطرة، والتقطت قطعاً من الشارع ووضعتها تحت عناية غالا بلاثيديا، التي صارت عجوزاً واصابها الروماتيزم بما يشبه الكساح، لكنها بقيت تحتفظ بالحساس لبعث الحياة في البيت من جديد. أعادت فتح حجرة الخياطة حيث رآها فلوريتتينواريثا لأول مرة، وحيث طلب منها الدكتور خوفينال أوربينو ان تخرج لسانها محاولاً بذلك التعرف على قلبها، وحولتها إلى هيكل مقدس لذكريات الماضي. وحين مضت لتغلق نافذة الشرفة في مساء يوم شتوي، قبل ان تحطم العاصفة الزجاج رأت فلوريتتينواريثا على مقعده تحت اشجار لوز الحديقة، ببدة ابيه المقيمة على مقاسه والكتاب المفتوح في حضنه، لكنها لم تره كما كانت تراه كثيراً في تلك الايام، وإنما رآته بسنه التي تحفظها في ذاكرتها. وخشيت ان تكون تلك الرؤيا نذيراً بموته، وتألّت لذلك. وتجرات على القول لنفسها بانها ربما كانت اسعد حالاً لو أنها تزوجته. . لو كانت وحيدة معه في ذلك البيت الذي رمته من اجله بكثير من الحب كما رمم بيته من اجلها، لكن مجرد الافتراض اربعها، لانه أتاح لها ان ترى درك التعاسة الذي وصلت اليه. فاستجمعت عندئذ آخر قواها واجبرت زوجها على مناقشتها دون مراوغة؛ أجبرته على مواجهتها، على مشاجرتها، على البكاء معها قهراً لفقدانها الفردوس، إلى ان سمعا صياح آخر الديكة، ونفذ الضوء من بين تحاريم

القصر، واشتعلت الشمس، ووقف الزوج المتورم لكثرة ما تكلم، والمنهك من النعاس، بقلبه المتصلب لكثرة ما بكى، شدّ رباط حذائه، وشدّ حزامه، وشدّ كل ما تبقى له من الرجولة، وقال لها نعم يا حبي، وقال انها سيمضيان للبحث عن الحب الذي فقدها في اوروسيا: غداً بالذات وإلى الأبد. كان قراراً حاسماً للدرجة انه اتفق مع بنك دي تيسورو، وكيل اعماله العالمي، على التصفية الفورية للارث العائلي الواسع، المبعثر منذ تكوينه في جميع انواع الاعمال التجارية، والاستثمارات والاوراق المقدسة والبطيئة، والذي لم يكن يعلم عنه علم اليقين إلا انه لا يصل إلى المقادير المبالغ بها التي تدعيها الاساطير: ما يكفي لتصفيته وعدم التفكير فيه. وطلب من البنك تحويل المبلغ، مهما كان، إلى ذهب مختوم وايداعه في البنوك التي يتعامل معها في الخارج، حتى لا يبقى له ولزوجته في هذا الوطن القاسي شبر من الأرض يموتان فيه.

كان فلوريتينو ارثا ما يزال حياً، على عكس ما ظنت. وكان يقف على رصيف الميناء حيث ترسو عابرة المحيطات الذاهبة إلى فرنسا حين وصلت مع زوجها وابنها في عربة الجوادين الذهبيين، وراهما ينزلان مثلما رأهما يفعلان ذلك مرات ومرات في الاحتفالات العامة: كانا على أحسن حال. وكان معهما ابنيهما، الذي رُبي بطريقة تشي بما سيصيره في المستقبل.. مثلما صار تماماً. حيا خوفينال اوربينو فلوريتينو ارثا تحية مرححة بقبعته: «اننا ماضون لغزو بلاد الفلاندا». حيته فيرمينا دائماً بانحناءة من رأسها، فرغ فلوريتينو ارثا قبعته وحياها بحني رأسه انحناءة خفيفة، ودققت فيه دون ان تظهر عليها امارات الشفقة لصلعه المبكر. انه هو، تماماً كما تراه: طيف شخص لم تعرفه أبداً.

لم يكن فلوريتينو ارثا على أحسن حال كذلك. فالعمل المتزايد يوماً بعد يوم، وتخمته كصيد متوحد، وخمود همته بفعل السنين، كانت تثقل عليه. ثم اضيفت إلى ذلك كله أزمة ترانسيوارثا الاخيرة، التي اصبحت ذاكرتها دون ذكريات: صفحة بيضاء تقريباً. حتى انها كانت تلتفت إليه أحياناً، فتراه يقرأ على الكرسي الذي اعتاد الجلوس عليه، فتسأله متفاجئة: «ابن من أنت؟». وكان يجيبها دائماً بقول الحقيقة، لكنها كانت تقاطعه في الحال متسائلة: - قل لي يا بني: وأنا من اكون؟

كانت قد وصلت الى حد من السمنة جعلها عاجزة عن الحركة، فصارت تمضي النهار في دكان الخردوات الذي لم يعد فيه شيء للبيع، وهي تتزين منذ استيقاظها مع أول الدبكة حتى فجر اليوم التالي، لان ساعات نومها أصبحت قليلة جداً. كانت تضع على رأسها اكاليل زهور، وتصبغ شفيتها، وترش البودرة على وجهها وفراعيها، ثم تسأل من يكون معها كيف يراها. وكان جميع الحيران يعرفون انها تنتظر الاجابة نفسها دوماً: «انك الصرصاراة

مارتينث». هذه الهوية، المتحلة من شخصية قصة للأطفال، هي الوحيدة التي كانت تريجها. فتابع الهز على الكرسي الهزاز، والتهوية بياقة من الريش الوردي الطويل، الى ان تعود لتبدأ من جديد : اكليل الزهور الورقية، المسك على الجفون، الاحمر القاني على الشفاه، وطبقة البياض على الوجه. والسؤال ثانية لمن هو قريب منها : «كيف تراني؟». وعندما تحولت الى ملكة السخرية بين الجوار، عمد فلوريتينواريثا في احدى الليالي الى تفكيك منضدة دكان الخردوات القديمة وخزائنها، وأغلق الباب المطل على الشارع، وأعد المكان على الشكل الذي سمعها تصف فيه مخدع الصرصار مارتينث، ومنذ ذلك الحين لم تعد تسأل من هي.

وبناء على نصيحة من العم ليون الثاني عشر، بحث لها عن امرأة مسنة تتولى شؤونها، لكن المرأة المسكينة كانت تسير وهي شبه نائمة، حتى ان المرء يشعر احيانا بانها نسيت كذلك من تكون. وهكذا كان فلوريتينواريثا يبقى في البيت منذ خروجه من المكتب الى ان يتمكن من تنويم امه. لم يعد يلعب الدومينو في النادي التجاري، وتوقف لوقت طويل عن لقاء القلة من صديقاته القدييات اللواتي كان يتردد عليهن، ذلك ان تبدا عميقاً طراً على قلبه بعد لقائه المرعب مع اوليمبيا زوليتا.

كان لقاء صاعقاً. فبعد ان أوصل فلوريتينواريثا العم ليون الثاني عشر الى بيته، اثناء عاصفة من عواصف تشرين الاول التي لا تترك للمرء لحظة راحة، رأى وهو في العربية فتاة ضئيلة ورشيقة، ترتدي فستاناً مزينا بالكشاكش يبدو اشبه بفستان زفاف. رآها تركض مرتبكة من جانب الى اخر، لأن الريح انتزعت منها مظلتها وطارت بها الى البحر. فحملها في عربته وانحرف عن طريقة ليوصلها الى بيتها، الذي كان اشبه بصومعة مقابل البحر الفسيح، وكان فناء البيت مليئاً بأعشاش حمام تظهر من الشارع. وروت له في الطريق بانها تزوجت منذ أقل من سنة من تاجر خزفيات كان فلوريتينواريثا قد رآه كثيراً في سفن شركته، حين كان يفرغ من السفن صناديق تحتوي جميع انواع الخزفيات لبيعها في السوق، ويرفقه عالم من الحمايم في قفص خيزراني من تلك الاقفاص التي تستخدمها الامهات لحمل اطفالهن حديثي الولادة في السفن النهرية. كان يبدو على اوليمبيا زوليتا انها تنتمي الى فصيلة الزنابير، ليس بسبب وركيها المرتفعين وصدرها الضامر وحسب، وانما لكل ما فيها : شعرها الذي كاسلاك النحاس، وكلف الشمس في وجهها، وعيناها المستديرتان والمتقدتان والبعيدتان عن بعضها اكثر مما يجب. ثم انها لا تتحدث عندما تشعر بالآفة الا لتقول اموراً ذكية وممتعة. لقد بدت لفلوريتينواريثا ظريفة اكثر من كونها جذابة، ونسيها حالما أوصلها الى بيتها، حيث كانت تعيش مع زوجها، ووالد هذا الزوج واعضاء اخرين من العائلة.

وبعد مرور عدة أيام ، رأى الزوج في الميناء وهو يشحن سفينة بالبضائع بدلا من انزالها منها كعادته ، وعندما أبحر المركب ، سمع فلوريتينو أريثا صوت الشيطان واضحاً في أذنيه . وفي مساء ذلك اليوم ، بعد ان أوصل العم ليون الثاني عشر ، مراكها لو كان مروره مصادفة ، مقابل بيت اوليمبيا زوليتا ، ورأها فوق السياج تقدم الطعام للحمام الهائجة . فصاح بها من العربة قائلاً : «ما ثمن الحمامة؟» . تعرفت عليه واجابته بصوت مرح : «ليست الحمام للبيع» . فسألها : «ماذا عليّ ان أفعل لأحصل على واحدة؟» ودون ان تتوقف عن نثر الطعام للحمام ، ردت عليه : «عليك ان توصل صاحبة الحمام بالعربة حين تجدها ضائعة تحت المطر» . وهكذا عاد فلوريتينو أريثا الى بيته تلك الليلة حاملاً هدية شكر من اوليمبيا زوليتا : حمامة زاجل في قائمتها خاتم معدني .

في مساء اليوم التالي ، وفي ساعة تقديم الطعام للحمام تماماً ، رأت راعية الحمام الجميلة الحمامة المهداة عائدة الى عشها ، ففكرت بانها قد افلتت . ولكنها حين امسكتها لتفحصها رأت انها تحمل قصاصة ورقية مطوية في الخاتم : تصريح حب . كانت تلك هي المرة الاولى التي يترك فيها فلوريتينو أريثا أثراً مكتوباً ، لكنها لن تكون الاخيرة ، رغم انه كان من الفطنة في هذه المناسبة بحيث لم يضع توقيع على الورقة . واثناء عودته الى منزله في مساء اليوم التالي ، الاربعاء سلمه طفل من الشارع الحمامة نفسها في قفص ، مع رسالة بان سيدة الحمام تبعث لك هذا وتقول لك ان تتفضل بالحفاظ عليها جيداً في القفص المقفل ، لانها ستفقد منك ثانية ان لم تفعل ، ولن نعيدها اليك بعد هذه المرة . ما كان يعرف كيف يفهم الرسالة : فاما ان الحمامة قد اضاعت رسالته في الطريق ، واما ان راعية الحمام قررت التظاهر بالحماقة ، أو انها ارسلت الحمامة ليعيدها اليها ثانية . ولكن الطبيعي في هذه الحالة الاخيرة ان تبعث الحمامة مع رد منها .

وفي صباح يوم السبت ، وبعد تفكير مطول ، بعث فلوريتينو أريثا الحمامة من جديد مع رسالة اخرى دون توقيع . ولم يكن عليه ان ينتظر هذه المرة حتى اليوم التالي . ففي المساء ، اتاه الصبي نفسه حاملاً الحمامة في قفص آخر ، ورسالة شفوية بانها تعيد اليه ثانية الحمامة التي عادت لتفقد منه ، وانها قد اعادتها أمس الأول بدافع حسن التربية وتعيدها هذه المرة اشفاقاً ، ولكنها تقول الحقيقة الان بانها لن تعيدها اذا ما افلتت منه . لفت ترانسيو أريثا بالحمامة حتى وقت متأخر ، فأخرجتها من القفص ، وهذلت لها وهي تحملها بين ذراعيها ، محاولة تنويمها بأغنيات أطفال ، وفجأة لاحظت ان في خاتمها ورقة كتب عليها سطر واحد : لا أقبل رسائل مغفلة . قرأه فلوريتينو أريثا بقلب فاقد للوعي ، وكأنه في ذروة مغامرته الاولى ، ولم يكذب يغفرو في تلك الليلة ، الا ليعاني فقدان الصبر في احلامه . وفي صباح اليوم

التالي، وقبل ذهابه الى المكتب، اطلق الحمامة ثانية بعد ان حملها رسالة حب وقع عليها اسمه بحروف واضحة تماما، ووضع لها في الخاتم ايضا احداث وردة متفتحة في حديقته، واكثرها حيوية وشذى.

لم يكن الامر سهلا معها. فبعد ثلاثة شهور من الحصار، واصلت راعية الحمام الرد بالاجابة ذاتها «لست من هؤلاء». ولكنها لم ترفض ابدا تلقي الرسائل أو المجيء الى المواعيد التي كان يرتبها فلوريتينو اريثا بحيث تبدل لقاءات مصادقة. لقد كان معتاداً على التخفي : انه العاشق الذي لا يظهر وجهه ابداً، وهو اكبر طماع في الحب والاشد بخلا فيه في الحين ذاته . . من لا يمنح شيئاً ويريد كل شيء، من لا يتيح لاحد ترك ادنى اثر في قلبه، هذا الصياد المنزوي خرج من مخبئه والقى بنفسه الى عرض الطريق في نوبة احتدام رسائل موقعة، وهدايا غزل، وطواف مستهتر حول بيت راعية الحمام، بل انه جال حول البيت في مناسبتين لم يكن الزوج فيها مسافراً كما لم يكن في السوق. انها المرة الاولى، منذ زمن حبه الاول، التي احس فيها بان نصلاً يخترقه.

بعد ستة شهور على لقائهما الاول، التقيا اخيراً في قمرة سفينة كان يجري اصلاحها وطلاؤها في الميناء النهري. كان مساء رائعاً. وكانت اوليمبيا زوليتا تتمتع بحب طويل، حب راعية حمام طائشة، وتهوى البقاء عارية لعدة ساعات، في راحة مسترخية هي بالنسبة لها حب كالحب. كانت القمرة منزوعة الطلاء، وقد أعيد طلاء نصفها تقريبا، وكانت رائحة الترتين ملائمة للاحتفاظ بها كذكرى من مساء لطيف. وفجأة، وبالحاح وحي فريد، نزع فلوريتينو اريثا غطاء علبة دهان أحمر كانت قريبة من السرير، وغمس اصبعه السبابة فيها، ورسم على عانة راعية الحمام الجميلة سهماً دامياً مصوباً نحو الجنوب، ثم كتب على بطنها عبارة : هذه الیسامة لي. وفي تلك الليلة بالذات، تعرت اوليمبيا زوليتا امام زوجها دون ان تتذكر الاعلان المكتوب على بطنها، ولم ينطق الزوج بأية كلمة، بل ان ايقاع انفاسه لم يتبدل . . لا شيء، لكنه مضى الى الحمام وتناول موس الحلاقة فيما كانت ترتدي قميص نومها، وذبحها بضربة واحدة.

لم يعلم فلوريتينو اريثا بالحدث الا بعد عدة أيام، حين ألقي القبض على الزوج الهارب وروى للصحف أسباب الجريمة وكيفية تنفيذها. وقد انشغل خلال سنوات بالتفكير في رسائله الموقعة، وراح يحسب سنوات سجن القاتل الذي كان يعرفه جيداً لتجارته التي ينقلها في السفن، لكنه لم يكن يخشى ضربة موس حلاقة في العنق، ولا الفضيحة العامة، بقدر ما كان يخشى حفظه العاثر اذا ما علمت فيرمينا داثا بخيائته. وفي أحد ايام سنوات الانتظار، تأخرت المرأة القائمة على رعاية ترانسيواريثا في السوق بسبب مطر غزير في غير اوانه، وحين

رجعت الى البيت وجدتها ميتة . كانت تجلس على الكرسي الهزاز، مزينة ومزهرة كعادتها، وكانت عيناها متقدتين وعلى شفتيها ابتسامة خبث شديد بحيث لم تنتبه حارستها الى انها ميتة الا بعد ساعتين . وكانت قبل موتها بقليل قد وزعت على اطفال الحي ثروتها من الذهب والمجوهرات المدفونة تحت السرير، قائلة لهم انهم يستطيعون اكلها كقطع الحلوى، ولم يكن ممكنا استعادة بعض القطع الثمينة . دفنها فلوريتينو اريثا في مزرعة لامانودي ديوس القديمة، التي مازالت تعرف باسم مقبرة الكوليرا، وزرع على قبرها شجيرة ورد.

ومنذ زيارته الاولى للمقبرة . اكتشف فلوريتينو اريثا ان اوليمبيا زوليتا كانت مدفونة قريبا من امه، في قبر بلا شاهدة، لكن اسمها وتاريخ موتها كانا مكتوبين بالاصبع على اسمنت القبر الطري، وفكر مذعوراً بان تلك الكتابة هي سخرية دموية من الزوج . وعندما ازهرت شجيرة الورد، كان يضع وردة على قبرها، ان لم يكن هناك من يراه، ثم انه زرع لها فيها بعد جفنة قطعها من شجيرة امه . كانت شجيرتا الورد تنموان بسرعة هائلة، مما جعل فلوريتينو اريثا يضطر الى حمل مقص التشذيب وغيره من ادوات الحديقة للحفاظ على الشجرتين ضمن حدود معقولة . لكن نموها كان اكبر من قواه . وبعد عدة سنوات كانت الشجيرتان قد امتدتا كخرج ما بين القبور، فصارت مقبرة الوباء الطيبة تعرف منذ ذلك الحين باسم مقبرة الورد، الى ان جاء عمدة أقل واقعية من الحكمة الشعبية، فانتزع شجيرات الورد في احدي الليالي، وعلق لوحة جمهورية فوق قنطرة المدخل : المقبرة الكونية .

لقد حكم موت الام على فلوريتينو اريثا بالعودة الى ديدنه السابق : المكتب، واللقاءات المتناوبة مع عشيقاته المزمנות، ولعب الدومينو في النادي التجاري، وقراءة كتب الحب نفسها، وزيارة المقبرة في أيام الاحاد . انه صداً الروتين، الذي كثيراً ما كان محط قذف ومبعث خوف، لكنه حماه من الاحساس بتقدمه في السن . ومع ذلك، ففي يوم أحد من أيام كانون الثاني، حين كانت شجيرات الورد قد انتصرت على مقص التشذيب، رأى سنووة على اسلاك النور التي نصبت حديثاً، فأدرك فجأة كم من الوقت مضى على موت أمه، وكم مضى على مقتل اوليمبيا زوليتا، وكم مضى ايضاً على ذلك المساء الآخر من شهر كانون الاول البعيد حين بعثت فيرمينا دائاً رسالة تقول فيها أجل، انها ستحبه الى الابد . كان يتصرف حتى ذلك الحين وكأن الزمن لا يتقدم بالنسبة له وانما بالنسبة للآخرين فقط . ففي الاسبوع الماضي تقريبا التقى في الشارع بزوجين من اولئك الكثيرين الذين تزوجوا بفضل رسائله السرية، ولم يستطع ان يتعرف على الابن الاكبر الذي كان هو نفسه عرابه . وقد تخلص من الحرج بالعبارة التقليدية : «يا الله ! ما قد أصبح رجلاً» . وحتى حين أصبح جسده يبعث اليه بأول إشارات الانذار، استمر على هذا الحال، لانه احتفظ دوماً بعافية .

كالصخر في مواجهة الامراض . وقد اعتادت ترانسيتواريثا القول : «المرض الوحيد الذي اصاب ابني هو الكوليرا» . خالطة الكوليرا بالحب طبعاً ، وذلك قبل ان تختلط ذاكرتها بمزمن طويل . ولكنها كانت مخطئة على اي حال ، لان ابنها اصيب سراً بست حالات من السيلان الابيض ، رغم ان الطبيب كان يقول بانها ليست ست حالات ، وانما حالة واحدة وحيدة تعود للظهور بعد كل معركة خاسرة . كما اصيب بخراج ، وبأربع حالات من عرف الديك وست اصابات بالبثور ، ولكن لم يكن ليخطر بباله أوبيال أي رجل آخر اعتبار هذه الاصابات امراضاً وانما مجرد تذكارات حرب .

ما كاد يتم الاربعين من العمر حتى اضطر للهرع الى الطبيب شاكيا من آلام غير محددة في عدة مواضع من جسده . وبعد عدة فحوص ، قال له الطبيب : «انها امور السن» . لقد كان يعود الى البيت دوماً دون ان يتساءل إن كان لكل هذه الامور علاقة به . فنقطة الارتكاز الوحيدة في ماضيه هي غرامياته البائدة مع فيرمينا داثا ، ولم يكن يدخل في حسابات حياته الا ما له علاقة بها . وهكذا وجد نفسه يوم رؤيته طيور السنونو على اسلاك النور يسترجع ماضيه منذ أقدم ذكرياته ، استرجع ذكرى غرامياته العارضة ، والعثرات الكثيرة التي كان عليه اجتيازها للوصول الى موقع رئاسي ، وكذلك الحوادث الكثيرة التي اثارها قراره الملحمي بان تكون فيرمينا داثا له ، وهو لها رغم كل شيء وفوق كل شيء ، وعندها فقط اكتشف ان الحياة تفلت منه . فهزت احشائه قشعريرة افقدته صوابه ، واضطر لافلات ادوات الحديقة والاستناد الى جدار المقبرة كي لا تطرحه ارضا أول ضربة من مقلب الشيخوخة ، وقال مرتعداً :

- رباه ! كل هذا حدث منذ ثلاثين سنة !

أجل ثلاثون سنة مرت كذلك على فيرمينا داثا دون شك ، لكنها كانت بالنسبة لها أسعد سنوات حياتها وأكثرها حيوية . كانت أيام الرعب في قصر كاسالديرو وقد اهملت في مزبلة الذاكرة . واصبحت تعيش في بيتها الجديد في حي لامانغا ، سيدة كاملة السيادة على مصيرها ، مع زوج عادت تفضله على جمع رجال العالم لو اتيح لها الاختيار من جديد ، ومع ابن سيتابع ارث العائلة في مدرسة الطب ، وابنة تشبهها تماماً عندما كانت هي في مثل سنها ، حتى ان احساسها بانها تتكرر من خلالها كان يسبب لها الاضطراب . لقد عادت ثلاث مرات الى اوروبا بعد الرحلة التعيسة حين قررت الا تعود أبداً كي تتخلص من العيش في رعب دائم .

لابد ان الله استجاب اخيراً الى صلوات أحدهما : فبعد سنتين من الإقامة في باريس ، وحين بدأت فيرمينا داثا بالبحث مع خوفينال اوربينو عما تبقى لهما من الحب بين الانقاص ، وصلت لهما برقية من برقيات منتصف الليل أيقظتهما بخبر ان دونيا بلانكا دي اوربينو تعاني مرضاً

خطيراً، ثم تلتها برقية ثانية تحمل خبر موتها. رجعا في الحال. ونزلت فيرمينا داثا من السفينة بثوب حداد فضفاض لم يخف اتساعه حالتها : كانت حبلى ثانية بالفعل ، وقد كان هذا الخبر منطلقا لاغنية شعبية تحمل من الخبث اكثر مما تحمله من السوء ، وقد شاع منها طوال تلك السنة مقطع يقول : ما الذي تفعله الجميلة في باريس ، ما تكاد تذهب حتى تعود للولادة. ورغم ابتذال الكلمات ، واصل الدكتور خوفينال اورينوترديدها لسنوات طويلة في حفلات النادي الاجتماعي كدليل على طيب سريرته.

قصر المريكزدي كاسالدوير والفخم ، الذي لم يعثر مطلقا على خبر مؤكد حول وجوده ومآثره، بيع أولا لدار الخزينة البلدية بسعر مناسب، ثم أعيد بيعه بثروة باهظة فيما بعد للحكومة المركزية، عندما جاء باحث هولندي لاجراء تنقيبات هناك ليثبت وجود الضريح الحقيقي لكريستوف كولومبس : الضريح الرابع. وقد ذهبت شقيقتا الدكتور اورينوترديش في دير لاس ساليسياناس، في عزلة بلا ندور، وأقامت فيرمينا داثا في بيت ابيها القديم ريثما ينتهي العمل ببناء البيت في لمانغا. ودخلت اليه بخطى واثقة، دخلت لتأمر وتنهاي، ومعها دخل الاثاث الانكليزي الذي احضرته منذ رحلة الزفاف والمكملات التي بعثت بطلبها بعد رحلة المصالحة، وبدأت تملأ البيت منذ يومها الاول فيه بكل انواع الحيوانات الغريبة التي كانت تمضي بنفسها لتشتريها من سفن الانتيل. دخلت الى البيت الجديد مع زوجها المستعاد، مع ابنها اليافع، ومع ابنتها التي ولدت بعد اربعة شهور من عودتها وعمداها باسم اوفيليا. وادرك الدكتور اورينوترديش من جهته، انه يستحيل عليه استعادة زوجته تماما كما كانت له اثناء رحلة الزفاف، لان الحب الذي اراده منها منحه للطفلين، ولكنه تعلم العيش سعيدا ببقايا الحب. ثم وصلها الانسجام المرغوب من حيث لم يتظراه اثناء مأدبة عشاء قدم فيها صنف لذيذ لم تتمكن فيرمينا داثا من تحديد كنهه. فتناولت طبقا لا بأس به، لكن الطعام أعجبها فعادت تسكب طبقا آخر، وتحسرت لان التكلف الاجتماعي لا يسمح لها بسكب طبق ثالث. وعندما علمت بانها انها تناولت بشهية لا شك فيها طبقين من بوريه الباذنجان المطحون، أصبح الباذنجان يقدم في بيت لمانغا بكل اشكاله وكميات كتلك التي كان يقدم بها في قصر كاسالدوير، وكان الجميع يأكلونه بشهية، حتى ان الدكتور خوفينال اورينوترديش صار يمزح في لحظات فراغ الشيخوخة بالقول انه يرغب بانجاب ابنة ليطلق عليها الاسم المحبوب في البيت : باذنجانة اورينوترديش.

كانت فيرمينا داثا تعرف حيثئذ ان الحياة الخاصة متقلبة وملبئة بالمفاجآت، على عكس الحياة العامة. ولم يكن من السهل عليها وضع فوارق حقيقية ما بين الأطفال والبالغين،

ولكنها كانت تفضل الاطفال في نهاية المطاف ، لان معاييرهم اكثر صواباً . وما كادت تجتاز منعطف النضوج ، متخلصة اخيراً من كل انواع السراب ، حتى بدأت ترى خيبة الأمل في انها لم تكن أبداً كما حلمت ان تكون وهي شابة ، في حديقة البشارة ، وانما اصبحت شيئاً آخر لم تجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسها : خادمة مرفهة . لقد توصلت لتصبح سيدة الحياة الاجتماعية المحبوبة ، ومحط الاعجاب فيها ، لتكون في الوقت ذاته السيدة مرهوبة الجانب . ولكن شيئاً لم يكن يلح عليها بقسوة ولم يكن اقل تهادناً من ادارة شؤون المنزل . لقد أحست دوماً بانها تعيش حياة مكرسة لزوجها : سيدة مطلقة في مملكة السعادة الفسيحة المشادة من اجله ، ومن اجله فقط . كانت تعلم انه يحبها فوق كل شيء ، يحبها اكثر مما يجب أياً كان في الدنيا ، انها يحبها من أجل نفسه فقط : في خدمته المقدسة .

واذا كان هناك ما يعذبها فهو الحكم المؤبد المفروض عليها بتحضير الطعام اليومي . اذ لم يكن الامر يتوقف عند اعداد الطعام في الموعد المحدد ، بل لا بد ان يكون كذلك متقناً ، وان يحتوي على ما يريد الزوج اكله دون ان تسأله عما يريد . واذا ما سأله يوماً ، فان سؤالها سيكون طقساً آخر يضاف إلى طقوس الروتين البيتي التي لا طائل منها ، لانه سيرد عليها دون ان يرفع نظره عن الجريدة : «أي شيء» . والحقيقة انه كان يقول ذلك ، بطريقته اللطيفة ، لانه ما كان يستطيع ان يتصور نفسه كزوج أقل استبدادية . لكنه حين يجلس إلى المائدة لا يقبل أي شيء ، بل ما يريده بالضبط ، وبلا ادنى نقصان : فاللحم ليس له مذاق اللحم ، والسماك ليس له مذاق السمك ، وليس للخنزير طعم الجرب ، ولا للفروج مذاق الريش . ثم انه لا بد من وجود الهليون في اي موسم كان ، حتى يتاح له الابتهاج لرائحة بوله الشديدة . ما كانت تلومه ، بل تلقي باللوم على الحياة . لكنه كان صانعاً لا يرحم من صناع الحياة . كانت تكفيه عشرة شك ليزيح الطبق على المائدة قائلاً : «هذا طعام صنع بلا حب» . وكان يصل في هذا المنحى إلى حالات خيالية من الالهام ، ففي احد الأيام ، تذوق قليلاً من شراب البابونج ، ثم أعاد ما شربه بعبارة واحدة : «هذا الشيء له طعم نافذة» . وقد فوجئت هي كما فوجئت الخادومات ، لأنهن لم يتعرفن يوماً على أحد شرب نافذة مغلقة . ولكنهن حين تذوقن الشراب ليفهمن . . فهمن : كان له مذاق نافذة .

لقد كان زوجاً دقيقاً : فهو لم يلتقط أي شيء عن الارض يوماً ، كما لم يكن يطفىء النور او يغلق الباب أبداً . وحين يجد أحد الازرار ناقصاً ، في عتمة الفجر ، كانت تسمعه يقول : «لا بد للمرء من زوجتين ، واحدة ليحبها ، وواحدة لتخيط له الازرار» . وفي كل يوم ، عند تناوله أول رشفة من القهوة وأول ملعقة من الحساء الساخن ، كان يطلق عواء مؤثراً ما عاد يفزع أحداً ، ثم ينطلق بالقول فوراً : «اذا هجرت هذا البيت يوماً فاعلموا اني فعلت ذلك

لاني مللت البقاء فيه بفم محروق دوماً. وكان يقول بانهم لا يطبخون غذاء شهياً ومتنوعاً إلا حين يتناول مليناً لتنظيف معدته ويكون عاجزاً عن أكل الطعام، وكان موقناً ان هذا التدبير هو مؤامرة غادرة من زوجته، حتى انه لم يعد ينظف معدته بدواء مُسهل إلا اذا تناولت مُسهلاً معه.

ولضجرتها من سوء تقديره، طلبت منه هدية فريدة في عيد ميلادها: ان يقوم باداء الاعمال البيتية ليوم واحد. فوافق فرحاً، وتولى ادارة البيت فعلاً منذ الفجر. قدم فطوراً رائعاً، لكنه نسي انها لا تحب البيض المقلي ولا تتناول القهوة بالحليب. ثم أعطى التعليمات لاعداد غذاء عيد ميلاد لثمانية مدعوين واوعز بترتيب البيت، ورغم اجتهاده لتسيير الشؤون المنزلية خيراً منها، فقد اضطر للاستسلام دون خجل قبل منتصف النهار. اذ ادرك منذ اللحظة الاولى انه لا يملك ادنى فكرة عن مكان وجود أي شيء وخصوصاً في المطبخ وقد تركته الخادومات يقلب كل شيء ليجث عما يريد، اذ شاركن كذلك في اللعب. وحتى الساعة العاشرة لم يتلقين الاوامر لاعداد الغذاء، لان تنظيف البيت لم يكن قد انتهى، كما لم يكن قد تم ترتيب غرف النوم بعد، وبقي الحمام دون تنظيف، ونسي وضع الورق الصحي في مكانه، وكذلك استبدال شراشف الاسرة، كما نسي ان يبعث الحوذي لاحضار الأولاد، وخلط بين مهمات الخادومات؛ فأمر الطاهية بترتيب الاسرة وبعث عاملات خدمة المائدة لطهي الطعام. وفي الساعة الحادية عشرة، حين كان المدعوون على وشك الوصول، كان البيت ما يزال غارقاً في الفوضى، مما دفع فيرمينا داثا إلى تولي القيادة وهي منفجرة بالضحك، ولكنها لم تفعل ذلك بزهو الانتصار الذي رغبته، بل بشفقة تهزاعها لعدم جدوى زوجها في الشؤون البيتية. وتنفس هو من الحرج بحجته الدائمة: «لم يكن الأمر سيئاً على الاقل إلى الدرجة التي ستصلين اليها لو انك حاولت معالجة المرضى». لكن الدرس مضى بلا فائدة لكليهما. فمع تقدم السنين وصلاً، عبر سبيلين مختلفين، الى النتيجة الحكيمة بانه ليس ممكناً لهما العيش معاً بطريقة اخرى، وليس ممكناً لهما ان يحبا بعضهما بشكل آخر: اذ ليس في هذه الدنيا ما هو أصعب من الحب.

في خضم حياتها الجديدة، رأت فيرمينا داثا فلوريتينواريثا في مناسبات عامة عديدة، وكانت تراه اكثر كلما ترقى في عمله، لكنها تعلمت ان تراه بشكل طبيعي جداً، حتى انها نسيت مصافحته اكثر من مرة نتيجة سهوها عنه. وكثيراً ما كانت تسمع أحاديث عنه لان موضوع صعوده الحذر والواثق في مناصب ش.ك.م.ن كان موضوعاً شائعاً في عالم الأعمال. وكانت ترى إلى تحسن مكانته، وإلى الشاء على خجله كاحجية نائية، وكان مظهره يتحسن مع زيادة طفيفة في وزنه، كما ان بطاء السن كان يناسبه، ثم انه عرف كيف يحل بوقار مشكلة

الصلع المدمرة . والاشياء الوحيدة التي بقيت فيه متحدية الزمن والموضه هي ملابسه القاتمة ، والسترات التي كانت موضه زمن مضى ، والقبعه الوحيدة ، وربطه عتق الشاعر المصنوعه من شرائط كان يأخذها من دكان أمه ، والمظله المشؤومه . وقد اعتادت فيرمينا دائما على رؤيته بطريقة مختلفه ، إلى ان لم تعد تربط بينه وبين المراهق الهزيل الذي كان يجلس متهدأ من اجلها تحت الاوراق الصفراء المتطايرة في حديقته البشارة . ولكنها لم تره أبداً بلامبالاه ، وكانت تفرح دوماً للاخبار الطيبة التي تسمعها عنه ، لانها كانت تهديء شيئاً فشيئاً من شعورها بالذنب .

ومع ذلك ، وحين ظنت انها قد محته تماماً من ذاكرتها ، عاد للظهور من حيث لم تكن تنتظره متحولاً إلى شبح لأشواقها . كانت قد هبت عليها أولى نسائم الشيوخوخه حين بدأت تشعر ان شيئاً لا سبيل إلى اصلاحه قد حدث في حياتها كلما سمعت قصف الرعد قبل المطر . انه الجرح الذي لا يندمل لذلك الرعد المتوحد والصخري الدقيق في موعده ، الذي كان ينفجر كل يوم من ايام تشرين الأول في الساعة الثالثة مساءً في جبال فييانوفيا ، والذي كانت ذكراه تتجدد مع مرور السنين . فبينما كانت الذكريات الجديدة تختلط في ذاكرتها بعد ايام من حدوثها ، كانت ذكريات الرحلة القديمة إلى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا تصبح معاصرة حتى لتبدو وكأنها حدثت بالامس ، وذلك بقدره الحنين المضللة . صارت تتذكر ماناوري ، البلدة الجبلية ، بشارعها الوحيد المستقيم والأخضر ، وعصافيرها بشير الفأل الطيب ، وبيت المخاوف حيث كانت تستيقظ وقميصها مضمخ بدموع بيترا موراليس الغزيرة ، التي ماتت حياً قبل ذلك بسنوات طويلة على السرير نفسه حيث تنام . صارت تتذكر طعم جوافه ذلك الزمن التي تبدل مذاقها منذ ذلك الحين ، والتي كان حفيف نذيرها الزخم يختلط بحفيف المطر ، كما اخذت تتذكر امسيات سان خوان دي تيسير الزبرجدية ، حين كانت تخرج لتبمشي مع كوكبة بنات خوؤلته الصاخبات وهي تضغط اسنانها حتى لا يقفز قلبها من فمها كلما اقتربت من مركز التلغراف . باعت بيت أبيها بأي ثمن لانها ما عادت تحتمل آلام المراهقة ، ولا مرآى الحديقة المقفرة من الشرفة ، ولا أريج الياسمين في الليالي الحارة ، ولا هول صورتها بزي سيده قديمه في مساء ذلك اليوم من شهر شباط ، وهو نفس اليوم الذي حسمت فيه مصيرها . واينما قلبت ذاكرتها في ذلك الزمن كانت تصطدم بذكرى فلوريتينو اريثا . ومع ذلك ، فقد كانت تمتلك من الصفاء دوماً ما يجعلها تدرك بانها ليست ذكريات حب أو ندم ، وانما احساس مكدر يترك لها بقايا دموع . ودون ان تدري ، كانت مهددة بالوقوع في مصيدة الشفقة التي أضاعت عدداً كبيراً من ضحايا فلوريتينو اريثا الغافلات .

تشبثت بزوجها . وجاء ذلك في الفترة التي بدأ يحتاج اليها اكثر من أي وقت آخر ، اذ كان

يكبرها بعشر سنوات ، وينطلق وحده متعثراً في ضباب الشيخوخة ، اضافة لكونه رجلاً وأشد ضعفاً . وانتهيا إلى معرفة بعضهما حتى أصبحا قبل مرور ثلاثين سنة على زواجهما وكأنهما كائن واحد مشطور إلى نصفين ، وصار القلق يساورهما لكثرة ما أصبح كل منهما يعرف ما يدور بخلد الآخر ، وللحدث المضحك بان يسبق أحدهما إلى النطق بما كان سيقوله الآخر . لقد صرفا معاً خلافات سوء التفاهم اليومية ، والاحقاد الآنية ، والقذارات المتبادلة ، وبروق مجد السعادة الزوجية الخرافية . كان ذلك هو الزمن الذي أحبا فيه بعضهما على أحسن وجه ، دون تسرع ولا مبالغة ، وقد وعيا انتصاراتهما الباهرة على الخصوم وباركاهما . وكان على الحياة ان تمدهما بمزيد من البراهين الفاتية ، ولكنها لم تعد ذات نفع لهما : فقد كانا على الضفة الأخرى .

أعدّ برنامج حافل بالنشاطات العامة بمناسبة الاحتفال بمطلع القرن الجديد، وأجدر هذه النشاطات بالذكر هي الرحلة الأولى بالمنطاد، ثمرة مبادرة من مبادرات الدكتور خوفينال اوربينو التي لا تنضب. اجتمع معظم اهل المدينة عند شاطئ الارسينال لا بداء دهشتهم من ارتفاع بالون التحرير الهائل، الملون بألوان العلم الوطني في الجو، ليحمل أول بريد جوي إلى سان خوان دي لاثيناغا، على بعد حوالي ثلاثين فرسخاً بخط مستقيم إلى الشمال الشرقي. كان الدكتور خوفينال اوربينو وزوجته، اللذان عرفا متعة الطيران من قبل في معرض باريس الكوني، هما أول من صعد إلى حجرة المنطاد المصنوعة من الخيزران، ثم صعد معها مهندس الرحلة الطائرة وستة مدعويين آخرين كانوا يحملون رسالة من الحكومة المحلية إلى السلطات البلدية في سان خوان دي لاثيناغا، يسجلون فيها للتاريخ ان تلك الرسالة هي أول بريد ينتقل عبر الاجواء. أحد صحفيي الدياريو دي كوميرثيو سأل الدكتور خوفينال اوربينو ما هي آخر كلماته اذا ما قضى نحبه في المغامرة، فلم يتر وهذا للتفكير بالجواب الذي سبب له شتائم كثيرة، اذ قال:

- أظن بان العالم بأسره سيشهد تغير القرن التاسع عشر، باستثنائنا نحن. وفيما المنطاد يرتفع، أحس فلورينتينو اريثا الضائع بين الحشود الساذجة التي تنشد النشيد الوطني، بانه يشترك بالرأي مع تعليق سمعه من أحدهم وسط الضجة بان تلك المغامرة ليست مناسبة لامرأة وخصوصاً امرأة في سن فيرمينا داثا. ولكنها لم تكن بالمغامرة الخطيرة على اي حال. أو انها لم تكن على الأقل خطرة بقدر ما هي مؤثرة. لقد وصل المنطاد دون تيارات هوائية معاكسة إلى مستقره، بعد رحلة هادئة في سماء زرقاء إلى حد غير معقول. طاروا طيراناً طيباً على ارتفاع قليل، تدفعهم ريح هادئة ومواتية، فوق ذرى الجبال المكلفة بالثلج أولاً، ثم فوق مستنقع ثيناغا غراندي الفسيح.

ومن السماء رأوا أطلال مدينة كارتاخينا دي اندياس القديمة والبطولية كما يراها الله ، مهجورة من ساكنيها الذين هربوا خوفاً من الكوليرا ، بعد ان قاوموا جميع صنوف الحصار من جانب الانكليز وكل عسف القراصنة خلال ثلاثة قرون . رأوا الاسوار الكاملة ، واشجار الشوارع الملتفة ، والتحصينات التي قوضتها رهبانيات الثالوث ، وقصور المزمرو والمذابح الذهبية مع حكامها الاستعماريين المتعفين بالوباء في دروعهم السابعة .

طاروا فوق بيوت تروخاس دي كاتاكا الاثرية القائمة وسط الماء ، والمطلية بألوان مجنونة ، والمرفقة بحظائر لربية عظاميات الأكل ، حيث تتدلى نباتات بالسامينا واستروميلييا في الجناثن المائية . كان مثات الاطفال يلقون بانفسهم من النوافذ ، ومن سطوح البيوت ومن الزوارق التي يقودونها بمهارة مذهلة ويغوصون كاسماك الشابل لاستخراج حزم الملابس وقناني دواء السعال وطعام الصدقات الذي تلقي به المرأة الجميلة ذات قبعة الريش من حجيرة المنطاد . طاروا فوق اوقيانوس ظلال مزارع الموز التي كان صمتها يرتفع اليهم كبخار ميث ، فتذكرت فيرمينا داثا نفسها وهي في الثالثة من العمر ، أوريبا في الرابعة ، تتمشى في الاجمة الكثبية ممسكة بيد امها التي كانت ما تزال حينئذ مجرد طفلة أيضاً وسط نساء اخريات يرتدين المسلمين ، مثلها ، ويحملن مظلات بيضاء ويضعن قبعات شفافة . قال مهندس المنطاد الذي كان يراقب العالم بمنظار مكبر : «يبدو انهم موتى» . وأعطى المنظار للدكتور اوربينو ، فرأى هذا الاخير العربات التي تجرها الجواميس بين الشجيرات ، وخطوط السكة الحديد ، واقنية الري المتجمدة ، وحيثما توجه بنظره كان يرى أجساداً بشرية مبعثرة . وقال أحدهم بانه علم ان الكوليرا كانت تفتك بقري منطقة ثيناغا غراندي . فقال الدكتور اوربينو الذي لم يتوقف عن النظر بالمنظار اثناء كلامه :

- لا بد انه صنف خاص جداً من الكوليرا اذن . لان هناك رصاصة رحمة في عنق كل واحد من الموتى .

ثم طاروا بعد ذلك بقليل فوق بحر من الزبد وخطوا دون اي حادث يذكر على شاطئ متقد ، كانت ارضه المتشققة والمغطاة بملح البارود محرقة وكأنها نار متأججة . وكانت السلطات تقف هناك دون أية حماية من الشمس سوى المظلات العادية ، وكان هناك تلامذة المدارس الابتدائية يلوحون بأعلام صغيرة على ايقاع النشيد الوطني ، وملكات الجمال يحملن زهوراً احرقها القيظ ويضعن تيجاناً من الورق المذهب ، وسُذج بلدة غايرا المزدهرة ، التي كانت في ذلك الحين أحسن قرى الشاطئ الكاريبي حالاً . الشي الوحيد الذي كانت تريده فيرمينا داثا هوروية مسقط رأسها ثانية ، لتقارن ما تراه مع أقدم ذكرياتها ، لكنهم لم يسمحوا لأحد بالتجول خوفاً من فتك الوباء . سلم الدكتور خوفيناك اوربينو الرسالة التاريخية ، التي فقدت

فيما بعد ولم يعد يُعرف شيء عنها، وقد شارف جميع أعضاء البعثة على الاختناق في قیظ الخطابات الحماسية. إلى أن حملوهم أخيراً على صهوات البغال حتى مرسى بويلوبيخو، حيث تلتقي المستنقعات بالبحر، لأن المهندس لم يتمكن من جعل المنطاد يطير ثانية. كانت فيرمينا دائماً متأكدة من أنها قد مرت من هناك مع أمها، وهي طفلة، في عربة يجرها زوج من الجاموس. وقد روت ذلك عدة مرات لابیها عندما كبرت، لكنه مات وهو يصصر على أنه يستحيل عليها أن تتذكر ذلك، وكان يقول لها:

- انني اذكر هذه الرحلة جيداً، وقد كانت هكذا فعلاً، لكنها حدثت قبل مولدك بخمس سنوات على الأقل.

عاد أعضاء بعثة المنطاد بعد ثلاثة أيام إلى ميناء المنشأ، وقد انهكتهم ليلة عاصفة، واستقبلوا استقبال الابطال. وتعرف فلوريتينواريثا، الضائع بين الحشود طبعاً، على اثار البخار فوق محيا فيرمينا دائماً. ومع ذلك، عاد لرؤيتها مساء ذلك اليوم في استعراض الدراجات، الذي اقيم تحت رعاية زوجها أيضاً، ولم يكن يبدو عليها أي أثر للتعب. كانت تقود دراجة فريدة نبدو أشبه بجهاز من اجهزة السيرك بعجلتها الامامية العالية، والتي جلست فوقها، بينما كانت العجلة الخلفية صغيرة جداً ولا تكاد تكفي لاسنادها. وكانت ترتدي سروالاً فضفاضاً ذا حواشٍ ملونة أثار استنكار السيدات المسنات، وأفقد الرجال الوقورين صوابهم، لكن أحداً لم يستطع ابداء لامبالاة بمهارتها.

هذه الصور، وغيرها كثير، كانت صوراً سريعة الزوال لسنوات طويلة، تظهر بغتة لفلوريتينواريثا حين يحل ذلك للمصادفة، ثم ما تلبث أن تختفي بالطريقة نفسها تاركة في قلبه نورج لوعة. لكنها كانت تخلف أثراً في حياته، اذ انه لم يتعرف على قسوة الزمن من خلال مظهره هو بالذات بقدر ما تعرف عليه من التبدلات التي يلاحظها على فيرمينا دائماً كلما رآها. دخل في أحد الايام إلى مطعم دون سانتشو، وهو مطعم فاخر من العهد الاستعماري، واحتل ركناً منزوياً، كما هي عادته كلما مضى لتناول وجبة عصر خفيفة كوجبة عصفور. وفجأة رأى فيرمينا دائماً في المرأة الضخمة، جالسة إلى الطاولة مع زوجها ورجلين آخرين مع زوجتيهما، بزاوية تتيح له رؤية صورتها المعكوسة في المرأة بكل رونقها. كانت عزلاء، تقود الحديث بظرافة وضحكة تنفجران كأنفجار الألعاب النارية، وكان جمالها أشد ألماً تحت الثريا الضخمة ذات القطع الكريستالية: لقد عادت «أليس» لاختراق المرأة.

تأملها فلوريتينواريثا ماشاء له التأمل بأنفاس مبهورة، رآها تأكل، ورآها تتذوق قليلاً من النبيذ، ورآها تمازح دون سانتشو، الرابع في سلالة، وعاش معها لحظة من حياتها وهو على طاولته المنعزلة، وتمشى لاكثر من ساعة في ارضها الحرام دون أن يكون مرئياً. ثم تناول اربعة

فناجين اخرى من القهوة ليبقى وقتاً أطول، إلى ان رآها تخرج مختلطة بالمجموعة التي معها. لقد مروا قريباً جداً منه، للدرجة انه تمكن من تمييز رائحتها وسط وابل العطور الاخرى المنبعثة ممن هم معها.

ومنذ تلك الليلة، وعلى امتداد سنة تقريباً، قام بمحاصرة صاحب المحل حصاراً عنيداً، عارضاً عليه كل ما يشاء، من مال أو خدمات، أو تلبية أكثر ما اشتهاه في حياته، مقابل ان يبيعه المرأة. ولم يكن الأمر سهلاً فالشيخ دون سانتشو كان يؤمن بالخرافة القائلة ان ذلك الاطار الثمين الذي صنعه نجار ابنوس من فينا هو توأم اطار آخر كانت تملكه ماري انطوانيت، وقد اختفى دون ان يبقى له اثر: تحفتان فريدتان. وحين وافق أخيراً، علق فلوريتينو اريشا المرأة في صالة بيته، ليس لجمال الاطار ودقة صنعه، وانما لاجل القسم الداخلي الذي احتلته الصورة المحبوبة لساعتين.

وكثيراً ما كان يري فير مينا داثا، ممسكة بذراع زوجها، في انسجام تام، متحركين كليهما في جو خاص بهما، بانسياب مذهل لا يتشوش إلا حين يضافحاه. وفعلاً كان الدكتور يخوفينال اوربينويشد على يده بحرارة، بل وكان يسمح لنفسه بان يربت على كتفه في بعض المناسبات. أما هي، فكانت تعامله بمقتضى نظام الشكليات الغامض، ولم تبد يوماً ادنى حركة تتيح له ان يشك بانها تتذكره مذ كانت عازبة. كانا يعيشان في عالمين متباعدين، وفيما كان يقوم بكل جهد متاح لتقريب المسافة، فانها لم تكن تقوم بأية خطوة إلا في الاتجاه المعاكس. لقد مضى زمن طويل قبل ان يجرؤ على التفكير بان تلك اللامبالاة ليست سوى درع لاختفاء الخوف. لقد خطر له ذلك فجأة، عند تعميد السفينة النهرية الاولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية، وكانت تلك أيضاً هي المناسبة الاولى التي مثل فيها فلوريتينو اريشا العم ليون الثاني عشر باعتباره نائباً أول، لرئيس ش.ك.م.ن. وقد اضفت هذه المصادفة على الحفل مهابة خاصة، فلم يتخلف عن الحضور أحد ممن لهم أية قيمة في حياة المدينة.

كان فلوريتينو اريش مشغولاً بمدعويه في الصالة الرئيسية بالسفينة، التي ما زالت تنبعث منها روائح الدهان الحديث والقار المذاب، عندما انفجرت موجة من التصفيق على الرصيف وعزفت الفرقة الموسيقية لحناً حماسياً. وكان عليه ان يقهر الارتعاشة القديمة كقدمه تقريباً حين رأى امرأة احلامه الفاتنة ممسكة بذراع زوجها، بنضوجها الرائع، وهي تمر كملكة من عصر آخر وسط حرس الشرف المتزين بزى المراسم، تحت وابل من الشرائط الورقية الملونة وأوراق الازهار الطبيعية التي تقذف من النوافذ. وكانا يردان على التصفيق بتحية من يديهما، لكنها

كانت فاتنة حتى لتبدو وكأنها وحيدة وسط الحشد . كان كل ما ترتديه له لون ذهبي ملكي ، ابتداء من الخذاء ذي الكعب العالي واذيال الثعالب على عنقها ، وحتى القبعة التي لها شكل الجرس .

انتظرهما فلوريتتينوارثا على الجسر ، إلى جانب السلطات الاقليمية . وسط قصف الموسيقى والألعاب النارية وجؤرات السفينة القوية الثلاثة التي بللت رصيف الميناء بالبخار . صافح خوفينال اوربينو صف المستقبلين بتلك الابتسامة الطبيعية التي هي من خصائصه والتي تجعل كل واحد يظن انه يصافحه بحرارة خاصة . صافح أولاً قبطان السفينة ببذلة المراسم ، ثم الاسقف . وبعده الحاكم وزوجته والعمدة وزوجته ، ثم قائد المنطقة العسكري ، وهو انديزي حديث القدم إلى المدنية . وبعد السلطات كان يقف فلوريتتينوارثا ، مرتدياً بذلة قائمة ، ولا يكاد يظهر بين كل هؤلاء الاعيان . وبعد ان صافحت فيرمينا داثا قائد المنطقة العسكري ، بدا انها ترددت أمام يد فلوريتتينوارثا الممدودة فسألها العسكري المتأهب لتقديمها لها ان كانت لا تعرفه ، فلم تقل لا ولم تقل نعم ، بل مدت يدها إلى فلوريتتينوارثا بابتسامة صالون . كان ذلك قد حدث في مناسبتين سابقتين ، وسيحدث في مناسبات اخرى ، وقد تمثله فلوريتتينوارثا دوماً كتصرف نابع من طبيعة فيرمينا داثا . ولكنه تساءل في مساء ذلك اليوم ، بمقدرته اللامحدودة على الحلم ، ان لم تكن هذه اللامبالاة القاسية ليست إلا حيلة لاختفاء عذاب الحب .

وقد اضطربت اشواقه لمجرد ورود هذه الفكرة بباله . فعاد للطواف حول بيت فيرمينا داثا بنفس القلق الذي كان يشعر به قبل سنوات طويلة اثناء طوافه في حديقة البشارة ، لكنه لم يكن ينوي ان يجعلها تراه ، وانما كانت نيته الوحيدة ان يراها ليعلم انها ما زالت حية في الدنيا . ولم يعد ممكناً للزمن ان يمضي حيثشذ دون اكرات . كان حي لاما نغا يقوم في جزيرة شبه مقفرة ، تفصلها عن المدينة التاريخية قناة ماء خضراء ، مغطاة باحراج من أشجار الاكاكو التي كانت ملاذاً للعشاق في أيام الأحاد ابان العهد الاستعماري . ومنذ سنوات قليلة هدموا الجسر الحجري القديم الذي بناه الاسبان ، واقاموا جسراً جديداً مع مصابيح انارة ، لتتمكن الحافلات التي تجرها البغال من المرور . لقد كان على ساكني لاما نغا أول الأمر احتمال عذاب ما كان في الحسبان ، ألا وهو النوم قريباً من أول محطة لتوليد الكهرباء في المدينة ، والتي كان هديرها أشبه بهزة أرضية متواصلة . ولم يستطع حتى الدكتور خوفينال اوربينو بكل نفوذه جعلهم ينقلون المحطة إلى حيث لا تزعج احداً ، إلى ان توسطت لصالحه العناية الالهية التي تحالفه دوماً . ففي احدى الليالي انفجر رجل محطة التوليد في دوي بخاري هائل ، وطار فوق البيوت الجديدة ، مجتازاً جزءاً كبيراً من المدينة في الجو وهو ليحطم الرواق الرئيسي في دير

سان خولييان الهوسيتالاريو القديم . كان المبنى القديم قد هُجر في اوائل ذلك العام ، لكن
المرجل تسبب في مقتل أربعة سجناء كانوا قد فروا في أول الليل من السجن المحلي واختبأوا في
الدير المهجور.

تلك الضاحية الهادئة ، ذات التقاليد الغرامية الجميلة ، لم تعد مع ذلك بالمكان المناسب
للغراميات غير المواتية مذ أصبحت حياً راقياً . كانت متربة في الصيف ، وموحلة في الشتاء ،
ومقفرة طوال العام ، فيما البيوت القليلة المختفية وسط حدائق وارقة ، ذات مصاطب الموزايك
بدلاً من الشرفات القديمة ، تبدو وكأنها شيدت لآخاد حماس العشاق المتخفين . وكان ان
شاعت في ذلك الحين ، لحسن الحظ ، عادة التنزه مساء بالعربات القديمة المستأجرة والتي تم
تعديلها ليجرها حصان واحد فقط ، وكانت الجولة بالعربة تنتهي عادة في ربوة مشرفة يظهر
منها شفق تشرين المفتت أفضل مما يظهر عليه من برج الفنار ، وتظهر للعين كذلك أسماك
القرش الرشيقة وهي ترصد شاطئ المجمع الاكليريكي ، وعابرة المحيطات التي تمر كل
خميس ، ضخمة وبيضاء ، يكاد المرء يلمسها بيده وهي تجتاز قنال الميناء . وقد اعتاد فلورينتينو
ارثا استئجار عربة للتنزه بعد يوم العمل الشاق في المكتب ، لكنه لم يكن يطوي غطاء العربة
كما هي العادة في شهور الحر ، وانما كان يبقى مختبئاً في الصمت ، غير مرئي في الظل ، ووحيداً
دائماً ، وكان يوجه الخوذي في اتجاهات غير متوقعة حتى لا يثير افكاره السيئة . الحقيقة ان
الشيء الوحيد الذي كان يهيمه من النزمة هو البيت ذو الممر الوردي شبه المختفي بين
شجيرات الموز وأشجار المانغا الملتفة ، والذي كان تقليداً تعيشاً لبيوت مزارعي القطن الحاملة
في لويزيانا . كان ابنا فيرمينا دائماً يرجعان إلى البيت قبل الساعة الخامسة بقليل ، وكان
فلورينتينو ارثا يراها عائدين في عربة العائلة ، ثم يرى خروج الدكتور خوفينال اوربينو بعد
ذلك لزياراته الطبية المعتادة ، ولكنه لم يحظ خلال ما يقارب السنة من الطواف ، برؤية أي
علامة تدل على وجود من كان يتشوق لرؤيتها .

وفي مساء يوم أصرفه على النزمة المتوحدة رغم هطول أول أمطار حزينان المدمرة ، انزلق
الحصان في الوحل وسقط على وجهه . وانتبه فلورينتينو ارثا مرتعباً إلى انه كان مقابل بيت
فيرمينا دائماً تماماً ، فتوسل إلى الخوذي صائحاً ، دون ان يفكر بان تفجعه قد يشي به :
- ليس هنا ، ارجوك . في أي مكان إلا هنا .

حاول الخوذي الذي أعماه التسرع ، ان يجبر الجواد على النهوض دون ان يفكه ، فانكسر
محور العربة . خرج فلورينتينو ارثا كيفما استطاع ، واحتمل مشاعر الخجل تحت وابل المطر
إلى ان عرض عليه متنزهون اخرون حمله معهم الى بيته . واثناء انتظاره ، رآته خادمة من
خدم آل اوربينو بملابسه المبللة والمغطاة بالوحل حتى الركبتين ، فحملت اليه مظلة ليأتي

ويحتمي على مصطبة البيت . لم يكن فلوريتينو اريشا قد حلم بمصادفة كهذه في أقصى هذياناته شططاً ، ولكنه كان يفضل الموت في ذلك المساء على السماح لفيرمينا داثا برؤيته وهو على تلك الحالة .

اثناء سكناه في المدينة القديمة ، كان الدكتور خوفينال اورينويذهب مع افراد عائلته مشياً على الاقدام من بيته إلى الكتدرائية ، لحضور قداس الساعة الثامنة ، وكان ذاك عملاً دينوياً اكثر منه دينياً . وفيما بعد ، حين انتقلوا إلى البيت الجديد ، تابعوا الذهاب إلى الكتدرائية في العربة عدة سنوات ، وكانوا يتأخرون أحياناً لتبادل الحديث مع بعض الاصدقاء تحت أشجار النخيل في الحديقة . أما حين شيد معبد المجمع الاكليريكي في لامانغا ، مع شاطيء خصوصي ومقبرة خاصة ، ما عادوا يذهبون إلى الكتدرائية إلا في بعض المناسبات الجلييلة . وانتظر فلوريتينو اريشا ، الذي كان يجهل أمر هذه التبدلات ، لعدة آحاد على رصيف مقهى الباروكية ، مراقباً خروج الناس من القداسات الثلاثة . ثم انه أدرك خطأه وذهب إلى الكنيسة الجديدة ، التي كان الذهاب إليها شائعاً حتى سنوات قليلة ، وهناك وجد الدكتور خوفينال اورينومع ابنه ، في الثامنة بالضبط ، خلال أيام الأحاد الاربعة من شهر آب ، لكن فيرمينا داثا لم تكن معهم . وفي أحد أيام الأحاد هذه زار المقبرة المجاورة ، حيث كان ساكنو حي لامانغا يبنون اضرحتهم الفخمة ، وقفز قلبه حين رأى في ظل أشجار الشيا الضخمة أفخم ضريح بين كل تلك الاضرحة . كان ناجزاً ومزيناً بزخارف زجاجية قوطية ، وملائكة من المرمر ، وله شواهد مذهبة تحمل اسماء جميع افراد العائلة مكتوبة بحروف مذهبة ، وبينهم بالطبع اسم دونيا فيرمينا داثا دي اورينودي لأكايي ، ويليها ضريح الزوج ، وعلى كلا القبرين كتابة مشتركة : معاً كذلك في سلام الرب .

لم تحضر فيرمينا داثا خلال بقية العام أيأ من النشاطات التمدنية أو الاجتماعية ، حتى ولا احتفالات عيد الميلاد ، حيث كانت وزوجها عادة من ضيوف الشرف . لكن الاحساس بغيابها بلغ ذروته في حفل افتتاح موسم الاوبرا . وفي الاستراحة بين الفصلين ، فاجأ فلوريتينو اريشا جماعة لا بد انها كانت تتحدث عنها دون ذكر اسمها . كانوا يقولون ان هناك من رآها تصعد عند منتصف احدى ليالي حزيران الفاتت إلى عابرة المحيط كونارد ، المتجهة إلى بناما ، وانها كانت تغطي وجهها بخمار أسود كي لا تظهر اثار المرض المخجل الذي كان يستفدها . وسأل أحدهم أي مرض رهيب هذا الذي يجرو على امرأة متجبرة مثلها ، والاجابة التي تلقاها كانت مشبعة بمرارة سوداء :

ان امرأة بارزة كهذه لا يمكن لها ان تصاب إلا بالتدرن .

كان فلوريتينو اريثا يعلم ان اثرياء موطنه لا يصابون بأمراض قصيرة . فاما انهم يموتون فجأة ، ويكون ذلك في الغالب عشية حفلة كبرى يفسدها الحداد ، واما انهم يأخذون بالانطفاء في أمراض بطيئة وفظيعة ، تشيع اثناءها اسرار مرضهم بين الجميع . ويكاد الاعتكاف في بناما يكون تكفيراً اجبارياً في حياة جميع الاثرياء ، حيث كانوا يخضعون هناك لمشيشة الله في مشفى المؤمنين ببعث المسيح ، والذي كان عبارة عن بناء فسيح أبيض ضائع تحت أمطار «دارين» الخرافية ، يفقد فيه المرضى حساب القليل المتبقى لهم في الحياة . ولم يكن أي منهم ليعرف حق المعرفة في الحجرات المتوحدة ذات النوافذ المغطاة بستائر سميكة ، اذا ما كان مبعث رائحة الفينيك هو الصحة أم الموت . وكان الذين يشفون منهم يعودون محملين بهدايا رائعة يوزعونها بسخاء وهو يبدون الكتابة ليساعدهم المجتمع على طيشهم في البقاء أحياء . وكان بعضهم يعودون وفي بطونهم اثار خياطة بربرية تبدو وكأنها اجريت بخيوط قنب كالتى يستخدمها الاسكافيون ، فيرفعون قمصانهم ليعرضوها على زائريهم ، ويقارنوها بآثار جراح اخرين ممن ماتوا مختنقين لفرط السعادة ، ويعيشون بقية حياتهم وهم يروون ويعيدون رواية الرؤى الملائكية التى رأوها وهم تحت تأثير الكلوروفورم . ولم يكن هناك بالمقابل من يعرف كيف كانت رؤى الذين لم يرجعوا ، وخصوصاً اشداهم حزناً : اولئك الذين ماتوا منفيين في جناح المسلولين ، بتأثير كآبة المرض اكثر مما هو بتأثير فتك الداء .

وحين فكر بالاختيار ، لم يعرف فلوريتينو اريثا ما الذي كان يفضل له لفيرمينا داثا . لكنه كان يفضل الوصول الى الحقيقة قبل أي شيء ، حتى ولو كانت لا تطاق ، ورغم بحثه الدؤوب عنها لم يتوصل اليها . وبداله غير معقول ألا يجد أحداً قادراً على اعطائه دليلاً يثبت صحة رواية المرض . ففي عالم السفن النهرية ، الذي هو عالمه ، لم يكن هنالك من سر يمكن اخفاؤه ولا اثنان يمكن صونه . ومع ذلك ، فان احداً لم يسمع بأمر المرأة ذات الخمار الاسود . ولم يكن هناك من يعرف شيئاً عنها ، في مدينة كل ما فيها معروف للجميع ، حيث تشيع الاخبار عن اشياء كثيرة قبل حدوثها ، وخصوصاً اذا كانت من شؤون الاغنياء . كما لم يكن لدى أحد تفسير معين لاختفاء فيرمينا داثا . تابع فلوريتينو اريثا الطواف في لامانغا ، مستمعاً دون تقوى إلى المواعظ في كنيسة المدرسة الاكليريكية ، ومشاركاً في احتفالات تمذنية ما كانت لتهمة وهو في حالة معنوية اخرى ، لكن مرور الوقت لم يكن إلا ليزيد من صحة رواية المرض . كل شيء كان يبدو طبيعياً في بيت آل اورينو ، باستثناء غياب الام .

وفي خضم استقصاءاته الكثيرة وجد أخباراً اخرى لم يكن يعرفها ، أو لم يكن يبحث عنها ، منها موت لورينثوداثا في القرية الكانتيرية التي ولد فيها . تذكر انه كان يراه لسنوات طويلة في حروب الشطرنج الصاخبة في مقهى الباروكية ، بصوته الابع لكثرة ما يتكلم ، وكان يصبح

أكثر بدانه وفضاظة كلما هوى في الرمال المتحركة لشيخوخة مقبلة . لكنه ما عاد يبادل الحديث منذ فطور خمر اليانسون المشؤوم في القرن الماضي ، مع ان فلوريتتينواريثا كان متأكداً من ان لوريتشودا ما زال يذكره بحقد شديد كحقد هوعليه ، حتى بعد ان حقق لابنته الزواج المحظوظ الذي كان مبرر حياته الوحيد . لكنه كان مصمماً على الوصول إلى معلومات صحيحة عن صحة فيرمينا داثا ، فعاد إلى مقهى الباروكية ليحصل عليها من ابوها ، في الفترة التي جرت فيها هناك المباراة التاريخية ، حين واجه جيرميا دي سانت - امور وحده اثنين واربعين خصماً . وكان ان علم هناك نبأ موت لوريتشودا ، وقد ابتهج لذلك من كل قلبه ، رغم معرفته بان ثمن تلك البهجة قد يكون استمراره في الحياة دون معرفة الحقيقة . واخيراً اعتبر رواية مستشفى اليائسين من الشفاء صحيحة ، دون عزاء آخر سوى مثل شعبي سائر : امرأة مريضة . . امرأة خالدة . وفي أيام يأسه ، كان يقنع بفكرة ان خبر موت فيرمينا داثا ، في حال وقوعه ، سيصله على أي حال دون ان يبحث عنه .

لكن الخبر لن يصله أبداً . ففيرمينا داثا كانت حية ومعافاة ، في المزرعة التي تعيش فيها منسية ابنة خالها هيلديبراندا سانتشيث ، على بعد نصف فرسخ من قرية فلوريس دي ماريا . لقد ذهبت بلا فضيحة ، وباتفاق مع زوجها ، بعد ان تورطا كلاهما كمراهقين في الازمة الجدية الوحيدة التي عرفاها خلال خمس وعشرين سنة من زواجهما المستقر . لقد فاجأتهما الازمة وهما في راحة النضوج ، حين بدأ يشعران انها بمنأى عن أية مكيدة يحكيها الخصوم مع ابنيهما الكبيرين وحسن التريبة ، والمستقبل المفتوح امامها ليتعلما كيف يشيخان دون مرارات . لقد كانت ازمة غير منتظرة لكليهما ، ولم يشاءا فضها بالصراخ والدموع والوسطاء . كما هي العادة الطبيعية في الكاريبي . وانا بحكمة الأمم الاوربية ، وبما انها لم يتمكننا من عمل هذا ولا ذاك ، فقد انتهيا إلى التخبط في حالة صبيانية لا تنتمي إلى أي مكان . واخيراً ، قررت الذهاب ، حتى دون أن تعرف لماذا هي ذاهبة ، يقودها إلى ذلك الغضب وحده ، ولم يكن هو بقادر على اقناعها بالعدول عن رأيها ، يمنعها من ذلك شعوره بالذنب .

لقد صعدت فيرمينا داثا فعلاً إلى سفينة عند منتصف الليل وسط تكتم شديد وبوجه مغطى بطرحة الحداد ، لكنها لم تصعد إلى عابرة المحيطات كونارد الذهابة إلى بناما ، وانا في سفينة عادية ماضية إلى سان خوان دي لاثيناغا ، المدينة التي ولدت وعاشت فيها إلى ان بلغت سن الرشد ، وكان حنينها إليها يصبح أشد وطأة مع تقدم السنين . ورغم مشيئة الزوج وعادات العصر ، فانها لم تأخذ معها من يرافقها سوى ابنة في العمد عمرها خمس عشرة سنة كانت تعيش بين خدم البيت ، لكنهم أعلموا بسفرها قباطنة السفن وسلطات الموانئ التي

ستمرفيها. وحين اتخذت قرارها الذي لا عودة فيه، اخبرت ابنيها بانها ذاهبة لتخفف عن نفسها لمدة ثلاثة شهور حيث تعيش الخالة هيلديبراندا، لكنها كانت قد قررت البقاء هناك. كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف جيداً صلابة طبعها، وكان مغموماً لدرجة انه تقبل سفرها بذل وكأنه عقاب من الرب لخطورة آثامه. لكنه لم يضع من نظره انوار السفينة حين كان كلاهما نادماً لضعفه.

ورغم احتفاظهما بمراسلة رسمية حول وضع الابنين وبعض شؤون البيت الاخرى، فقد انقضت سنتان تقريباً دون ان يجد أي منها طريقاً للعودة ليست ملغومة بالكبرياء. ذهب الابنان الى فلوريس دي ماريا لقضاء عطلتها المدرسية في السنة الثانية، وفعلت فيرمينا دائماً المستحيل لتبدوراضية عن حياتها الجديدة. وكان هذا على الأقل هو ما استنتجه خوفينال اوربينو من رسائل ابنه. ثم ان اسقف ريوهاشا الذي كان يقوم حينئذ بجولة رعوية في تلك الانحاء، ممتطياً تحت مظلة تقيه الشمس متن بغلته الشهيرة البيضاء ذات السرج الموشى بالذهب. وجاء في اثره حجاج من اقاليم نائية، وعازفوا كورديون، وبائعوا أطعمة وتماثيل متجولون، وامتلات المزرعة لثلاثة أيام بمشلولين ومرضى يائسين من الشفاء، لم يأتوا في الحقيقة من اجل مواعظ الاسقف المتضلعة ولا مغفرته الكلية، وانما سعياً وراء منة البغلة، التي كان يشاع انها تحقق معجزات دون علم سيدها. كان الاسقف على علاقة وطيدة بآل اوربينودي لا كايي مذ كان خورياً، وفي ظهيرة أحد الأيام هرب من مهرجائه ليتناول الغداء في عربة هيلديبراندا. وبعد الغداء، الذي لم يتكلم خلاله إلا بامور دنيوية، قاد فيرمينا دائماً جانباً واراد ان يسمع اعترافها. ولكنها رفضت بلطف، انها بحسب، متذرعة بانه ليس لديها ما تندم عليه. ومع ان غرضها لم يكن كذلك، في وعيها على الأقل، إلا انها فكرت بان ردها سيصل الى حيث يجب وصوله.

لقد اعتاد الدكتور خوفينال اوربينو القول، ليس بلا شيء من المباهاة، بان تينك السنتين المريرتين من حياته لم تكونا نتيجة ذنبه وانما بسبب عادة زوجته المزدولة بشم الملابس التي يخلعها أفراد العائلة، والتي تخلعها هي نفسها، لتعرف من الرائحة ما اذا كان يجب ارسالها للغسيل، حتى وان بدت نظيفة للوهلة الأولى. كانت تفعل ذلك منذ طفولتها، ولم تكن ترى فيه ما يلفت الانتباه، إلى ان انتبه زوجها للأمري في ليلة الزفاف بالذات. كما انتبه إلى انها تدخن ثلاث مرات على الأقل يومياً وهي حابسة نفسها في الحمام، لكن هذا لم يقلقه، لان نساء طبقتة اعتدن حبس انفسهن في مجموعات للتدخين والحديث عن الرجال، بل ولشرب الخمر القوية الرخيصة أيضاً إلى ان ينظرحن ارضاً في سكرة كسكرات البنائين. لكن عاداتها في شم كل ما تجده امامها من ملابس، لم تكن تبدوله غير لائقة حسب، وانما ذات خطر على

الصحة أيضاً . فكانت تأخذ الأمر بالمزاح ، كما تتناول كل ما لا تريد مناقشته ، وتقول ان الله لم يضع لها في وجهها ذلك الانف المدقق لمجرد الزينة . وفي صباح أحد الايام ، اثناء خروجها إلى السوق ، قلبت الخادومات الحي بحثاً عن الابن ذي السنوات الثلاث الذي لم يجدن له أثراً في أي مكان في البيت . وجاءت هي وسط الذعر ، فقامت بجولتين او ثلاث جولات كتلك التي تقوم بها كلاب الاثر البوليسية ، ووجدت الابن نائماً في إحدى خزائن الملابس ، حيث لم يخطر ببال أحد ان يكون قد اختبأ . وعندما سألتها زوجها المندهرش كيف وجدته رددت قائلة :
- من رائحة برازه .

والحقيقة ان حاسة الشم لم تكن تفيدها في غسل الملابس أو في العثور على أطفال ضائعين فقط : لقد كانت حاسة التوجه لديها في جميع مستويات الحياة ، وخصوصاً في الحياة الاجتماعية . وقد لاحظ الدكتور خوفينال اوريينو ذلك خلال حياته الزوجية كلها ، وخصوصاً في بدايتها ، حين كانت دائمة العبوس في جومهيء ضدها منذ ثلاثمئة سنة ، ومع ذلك فانها كانت تسبح بين شعاب مرجانية حادة دون ان تصطدم بأحد ، وبسيطرة على العالم لا يمكن لها إلا ان تكون غريزة خارقة للطبيعة . هذه القدرة الرهيبة ، التي قد يكون منشأها حكمة ترجع لملايين السنين أو قلب صواني ، جاءت بساعة محنتها في يوم أحد مشؤوم قبل الذهاب للقداس ، حين كانت فيرمينادانا تشم الملابس التي استخدمها زوجها مساء اليوم السابق بشكل روتيني محض فأحست بقلق ان رجلاً آخر هو الذي أمضى الليل في فراشها .

شمت السترة أولاً ثم الصدرية فيما هي تترع الساعة ذات السلسلة الذهبية من العروة وتخرج قلم الرصاص ومحفظة الاوراق النقدية وقطع النقود المعدنية القليلة من الجيوب ، وكانت تضع كل ذلك على خوان الزينة ، ثم شمت القميص المجدد وهي تحل ياقة ربطة العنق وزري المعصم الباقوتين وزر الياقة الذهبي ، ثم شمت البنطال وهي تخرج من جيوبه حمالة المفاتيح ذات الاحد عشر مفتاحاً وقلامة ريشة الكتابة ذات المقبض الصدي ، وشمت اخيراً السروال الداخلي والجوربين والمنديل المطرزة عليه الحروف الأولى من اسمه . ولم يكن هناك من ظل لأدنى شك : ففي كل قطعة من ثيابه كانت تجد رائحة لم تكن فيها خلال سنوات حياتها المشتركة الطويلة ، رائحة يستحيل تحديدها ، لانها ليست رائحة زهور ولا رائحة مستحضرات اصطناعية ، وانما رائحة خاصة بالطبيعة البشرية . لم تقل شيئاً ، كما لم تعد تجد تلك الرائحة كل يوم ، لكنها ما عادت تشم ملابس زوجها بفضول لتعرف ما اذا كانت بحاجة للغسيل ، وانما بجزع لا يطاق كان يكوي احشاءها .

لم تعرف فيرمينا دانا أين تحدد موقع رائحة الملابس في روتين زوجها . لا يمكن ان يكون ذلك ما بين الدرس الصباحي والغداء ، لانها افترضت انه لا يمكن لامرأة سليمة العقل

ممارسة حب متعجل في مثل تلك الساعة، حين يكون على المرأة كنس البيت، وترتيب الأسرة، والتسويق، وأعداد الغذاء، وربما تكون قلقة من ان يأتيها أحد الأطفال وقد أعادوه من المدرسة قبل الموعد لاصابته بضربة حجر، فيجدها عارية في الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي حجرة غير مرتبة، كما يجد، وتلك قاصمة الظهر، ان طيباً فوقها. وكانت تعلم، من تجربتها، ان الدكتور خوفينال اوريينولا يمارس الحب إلا ليلاً، بل انه يفضل ان يكون الظلام دامساً، وربما قبيل الفطور احياناً، على زقزقة أول العصافير. أما بعد هذه الساعة، فان نزع الملابس كما كان يقول، ولبسها من جديد أشق على النفس من متعة حب كحب الديك. أي ان تلوث الثياب لا يمكن له ان يحدث إلا في إحدى زياراته الطبية، أوفي وقت مختلس من لياليه في لعب الشطرنج أوفي السينما. وقد كان التحقق من هذا الاحتمال الاخير صعباً، لان فيرمينا دائماً، على العكس من معظم صديقاتها، كانت تعتز بكبرياتها بحيث لا تسمح لنفسها بالتجسس على زوجها، أوبان تطلب إلى أحد عمل ذلك بدلاً منها. ان توقيت زيارة المرضى الذي يبدو الاكثر ملاءمة لاقتراف الخيانة، هو في الوقت ذاته اسهل فترة يمكن رصدها، لان الدكتور خوفينال اوريينو يسجل بالتفصيل وضع كل مريض من زبائنه، بما في ذلك حالة حسابات الاتعاب، منذ ان يزوره أول مرة والى ان يودعه من هذا العالم بصليب اخير وعبرة من اجل راحة روحه.

بعد ثلاثة اسابيع، لم تجد فيرمينا دأماً للرائحة اثراً في الملابس لعدة أيام، ثم عادت تجدها فجأة ودون سابق انذار، ثم انها وجدت فيها بعد أوضح مما كانت عليه سابقاً ولأيام متتالية، رغم ان أحد تلك الايام كان يوم أحد احتفالي لم تفارقه خلاله لحظة واحدة. وفي إحدى الامسيات، وجدت نفسها في مكتب زوجها، على خلاف عاداتها بل وعلى خلاف رغبتها وكأنها ليست هي التي تقوم بشيء لم تقدم عليه أبداً، وانما امرأة اخرى سواها، محملة بعدسة مكبرة ملاحظات زوجها المتشابكة عن زيارته لمرضاه خلال الشهور الاخيرة. كانت المرة الاولى التي تدخل فيها هذا المكتب المشبع برطوبة الكريوزوت، والمفعم بالكتب المجلدة بجلود حيوانات مجهولة، وصور مدرسية مضطربة، وشهادات شرف، واسطرلابات وخناجر زائفة جمعها خلال سنوات. انه الهيكل السري الذي كان دوماً جزءاً من حياة زوجها الخاصة، وهي لا تدخله لانه لا علاقة له بالحب اما المرات القليلة التي دخلت هناك فكانت وهي معه، ومن أجل قضايا مستعجلة دوماً. لم تكن تشعر بان لها الحق في الدخول وحدها، وخصوصاً اذا كانت تريد اجراء تحريات لا تبدو لها محترمة. انها هي هناك. انها تريد العثور على الحقيقة، وتبحث عنها بقلق لا يمكن مقارنته بخوفها الرهيب من العثور عليها، مدفوعة

بعاصفة متسلطة وأكثر عتواً من كبرياتها الخلقى ، أكثر عتواً من كرامتها : انه تعذيب ساحر للنفس .

لم تستطع الوصول إلى شيء واضح ، لان مرضى زوجها ، باستثناء الاصدقاء المشتركين بينهما ، كانوا كذلك جزءاً من احتكارات زوجها الخاصة . انهم أناس بلا هوية ، لا يُعرفون بوجوههم وانما بالأمهم ، لا يعرفون بلون أعينهم أو مراوغة قلوبهم وانما بحجم كبدهم ، وقلع لسانهم ، وكثافة بولهم ، وهذيانهم في ليالي الحمى . اناس يؤمنون بزوجها ، يؤمنون بانهم يعيشون به بينما هم في الحقيقة يعيشون له ، ويتهون إلى اختزالهم في عبارة يكتبها بخطه ويده على طرف التقرير الطبي : اهدأ ، فالرب ينتظرك عند الباب . . غادرت فيرمينا داثا المكتب بعد ساعتين لم تصل خلالها إلى شيء . شاعرة بانها قد خضعت لغواية فاحشة .

وبدأت تكتشف ، مدفوعة بأوهامها ، التبدلات التي طرأت على زوجها . أصبحت تراه مراوغاً قليل الشهية على المائدة وفي الفراش ، ميالاً الى السخط والردود المتكئة ، ولم يعد الرجل الهادى الذي كانه من قبل اثناء وجوده في البيت ، وانما صار شبه بأسد محبوس . ولأول مرة منذ زواجهما ، أخذت تراقب تأخره ، وترصد اوقاته بالدقيقة ، وتكذب عليه لتحصل منه على الحقائق ، ولكنها كانت تشعر بعد ذلك بجرح قاتل لتناقضها . وفي احدى الليالي استيقظت مذعورة لاحساسها بان زوجها يتأملها في العتمة بعينين مشحونتين بالحقد . لقد عانت قشعريرة ممثلة وهي في زهرة شبابها ، حين كانت ترى فلورينتينواريثا يتأملها عند طرف السرير ، والفارق الوحيد هو ان مظهره لم يكن حيثئذ مظهر حقد وانما حب . ثم انها لم تكن واهمة هذه المرة : كان زوجها مستيقظاً في الثانية بعد منتصف الليل ، وقد اعتدل في السرير ليتأملها وهي نائمة ، ولكنها حين سألته لماذا يفعل ذلك ، انكر الأمر . وأعاد وضع رأسه على الوسادة قائلاً :

- لا بد انك كنت تحلمين .

بعد هذه الليلة ، وبفعل احداث مشابهة وقعت في تلك الفترة التي لم تعد فيرمينا داثا تعلم فيها علم اليقين أين ينتهي الواقع وأين تبدأ الأحلام ، توصلت إلى اكتشاف باهربانها آخذه بالجنون . ثم انتبهت أخيراً إلى ان زوجها لم يتناول القربان الرباني يوم خميس التجسيد ، ولا في اي أحد من آحاد الاسابيع الاخيرة ، كما انه لم يجد وقتاً للمخلوة الروحية في ذلك العام . وعندما سألته عن سبب هذه التبدلات الغريبة في صحته الروحية ، تلقت رداً مبهماً . وكان هذا هو المفتاح الحاسم للحل ، لانه لم يكن يتخلف عن تناول القربان المقدس في يوم بهذه الاهمية منذ مناولته الأولى وهو في الثامنة من العمر . وهكذا ادركت ان زوجها لم يسقط في الخطيئة المهلكة وحسب ، وانما هو مصر على الولوغ فيها ، لانه يرفض اللجوء إلى مساعدة

كاهن الاعتراف . لم تتصور يوماً أنها قد تعاني الى هذا الحد من شيء يبدو مناقضاً للحب تماماً ، ولكنها كانت في خضم هذه المعاناة ، ورأت ان الوسيلة الوحيدة لتخليص نفسها هي في دس النار الى جحر الحيات التي سممت دخیلتها . وهكذا فعلت . فقد جلست في مساء أحد الأيام لترفو اعقاب الجوارب على الشرفة ، فيما كان زوجها ينهي قراءته اليومية بعد القيلولة . وفجأة ، قطعت عملها ، ورفعت نظارتها إلى جبهتها ، واستجوبته دون اية قسوة :
- دكتور .

كان غارقاً في قراءة L'LEDES PINGOUINÉS ، الرواية التي قرأها الجميع في تلك الأيام ، واجابها دون ان يخرج من جو الرواية : Oui . فألحت :
- انظر الى وجهي .

فعل ذلك ، ناظراً اليها دون ان يراها من خلال غلالة نظارة القراءة ، ولكنه لم يتزع النظارة كي لا يحترق بجمرة نظرتها . وسألها :
- ما الأمر ؟

فقالت :

- أنت تعرفه خيراً مني .

ولم تقل شيئاً آخر . بل انزلت نظارتها من جديد وتابعت رفو الجوارب . حينئذ علم الدكتور خوفينال اوربينوا ان ساعات الجزع الطويلة قد انتهت . وعلى العكس من تصوره لتلك اللحظة ، فانها لم تكن هزة تزلزل القلب ، وانما مجرد ضربة سلام . انها الطمأنينة العاجلة لما كان سيحدث آجلاً أم عاجلاً : لقد دخل شبح الانسة باربرا لينتش الى البيت اخيراً .

كان الدكتور خوفينال اوربينوا قد تعرف عليها قبل أربعة أشهر ، بينما كانت تنتظر دورها في العيادات الخارجية بمشفى الرحمة ، وانتبه على الفور بان شيئاً لا سبيل لاصلاحه قد حاق بقدره . كانت خلاسية طويلة القامة ، انيقة ، ذات عظام طويلة ، لبشرتها لون العسل الاسود وقوامه اللدن ذاته ، وكانت ترتدي في ذلك الصباح فستاناً أحمر مزيناً بدوائر بيضاء وتضع قبعة من نفس النوع ذات حافة عريضة تفرد ظلها حتى رموش عينيها . وكانت تبدو وكأنها من جنس اكثر تحديداً من سائر ابناء البشر . لم يكن الدكتور خوفينال اوربينوا يعالج المرضى في العيادات الخارجية ، ولكنه اعتاد ، كلما مر من هناك وكان لديه متسع من الوقت ، الدخول ليذكر تلاميذه الكباربانه لا دواء أفضل من التشخيص الجيد . وهكذا تدبر أمره ليكون حاضراً عند فحص الخلاسية العابرة . محاذراً ألا يلحظ تلامذته اية حركة لا تبدو عرضية ، ودون ان ينظر اليها تقريباً ، ولكنه دون في ذاكرته جيداً المعلومات التي قدمتها عن نفسها . وفي هذا المساء بالذات ، بعد زيارة اخر مرضاه ، جعل العربية تمر من العنوان الذي أفضت به في .

العبادة، وكانت هناك فعلاً، تستمتع على الشرفة برطوبة اذار.

كان البيت واحداً من بيوت الانتيل التقليدية، مطلياً كله باللون الاصفر بما في ذلك سقف التوتياء، وله نوافذ مخرمة وفيه اصص قرنفل وسرخس معلقة على البوابة الخارجية، وكان البيت يقوم فوق ركائز خشبية في مستنقع لا مالاكريانثا. وفي قفص معلق بافريز السطح، كان يغرد عصفور توريبال. وعلى الرصيف المقابل للبيت كانت توجد مدرسة ابتدائية، وكان الاطفال يخرجون منها بفوضى اجبرت الحوذي على شد الاعنة بقوة ليحول دون اجفالهم للحصان. لقد كانت تلك ضربة حظ، اذ تمكنت الانسة باربارا لينتش من التعرف على الدكتور. فحيته بحركة معارف قدماء، ودعته ليتناول فنجان قهوة ريشا تنتهي الفوضى، فتناوله بكل سرور، على خلاف عاداته، مستمعاً اليها تتحدث عن نفسها، وهو الشيء الوحيد الذي اصبح يهيم منذ ذلك الصباح والشيء الوحيد الذي سيستحوذ على اهتمامه، دون لحظة سلام، خلال الاشهر التالية. لقد قال له احد اصدقائه بحضور زوجته في احدى المناسبات، وهو حديث العهد بالزواج، بانه سيواجه عاجلاً أو آجلاً عاطفة تبعث على الجنون، يمكنها ان تعرض استقرار حياته الزوجية للخطر، لكنه، هو الذي كان يظن بانه يعرف نفسه جيداً، ويعرف متانة جذوره الاخلاقية، ضحك من هذه النبوءة. حسناً اذن: ها هي الآن.

الانسة باربارا لينتش، دكتورة في علم اللاهوت، هي الابنة الوحيدة للمحترم جونثان ب. لينتش، الراعي البروتستانتي، الزوجي النحيف، الذي ينطلق على بغلته إلى قرى المستنقع الهندي، مبشراً بتعاليم أحد الالهة الكثيرين الذين يكتبهم الدكتور خوفينال اوربينو بادئاً اسمهم بحرف صغير ليميزهم عن إلهه. كانت تتحدث بقشالية جيدة، مع عشرة ضئيلة في النحويضا عف تكرارها من ظرافتها. كانت ستم الثامنة والعشرين من العمر في شهر كانون الثاني، وقد طلقت قبل ذلك بقليل من راعٍ آخر هو أحد أتباع أبيها، وكانت قد تزوجت منه زواجاً سيئاً دام سنتين، ولم تعد لديها رغبة في الزواج مجدداً. قالت: «لا أحب احداً سوى عصفوري التوريبال». لكن الدكتور خوفينال اوربينو كان جدياً بما يكفي ليفكر بانها انما تقول ذلك متعمدة. بل انه سأل نفسه وهو مضطرب الافكار ما اذا كانت كل هذه التسهيلات مجتمعة ليست سوى فخ من الرب لجعله يدفع الثمن باهظاً فيما بعد، ولكنه أبعد هذا السؤال في الحال من ذهنه على انه حالة لاهوتية سببها وضعه المضطرب.

وعندما ودعها، تطرق بشكل عرضي إلى استشارتها الطبية صباحاً، مدركاً انه ليس أحب للمريض من الحديث عن آلامه، وقد كانت هي في منتهى الروعة بحديثها عن آلامها، حتى

انه وعدها بالعودة في اليوم التالي ، الساعة الرابعة تماماً ، لفحصها فحصاً دقيقاً . احست بالفرع : كانت تعلم ان طبيياً من هذا النوع بعيد جداً عن امكانياتها ، لكنه طمأنها : «اننا نحاول في هذه المهنة جعل الأغنياء يدفعون عن الفقراء» . ثم سجل الملاحظة في دفتر جيبه : الأنسة باريسارا ليتش ، مستنقع لاملالا كريانثا ، السبت ، ٤ مساء . بعد ذلك بشهور ، قرأت فيرمينا داثا تلك الملاحظة التي أضيفت اليها تفاصيل التشخيص والعلاج وتطور المرض . وقد لفت الاسم اهتمامها ، وخطر لها فجأة بانها واحدة من هؤلاء الفنانات المضللات في سفن نيو اورليانز للفواكه ، لكن العنوان جعلها تفكر بان الاحتمال الاقرب الى الصواب هو انها جامايكية ، وزنجية بالطبع ، فصرفت النظر عنها دون معاناة لعدم انسجامها مع ذوق زوجها . ذهب الدكتور خوفينال اورينو الى مواعده يوم السبت متقدماً عشر دقائق ، حين لم تكن الأنسة ليتش قد انتهت من ارتداء ملابسها لاستقباله . ولم يشعر بتوتر كالذي شعر به امامها منذ ايام باريس ، حين كان عليه التقدم لامتحان شفوي . كانت الأنسة ليتش جمالاً لا محدوداً وهي مستلقية على السرير ، بقميص نوم حريري رقيق . كل ما فيها كان عظيماً وزخماً : فخذها اللذان كفخذي عروس البحر ، وبشرتها المحروقة على نار خفيفة ، ونهداها الداهلان ، ولشها الشفافة ذات الاسنان الدقيقة ، وجسدها كله الذي ينضح ببخار العافية ، وهي الرائحة البشرية التي وجدت فيرمينا داثا في ملابس زوجها . كانت قد ذهبت إلى العيادة الخارجية لمعاناتها من شيء تدعوه بظرافة شديدة مغصاً ملتويّاً ، وظن الدكتور اورينوبانها اعراض قلة شرب السوائل . وقد لامس على أي حال اعضاءها بغرض أبعد ما يكون عن الاهتمام الطبي ، وراح ينسى اثناء ذلك معارفه العلمية ويكتشف مذهولاً ان تلك المخلوقة العجيبة كانت جميلة من الداخل كجمالها من الخارج ، وعندئذ ترك متعة اللمس تقوده ، ليس على انه الطبيب الاكثر شهرة في ساحل الكاريبي ، وانما كرجل بائس على باب الله يعذبه هيجان الغرائز . كان قد حدث له شيء مشابه لهذا مرة واحدة في حياته المهنية الطويلة ، وقد كان ذاك هو يوم عاره الكبير ، لان المريضة الحائقة ازاحت يده ، واعتدلت على السرير قائلة له : «ان ماتريده يمكن ان يحدث ، ولكن ليس هكذا» . أما الأنسة ليتش ، فقد سلمت نفسها ليديه ، وحين لم يعد لديها ادنى شك في ان الطبيب ما عاد يفكر بعلمه ، قالت :

- كنت أظن ان هذا غير مسموح في الاخلاق الطبية .

كان مبللاً بالعرق وكأنه خارج بملابسه من بركة ماء ، فمسح يديه ووجهه بمنشفة ،

وقال :

- الاخلاق الطبية تتصورنا معشر الاطباء من خشب .

مدت له يداً شاكرة وقالت :

- كوني كنت أظن لا يعني انه لا يمكنك فعل ذلك . تصور ما الذي سيحدث لزنجية مسكينة مثلي حين يهتم بي رجل بالغ الاهمية .
فقال :

- لم أتوقف عن التفكير بك لحظة واحدة .
كان اعترافاً مرتعشاً إلى حد جعله جديراً بالشفقة . ولكنها وضعت به بمنجى من كل شر بقهقهة أضاءت حجرة النوم . وقالت :

- أعرف ذلك مذ رأيتك في المستشفى يا دكتور . صحيح انني زنجية ، ولكنني لست غبية .
لم يكن الامر سهلاً . فالانسة ليتتش تريد شرفها نظيفاً ، وتريد الامان والحب ، وترى انها جديرة بذلك . لقد اتاحت للدكتور خوفينال اوريينوفرصة اغوائها ، انها دون السماح له بالدخول إلى الحجرة اثناء وجودها وحيدة في البيت . وأبعد ما وصلت اليه هو السماح له بتكرار طقوس اللمس والفحص بالتنصت مع كل ما يرافق ذلك من خروقات اخلاقية يشاؤها ، ولكن دون ان تنزع ثيابها . أما هو ، فلم يستطع افلات الطعم بعد ان ابتلعه ، وثابر على حصاره اليومي . كان استمرار علاقته بالانسة ليتتش شبه مستحيل لاسباب مرتبطة بنظامه العملي ، ولكنه كان أضعف من ان يكبح نفسه في الوقت المناسب ، كضعفه في الماضي قدماً فيما بعد . لقد كانت له حدوده .

لم تكن حياة المحترم ليتتش بالحياة المنتظمة ، فهو ينطلق في أي وقت على متن بغلته المحملة في أحد جانبيها بكتب مقدسة ونشرات دعائية انجيلية ، وفي الجانب الآخر بالزاد ومواد التموين ، ويرجع حين لا تخطر عودته يبال أحد . كما كان هناك عائق آخر يتمثل بالمدرسة المقابلة ، فالاطفال فيها يغنون دروسهم وهم ينظرون إلى الشارع من النافذة ، وأفضل ما يرونه هو البيت القائم على الرصيف المقابل ، بابوابه ونوافذه المشرعة على مصراعيها منذ الساعة السادسة صباحاً ، ويرون الانسة ليتتش وهي تعلق القفص بافريز السطح ليتعلم طائر التوريبال موسيقى الدروس المغناة ، ويرونها بعمامتها الملونة وهي تغني أيضاً بصوتها الكاريبي النقي اثناء قيامها بأعمال البيت ، ويرونها بعد ذلك جالسة على الشرفة لتغني وحدها بالانكليزية مزامير المساء .

كان عليه ان يختار وقتاً لا يكون الاطفال موجودين فيه ، ولم يكن امامه سوى احتمالين : اما اثناء استراحة الغداء ، ما بين الثانية عشرة والثانية ، وهو الوقت الذي يذهب فيه الدكتور لتناول الغداء ايضاً ، واما في المساء ، حين ينصرف الاطفال إلى بيوتهم . وقد كان هذا الاحتمال الاخير هو الأفضل دائماً ، ولكن الدكتور يكون حيثئذ قد انهى زيارته ولا يبقى امامه

سوى دقائق قليلة للوصول الى البيت وتناول الطعام مع أسرته . أما المشكلة الثالثة ، وهي الاخطار بالنسبة له ، فكانت تتمثل في وضعه بالذات . اذ لم يكن بإمكانه الذهاب دون العربية ، وهي عربية معروفة جيداً ويجب ان تنتظره دوماً أمام الباب . كان بإمكانه الاتفاق مع الحوذي ، كما يفعل جميع اصدقائه في النادي الاجتماعي تقريباً ، ولكن هذا الأمر كان غريباً عن عاداته . حتى ان حوذي العائلة نفسه ، وبعد ان أصبحت زيارته للآنسة لينتش مكشوفة بما فيه الكفاية ، تجرأ على سؤاله اذا لم يكن من الأفضل ان يرجع بحثاً عنه فيما بعد كي لا تبقى العربية متوقفة امام الباب لوقت طويل . لكن الدكتور اوربينو قاطعه بردة فعل غريبة على طبيعته قائلاً :

- هذه هي المرة الأولى التي اسمعك فيها تقول شيئاً يجب عليك ألا تقوله مذعرفتك . ولكن لا بأس : سأعتبر انك لم تقل شيئاً .

لم يكن ثمة مفر : ففي مدينة كهذه لا يمكن اخفاء أمر مرض ما دامت عربية الطبيب عند الباب . لقد كان الطبيب يبادر أحياناً بالذهاب الى بيت المريض مشياً على الاقدام حين تسمح المسافة بذلك ، أو الذهاب في عربية اجرة ، ليحول دون تخمينات خبيثة أو مبكرة . ومع ذلك ، فان هذه الحيل لم تكن ذات نفع كبير ، فالادوية التي يصفها الطبيب لتشتري من الصيدليات تتيح كشف الحقيقة ، مما كان يدفع الدكتور اوربينو الى وصف ادوية مزيفة إلى جانب الادوية الصحيحة ، ليحفظ حقوق المرضى في الموت بسلام مع أسرار امراضهم . ورغم قدرته كذلك على ان يبرر بوسائل شريفة مختلفة ، وقوف عربته امام دار الانسة لينتش ، إلا انه لن يتمكن فعل ذلك لزمناً طويلاً ، بل لوقت اقصر بكثير من الزمن الذي كان يرغب فيه : مدى الحياة .

صارت دنياه جمعياً . فما ان ارتوى الجنون الأول حتى ادرك كلاهما المخاطر المحيطة بهما ، ولم يكن الدكتور خوفينال اوربينو قد حسم أمره يوماً وأعد نفسه لمواجهة الفضيحة . لقد كان يعدّها بكل شيء اثناء هذيانه المحموم ، ولكنه بعد الانتهاء ، يؤجل كل شيء إلى ما بعد . وكان بالمقابل كلما ازداد شوقه للقاءها يزداد كذلك خوفه من فقدانها ، وهكذا أصبحت لقاءاتها سريعة وصعبة . لم يكن يفكر بشيء آخر . كان ينتظر المساء بجزع لا يُطاق ، وينسى مواعيده الأخرى ، ينسى كل شيء سواها ، ولكن ما ان تبدأ العربية بالاقتراب من مستنقع لا مالا كرياثاً حتى يأخذ بالابتهاال إلى الله ليعث له عائناً في اللحظة الأخيرة يجعله يواصل طريقه دون الدخول اليها . كان يعاني حالة من الكتابة يجعله يتهج حين يرى أحياناً ، وهو على الناصية ، رأس المحترم لينتش الملفوف بالقطن جالساً يقرأ على الشرفة ، والابنة في الصالة تلقن أصول الدين لأطفال الحي من خلال الاناجيل المغناة . فيمضي حينئذ سعيداً إلى بيته

كي لا يستمر في تحدي القدر. ولكنه لا يلبث ان يشعر بقلق مجنون يتمنى خلاله ان يتحول اليوم كله وجميع الايام لتصبح جميعها الخامسة مساء فقط.

اصبحت تلك الغراميات مستحيلة حين أخذ ظهور العربة يكثر أمام الباب، ولم يعد ذلك الحب بعد مرور ثلاثة شهور سوى عمل مضحك. فقد كانت الانسة لينتش تدخل حجرة النوم دون أن يتاح لها الوقت لقول أي شيء، بمجرد رؤيتها العاشق الولهان يدخل. وكانت تتخذ الاحتياطات المسبقة في الايام التي تنتظر قدومه فيها بارتدائها فستانا جامايكيا بديعا مزينا بزهور ملونة، ولكن دون أية ملابس داخلية، ودون أي شيء، معتقدة أن السهولة ستساعده في التغلب على الخوف. لكنه كان يهدر كل ما تفعله لاسعاده. فيلحقها الى حجرة النوم لاهثا ومللا بالعرق، ثم يبدأ بالتخلص مما يحمله ملقيا بكل شيء على الارض: العكاز، وحقيبة الطبيب، والقبعة البنمية، ليسارس حبا مرتبكا بسروال مجعد عند كاحليه وسترة مزرة ليكون ازعاجها أقل، وسلسلة ذهبية مثبتة في صدريته، وهو متعل حذاءه، وكل شيء، مهتما بالذهاب بأسرع ما يمكن اكثر من اهتمامه باستكمال المتعة. وتبقى هي صائمة، ما ان تهم بدخول نفق عزلته، حتى يبدأ باحكام ازرار سرواله من جديد وهو منك، كما لو انه مارس الحب المطلق على الخط الفاصل بين الحياة والموت، بينما هو لم يفعل في الحقيقة اكثر مما يتطلبه فعل الحب من جهد جسدي. ولكنه يبقى ضمن حدود قانونه: انه الوقت اللازم بالضبط لاعطاء حقنة في العضل لحالة علاج روتينية. ويعود بعدئذ الى البيت خجلا من ضعفه، راغبا في الموت، ولاعنا فقدانه الشجاعة اللازمة للطلب من فيرمينا داثا ان تنزع له سرواله وتجلسه على الجمر لتحرق قفاه.

لم يكن يتعشى، وكان يصلي دون ايمان، ويتصنع مواصلة قراءة ما بعد القيلولة وهو في الفراش فيما زوجته تلف في البيت وتدور مرتبة الدنيا قبل ان تنام. وما ان يداعبه النعاس فوق الكتاب حتى يأخذ بالغرق شيئا فشيئا في غابة الانسة لينتش التي لا مفر منها، يفرق في رائحتها التي كرائحة غابة راقدة فوق فراشها الذي كفراش الموت، ولا يستطيع التفكير عندئذ بشيء سوى الساعة الخامسة الا خمس دقائق من مساء اليوم التالي، وبها تنتظره في السرير دون أي شيء سوى جبلها اللدن القاتم تحت الفستان الجامايكى المجنون: انها الدائرة الجهنمية.

كان قد بدأ يعي ثقل جسده منذ بضع سنوات. وكان يعرف الاعراض. لقد قرأها في كتب الطب، ولمسها في الحياة الواقعية بمعانتها في مرضى هرمين، بلا سوابق مرضية خطيرة، يبدوون فجأة بوصف أعراض دقيقة يبدو وكأنهم يستخرجونها من كتب الطب، رغم انها لا تعدو كونها اوهاما. لقد نصحه استاذ طب الاطفال في جامعة سالبيترير يوماً بدراسة طب

الاطفال لانه أنبل اختصاص ، فالاطفال لا يمرضون الا حين يكونون مرضى حقاً ، ولا يستطيعون التواصل مع الطبيب بالكلمات الاصطلاحية وانما بالاعراض المحددة للأمراض الحقيقية . أما البالغين ، اعتباراً من سن معين ، فاما ان لديهم أعراضاً بلا أمراض ، واما ان لديهم ما هو أسوأ من ذلك : امراضاً خطيرة وأعراض أمراض أخرى ليست ذات شأن . وكان هويشغلهم بالمسكنات . متيحاً الوقت للزمن ، كي يتعلموا عدم الشعور بتوقعات الكبر بعد معاشتهم لها في مزبلة الشيخوخة . وما لم يفكر به الدكتور خوفينال اوربينو أبداً هو ان طبيباً في مثل سنه ، يظن بأنه رأى كل شيء وخبره ، لن يستطيع تجاوز قلق شعوره بأنه مريض حين لا يكون كذلك . أوقع له ما هو أسوأ بان يظن انه ليس مريضاً ، متعللاً باوهام طبية محضة ، في حين ربما يكون مريضاً فعلاً . لقد قال في احد دروسه يوماً وهو في الأربعين ، نصف مازح ونصف جاد : «الشيء الوحيد الذي احتاجه في الحياة هو أحد يفهمني» . ولكنه حين وجد نفسه ضائعاً في متاهة الانسة لينتش لم يفكر بالامر مازحاً .

جميع الاعراض الحقيقية والوهمية لمرضاه المسنين اجتمعت في جسده . فكان يحس شكل كبده بوضوح ، ويستطيع تحديد حجمه دون ان يلمسه . كان يشعر بزجرة القط النائم في كليتيه ، ويشعر ببريق مرارته الساطع ، ويحس خربير الدم في شرايينه . وكان يستيقظ صباحاً في بعض الاحيان كسمكة لا تجد الهواء للتنفس . ويشعر بوجود ماء في قلبه ، ويحس به يفقد ايقاعه للحظة ، أو يشعر به ، بين حين وآخر ، يتأخر في نبضة من نبضاته ، كما في المشية العسكرية أيام المدرسة ، ثم يشعر بأنه يستعيد قواه لان الله كبير . ولكنه بدلاً من ان يلجأ الى علاج السلوى الذي كان يطبقه على المرضى ، فانه سمح للخوف ان يعميه . حقاً ان الشيء الوحيد الذي يحتاجه في الحياة ، وهو في الثامنة والخمسين من العمر أيضاً ، هو أحد يفهمه . وهكذا لجأ الى فيرمينا دائماً ، اكثر من تحبه ومحبتها في هذا العالم ، ومن سير يريح ضميره أمامها .

حدث هذا بعد ان قاطعته في قراءته المسائية لتطلب منه ان ينظر الى وجهها ، فجاءته الإشارة الاولى بان حلقة الجهنمية قد كشفت . لم يفهم كيف حدث ذلك ، اذ كان مستحيلاً عليه ان يتصور بان فيرمينا دائماً اكتشفت الحقيقة بمجرد الشم . لكن هذه المدينة لم تكن على اي حال ، ومنذ زمن بعيد ، بالمدينة المناسبة لكتبان الاسرار . فبعد وقت قصير من وصول اجهزة الهاتف الاولى ، انهارت عدة زيجات كانت تبدور اسخنة ، تحت نهائم الاتصالات الهاتفية المجهولة ، ودفع الرعب عائلات كثيرة الى الغاء اشتراكها أو رفض الاشتراك بالهاتف لسنوات طويلة . كان الدكتور خوفينال اوربينو يعرف ان زوجته تعذب نفسها كثيراً بحيث لا تسمح حتى بمحاولة وشاية مجهولة بالهاتف ، ولم يكن قادراً على تصور ان أحداً يتجرأ على اخبارها معلناً عن اسمه . لكنه بالمقابل كان يخشى الوسيلة القديمة : ورقة تدسها يد مجهولة

من تحت الباب يمكنها ان تكون فعالة، ليس لانها تضمن ازدواجية المجهولية للمرسل والمرسل اليه، وانما لان اصلها العريق يتيح ربطها بعلاقة ميتا فيزيقية ما مع تدابير العناية الالهية.

لم تكن الغيرة تعرف الى البيت سبيلا: فخلال اكثر من ثلاثين سنة من السلام الزوجي، كان الدكتور اورينويفاخر في الاماكن العامة، وكان صادقا حتى ذلك الحين، بانه مثل الثقاب السويدي، لا يشتعل الا بعلبته. لكنه كان يجهل كيف يمكن ان يكون رد فعل زوجته بكبريائها واعتزازها الشديد بنفسها وبطبعها الحاد، امام خيانة ثابتة. وهكذا فانه حين تطلع في وجهها كما طلبت منه، لم يخطر له شيء سوى ان يخفض بصره من جديد ليغرق في القلق، وظل يتظاهر بالانغماس في تعرجات نهر جزيرة ألكا العذب، ريثما يخطر له ما يفعله. ولم تقل فيرمينا دانا من جهتها شيئا آخر. وعندما انتهت من رفو الجوارب، ألقت بالادوات دون انتظام في علبة الخياطة، وأعطت التعليقات في المطبخ لاعداد العشاء، ومضت الى حجرة النوم.

حينئذ اتخذ قراره الحاسم ولم يذهب في الساعة الخامسة الى منزل الانسة لينتش. أما وعود الحب الابدی، والحلم ببيت سري لها وحدها حيث يستطيع زيارتها دون مفاجآت، والسعادة على مهل حتى الموت، وكل ما وعداها به اثناء ومضات الحب ألغى الى الابد. وأخر ما تلقته منه الانسة لينتش كان اكليل من الزمرد سلمها اياه الخوذي دون أي تعليق، دون أي رسالة، دون أية ملاحظة مكتوبة، في علبة ملفوفة بورق صيدلية، حتى يظنه الخوذي نفسه دواء مستعجلا. ولم يعد لرؤيتها ولو مصادفة خلال ما تبقى من حياته، والله وحده يعلم كم من الالام كلفه هذا القرار البطولي، وكم من الدموع المريرة سكب وهو محبوس في المرحاض ليتجاوز كارثته الحميمة. فبدلا من ان يذهب اليها في الساعة الخامسة، قام بتقديم توبته النصوح امام كاهن الاعتراف، وشارك يوم الاحد التالي في تناول القربان الرباني بقلب مفتت، انها روح مطمئنة.

يوم قطع علاقته بها، وفيما هو ينزع ملابسه لينام، كرر على مسامع فيرمينا دانا تراويل ارقه الصباحي المريرة، والوخزات المباغثة، والرغبة بالبكاء عند الظهيرة، والاعراض المقتضبة للحب الخفي التي كان يروها لها حينئذ كما لو كانت اعراض الشيخوخة البائسة. كان عليه ان يحكي ذلك لاحد كي لا يموت. . . كي لا يروي الحقيقة، ثم ان تلك المفاتحات بمكنون قلبه كانت أولا واخيرا أحد طقوس الحب البيتي. استمعت اليه باهتمام، انها دون النظر اليه، ودون ان تقول شيئا، بينما هي تتناول منه الملابس التي يخلعها. كانت تشم كل قطعة منها دون

أية إيساءة تشي بغضبها، ثم تطويها كيفما اتفق، وتلقي بها الى سلة الثياب المتسخة الخيزرانية. لم تجد الرائحة، ولكن الامر سيان: غدا سيكون يوم آخر. وقبل ان تجثو للصلاة أمام المذبح الصغير في حجرة النوم، اختتم هوروايته المكرورة عن بؤسه بتنهدة حزينة وصريحة أيضا: «أظن انني سأموت». ولم ترمش رمشة واحدة حين ردت عليه قائلة: - سيكون هذا أفضل. لاننا سنستريح كلانا.

قبل سنوات، وخلال ازمة مرض خطير، كان قد تحدث عن احتمال موته، وكانت هي قد ردت بالجواب القاسي نفسه. وقد عزا الدكتور اوريينو ذلك يومها الى قسوة النساء، هذه التي تتابع الارض بفضلها الدوران حول الشمس، لانه كان يجهل حينئذ بانها تقيم دوماً حاجزا من الغضب لتخفي خوفها، ولتخفي يومئذ اكثر مخاوفها رهبة، الا وهو الخوف من البقاء بدونه.

لكنها تمت له الموت في تلك الليلة بكل حدة قلبها، وقد أفزعه هذا اليقين. بعد ذلك سمعها تبكي في الظلام، بوهن شديد، عاضة الوسادة كي لا يسمعها. فبهزه ذلك، لانه كان يعلم انها لا تبكي بسهولة من أي ألم جسدي او روحي. وانها تبكي بتأثير حنق عظيم فقط، ويكون بكاؤها أشد اذا ما كان هذا الحنق ناشئا، بطريقة ما، عن خوفها من الشعور بالذنب. لم يتجراً على مواساتها، مدركا ان ذلك سيكون اشبه بمواساة نمرة مطعونة بحربة. ولم يملك الجرأة ليقول لها ان اسباب يكائها قد زالت هذا المساء، وانها انتزعت من جذورها الى الابد، حتى من ذاكرته.

هزمه الارهاق لدقائق. وعندما استيقظ وجد انها قد اضاءت النور الخفيف الذي الى جانبها وانها مازالت مفتوحة العينين، انما دون بكاء. لقد حدث لها شيء حاسم فيما هونائم: فالرواسب التي تراكمت في قاع عمرها خلال سنوات طويلة قد هاجت بعذاب الغيرة، وخرجت طافية الى السطح، وأهرمتها في لحظة واحدة. فتجراً على القول لها انها تحاول النوم وهو مذهبول لتجاعيدها الفجائية، ولشفتيها الداويتين، ولرماد شعرها. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية. فكلمته دون ان تنظر اليه، ولكن دون اي أثر للسخط في صوتها، بل بصوت أقرب الى الوداعة، قائلة له:

- لي الحق بان أعرف من هي.

عندئذ روى لها كل شيء، شاعراً بأنه يرفع عن كاهله ثقل العالم، لانه كان مقتنعا بانها تعرف كل شيء ولا ينقصها سوى التأكد من التفاصيل. لكن الامر لم يكن كذلك طبعاً، وفيما هو يتكلم عادت هي تبكي، ليس باجهاشات خجولة كما في البدء، وانما بدموع منطلقة ومالحة تجري على وجوها، وتلتهب على قميص نومها وتحرق حياتها، لانه لم يفعل ما كانت

تنتظره منه وروحها معلقة بخيط، اذ كانت تنتظر منه ان ينكر كل شيء حتى الموت، وان يغضب من الافتراء، وان يلعن ناس هذا المجتمع ابن العاهرة الذين لا يتورعون عن دوس شرف الآخرين، وان يقف ثابت الجأش حتى امام الادلة الدامغة على خيانتة : كرجل . بعد ذلك، وحين روى لها بانه كان عند كاهن الاعتراف هذا المساء، خشي ان يعميها الغضب . فمئذ أيام المدرسة وهي مقتنعة بان أهل الكنيسة لا يتمتعون بأية فضيلة ملهمة من الرب . وكان هذا خلافاً جوهرياً في الانسجام البيتي، تمكنا من حله دون صدمات . انها كون زوجها قد سمح لكاهن الاعتراف بالتدخل الى هذا الحد في شأن خاص ليس ملكاً له وحده فقط، بل وملكها ايضاً، كان شيئاً يتجاوز كل الحدود .

قالت :

- ان هذا كاستشارة حاوي ثعابين من حواة الازقة .
كان ذلك هو النهاية بالنسبة لها . كانت متأكدة من ان شرفها أصبح على كل لسان قبل ان ينتهي زوجها من الاعتراف، وشعور المهانة الذي اثاره ذلك كان أثقل وطأة من عار وغضب وظلم الخيانة . والاسوأ من كل بذلك، ياللعنة . . مع زنجية . فصيح قائلاً : «خلاسية» . ولكن أي تحديد كان فائضاً عن اللزوم حينئذ : لقد انتهى الأمر .

قالت :

- انها اللعنة نفسها . والآن فقط بدأت افهم : لقد كانت رائحة زنجية .
حدث هذا يوم الاثنين . وفي السابعة من مساء يوم الجمعة، أبحرت فيرميسا دائماً في السفينة الصغيرة النظامية الزاهية الى سان خوان دي لا ثيناغا، دون ان تأخذ معها سوى صندوق واحد، ويرفقة ابنة بالعماد، وكانت تغطي وجهها بطرحة لتحول دون الاسئلة لها ولزوجها كذلك . لم يذهب الدكتور خوفينال اوربينو الى الميناء، باتفاقها معاً، بعد مناقشة مضنية دامت ثلاثة أيام، قررا على اثرها ان تذهب الى مزرعة ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث، في بلدة فلوريس دي ماريا، لتفكر جيداً قبل اقدامها على اتخاذ قرار نهائي . وقد فهم الابن ان الامر، دون ان يعرف الاسباب، على انه رحلة جري تأجيلها مرات ومرات، وكانا هما نفسيهما يرغبان فيها منذ زمن بعيد . وقد رتب الدكتور خوفينال اوربينو الامور بحيث لا يتاح لأحد من أبناء عالمه الغادر الوصول الى تخمينات خبيثة، وفعل ذلك باتقان حتى ان اخفاق فلوريتينو اريشا بالعشور على اي أثر لاختفاء فيرميسا دائماً لم يكن لضعف وسائله في التقصي وانما لعدم وجود اية اثار فعلا . ولم يكن يراود الزوج أي شك في انها ستعود بعد ان يفارقها الغضب . أما هي، فذهبت واثقة ان الغضب لن يفارقها ابد الدهر .

لكنها سرعان ما ستدرك ان هذا القرار الحاسم لم يكن ثمرة الحقد بقدر ما هو وليد الحنين .

فبعد رحلة شهر العسل عادت عدة مرات الى اوروريا، رغم قسوة الايام العشرة التي تمضيها في البحر، ولقد كانت رحلاتها تستغرق دوما وقتا كافيا للاحساس بالسعادة. كانت تعرف العالم، وتعلمت العيش والتفكير بطريقة اخرى، لكنها لم ترجع أبدا الى سان خوان دي لايناغا بعد رحلة المنطاد الفاشلة. كان في العودة الى مقاطعة ابنة الخال هيلديبراندا شيئا من استعادة الماضي بالنسبة لها، حتى ولو حدثت هذه الاستعادة متأخرة. ولم تفكر بذلك تحت تأثير نكبتها الزوجية: بل قبل ذلك بكثير. وهكذا فان مجرد فكرة تنقيها عن ذكريات صباها كان يعزبها في تعاستها.

عندما نزلت الى البر مع ابنتها في العماد في سان خوان دي لايناغا، لجأت الى مافي طبعها من احتياطات هائلة، وتعرفت على المدينة رغم كل التحذيرات. وقد دعاها القائد المدني والعسكري للموقع، الذي ذهبت اليه بتوصية للاهتمام بها، دعاها الى جولة في العربة الرسمية ريثما يخرج القطار الذاهب الى سان بيدرو اليخاندرينو، حيث ارادت الذهاب للتأكد مما قيل لها من أن السرير الذي مات عليه بطل التحرير^(١) كان صغيرا جدا كسرير طفل. وكان ان عادت فيرمينا دائما حينئذ لرؤية قريتها الكبيرة في سكون الثانية مساء. عادت لرؤية الشوارع التي تبدو اشبه بشطآن صغيرة للبرك المغطاة بالطحالب، وعادت لرؤية بيوت البرتغاليين بشعارات النبلاء المحفورة على الرواق المقنطر وعلى مشربيات النوافذ البرونزية، حيث تتردد دون رحمة في صالاتها الظليلة تمارين البيانو المكرورة والحزينة، التي كانت تعلمها امها حديثة الزواج لبنات البيوت الثرية الصغيرات. رأت الساحة الخاوية من اية شجرة في جمر الحجارة المتقدة، وصف العربات ذات الاغطية الجنائزية وخيولها النائمة وقوفا، وقطار سان بيدرو اليخاندرينو الاصفر، ورأت عند زاوية الكنيسة الكبرى اكبر بيت بين جميع البيوت واكثرها جمالا برواقه الحجري المقنطر الذي تغطيه نباتات خضراء، وبوابته الضخمة كبوابة دير، ونافذة غرفة النوم التي ستولد فيها ألفارو بعد سنوات طويلة، حين لن تعود لها ذاكرة لتذكر ذلك. فكرت بالعمة اسكولاستيكا، التي ما زالت تبحث عنها دون أمل في السماء والارض. وفيما هي تفكر بها وجدت نفسها تفكر بفلوريتينو اريثا، بشبابه كأديب ويكتاب اشعاره تحت اشجار اللوز في الحديقة، كما يحدث لها أحيانا حين تتذكر سنوات المدرسة الكريهة. وبعد تجوال طويل لم تفلح في التعرف على بيتها العائلي القديم، فحيث كانت تفترض وجوده لم يكن يوجد سوى حظيرة خنازير، وعند المنعطف كان يمتد شارع بيوت الدعارة، حيث مومسات من ارجاء الدنيا ينمن قيلولتهن أمام الابواب، فلربما مر

(١) المقصود ببطل التحرير (El Libertador) هو محرر أميركا الجنوبية سيمون بوليفار.

البريد حاملا لمن شيئا . . . لم تكن البلدة هي بلدتها.

منذ بداية الجولة في المدينة ، غطت فيرمينا دائما نصف وجهها بالطرحة ، ليس خوفا من التعرف اليها حيث لا أحد يستطيع التعرف عليها ، وانما لرأى الموتى الذين يتنفخون تحت الشمس في كل مكان ، بدءا من محطة القطار وحتى المقبرة . وقال لها القائد المدني والعسكري للموقع : «انها الكوليرا» . كانت تعلم ذلك ، لانها رأت الحشرات البيضاء على قمم الجثث المكتوية ، لكنها لاحظت انه لا اثر لرصاصة الرحمة في عنق اي جثة من الجثث ، كما كان الامر في زمن المنطاد .

فقال لها الضابط :

- وهو كذلك . فالرب يحسن من اساليبه ايضا .

كانت المسافة التي تفصل سان خوان دي لاثيناغا عن بلدة سان بيدرو اليخاندريو القديمة هي تسعة فراسخ فقط ، لكن القطار الاصفر كان يستغرق في اجتيازها يوما كاملا ، لان صداقات كانت تربط سائق القطار بالمسافرين الدائمين الذين يرجونه التوقف لبعض الوقت كي يركبوا ارجلهم بالمشي في مرابع الخولف التابعة لشركة الموز ، اوليستحم بعض الرجال منهم ، وهم عراة ، في الانهار الصافية والمثلجة التي تنحدر من الجبال ، او انهم ينزلون من القطار حين يشعرون بالجوع ليحلبوا الابقار الطليقة في المراعي . وعندما وصلت فيرمينا دائما مروعة ، لم يتح لها الوقت للتمتع باشجار التمر الهندي الهوميرية حيث كان بطل التحرير يعلق شبكة نومه التي احتضر عليها ، وللتأكد من ان السرير الذي مات عليه لم يكن صغيرا بالنسبة لرجل ، كما قالوا لها فقط ، بل انه صغير حتى على مولود خديج . ولكن زائرا آخر يبدو انه يعرف كل شيء ، قال ان السرير ليس الا أثرا زائفا ، والحقيقة هي ان أبا الوطن قد ترك يموت وهو ملقى على الارض . كانت فيرمينا دائما مغمومة لما رآته وسمعتة مذ خرجت من بيتها ، لدرجة انها لم تعد تشعر بالسعادة التي حنت اليها دوما ، وانما اخذت تتجنب المرور من القرى التي كانت تحن اليها . وهكذا حنت تلك القرى وحمت نفسها من خيبة الامل . كانت تسمع العزف على الاوكوردونات من الطريق حيث كانت تهرب من خيبة الامل ، وتسمع الصرخات المنبعثة من حلبة صراع الديكة ، وطلقات الرصاص التي قد تكون رصاصات حرب أو احتفال ، وحين لا تجد مفرا من المرور في احدى القرى ، كانت تغطي وجهها بالطرحة لتستمتع بتذكرها كما كانت من قبل .

في احدى الليالي ، وبعد تجنب طويل للماضي ، وصلت الى مزرعة ابنة الخيال هيلديبراندا ، وحين رأتها تنتظر أمام الباب كادت تسقط مغميا عليها : كانت وكأنها ترى نفسها في مرآة الحقيقة . لقد رأتها بدينة وهرمة ، محاطة بابناء غير مروضين لم تنجبهم من

الرجل الذي مازالت تحبه دون أمل ، وانما من ضابط ينعم بتقاعد جيد تزوجت منه غيظا لفشلها واحبها بجنون . ولكنها في اعماق جسدها المدمر كانت ماتزال على حالها . وقد تخلصت فيرمينا داثا من هذا الانطباع بعد ايام قليلة في الريف ويتأثير الذكريات الطيبة ، لكنها لم تغادر المزرعة الا للذهاب الى القديس في ايام الاحاد برفقة أحفاد صديقاتها القديسات الجموحات ، الحاذقين في ركوب الخيول الكريمة ، ورفقة بناتهن الجميلات الانيقات ، اللواتي يشبهن امهاتهن حين كن في سنهن ، واللواتي يمضين وقوفا في العربات التي تجرها الجواميس ، ويغنين معا ، حتى وصولهن الى كنيسة البعثة التبشيرية في قاع الوادي . ولم تمر الا بقرية فلوريس دي ماريا ، التي لم تزرها في رحلتها السابقة لانها لم تظن بانها ستعجبها ، ولكنها فتنت بها حين عرفتھا . وكانت مصيبتها ، او مصيبة البلدة ، انها لم تستطع ان تتذكرها فيما بعد كما رأتها في الواقع ، وانما كما كانت تتخيلها قبل ان تعرفها .

قرر الدكتور خوفينال اوريينو الذهاب لاجتماعها بعد تلقيه تقرير اسقف ريوهاتشا . فالنتيجة التي استخلصها هي ان زوجته لم تتأخر لانها لا تريد الرجوع وانما لانها لا تجد وسيلة لتجاوز كبريائها . وهكذا مضى الى هناك دون اعلامها ، بعد تبادل عدة رسائل مع هيلديبراندا ، استخلص منها بوضوح ان حنين زوجته قد انقلب : فهي لا تفكر الان الا ببيتها . كانت فيرمينا داثا في المطبخ تعد باذنجاناً محشواً في الساعة الحادية عشرة صباحا ، حين سمعت صرخات عمال المزرعة ، وصهيل الخيول ، ولعلعة الرصاص في الهواء ، ثم الخطوات الواثقة في مدخل البيت ، وصوت الرجل :

- ان يصل المرء في الوقت المناسب خير من توجيه الدعوة اليه .

ظنت انها ستموت من السعادة . ودون ان يتاح لها الوقت للتفكير بالأمر ، غسلت يديها كيفما اتفق وهي تهمهم : «حمداً لك يارب ، حمداً لك ، لكم انت طيب» ، مفكرة بانها لم تستحم بعد من الباذنجان اللعين الذي طلبت منها هيلديبراندا اعداده دون ان تخبرها من القادم للغداء ، ومفكرة بانها قد اصبحت عجوزاً قبيحة ، وان وجهها قد سلخته الشمس ، مما سيجعله يندم لمجيئه حين يجدها بهذا الحال ، اللعنة . لكنها نشفت يديها بالمريلة كيفما اتفق ، واستعانت بكل الكبرياء الذي اخرجتها به امها الى الدنيا لتضبط قلبها المترقص طرباً ، ومضت للقاء الرجل بمشيتها الغزلانية العذبة ، ورأسها المرفوع ، ونظرتها البراقة ، وانفها الحربي ، شاكرة للقدر الطمأنينة العظيمة بالعودة الى البيت ، رغم ان الامر لن يكون بالسهولة التي تصورھا هوحتها ، اذ عادت معه وهي سعيدة حقاً ، ولكنها مصممة كذلك على جعله يدفع بصمت ثمن الالام المريرة التي حطمت حياتها .

بعد حوالي سنتين من اختفاء فيرمينا داثا ، حدثت واحدة من تلك المصادفات المستحيلة

التي كانت ستعتبرها ترانستينواريثا سخرية من سخریات الرب . لم يكن فلورينتینواريثا قد سمح لنفسه بالانبهار باختراع السينما . لكن لیونا کاسیانی حملته دور مقاومة الى حفل الافتتاح الضخم لفيلم کاییریا ، الذي كانت شعبيته ترتکز على الحوار الذي كتبه الشاعر غابرییل دانونزیو . كان فناء سینما دون غالیلیو داکونتي المكشوف ، حيث المتعة تتجاوز في بعض الليالي روعة النجوم الى روعة الغراميات الصامتة على الشاشة ، قد غص بالحضور البارزين . كانت لیونا کاسیانی تتابع أحداث القصة بروح معلقة بخيط . أما فلورينتینواريثا فكان رأسه يتمايل من النعاس بتأثير زخم الدراما . ومن خلفه ، خرج صوت امرأة بدت وكأنها تحزر ما يفكر به :

ـ رباه ، ان هذا أطول من ألم !

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي قالت ، وكظمت نفسها ربما بسبب رنين صوتها في الظلام ، اذ لم تكن قد شاعت هنا بعد عادة مرافقة الافلام الصامتة بموسيقى البيانو ، ولم يكن يسمع في عتمة الصالة سوى ازيزالة العرض الذي يشبه صوت المطر . لم يكن فلورينتینواريثا يذكر الرب الا في أصعب المواقف ، لكنه شكره من اعماق روحه هذه المرة . لانه كان سيتعرف فوراً على ذلك الصوت المعدني الرخيم . حتى ولو كان على عمق عشرين ذراعاً تحت التراب ، مذ حفظه في راحة مساء سمعه يقول له وسط نثارة من الاوراق الصفراء في حديقة متوحدة : « انصرف الان ، ولا ترجع الي ان اطلب اليك » . كان يعلم انها تجلس في المقعد الذي وراء مقعده ، الى جانب زوجها دون ريب . وكان يحس بتنفسها الدسم والمحسوب جيداً ، وكان يستنشق بحب الهواء المنقى بعافية نفسها الطيب . لم يشعر بانها منخورة بعث الموت ، كما كان يتصورها في ساعات يأسه خلال الشهور الاخيرة ، وانما تذكرها مجدداً بعمرها المشع والسعيد ، يبطنها المكورة ببذرة ابنها الاول تحت عباءة مينيرفا . تصورها كما لو كان يراها دون أن يلتفت الى الراء ، غير عابىء بالكوارث التاريخية التي كانت تفيض بها الشاشة . كان يتلذذ بأريج عطر اللوز الذي يصله من جسدها ، ويتشوق لمعرفة افكارها عن كيف تحب نساء السينما لتكون آلام حبهن أقل من آلام الحب في الحياة . وقبيل نهاية الفيلم بقليل ، ادرك فجأة بومضة بهجة ، انه لم يكن ابداً قريباً بهذا القدر وطوال مثل هذا الوقت ممن احبها حبا جما .

انتظر ان ينهض الآخرون عند اشعال الانوار . ثم وقف على مهل ، والتفت متشاغلاً بثبيت ازرار الصدرية التي تفلت دائماً خلال عروض السينما ، فتقابل الاربعة وجوها لوجه بحيث توجب عليهم تبادل التحية ، رغم ان احدا منهم ما كان يرغب بذلك . صافح الدكتور خوفينال اورينوليونا کاسیانی أولاً ، وكان يعرفها جيداً ، ثم شد على يد فلورينتینواريثا بتهذبه

المعتاد . وابتسمت لها فيرمينا داثا ابتسامة مهذبة ، ولاشيء سوى انها مهذبة ، ولكنها كانت على كل حال ابتسامة شخص رأها كثيرا ، ويعرف من هما ، وبالتالي لاحاجة لتقديمها . وردت عليها ليونا كاسياني بلطفها كخلاسية . أما فلوريتينواريثا فلم يدر ما يفعل ، لأن رؤيتها أذهلته .

لقد كانت امرأة أخرى . لم تكن في وجهها أية علامة من علامات المرض الفظيع الشائع ، ولا من أي مرض آخر ، وكان جسدها مايزال يحتفظ بوزنه ورقته التي كان عليها في أفضل ازمانه ، ولكن لاشك بان الستين الاخيريتين قد مرتا عليها بثقل عشر سنوات عجاف . كان الشعر القصير مناسباً لها بتلك القصة المائلة على خديها ، ولكنه فقد ذلك اللون العسلي السابق وصار بلون الالمنيوم . وفقدت العينان الرحمتان الجميلتان نصف حياتهما من الضياء وراء نظارة الجدة . رأها فلوريتينواريثا وهي تبعد ممسكة بذراع زوجها وسط الحشد الذي يغادر السينما ، وفوجيء بانها أتت الى مكان عام بطرحة بائسة وخف من النوع البيتي . ولكن اكثر ما هيج مشاعره هو ان زوجها اضطر لان يشدها من ذراعها ليشير لها الى طريق الخروج ، وقد اخطأت رغم ذلك في تقدير الارتفاعات وكادت تسقط عند درج البوابة .

كان فلوريتينواريثا شديد الحساسية لعشرات الشيخوخة هذه . ففي شبابه كان يقطع قراءاته للشعار في الحدائق ليراقب ازواج المسنين الذين يساعد احدهما الآخر على عبور الشارع ، وكانت تلك دروسا في الحياة قد تضيء امامه قوانين شيخوخته بالذات . لقد كان الرجال ، وهم في مثل سن الدكتور خوفينال اورينوفي ليلة السينما تلك ، يفتحون بنوع من الشباب الخريفي ، فيبدون اكثر وقاراً مع أول الشعرات الشائبة ، ويصبحون فاتنين وجذابين ، خصوصاً في عيون النساء الشابات ، بينما تضطر زوجاتهم الداويات الى التثبيت باذرعتهم كي لا يتعثرن بظلالهن ذاتها . ولكن هؤلاء الازواج مايلبثون ان ينزلقوا فجأة ، بعد بضع سنوات ، الى هوة شيخوخة مرذولة جسداً وروحاً ، وحينئذ يصبح على زوجاتهم المستقرات اسنادهم من اذرعهم كالعميان الباحثين عن صدقة ، والهمس في اذانهم ، كي لا يجرحن كبرياءهم ، بان يتبهاوا جيداً لان عدد الدرجات التي سينزلون ثلاث وليس اثنتين ، وان هنالك بركة ماء في وسط الشارع ، وان تلك الصرة الملقاة على قارعة الطريق هي جثة شحاذا ميت ، ويساعدونهم بمشقة على عبور الشارع وكأنه المخاضة الوحيدة في نهر الحياة الاخير . لقد رأى فلوريتينواريثا نفسه مرات ومرات في هذه المرأة ، حتى انه لم يشعر يوماً بالخوف من الموت كخوفه من ارذل العمر حين سيحتاج لامرأة تقوده من ذراعه . اذ كان يعلم انه في ذلك اليوم ، وفي ذلك اليوم فقط ، عليه ان يتخلى عن الامل بفيرمينا داثا .

لقد اطار ذلك اللقاء النوم من عينيه . وبدلاً من ان يحمل ليونا كاسياني بالعربة ، فقد رافقها

مشيا على الاقدام عبر المدينة القديمة ، حيث كانت خطواته تفرع بلاط الرصيف كخوافر حصان . وكانت تنطلق بين حين واخر بقايا أصوات هاربة من الشرفات المفتوحة ، او مناجيات من مخادع النوم ، اونحيب حب تضخمه المسامع الخيالية واريح الياسمين الدافئ في الازقة الهاجعة . وكان على فلوريتينو اريثا ان يستجمع ثانية كل قواه ليمنع نفسه من ان يكشف لليونا كاسياني عن حبه المقهور لفيرمينا دانا . كانا يسيران معاً ، بخطواتهما المحسوبة ، غارقين في الحب بلا تسرع ، كخطيبين قديمين ، هي تفكر بروعة كابيريا ، وهو يفكر بمحتته الشخصية . وفي ساحة الجمارك كان هناك رجل يغني ، وكان صوته يتردد في الجوباصداء متسلسلة : حين كنت أعبر امواج البحر العظيمة . وفي شارع لوس سانتوس دي بيدرا ، حين كان عليه ان يودعها أمام بيتها ، طلب فلوريتينو اريثا من ليونا كاسياني ان تدعوه لتناول كاس من البراندي . كانت تلك هي المرة الثانية التي يطلب منها ذلك في ظروف متشابهة . في المرة الاولى ، قبل عشر سنوات ، قالت له : « اذا ما صعدت الى بيتي في مثل هذه الساعة فعليك البقاء فيه الى الابد » . ولم يصعد يومها . أما الان فكان مستعدا للصعود في جميع الاحوال ، حتى لو اضطر الى نقض عهده فيما بعد . لكن ليونا كاسياني دعتة للصعود دون أي التزام . وهكذا وجد نفسه في محراب حب مات قبل ان يولد . كان ابواها قد توفيا ، وجمع اخوها الوحيد ثروة طائلة في كوراثا ، وبقيت هي وحدها لتعيش في بيت العائلة . قبل سنوات ، وحين لم يكن قد فقد الامل بجعلها عشيقه له ، اعتاد فلوريتينو اريثا زيارتها أيام الاحاد برضى ابويها ، وكان يزورها في الليل أحيانا ويبقى حتى ساعة متأخرة ، وقد قدم مساهمات كثيرة في عمليات اصلاح البيت حتى صار يعتبره كبيت . ولكنه شعر في تلك الليلة ، بعد السينما ، بان صالة الاستقبال قد طهرت من ذكرياته . كانت اماكن الاثاث قد تبدلت ، وعلقت على الجدران صور جديدة ، ففكر بان كل هذه التغيرات القاسية انما اجريت عمداً لتأكيد يقينه بانه لم يكن له من وجود أبدا . كما ان القط لم يتعرف عليه . فقال وقد افزعه نذير النسيان : « ماعاد يذكرني » . ولكنها ردت عليه وهي توليه ظهرها فيما كانت تملأ كأس البراندي ، بانه اذا كان قلقا لهذا فبامكانه النوم مطمئنا ، لان القطط لا تتذكر أحدا .

وبيناهما متكئان على الاريكة ، متلاصقان ، تحدثا عن نفسيهما ، عما كاناه قبل ان يتعارفا في مساء يوم من يذكر كم مضى عليه في حافلة تقودها البغال . وكانت حياتها تمضي في مكتبين متجاورين ، ولم يتحدثا أبداً من قبل في شيء خلاف العمل اليومي . وفيما هما يتحدثان ، وضع فلوريتينو اريثا يده على فخذه وأخذ يداعبها برقة مجربة في الغواية ، وتركته يفعل ذلك ، ولكن دون ان ترد عليه ولو بمجرد ارتعاشة مجاملة . وحين حاول المضي أبعد من ذلك ، أمسكت يده المستكشفة وقبلت راحته قائلة :

- كن مهذباً . فقد ادركت منذ زمن بعيد بانك لست الرجل الذي أبحث عنه .

ففي صباحها ، بطحها على حين غرة فوق ملطم الأمواج رجل قوي وبارع ، لم تروجهه أبداً ، وعراها ممزقاً ثيابها ، ومارس معها حباً عابراً ومجنوناً . وفيها هي ملقاة فوق الاحجار ، وجسدها كله مليء بالجروح ، تمت لويبقى ذلك الرجل فوقها الى الابد ، ليموت حباً بين ذراعيها . لم تروجهه ، ولم تسمع صوته ، لكنها كانت متأكدة من التعرف عليه بين آلاف الرجال لشكله وحجمه وطريقته في ممارسة الحب . واعتادت منذ ذلك الحين القول لكل من يريد سماعها : « اذا ما عرفت شيئاً في أحد الأيام عن رجل ضخم وقوي اغتصب زنجية بائسة من الشارع فوق صخور سد الفرقى ، في يوم كان الخامس عشر من تشرين الأول ، حوالي الحادية عشرة والنصف ليلاً ، فقل له أين يستطيع ان يجدني » . كانت تقول ذلك بمحض العادة ، وقد كررته كثيراً للدرجة انها فقدت كل أمل . وكان فلورينتينواريثا قد استمع منها مرات ومرات لهذه القصة كما لو انه يسمع صفارات وداع تطلقها سفينة في الليل . وحين اعلنت الساعة الثالثة صباحاً ، كان كل منها قد شرب ثلاث كؤوس من البراندي ، وكان هو يعلم بانه ليس الرجل الذي تبحث عنه حقاً ، وسر لمعرفته ذلك . وقال لها وهو يستعد للانصراف :

- برافويا ليونا ، لقد اجهزنا على هذا النمر .

ولم يكن هذا هو الأمر الوحيد الذي قُضي تلك الليلة . فاكذوبة سرادق المسلولين الخبيثة عكرت أحلامه ، لانها أوجت له بأن فيرمينا دائماً هي من البشر ، ويمكن ان تفنى ، ويمكن بالتالي أن تموت قبل زوجها . ولكنه حين رآها تتعثر عند الخروج من السينما ، تقدم خطوة اخرى نحو الهاوية عندما انكشف له بأنه قد يكون هو وليس هي من يموت أولاً . وكانت تلك من اكثر النبوءات هولاً ، لانها تستند الى الواقع . لقد انقضت سنوات الانتظار الصابر ، والآمال السعيدة ، ولم يلح في الافق سوى خضم الامراض المتخيلة الذي لا يسبر له قرار ، والتبول قطرة قطرة في صباحات الأرق ، والموت اليومي في الظهيرة . وفكر بأن كل لحظة من لحظات اليوم ، تلك التي كانت حليفة له في الماضي وشريكة محلفة ، بدأت تتآمر ضده . لقد ذهب منذ سنوات قليلة الى موعد غرامي جريء وقلبه مثقل بالخوف من المصادفة ، فوجد الباب غير مقفل والمفصلات مزينة لتوها كي يستطيع الدخول دون اثار اية ضجة ، لكنه احجم في اللحظة الاخيرة مخافة ان يسبب لامرأة غريبة وخدمية الضرر الذي لا سبيل لاصلاحه بموته في سريرها . وهكذا كان معقولا التفكير بأن المرأة التي احبها اكثر من كل ما احبه على وجه الأرض ، والتي انتظرها دون تدمير من قرن الى آخر ، لن يتاح لها الوقت لاسناده من ذراعه وعبور شارع مليء ببحوثات التراب القمرية وجنائن البرقوق التي بعثرتها

الريح ، لمساعدته في الوصول سلباً معافى الى الرصيف الآخر للموت .

الحقيقة ان فلورنتينواريثا ، قد دخل وفق معايير عصره حدود الشيخوخة ، كان عمره ستاً وخمسين سنة ، بالتسام والكمال ، وكان يظن بانه عاش أفضل حياة ، لان سنوات حياته كانت سنوات حب . ولكن لم يواجه اي رجل من رجال عصره سخرية الظهور بمظهر الشباب وهو في سنه ، بينما كان هو كذلك ، أو كان يعتقد بأنه كذلك ؛ كما لم يكن أي من اولئك الرجال ليتجراً على الاعتراف دون خجل بأنه ما زال يبكي خفية من أجل صدّ لقيه في القرن الماضي . لقد كان عصراً سيئاً للظهور بمظهر الشباب : فهناك طريقة معينة في اللباس لكل سن ، لكن طريقة سن الشيخوخة في اللبس تبدأ بعد المراهقة بقليل ، وتستمر حتى القبر . ولقد كانت هذه المرحلة عبارة عن مرحلة وقار اجتماعي اكثر منها مرحلة حياتية . فالشباب فيها يلبسون مثل اجدادهم ، ويصبحون اكثر وقاراً بالنظارات المبكرة ، كما كان حمل العكاز امراً مقبولا منذ سن الثلاثين . أما بالنسبة للنساء فلم تكن في حياتهن سوى مرحلتين : سن الزواج ، وهو لا يتعدى الثانية والعشرين من العمر ؛ وسن العزوبة الابدية . . الذي يضم الكاسدات . أما ما سوى ذلك من متزوجات وأمّهات وأرامل وجدّات ، فكان صنفاً مختلفاً من البشر ، لا تحسب حياتهن بما يعيشه من سنوات ، وإنما بالزمن المتبقي أمامهن للموت .

لقد واجه فلورنتينواريثا غدر الشيخوخة بجسارة شرسة ، حتى وهو يعرف قدره الغريب بالظهور بمظهر الشيخوخة منذ طفولته . وقد كان ذلك المظهر وليد الحاجة في أول الأمر ، اذ كانت ترانسييتواريثا تفتق له وتعيد خياطة ملابس ابيه التي يقرر التخلص منها وإلقاءها الى القمامة . وهكذا كان يذهب إلى المدرسة الابتدائية بسترّة تصل الى الأرض عند جلوسه ، وقبعة وزارية تغطس في رأسه حتى أذنيه ، رغم تضيق اطارها بحشوات من القطن . وبما انه كان يستخدم نظارات لقصر النظر كذلك منذ الخامسة من عمره ، وكان له شعر هندي كشعر امه ، مزبث وقاس كشعر جواد ، فلم تكن لمظهره اية سمات واضحة . ولحسن الحظ ان المعايير المدرسية كانت أقل انتقائية مما كانت عليه من قبل ، وذلك بعد فوزى الحكومات الكثيرة بسبب الحروب الاهلية المفروضة والمتلاحقة . فكانت المدارس العامة تزخر بخليط من الاصول والظروف الاجتماعية المتباينة . كان يأتي الى الدروس صبية تفوح منهم روائح بارود المتاريس ، بملابس وشارات ضباط متمردين نالوها بالرصاص في معارك مشكوك فيها ، وبأسلحتهم النظامية البادية تماماً على خصورهم . وكانوا يصطدمون فيما بينهم بالرصاص لاي خلاف في الاستراحة ، ويهددون المعلمين ان هم اساؤوا تقديرهم في الامتحانات ، بل ان أحدهم ، وهو تلميذ في الصف الثالث بمدرسة لاساليه وكولونيل ميليشيا متقاعد ، قتل الاخ خوان اريميئا ، رئيس الطائفة ، بالرصاص لانه قال في درس أصول الدين ان الرب هو

عضو عامل في الحزب المحافظ.

من جهة اخرى، كان أبناء العائلات الكبيرة المنكوبة يأتون الى المدرسة بملابس امراء قدماء، بينما يسير بعض الفقراء المدقعين حفاة. وبين كل هذه المفارقات الغريبة التي طالت جميع المستويات. كان فلورنتينواريثا من اشد الحالات غرابة، ولكن ليس الى الحد الذي يلفت اليه الانتباه كثيراً. وكان أقسى ما سمعه هو ان أحدهم صرخ به في الشارع يوماً: «الفقير القبيح تنقضي حياته في التمنيات». وعلى أي حال فان ذلك الزي الذي فرضته الحاجة، كان منذ ذلك الحين، وسيبقى طوال حياته، الاكثر ملاءمة لطبيعته الغامضة ومزاجه الكئيب. وحين وصل الى أول منصب مهم في ش.ك.م.ن.، بعث يطلب تفصيل ثياب جديدة على مقاسه من طراز ملابس ابيه، الذي ما زال يذكره كشيخ توفي عن عمر موقر كعمر المسيح: ثلاث وثلاثون سنة. لقد كان فلورنتينواريثا يبدو اذن اكبر من سنه الحقيقي بكثير. لدرجة ان النمامة بريجيذا زوليتا، احدي عشيقاته العابرات والتي كانت تقدم له الحقائق دون ان تمر بها في الماء، قالت له منذ اليوم الأول بانه يعجبها اكثر حين يخلع ملابسه، لانه يصغر عشرين سنة وهو عارٍ. ولم يستطع رغم ذلك التوصل الى التوافق أبداً، أولاً لان ذوقه الشخصي لا يمكنه من ان يتزيا بطريقة اخرى، وثانياً لان أحداً من أهل ذلك العصر ما كان يعرف كيف له ان يتزيا بزي شاب في العشرين دون ان يُخرج مجدداً من خزانته سراويله القصيرة وقبعة الأولاد. ومن جهة اخرى، لم يكن ممكناً له هو بالذات الهروب من معرفة شيخوخة عصره. وهكذا فقد كاد ان يكون طبعياً حين رأى فيرمينا داثا تتعثر لدى خروجها من السينما، وامكن لبارقة الذعر ان تبعث القشعريرة فيه لاحساسه بأن الموت العاهر سينتصر عليه بالتأكيد في حرب حبه الضروس.

كانت المعركة التي خاضها عاجزاً حتى ذلك الحين وخسرهما دون أمجاد، هي معركته ضد الصلع. فمنذ رأى الشعرات الأولى تعلق بالمشط، ادرك انه محكوم بهجيم لا يمكن لمن لم يعيشه تصور عذاباته. قاوم خلال سنوات. لم يدع وصفة أو علاجاً للصلع إلا وجربه، ولا خرافة إلا وآمن بها، ولا توضحية إلا واحتملها ليدافع عن كل بوصة من شعر رأسه في مواجهة الداء النهم. حفظ عن ظهر قلب تعليمات رزنامة بريستول الزراعية، لانه سمع أحدهم يقول ان نمو الشعر مرتبط ارتباطاً مباشراً بدورات المواسم الزراعية. وهجر حلاقه الخاصة الذي كان يقص شعره عنده منذ الازل، لانه كان ذا صلعة مهيبة، واستبدله بحلاق غريب جاء المدينة حديثاً وكان لا يقص الشعر إلا حين يبدأ القمر بالاكتمال. وأخذ الحلاق الجديد يثبت ان يده مخصبة حقاً حين كشف أمره كمغتصب تلميذات غريرات تلاحقه شرطة عدة بلدان انتيلية، وقيد مكبلاً بالسلاسل.

كان فلورنتينواريثا قد قص حتى ذلك الحين جميع الاعلانات الموجهة للصلعان في صحف بلدان حوض الكاريبي ، حيث كانوا ينشرون في تلك الاعلانات صورتين متجاورتين للرجل نفسه ، الأولى وهو متوف مثل شمامة ، والثانية بشعر أغزر من لبدة أسد : قبل وبعد استخدام الدواء المضمون . وبعد مرور ست سنوات ، كان قد جرب مئة واثنين وسبعين دواء ، اضافة الى وسائل اخرى مكملة كانت ترد في الوصفة المرفقة بقناتي الدواء . لكن الشيء الوحيد الذي حصل عليه هو نوع من الاكزيما في رأسه ، قرحة حارقة ومنتنة ، يطلق عليها اولياء المارتينيك الصالحين اسم القرع الشمالي ، لان اشعاعاً فسفورياً ينبعث منها في الظلام . وبعد ذلك لجأ الى جميع اصناف الاعشاب التي يروجها الهنود في السوق العام ، وجميع الادوية السحرية والاكاسير الشرقية التي تباع في زقاق الكتبة العموميين ، وحين ادرك انه ليس سوى ضحية عمليات غش ، كانت قرعة كقرعة القديسين قد غزت منتصف رأسه . وفي السنة صفر ، عندما كانت حرب الألف يوم الأهلية تستنزف البلاد ، مر في المدينة ايطالي يصنع بيروكات من الشعر الطبيعي على المقاس . كانت الواحدة منها تكلف ثروة ، ولا يتحمل الصانع أية مسؤولية بعد ثلاث شهور من الاستعمال . ولكن عدداً ضئيلاً فقط من الصلعان الموسرين لم يرضخوا للاغراء . وكان فلورنتينواريثا أحد الأوائل . جرب بيروكة مشابهة تماماً لشعره الاصلي ، حتى انه خشي من وقوف الشعر مع تبدلات مزاجه . لم لم يستطع استيعاب فكرة حمل شعر انسان ميت على رأسه . وكان عزاؤه الوحيد ان شراة الصلع لم تتح له التعرف على لون شعراته الشائبات . وفي يوم من الايام عاناه أحد سكارى الميناء النهري السعداء بعاطفة متدفقة اكثر من المعتاد وهو خارج من المكتب ، فافلتت الباروكة امام سخرية عمال الشحن ، وطبع السكران قبلة مدوية على رأسه وهو يصرخ :
- صلعة ربانية !

في تلك الليلة بالذات ، وكان قد بلغ الثامنة والاربعين من العمر ، خلق الشعيرات القليلة المتبقية على الصدغين والرقبة ، واستسلم تماماً لمصيره كأصلع مطلق . بل انه لم يعد يطلي صباح كل يوم قبل الحسام ذقنه وحدها بالرغوة ، وانما كذلك اجزاء من رأسه حيث يجد ان بعض الشعر آخذ بالظهور ، فيجعلها بموس الحلاقة مثل إلية طفل رضيع . لم يكن ينزع القبعة حينئذ حتى ولو في المكتب ، اذ كانت الصلعة تثير فيه شعوراً بالعري يبدو له غير وقور . ولكنه حين اعتاد عليها تماماً ، نسب اليها فضائل ذكورية كان قد سمع بها ، وكان يزدرىها من قبل على انها مجرد اوهام من الصلعان . ثم انتقل فيما بعد الى العادة الجديدة باستخدام شعر المفرق الأيمن الطويل لتغطية الصلعة ، ولم يتخل عنها ابداً . ولكنه استمر في استخدام القبعة وهو على هذا الحال ، بالطريقة الجنائزية ذاتها ، حتى بعد ان شاعت قبعة تارتاريتا ، وهو

الاسم المحلي لقبعة كاثوتيه .

أما فقدانه اسنانه فلم يكن نتيجة بلوى طبيعية، وإنما نتيجة عمل غير متقن قام به طبيب أسنان متجول رأى أنه لا بد من نزع الاسنان اثر التهاب عادي . كان الرعب من آلة ثقب الاسنان قد منع فلورنتينواريثا من زيارة طبيب الاسنان رغم آلام اضراسه المستمرة، إلى أن فقد القدرة على الاحتمال . وقد فزعت امه حين سمعت أنينه في الغرفة المجاورة طوال الليل، اذ بدت لها كتأوهات في زمن آخر شبه مظموس في ضباب ذاكرتها، ولكنها حين طلبت منه ان يفتح فمه لترى أين هو ألم الحب، اكتشفت ان ما يضره هي الخراجات والدمايل الصغيرة . ارتسله العم ليون الثاني عشر الى الدكتور فرانسيس ادوناي، وهو مارد زنجي يلبس سروالا خاصاً بركوب الخيل، ويتنقل في السفن النهرية حاملاً عيادته السنية كلها في اكياس، فيبدو أشبه بمندوب متجول للرعب في قرى النهر. وبعد نظرة واحدة الى فم فلورنتينواريثا، قرر انه لا بد من نزع اسنانه كلها، بما في ذلك الاسنان والاضراس السليمة، لانقاذه الى الابد من محن أخرى. وعلى العكس من الصلعة، لم يسبب له هذا الاعلاج الحماي اي نوع من القلق، باستثناء خوفه الطبيعي من المجزرة دون مخدر. كما لم تزعجه فكرة الاسنان الاصطناعية، أولاً لان احدى ذكريات طفولته التي يحن اليها هي ذكرى ساحر رآه في مهرجان وكان ينزع فكيه ويضعهما على طاولة ليتكلما بمفردهما، وثانياً لانه سيضع حداً لآلام الاضراس التي عذبتة منذ طفولته، وهي آلام تكاد تشبه بقسوتها آلام الحب. لم يرف في الأمر ضربة غادرة من ضربات الشيخوخة، كما رأى في الصلعة، اذ كان مقتنعاً، رغم طعم المطاط المكبرت، بان مظهره سيكون اجمل بابتسامة قريمة . وهكذا سلم نفسه دون مقاومة لكماشة الدكتور ادوناي المضمخة بالدم، واحتمل آلام العلاج بصبر كصبر حمير العتالة .

اهتم العم ليون الثاني عشر بتفاصيل العملية كما لو كانت تُجرى له بالذات . فقد كان يولي الاسنان الاصطناعية اهتماماً خاصاً اثر احدى رحلاته الاولى في نهر مجدلينا، وبسبب هوسه بالغناء الجميل . ففي احدى الليالي القمرية، وقريباً من ميناء غامارا، راهن مساح اراض ألماني بانه قادر على ايقاظ مخلوقات الغابة بغناؤه رومنس نابولي من فوق شرفة القبطان . وكاد ان يكسب الرهان . اذ انطلقت في عتمة النهر خفقات اجنحة طيور مالك الحزين في المستنقعات، وضرب ذيول التماسيح، وانفاس اسماك الشابل وهي تحاول القفز الى اليابسة، ولكنه حين وصل القفلة الختامية، وحين خشي المجتمعون من تمزق شرايين المغني لقوة صوته، افلت طقم الاسنان الاصطناعية من فمه مع النفس الاخير، وغرق في الماء .

وقد اضطرت السفينة للانتظار ثلاثة ايام في ميناء تينيريفي، ريثما صنعوا له مجموعة اسنان طواريء جديدة . وقد كانت هذه الاسنان الجديدة متقنة . ولكنه في رحلة العودة، واثناء

محاولته ان يشرح للقبطان كيف أضع طقم اسنانه السابق ، استنشق العم ليون الثاني عشر ملء رثيه هواء الغاية الملهب، وصدح بأعلى لحن يستطيعه ، واحتفظ به حتى النفس الاخير محاولا افزاع التماسيح الجائمة تحت الشمس متأملة مرور السفينة دون ان يظرف لها رمش، فغرق طقم الاسنان الحديد في مجرى النهر أيضاً. ومنذ ذلك الحين وضع نسخاً من الاسنان الاصطناعية في كل مكان، وفي عدة أماكن بالبيت، وفي درج مكتبه، كما وضع طبقاً في كل سفينة من سفن الشركة الثلاث. وإضافة الى ذلك، صار يحمل معه كلما ذهب لتناول الطعام خارج المنزل، طبقاً اضافياً يضعه في علبة لاقراص السعال في جيبه، وذلك لان اسنانه الاصطناعية كُسرت يوماً وهو يحاول أكل قطعة من شحم الخنزير المقدد في غداء ريفي. وخشية ان يقع ابن اخيه ضحية مفاجآت من هذا النوع، أمر العم ليون الثاني عشر الدكتور ادوناي بأن يصنع له مجموعتين من الاسنان : احدهما من مواد عادية، للاستخدام اليومي في المكتب، واخرى لايام الاحاد والاعياد، مزودة بلمعة ذهبية في خرس الابتسامة، مما منحها لمسة اضافية حقاً. واخيراً، رجع فلورنتينو اريثا، في يوم أحد يضح بنواقيس العيد، الى شارع بهوية جديدة، وجعلته ابتسامته الصائبة يشعر بأن شخصاً آخر قد احتل مكانه في الدنيا.

حدث هذا في الحقبة التي ماتت فيها امه وبقي فلورنتينو اريثا وحده في البيت الذي كان ركناً مناسباً لغرامياته، اذ ان شارعهم يكتنم الاسرار رغم ان النوافذ الكثيرة التي تمنحه الاسم توحى بوجود عيون تتلصص من وراء الستائر. ولكن كل ما في هذا البيت انها صنع لاسعاد فيرمينا دائماً، وسيكون لها وحدها. وهكذا فضل فلورنتينو اريثا تبديد فرص كثيرة خلال اكثر سنواته إثارة، على ان يدنس بيته بغراميات اخرى. ولحسن الحظ ان كل درجة كان يرتقيها في مناصب ش.ك.م.ن.، كانت تعني امتيازات جديدة، ومكاسب سرية على وجه الخصوص، واكثر هذه الامتيازات فائدة بالنسبة اليه كانت امكانية استخدامه المكاتب خلال الليل، وفي أيام الاحاد والعطل، بالاتفاق مع البوابين. وفي احدى المرات، حين كان نائباً اول للرئيس، فتح باب مكتبه بغتة بينما كان يمارس حياً مستعجلاً مع احدى الفتيات اللواتي يعملن ايام الاحاد، وكان جالساً على الكرسي فيما هي رابضة في حضنه، وبعد فتح الباب، اطل العم ليون الثاني عشر برأسه، كما لو انه أخطأ في المكتب، ووقف يتأمل من فوق نظارته ابن اخيه المرتبك. ثم قال العم دون اي قدر من الدهشة : «كراخو! انها لعنة ابيك نفسها!». وقبل ان يغلق الباب ثانية، قال ونظره تائه في الفراغ :

- وأنت أيتها الانسة، تابعي بلا خوف. أقسم لك بشرفي اني لم أروجهك.

لم يعد للحديث في هذا الأمر. ولكن العمل كان مستحيلاً في مكتب فلورنتينو اريثا خلال

الاسبوع التالي . فقد دخل الكهربائيون يوم الاثنين بجلبة لتركيب مروحة ذات رياش في السقف الاملس ، واتى صانعو الاقفال دون انذار مسبق ، واثاروا ضجة حرب وهويثبتون مزلاجاً في الباب لاغلاقه من الداخل . وأخذ النجارون مقاسات دون ان يقولوا لماذا ، وجاء المنجدون بنماذج من قماش الكريتون ليراوا ان كانت تتناسب مع لون الجدران ، وكان عليهم في الاسبوع التالي ان يستخدموا النافذة ، لأن الابواب لم تتسع لادخال اريكة مزدوجة مزينة برسوم ازهار . اشتغلوا في ساعات لا تخطر على بال ، بوقاحة لا تبدوانها مصادفة ، وكانوا يرددون على كل من يعترض بالقول : « انها اوامر الادارة العامة » . لم يعلم فلورينتينو اريثا ابداً ان كان هذا التدخل لطفاً من العم ، الساهر على غرامياته الضالة ، ام انه اسلوب خاص به للفت انتباهه إلى سوء سلوكه في استخدام صلاحياته . ولم يتبين حقيقة ان العم ليون الثاني عشر كان يشجعه ، فقد وصلت إلى مسامعه كذلك انباء تقول ان لابن اخيه عادات مختلفة عن عادات معظم الرجال ، وقد اقلقه ذلك لانه رأى فيه عائقاً امام تعيينه خليفة له .

لقد عاش ليون الثاني عشر لوائشا ، على عكس اخيه ، حياة زوجية مستقرة ، استمرت ستين سنة ، وكان يفاخر دوماً بانه لا يشتغل أيام الأحاد . وقد انجب أربعة ابناء وابنة واحدة ، وكان يريد اعدادهم جميعاً ليرثوا عنه امبراطوريته ، ولكن الحياة أعدت له واحدة من هذه المصادفات التي كانت شائعة في روايات عصره ، والتي لم يكن هناك من يؤمن بوجودها في الحياة الواقعية : لقد مات الابناء الاربعة ، واحداً بعد الآخر ، وبعد وصولهم إلى مناصب المسؤولية . أما الابنة ، التي لا تتمتع بأية ميول نهريّة ، ففضلت الموت وهي تتأمل مراكب هدرسون من نافذة على ارتفاع خمسين متراً . فوجد هناك بعد كل هذه الميئات من يؤمن باسطورة ان فلورينتينو اريثا ، بمظهره المشؤوم ومظلمته التي كمظلة مصاصي الدماء ، قد فعل شيئاً لتحدث كل هذه المصادفات معاً .

وعندما تقاعد العم عن العمل مكرهاً ، بأمر طبي ، ضبحى فلورينتينو اريثا راضياً ببعض غرامياته في ايام الأحاد ليرافق العم إلى ملجأه الريفي في سيارة من السيارات الأولى التي شوهدت في المدينة ، والتي كانت ذراع ادارة محركها قوية الارتداد لدرجة انها انتزعت ذارع سائقها الأول . كانا يتحادثان لساعات طويلة فيما العجوز مستلق في ارجوحة نومه المطرز عليها اسمه بخيوط حريرية ، بعيداً عن كل شيء ، في مزرعة عبيد قديمة كانت تظهر من مصاطبها المشرفة مساء قمم سلسلة الجبال المكلفة بالثلج . كان يصعب على فلورينتينو اريثا وعمه الخوض في حديث آخر سوى الملاحة النهرية ، وبقي هذا هو موضوع تلك المسامرات الطويلة ، حيث كان الموت دوماً ضيفاً لامرئياً . لقد كانت احدى مشاغل العم ليون الثاني عشر هي الحيلة دون انتقال الملاحة النهرية إلى ايدي رجال اعمال من اقاليم الداخل الذين

يرتبطون بالاحتكارات الاوربية . وكان يقول : «لقد كان هذا العمل دوماً هو عمل الماتاكونغيين . اما اذا تولاه الداخليون فسيهدونه ثانية الى الألمان» . وكان قلقه ناجماً عن قناعة سياسية يحب تكرارها بمناسبة وبلا مناسبة :

- أكاد أكمل مئة سنة ، وقد رأيت كل شيء يتغير ، بما في ذلك مواقع الكواكب في الكون ، ولكنني لم أر حتى الآن شيئاً يتغير في هذه البلاد . فهنا توجد دساتير جديدة ، وقوانين جديدة ، وحروب جديدة كل ثلاثة شهور ، لكننا ما زلنا نعيش في العهد الاستعماري . وكان يرد دائماً على أخويه الماسونيين اللذين يعزوان كل الشرور إلى فشل الاتحادية : «لقد كانت حرب الألف يوم خاسرة قبل اندلاعها بعشرين سنة . . منذ حرب ٧٦» . وكان فلوريتينو اريشا ، الذي تتجاوز لامبالاته السياسية حدود المطلق ، يستمع الى هذا الكلام الطويل المكرور كمن يستمع إلى صوت البحر . ولكنه كان بالمقابل نقيضاً صارماً فيما يتعلق بسياسة الشركة . اذ كان يرى ، على العكس من عمه ، بان تخلف الملاحة النهرية ، التي تبدو دائماً على شفير الكارثة ، لا يمكن معالجته إلا بالتخلي التلقائي عن احتكار الملاحة النهرية الذي منحه الكونغرس الوطني لشركة الكاريبي لمدة تسعة وتسعين عاماً ويوم واحد . وكان العم يعترض : «هذه الافكار تحشوها في رأسك سميتي ليونا المولعة بالفوضوية» . وكان هذا هو نصف الحقيقة فقط ، اذ كانت مبررات فلوريتينو اريشا تستند إلى تجربة الربان الألماني جون ب . البيرس ، الذي أفسد بطموحه الشخصي المفرط نبوغه النبيل . أما العم ليون فكان يرى ان فشل البيرس لم يكن بسبب امتيازاته . وانما نتيجة التعهدات اللاواقعية التي التزم بها في حينه ، فكان كمن يلقي على كاهله مسؤولية الجغرافية الوطنية بأسرها : فقد تحمل مسؤولية الحفاظ على الملاحة النهرية ، وبناء المنشآت المرفأية ، والطرق البرية المؤدية إلى الموانئ ، ووسائل النقل . أضف إلى ذلك - كان يقول - ان معارضة الرئيس سيمون بوليفار الشديدة لم تكن بالعائق الذي يبعث على الضحك .

كان معظم المساهمين في الشركة يرون في ذلك الخلاف كواحد من الخلافات الزوجية ، حيث كلا الجانبين على حق . فعناد الشيخ يبدو لهم طبيعياً ، ليس لان الشيخوخة جعلته أقل وهماً بما كان عليه دوماً ، كما اعتاد القول عن نفسه بسهولة كبيرة وانما لان التخلي عن الاحتكار برأيه هو إلقاء إلى القمامة بمكاسب النصر الذي تحقق في معركة تاريخية خاضها واخواه منفردين في الازمنة البطولية ، ضد خصوم جبارين من العالم بأسره . ولهذا لم يعارضه أحد حين ربط حقوقه بطريقة لا تتيح لأحد المس بها قبل غيابه القانوني . ولكن حين سلم فلوريتينو اريشا اسلحته في مسامرات التأمل في المزرعة ، ابدى العم ليون الثاني عشر موافقته في التخلي عن الامتياز المثلوي ، بشرط مشرف وحيد هو ألا يتم التنازل قبل وفاته .

كان هذا هو عمله الاخير . ولم يعد بعده للحديث في شؤون العمل ، بل انه لم يعد يسمح لهم بان يستشيروه فيه . ولم يفقد تجميعة واحدة من تجميعة رأسه الامبراطوري ، ولا ذرة واحدة من وضوحه ، لكنه فعل كل ما امكنه حتى لا يبدو عليه شيء يثير الشفقة . كانت ايامه تمضي وهويتاه لـ الثلوج الدائمة من شرفته ، محركاً كرسيه الفيني الهزاز ببطء ، إلى جانب طاولة صغيرة تحرس الخدمات على وجود ابريق قهوة مرة ساخنة عليها دوماً ومجموعتين من اسنانه الاصناعية التي ما عاد يستخدمها إلا لاستقبال الزيارات . كان يلتقي عدداً محدوداً من الاصدقاء ، ولا يتحدث معه إلا عن ماضٍ سحيق جداً وسابق للملاحة النهرية . ولكن بقي له مع ذلك موضوع جديد للحديث : رغبته بزواج فلوريتينو اريثا . وقد عبر عن ذلك عدة مرات ، وبالعريقة ذاتها دوماً .

كان يقول له :

- لو انني كنت أصغر بخمسين سنة لتزوجت من سَمِيَّتِي ليونا . فانا لا استطيع تصور زوجة أفضل منها .

كان فلوريتينو اريثا يرتعش لخوفه من ان يضيع كل ما عمله خلال سنوات طويلة بهذا الشرط الطاريء في اللحظة الاخيرة . لكنه كان يفضل الاستقالة ، والتخلي عن كل شيء ، والموت ، قبل ان يخلف وعده لفيرمينا داثا . ولحسن الحظ ان العم ليون الثاني عشر لم يصرف في طلبه . وحين اتم الثانية والتسعين من العمر ، اعترف بابن اخيه وريثاً وحيداً وتقاعد من الشركة .

بعد ذلك بستة شهور ، وباجماع المساهمين ، عُيِّن فلوريتينو اريثا رئيساً لمجلس الادارة ومديراً عاماً للشركة . ويوم تولى مهام منصبه ، بعد تناول الشمبانيا ، طلب العجوز ليون المتقاعد السماح له بالحديث وهو جالس على الكرسي الهزاز ، وارنجل خطبة قصيرة بدت اشبه بمرثية . قال ان حياته بدأت وانتهت بحديثين صادرين عن العناية الالهية . - الحدث الاول هو ان بطل التحرير حمله بين ذراعيه ، في بلدة تورباكو ، اثناء رحلته المشؤومة التي قادته إلى الموت . والحدث الثاني كان عثوره ، رغم كل العوائق التي فرضها القدر ، على خليفة جدير بالشركة . واخيراً ، في محاولة لنزع المأساوية من المأساة ، اختتم حديثه قائلاً :

- المرأة الوحيدة التي احملها من هذه الحياة هي انني غنيت في جنازات كثيرة ، باستثناء جنازتي .

ولا ختام الاحتفال ، وكيف لا ، غنى منفرداً اغنية وداعاً للحياة ، من اوبريت توسكا . غناها بلحن كنائسي ، كما يجب ان يغنيها ، وبصوت ما يزال ثابتاً . لقد تأثر فلوريتينو اريثا ، لكنه لم يكذب يظهر ذلك في ارتعاشه صوته حين القى كلمة شكر . مثلما فعل وفكر بكل ما فعله

وفكر به في الحياة . لقد وصل إلى القمة دون هدف سوى قراره الشرس بالبقاء حياً وفي حالة صحية جيدة لحظة توليه مصيره في ظل فيرمينا داثا .

ولكن لم تكن ذكراها وحدها هي التي رافقته تلك الليلة في الحفلة التي دعت اليها ليونا كسياني . بل رافقته كذلك ذكرى جميع من عرفهن . سواء من يرقدن في المقابر ، مفكرات به من خلال الزهور التي زرعها فوقهن ، أو أولئك اللواتي ما زلن يسندن رؤوسهن على الوسادة ذاتها التي نام عليها أزواجهن بقرون مذهبة تحت ضوء القمر . وباستثناء واحدة منهن ، كان يرغب بأن يكون معهن جميعاً في وقت واحد ، وهو ما كان يخشاه دائماً . ففي أصعب سنوات حياته ، وأقسى لحظاته ، احتفظ بعلاقة ما ، وإن كانت واهية ، مع عشيقاته اللواتي لاحصر لهن : لقد تابع دائماً خيط حياتهن .

تذكر في تلك الليلة روسالبا ، أقدمهن جميعاً ، التي فضت عذريته وما زالت ذكراها تعذبه كما عذبت في اليوم الأول . كان يكتفي باغماض عينيه ليراها بفستان المسلمين والقبعة ذات شرائط الحرير الطويلة وهي تهز قفص الطفل عند حافة السفينة . وكان قد أعد عدة كل شيء مرات عديدة في سنوات حياته الطويلة للانطلاق في البحث عنها دون أن يعرف أين ، ودون أن يعرف ما هولقبها ، ودون أن يعرف أن كانت هي حقاً من يبحث عنها ، ولكنه كان متأكداً من أنه سيجدها في أي مكان ما بين ازهار السلحبيات . وفي كل مرة ، بفعل عائق حقيقي يطرأ في اللحظة الأخيرة ، أو بفعل خلل خارج عن ارادته ، كانت الرحلة تتأجل وهو على وشك أن يرفع جسر السفينة : وقد كانت للأسباب دوماً علاقة ما بفيرميني داثا .

تذكر أرملة ناثاريت ، الوحيدة التي دنس معها بيت أمه في شارع لاس فيتتاناس ، رغم أنه لم يكن هو ، وإنما ترانسيتواريثا ، من سمح لها بالدخول . ولقد كرس لها تفهماً أكثر من أي واحدة سواها ، لأنها الوحيدة التي كانت تشع حناناً يكفي لإحلالها محل فيرمينا داثا ، رغم بلادتها في الفراش . لكن ميولها كقطعة متشردة ، وغير مروضة ، تفوقت على قوة حنانها وحكمت عليهما بالخيانة . ومع ذلك ، فقد أصبحتا عاشقين متقطعين خلال ما يقرب من ثلاثين سنة بفضل شعاره الفروسي : خائنان ، ولكن غير مخادعين . وكانت هي الوحيدة كذلك التي كشف فلوريتينو عن وجهه الحقيقي من أجلها : فحين وصله خبر موتها ، وعلم أنها ستدفن في مدافن الاحسان ، تكفل بدفنها على نفقته ، وكان الوحيد الذي حضر جنازتها .

تذكر أراميل أخريات محبوبات . بروديشيا بيترا ، أقدم اللواتي ما زلن على قيد الحياة ، والمعروفة للجميع باسم أرملة الرب ، لأنها ترملت مرتين . وتذكر بورديثيا الأخرى ، أرملة أرييانو المتيمة بحبه ، والتي كانت تقطع ازرار ملابسها ليضطر للبقاء في بيتها ريثما تعيد

اصلاحها . وخوسيفا ، ارملة زونيغا ، المجنونة بحبه ، والتي كادت تقص عضوه بالمقص وهو نائم ، كي لا يكون لأحد سواها .

تذكر انخيلس الفارو ، التي غابت سريعاً وكانت احبهن اليه ، اذ جاءت لمدة ستة اشهر لتعليم موسيقى الآلات الوترية في مدرسة الموسيقى ، وكانت تقضي معه الليالي المقمرة على سطح بيتها ، كما قذفت بها امها الى الدنيا ، عازقة أجمل المقطوعات الموسيقية على البيولونتشيلو^(١) ، الذي يتحول صوته إلى صوت انسان بين فخذيه الذهبيين . ومنذ الليلة المقمرة الأولى ، تفتت قلباهما ارباً بحب مبتدئين شرمين . لكن انخيلس الفارو مضت مثلها جاءت ، بعضوها الغض وآلتها الموسيقية ، في سفينة ترفع راية النسيان ، والشيء الوحيد الذي بقي منها في ليالي السطح المقمرة هو تلويحة وداعها بمنديل أبيض بدا وكأنه حمامة متوحدة وحزينة في الافق ، كما في أشعار مهرجان الزهور . لقد تعلم فلورينتينو اريثا معها ما كان قد عاناه كثيراً دون ان يدرك كنهه : وهو انه بوسع المرء ان يعشق عدة اشخاص في الوقت نفسه ، ويتألم الألم ذاته لهم جميعاً ، دون خيانة أي منهم . وفيما هو يقف وحيداً وسط الجموع في الميناء ، قال غاضباً : « ان في القلب حجرات اكثر مما في فندق للعاهرات » . كان مبتلاً بدموع آلام الريداع . ولكن ما ان اختفت السفينة عند خط الافق ، حتى عادت ذكرى فيرمينا دائماً لتشغل الدراع كله .

تذكر اندريه بارون ، التي مر من أمام بيتها الاسبوع الماضي ، ونبهه الضوء البرتقالي المنبعث من نافذة الحمام إلى انه لا يستطيع الدخول : لقد سبقه أحدهم . أحدهم . . رجل أو امرأة ، لان اندريه بارون لم تكن لتتوقف عند ترهات من هذا النوع في فوضى الحب . وبين جميع من هن في قائمته ، كانت هي الوحيدة التي تعيش من جسدها ، ولكنها كانت تتحكم به حسب رغبتها ، دون وكيل أعمال . في سنواتها الطيبة مارست المهنة القديمة كمومس سرية ، مما جعلها جذيرة باسم سيدتنا قديسة الجميع . لقد فتنت حكماً وامراء بحر . ورأت بعض نبلاء السلاح والادب ممن لم يكونوا مشهورين كما كانوا يظنون انفسهم ، ويكون على كتفها ، وكذلك بعض من كانوا مشهورين حقاً . كما كان صحيحاً ان الرئيس رافائيل ريس ، وبعد نصف الساعة المستعجلة التي امضاها في زيارته للمدينة خصص لها راتباً تقاعدياً مدى الحياة لقاء خدمات قدمتها في وزارة الخزينة ، حيث لم تكن يوماً موظفة . لقد كانت توزع عطايا متعتها إلى اقصى ما أتاحه لها الجسد ، ورغم ان سلوكها غير اللائق كان معروفاً للجميع ، فانه لم يكن بإمكان أحد تقديم أدلة دامغة ضدها ، لان زبائنها البارزين كانوا يحمونها كما

(١) آلة موسيقية وترية شائعة الاستخدام في كولومبيا .

يجمعون انفسهم ، مدركين انهم هم وليس هي من سيخسر اكثر بالفضيحة . وقد خرق فلوريتينو ارثا من أجلها مبدأه المقدس بعدم الدفع ، وخرقت هي قانونها بألا تمارس الحب مجاناً حتى ولو مع الزوج . اذ اتفقا على سعر رمزي هو بيزو واحد عن كل مرة ، لكنها لم تكن تأخذ البيزو كما لم يكن هو يعطيها اياه في يدها ، وانما كان يسقطه في الحصالة إلى ان يصل المبلغ الى ما يكفي لشراء أية بدعة من زقاق الكتبة العموميين . وهي التي عزت إلى الحقن الشرجية التي يستخدمها في إنساكه ، حسية مختلفة في الحب ، واقنعت بصواب فكرتها ، ليستخدما الحقن الشرجية معاً في امسياتها المجنونة ، محاولين بذلك ابتداع مزيد من الحب في الحب .

كان يرى نفسه محظوظاً ، لان الوحيدة التي اذاقته قطرة مرارة وسط كل هذه اللقاءات الخطرة ، هي سارا نورينغا المتقلبة ، التي انتهت حياتها في مشفى الراعية الالهية للمجاذيب ، ملقية اشعاراً شيخوخية بذاعتها تتجاوز كل الحدود ، مما اضطرهم في المشفى إلى عزلها حتى لا تسبب الجنون للمجنونات الاخريات . وحين تسلم فلوريتينو ارثا كامل مسؤوليات ش . ك . م . ن . لم يعد لديه متسع كبير من الوقت لمحاولة احلال أحد محل فيرمينا داثا : كان قد أوقن بانها عصية على الاستبدال . وراح يهوي شيئاً فشيئاً في روتين زيارته لمن يعرفهن ، ليضاجعهن إلى المدى الذي تستطيعه ، وإلى حيث يستطيع ، وإلى حيث تسمح لهم الحياة ، وفي يوم أحد العنصرة ، حين مات خوفينال اورينو ، لم تكن قد بقيت له سوى واحدة ، واحدة فقط ، لها أربعة عشر عاماً من العمر اكملتها لتوها ، وتتمتع بكل ما لم تمتلكه الاخريات حتى ذلك الحين لجعله يحزن خباً .

اسمها اميركا فيكونيا . وكانت قد جاءت قبل سنتين من بلدة بويرتوبادري البحرية ، مبعوثة من أهلها إلى فلوريتينو ارثا ، ولي امرها الذي تربطهم به صلة قربي معروفة . جاءت بمنحة حكومية لتأهل كمعلمة ، وبدأت كدمية حين وصولها بصرة سفرها وحقيبتها الصفيفية . ومنذ نزولها من السفينة بحذائها الأبيض وضميرتها الذهبية ، خطرت له الفكرة الفظيعة بانها سيقضيان معاً قيلولات آحاد كثيرة . كانت ما تزال طفلة بكل ما في ذلك من معنى ، القلق في اسنانها ، وقروح المدرسة الابتدائية في ركبتيها ، لكنه تخيل فوراً المرأة التي ستصيرها عما قريب . فرعاها لنفسه خلال سنة بطيئة من سبوت في السيرك ، وآحاد في الحدائق ومحلات المثلجات ، وأمسيات طفولية نال بها ثقتها ، وكسب ودها ، وراح يقودها من يدها برقة خبيثة كجد كريم إلى مسلخه السري . وكانت استجابتها فورية : لقد فتحت لها أبواب السماء فانفجرت في تفتح وردي جعلها تفيض سعادة ، وكان ذلك دافعاً ناجحاً لدراسنها ، اذ احتفظت دوماً بالموقع الأول في الفصل كي لا تخسر الخروج من المدرسة في نهاية

الاسبوع. وكانت بالنسبة له الركن الاكثر خفاء في خليج شيخوخته. فبعد سنوات طويلة من الغراميات المحبوسة، احس لمذاق البراءة المفسدة فتنة ضلال مستجد.

انسجما. كانت تتصرف على سجيتها: طفلة متاهبة لاستكشاف الحياة تحت اشراف رجل موقر لا يفاجأ بشيء، وتصرف وهو وواع بالشكل الذي كان يخشى ان يصير اليه في الحياة: خطيب شائع. ولم يطابق بينها وبين فيرمينا داثا أبداً، رغم التشابه الكبير بينهما، وليس في السن، والزي المدرسي، والصفيرة، والمشيئة البرية فقط، بل وبالطبع المتكبر وغير المتوقع. ثم ان فكرة الاستبدال، التي كانت حاقراً جيداً له في استعطاء الحب من قبل، قد تلاشت نهائياً من ذهنه. انها تعجبه كما هي، ومحبتها لما هي عليه بحمى لذة غسقية. وكانت الوحيدة التي اتخذ معها احتياطات صارمة للحيلة دون حبل عرضي. وبعد بضعة لقاءات، لم يعد لكليهما من حلم سوى مساء الاحاد.

بما انه الشخص الوحيد المخول باخراجها من المدرسة الداخلية، فقد كان يذهب بحثاً عنها في سيارة الهدسون ذات الستة سلندرات التابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية، وكان ينزع غطاء السيارة القماشى في بعض الامسيات غير المشمسة ليتنزها على الشاطئ، هو بقبعته الكثيفة، وهي منفجرة بالضحك، وممسكة بكلتا يديها قبعته البحرية التي تشكل جزءاً من زيا المدرسي، كي لا تطير مع الريح. لقد قال لها أحدهم يوماً ألا ترافق ولي امرها اكثر من اللازم، وألا تأكل شيئاً كان قد تذوقه وألا تقترب كثيراً من انفاسه، لان الشيخوخة معدية. لكنها لم تول ذلك اهتماماً. كلاهما كان ييدي لا مبالاته لما يمكن للناس ان يظنوه بهما، لان قرابتهما كانت معروفة جيداً، ثم ان سنيهما النقيضين يضعانها بمنأى عن كل الشبهات. كانا قد انتهيا من ممارسة الحب يوم أحد العنصرة، في الرابعة بعد الظهر، حين بدأ قرع النواقيس. وقد فوجيء فلوريتينو اريثا لفرع قلبه. فقرع النواقيس كان يدخل - في شبابه - ضمن تكاليف الجنائز، وكان يحظر على الفقراء فقط. وبعد حربنا الاخيرة، في الجسر الواصل بين القرنين، رسخ النظام المحافظ تقاليد الموروثة من العهد الاستعماري وأصبحت الأبهة الجنائزية مكلفة بحيث لم يعد هناك من هو قادر على دفعها سوى اغنياء. وحين توفي الاسقف اركولي دي لونا، قرعت نواقيس المقاطعة كلها لتسعة أيام بلياليها، وبلغ الضيق العام حداً دفع خليفته إلى الغاء تقليد قرع اجراس الكنائس في المآتم، وحصره بالموتى البارزين. ولذلك حين سمع فلوريتينو اريثا قرع النواقيس في الكتدرائية في الرابعة من مساء يوم أحد العنصرة، أحس ان شبحاً من أيام شبابه المنسية يزوره. لم يتصور مطلقاً ان قرع النواقيس هذا هو الذي تشوق اليه لسنوات وسنوات، منذ يوم الأحد الذي رأى فيه فيرمينا داثا تخرج من القديس الكبير وهي حبل في الشهر السادس.

قال في العتمة :

- اللعنة . لا بد انه حوت سمين كي تقرر من اجله اجراس الكتدرائية .

أما اميركا فيكونيا ، التي استيقظت لتوها ، عارية تماماً ، فقالت :

- لا شك انها من أجل العنصرة .

لم يكن فلوريتينو اريشا خبيراً أو ما شابه ذلك في شؤون الكنيسة ، كما انه لم يذهب الى الصلاة مذ كان يعزف الكمان في الكورس مع ألماني علمه كذلك علم التلغراف ، ولم يتوصل إلى خبر مؤكد عن مصيره أبداً . لكنه كان يعرف دون شك ان النواقيس ما كانت من اجل العنصرة . صحيح ان في المدينة مأتماً ، وهو يعرف ذلك ؛ اذ زارت بيته لجنة من لاجئي الكاريبي لتخبره ان جيرميادي سانت - أمور قد وجد ميتاً في معمل تصويره . ومع ان فلوريتينو اريشا لم يكن من اصدقائه المقربين ، إلا انه كان صديقاً لعدد كبير من اللاجئين الذين اعتادوا على دعوته إلى مناسباتهم العامة ، وخصوصاً المآتم . لكنه كان متأكداً من ان الاجراس لا تقرر لجيرميادي سانت - أمور ، الذي كان ملحداً مصمماً وفوضوياً متهادياً ، اضافة إلى انه قتل نفسه بيده .

قال :

- لا . ان قرع أجراس كهذا لا يمكن ان يكون إلا من أجل حاكم فما فوق .

لم تكن اميركا فيكونيا ، بجسدها الشاحب المرقط بفعل انعكاس اشعة الضوء المتسربة من اباجور النافذة المغلقة ، قد بلغت سنأً يمكنها من التفكير بالموت . كانا قد مارسا الحب بعد الغداء واضطجعا في سكون القيلولة ، عاريين تحت مروحة السقف التي لم يطغ ازيزها على نقر طيور الرخمة التي كانت تدب كحبات البرد فوق سطح الصفيح الساخن . كان فلوريتينو اريشا يجهبها كما أحب كثيرات من النساء الاخريات العابرات في حياته الطويلة ، لكنه كان يحب هذه بكرب أشد ، لانه كان موقناً من انه سيكون قد مات من الشيخوخة حين تنتهي هي من المدرسة العليا .

كانت الحجرة تبدو اشبه بقمرة سفينة ، بجدرانها المصنوعة من ألواح خشبية طليت مرات ومرات فوق طلائها الأول ، كما هو الحال في السفن . لكن الحر كان أشد من حرقمرات سفن النهر في الرابعة مساء ، رغم المروحة المعلقة فوق السرير ، وذلك للحر الذي يعكسه السقف المعدني . لم تكن حجرة نوم عادية وانما قمرة على اليابسة أمر فلوريتينو اريشا بينائها خلف مكاتبه في ش . ك . م . ن . ، دون نية أو ذريعة أخرى سوى الحصول على ملجأ جيد لغرامياته كمعجوز . كان النوم هناك مستحيلاً في الايام العادية بسبب صراخ عمال شحن السفن وقعقة رافعات الميناء النهري ، وجؤار السفن الضخمة في الميناء . ولكنها كانت بالنسبة للطفلة جنة

أيام الأحاد .

فكروا بالبقاء معاً في يوم العنصرة حتى موعد عودتها إلى المدرسة الداخلية، قبل خمس دقائق من صلاة التبشير، لكن قرع النواقيس ذكر فلوريتينو أريثا بوعده في حضور جنازة جيرميا دي سانت - أمور، فارتدى ملابسه بأسرع مما يفعل في العادة، وكان قد جدل قبل ذلك، كماداته، ضفيرة الطفلة التي يحملها قبل ممارسة الحب، ورفعها فوق الطاولة ليعقد لها شريط حذائها المدرسي، الذي لم تحسن ربطه يوماً. كان يساعدها دون خبث، وكانت تساعده ليساعدها كما لو كان ذلك واجباً عليها. . لقد فقد كلاهما الاحساس بالسن منذ لقاءاتها الأولى، وتعاملاً بثقة زوجين اخفيا عن بعضهما أموراً كثيرة في هذه الحياة حتى لم يعد لديهما ما يقولانه .

كانت مكاتب الشركة مقفلة وغارقة في الظلام لان اليوم عطلة، لم يكن في الميناء المقفر سوى سفينة واحدة مراجلها مطفأة. وكان الحر المحتدم ينذر بهطول المطر، أول أمطار السنة، لكن شفافية الهواء وصمت الميناء الأحديدي بدا وكأنهما من شهر لطيف. وكانت الدنيا من هناك أكثر فجاجة من ظلمة القمرة، وكان قرع النواقيس أكثر ايلاماً دون معرفة لمن تفرع. نزل فلوريتينو أريثا والطفلة إلى فناء ملح البارود الذي استخدمه الأسبان فيما مضى كميناء للنخاسة وحيث ما زالت بقايا الثقال وحداثد أخرى من تجارة الرقيق. كانت السيارة تنتظرهما في ظل الحانات، ولم يوقظا السائق النائم فوق المقود إلى ان استقرا في مقعديهما. دارت السيارة من وراء الحانات المسيجة بشبكة معدنية كشباك أقنان الدجاج، واجتازت الفراغ الذي كان يشغله في السابق سوق لاس اينماس، حيث كانت جماعة من اليافعين شبه العراة يلعبون بالكرة، وخرجت من الميناء النهري وسط زوبعة من الغبار الملهب. كان فلوريتينو أريثا متأكداً ان التشريف الجنائزي لا يمكن ان يكون من اجل جيرميا دي سانت - أمور، لكن الحاخ النواقيس جعله يرتاب. وضع يده على كتف السائق وسأله صارخاً لماذا تفرع الاجراس.

فقال السائق :

- انها من أجل هذا الطبيب المعروف . . ما اسمه ؟

لم يكن على فلوريتينو أريثا ان يفكر بالأمر ليعرف من المقصود. ولكن سرعان ما غار الوهم الفوري حين روى له السائق كيف مات، لانه لم يجد الأمر محتملاً. فلا شيء يشبه الانسان كطريقة موته، وليس من موت يبدو أقل شبهاً للرجل الذي تصوره من هذه الميتة. لكنه كان هو نفسه، حتى ولو بدا الأمر غير معقول: فالطبيب الأكبر سناً والاكثر تأهيلاً في

المدينة، وأحد رجالها المرموقين لمشاركته في نشاطات أخرى كثيرة، قد مات اثر تهشم نخاعه الشوكي، عن احدى وثمانين سنة، لدى سقوطه من شجرة مانغا وهو يحاول امساك بيغاء. كل ما فعله فلوريتينو اريثا منذ زواج فيرمينا داثا، كان يركز على أمل هذا الخبر. ولكن حين ازفت الساعة لم يشعر برعشة الانتصار التي كثيرا ما تصورها في اوقات ارقه، وانما أحس بضربة من مقلب الرعب: لقد رأى بوضوح عجيب انه كان يمكن لهذه النواقيس ان تقرر لموته هو. وفزعت اميركا فيكونيا، الجالسة إلى جواره في السيارة المنقافة على الشوارع الحجرية، لشحوبه وسألته عما أصابه. فأمسك فلوريتينو اريثا يدها بيده المتجمدة، وتنهَّد قائلاً:

- آه يا صغيرتي. تلزمني خمسون سنة أخرى لأروي لك. نسي جنازة جيرميادي سانت - أمور. وترك الصغيرة أمام باب المدرسة الداخلية واعدأ اياها على عجل بالمجيء اليها يوم السبت القادم، ثم أمر السائق بالتوجه إلى بيت الدكتور خوفينال اوريينو. وجد ازدحام سيارات وعربات اجرة في الشوارع المجاورة، وحشداً من الفضوليين مقابل البيت فمدعوو الدكتور لاثيريس اوليفيا، الذين تلقوا النبأ المشؤوم وهم في اوج الحفلة، جاؤوا على عجل. ولم يكن التحرك في البيت سهلاً بسبب الازدحام، لكن فلوريتينو اريثا تمكن من شق طريقه حتى غرفة النوم الرئيسية، ورفع نفسه أعلى من المجموعة المحتشدة امام الباب، ورأى خوفينال اوريينو على السرير الزوجي كما تمنى رؤيته مذ سمع باسمه لأول مرة، محاطاً بوقار الموت. انتهى النجار حينئذ من أخذ المقاسات لصنع التابوت. وإلى جانبه، بفستان الجدة حديثة الزواج الذي ارتدته للحفلة، كانت تقف فيرمينا داثا منذهلة وكئيبة.

كان فلوريتينو اريثا قد تخيل تفاصيل تلك اللحظة منذ أيام شبابه، حين كرس نفسه كلياً لقضية هذا الحب المتهور. فمن أجلها احرز لقباً وثروة، ومن أجلها عني بصحته وبمظهره الشخصي عناية لم تكن تبدو جديرة بالرجولة لآبناء عصره، وانتظر ذلك اليوم كما لم يستطع أحد انتظار أحد أو شيء في هذا العالم: دون لحظة واحدة من التقاعس. وبقينه بان الموت قد تدخل أخيراً لصالحه، بث فيه الشجاعة التي كان يحتاجها ليكرر أمام فيرمينا داثا، في ليلتها الأولى كأرملة، يمين الولاء الابدي وحبه الدائم.

لم ينف أمام نفسه بان ما فعله كان عملاً طائشاً، لا معنى له في هذا الوقت وهذه الطريقة، وانه قد تسرع لخوفه من أن لا تسنح له الفرصة ثانية. كان قد أعد ما يريده بطريقة أقل فظاظاً، لكن الحظ لم يسعفه بأحسن مما فعل. خرج من بيت العزاء متألماً لانه تركها تعاني حالة الاضطراب التي كان يعانيها هو نفسه، ولكنه لم يستطع عمل شيء لمنع ذلك عنها، لانه أحس بان تلك الليلة الهمجية كانت مكتوبة منذ الأزل في قدرهما معاً.

لم يستطع النوم ليلة واحدة خلال الاسابيع التالية . كان يتساءل يائساً أين يمكن ان تكون فيرمينسا دائماً من دونه ، وبماذا تفكر ، وماذا ستفعل خلال السنوات المتبقية لها في الحياة بثقل الرعب الذي خلفه بين يديها . عانى من نوبة امساك نفخت بطنه كطبل ، وكان عليه ان يلجأ إلى المسكنات الاكثر لطفاً من الحقن الشرجية . كما ان آلام الشيخوخة ، التي كان يحتملها خيراً من معاصريه ، لانه عرفها منذ شبابه ، هاجمته كلها دفعة واحدة . وعندما حضر إلى المكتب ، يوم الاربعاء ، بعد اسبوع من الغياب ، ارتعدت ليونا كاسياني لرؤيته على تلك الحالة من الشحوب والاسترخاء . لكنه طمأنها : انه الأرق ثانية كالعادة ، وعاد يعض لسانه كي لا تفلت الحقيقة من ثقب قلبه الكثيرة . ولم يمنحه المطر هدنة مشمسة ليفكر فقضى اسبوعاً لا واقعياً آخر ، دون قدرة على التركيز في شيء . وكان يأكل بشكل سيء وينام بطريقة أسوأ ، ويحاول تحسس اشارات مبهمة تهديه إلى سبيل الخلاص . لكن طمأنينة داهمته منذ يوم الجمعة بلا اية مبررات ، ففسرها على انها نذير بان شيئاً جديداً لن يحدث ، وان كل ما فعله في الحياة كان بلا جدوى وليس لديه ما يتابع من اجله : انها النهاية . ومع ذلك ، فلدى وصوله يوم الاثنين إلى بيته في شارع لاس فيتناس ، اصطدم برسالة مبللة بالماء المتجمع وراء الباب ، وتعرف من المغلف في الحال على الخط المتسلط الذي لم تستطع تبديله كل تقلبات الحياة ، بل انه احس برائحة العطر الليلي لازهار الياسمين الذابلة ، لأن قلبه حدثه بكل شيء منذ الرهبة الأولى : انها الرسالة التي انتظرها ، دون لحظة راحة واحدة ، خلال اكثر من نصف قرن .

لم تتصور فيرmina داثا انه يمكن لفلوريتينو اريثا فهم تلك الرسالة التي دفعها الغضب لكتابتها على انها رسالة حب. لقد ضمنتها كل السخط الذي استطاعته، مستخدمة أقسى ما لديها من عبارات واهانات جارحة، وظالمة أيضاً، ومع ذلك رأت انها ضئيلة أمام حجم الاساءة. كانت الرسالة ذروة مرارة دامت اسبوعين، وقد حاولت الوصول من خلالها إلى مصالحة مع وضعها الجديد. أرادت ان تعود إلى ذاتها، وان تسترد كل ما اضطرت للتخلي عنه خلال نصف قرن من العبودية التي كانت سعيده بها دون شك. ولكن موت زوجها لم يترك لها اثراً من هويتها. كانت شبهاً في بيت غريب تحول بين يوم وآخر إلى بيت فسيح موحش، وكانت هي تهيم فيه على غير هدى، متسائلة بمرارة من هو الميت: أهو الذي مات أم هي التي بقيت على قيد الحياة.

ما كانت قادرة على تصريف احساس عميق بالغضب من الزوج الذي تركها وحيدة وسط بحر الظلمات. كان كل شيء من اشيائه يدفعها للبكاء: البيجاما التي تحت الوسادة، والخف الذي كان يبدو لها دوماً وكأنه خف مريض، وذكرى صورته المطبوعة في عمق المرآة وهو يخلع ملابسه فيما هي تسرح شعرها للنوم، ورائحة بشرته التي ستبقى عالقة ببشرتها لوقت طويل بعد موته. كانت تتوقف عن أي عمل تقوم به وتضرب جبهتها بكفها، لانها تذكرت فجأة شيئاً نسيت ان تخبره به. وترد إلى ذهنها في كل لحظة الاسئلة اليومية الكثيرة التي لا يستطيع الاجابة عنها أحد سواه. لقد قال لها في أحد الايام شيئاً لم تستطع تصوره: ان المبتورين يحسون آلاماً، وخنقاً، ودغدغة في ارجلهم التي ما عادوا يمتلكونها. وهذا ما شعرت به هي من دونه. . كانت تشعر بوجوده حيث لم يعد له من وجود.

لدى استيقاظها في ليلتها الأولى كأرملة، تقلبت في السرير دون ان تفتح عينيها، بحثاً عن وضع مريح لمتابعة النوم، فكان ان مات بالنسبة لها في هذه اللحظة. اذ وعت حينئذ فقط بانه

قضى الليل لأول مرة خارج البيت. ثم كان انفعالها الاخر على المائدة، ليس لشعورها بانها وحيدة، كما كانت فعلاً، وانما لقناعتها الغربية بانها تتناول الطعام مع شخص ما عاد موجوداً. وانتظرت قدوم ابنتها اوفيليا من نيو اورليانز، مع زوجها وبناتها الثلاث، كي تجلس من جديد إلى المائدة لتناول الطعام، ولكنها لم تستخدم الطاولة المعتادة، وانما مائدة مرتجلة، أصغر حجماً، أمرت بوضعها في الممر. ولم تكن حتى ذلك الحين قد أعدت وجبة نظامية، بل كانت تمر من المطبخ في أي وقت، حين تشعر بالجوع، فتغرز الشوكة في القدر وتأكل قليلاً من كل شيء دون ان تضع الطعام في طبق، وهي واقفة أمام الموقد، تتحدث إلى الخادومات اللواتي كانت تشعر معهن وحدهن بانها على مايرام، وتتفاهم معهن على أحسن وجه. ورغم كل محاولاتها، لم تتمكن من تجنب حضور زوجها: فحيث ذهبت وحيث مرت، ومهما فعلت، كانت تصطدم بشيء من اشياءه يذكرها به. ومع ان ذلك الألم كان يبدو لها نبيلاً ولازماً، الا انها كانت تريد عمل أي شيء أيضاً كي لا تتلذذ بالألم. وهكذا اتخذت قرارها الحاسم باخراج كل ما يذكرها بالزوج الميت من البيت، وهي الوسيلة الوحيدة التي خطرت لها كي تتمكن من مواصلة الحياة بدونه.

كانت عملية استئصال. وافق الابن على أخذ الكتب لتحويل المكتب إلى غرفة الخياطة التي لم تملكها أبداً وهي متزوجة. أما الابنة، فأخذت بعض الاثاث وعدداً من الاشياء التي تبدو ملائمة جداً للبيع في مزاد العاديات في نيو اورليانز. كان هذا كله مهدئاً لفيرميناهاتا، التي لم ترىة ظرافة في تحقيقها من أن ما اشترته في رحلة زفافها قد صار اثاثاً قديمة. وأمام الذهول الصامت للخادومات، والجيران، والصديقات المقربات اللواتي كن يأتين لمرافقتها في تلك الايام، أضرمت محرقة في أرض خلاء وراء البيت، وأحرقت هناك كل ما يذكرها بزوجها: اكثر الملابس التي رأتها المدينة منذ القرن الماضي كلفة وناقعة، واكثر الاحذية دقة، والقبعات التي تشبهه اكثر من صوره، وكرسى القيلولة الهزاز الذي نهض عنه اخر مرة ليموت، وأشياء لا تحصى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياته وتشكل جزءاً من هويته. فعلت ذلك دون اي تردد، وبيقين كامل في ان زوجها كان سيؤيد ذلك، ليس لأسباب تتعلق بالوقاية الصحية فقط، بل ولانه كثيراً ما أعرب لها عن رغبته بان تُحرق جثته، وألا يحشر في الظلام دون أية فجوة في صندوق من خشب الارز. ان دينه يمنع ذلك دون ريب: وكان بإمكانها ان تتجراً على جس نبض الاسقف، لترى وجهة نظره على أية حال، وكان هذا سيرد عليها بجواب سلبي قاطع. فالأمر محض وهم، لان الكنيسة لا تسمح باقامة افران لاحراق الجثث في مقابرنا، حتى ولو كانت تابعة لاديان غير الدين الكاثوليكي. كما انه لم يخطر لأحد سوى خوفينال اوربينو جدوى بناء محارق كهذه. لم تنس فيرميناهاتا رعب زوجها هذا، بل انها

تذكرت في فوضى الساعات الأولى التي تلت موته ان تأمر النجار بترك ثغرة تسمح بدخول الضوء الى التابوت .

كانت محرقة بلا جدوى على اي حال . فسرعان ما ادركت فيرмина داثا ان ذكرى زوجها الميت كانت مقاومة للنار كمقاومتها لمرور الايام على ما يبدو . ورغم ذلك ، فانها لم تحتفظ بعد احراق الثياب بحنينها لكل ما أحبت فيه فقط ، وانما أيضاً ، وقبل كل شيء ، لأكثر ما كان يزعجها فيه : الضجة التي كان يثيرها عند استيقاظه . وقد ساعدتها هذه الذكريات على الخروج من أحراش الحداد . فاتخذت قراراً حاسماً بمتابعة الحياة ، متذكرة زوجها وكأنه لم يمت . كانت تعلم ان استيقاظها كل صباح سيكون صعباً ، لكنه سيصبح أقل وطأة يوماً بعد يوم .

وبدأت تلمح فعلاً ، عند انتهاء الاسبوع الثالث ، أول الانوار . ولكن كلما ازدادت تلك الانوار وأصبحت أشد وضوحاً ، كانت تعي ان في حياتها شبحاً مطعوناً لا يتركها لحظة بسلام . لم يكن الشبح المثير للشفقة الذي كان يترصدها في حديقة البشارة ، والذي اعتادت تذكره منذ شيخوختها بشيء من الرقة ، وانما الشبح البغيض الذي يرتدي سترة الجلاد ويحمل قبعته مستندة إلى صدره ، والذي أفلقتها سفاهته السخيفة إلى حد يستحيل عليها عدم التفكير به . لقد كانت مقتنعة دوماً ، منذ صدته وهي في الثامنة عشرة من عمرها ، بانها تركت فيه بذرة حقد لم يفعل الزمن شيئاً سوى تنميتها . وكانت تحسب حساب هذا الحقد في كل لحظة ، وتشعر به في الهواء حين يكون الشبح قريباً منها ، وكانت مجرد رؤيته تقلقها وترعبها إلى حد انها لم تجد أبداً أسلوباً طبيعياً للتعامل معه . وفي الليلة التي كرر فيها عرض حبه ، حين كانت ازهار زوجها الميت ما تزال تعبق في جو البيت ، لم تستطع ان تفهم تلك الحركة الخبيثة إلا كخطوة أولى من انتقام مشؤوم لا يعرف مداه أحد .

وقد فاقم الحاح ذكراه من غضبها . وحين استيقظت وهي تفكر به ، في اليوم التالي للدفن ، استطاعت محوه من ذاكرتها بإشارة بسيطة من ارادتها . لكن الغضب كان يعاودها دوماً ، وسرعان ما أدركت ان رغبتها في نسيانه كانت أقوى معرض لتذكره . حيثئذ تجرأت لأول مرة ، في ادعائها للحنين ، على استحضار ذكرى الزمان الوهمي لذلك الحب اللاواقعي . كانت تحاول ان تتذكر كيف كانت الحديقة بالضبط في ذلك الحين ، وكيف كانت اشجار اللوز المحطمة ، والمقعد الحجري الذي كان يجبها منه ، لان شيئاً من هذا ما عاد موجوداً كما كان يومها . لقد تبدل كل شيء ، اذ استأصلوا الاشجار وسجاداتها من الاوراق الصفراء ، وأقاموا مكان تمثال البطل مقطوع الرأس تمثالاً لشخص آخر يرتدي زي المراسم العسكري ، بلا اسم ولا تاريخ وبلا تفسير يبرر نصبه هناك ، على قاعدة فخمة وضعوا في جوفها لوحة مفاتيح

التحكم بكهرباء الحي . اما بيتها، الذي بيع اخيراً، فقد كان يتهاوى خراباً بعد هذه السنوات الطويلة بين يدي الحكومة الاقليمية . ولم يكن من السهل عليها تصور فلورينتينو اريثا كما كان في ذلك الحين، كما لم تكن قادرة على ان تصدق بان ذلك الشاب المكفهر، البائس جداً تحت المطر، هو ذات الشيخ المنخور الذي وقف امامها دون أي اعتبار لحالتها، وبلا أي احترام لألمها، وكوى روحها بإهانة لاهية ما زالت تثقل على انفاسها .

كانت ابنة الخال هيلديبراندا سانتشيث قد جاءت لزيارتها بعد وقت قصير من عودتها من مزرعة فلوريس دي ماريا، وحين كانت تستجمع قواها من ساعة نحس الانسة لينتش . لقد جاءت هيلديبراندا عجوزاً، بدينة وسعيدة، يرافقها ابنها البكر، الذي اصبح عقيداً في الجيش، مثل ابيه الذي تبرأ منه اثر تصرفه الدنيء في مجزرة عمال الموز في سان خوان دي لايناغا . كانت ابنة الخال وابنة العمّة قد التقتا مرات عديدة، وكانتا تقضيان الساعات دوماً وهما تحنان إلى الحقبة التي تعارفتا فيها . وقد كانت هيلديبراندا اكثر حنيناً في زيارتها الاخيرة مما كانت عليه في أي لقاء آخر، واكثر تأثراً بثقل الشيخوخة . وكثايد لحنينها، أحضرت معها نسخة من الصورة التي التقطها لها المصور البلجيكي مساء اليوم الذي وجه فيه الشاب نوفينال أورينوطعنة الرحمة لارادة فيرمينا داثا . كانت نسخة هذه الاخيرة من الصورة قد دُفعت، بينما كانت نسخة هيلديبراندا غير واضحة المعالم، لكنها تعرّفتا على نفسيهما من خلال غلالة الحية : شابتان وجهيلتان كما لن تصبحا أبداً .

كان مستحيلاً ألا تتحدث هيلديبراندا عن فلورينتينو اريثا، لانها كانت تجد قدرها في قدره . وكانت تتذكره كما رآته يوم بعثت أولى برقياتها، ولم تتمكن أبداً ان تنزع من قلبها ذكراه كعصفور كئيب محكوم عليه بالنسيان . أما فيرمينا، فقد رآته مرات ومرات، دون ان تبادله الحديث طبعاً، ولم تكن قادرة على ان تتصور انه هوجبها الأول ذاته . لقد كانت تصلها على الدوام اخبار عنه، مثلما تصلها عاجلاً أو آجلاً أخبار كل من له مكانة في المدينة . كان يقال بانه لم يتزوج لانه ذوعادات مختلفة، ولكنها لم تول هذه الأقاويل اهتماماً أيضاً، لانها لم تهتم يوماً بالشائعات من جهة، ولانه كانت تقال أشياء مشابهة عن رجال كثيرين لا مجال للشك فيهم من جهة اخرى . وكانت تستغرب بالمقابل احتفاظ فلورينتينو اريثا بزيه الصوفي، وعطره الغريب، وبقائه غامضاً هكذا بعد ان شق سبيله في الحياة بطريقة جد استعراضية اضافة إلى كونها شريفة . ولم تكن لتصدق بانه الشخص نفسه، وكانت تفاجأ دائماً حين تتهد هيلديبراندا قائلة : «يا للرجل المسكين، كم تألم !» . اذ كانت تراه دون آلام منذ زمن بعيد : فهو شبح محو .

ومع ذلك، فقد أصاب قلبها شيء غريب ليلة التقت به في السينما، بعد رجوعها من فلوريس دي ماريا. لم تفاجأ بخروجه مع امرأة، وامرأة زنجية كذلك. لكن ما فاجأها هو أنه مازال في حالة جيدة، وأنه يتصرف بطلاقة شديدة، ولم يخطر لها أن تفكر بانها قد تكون هي، وليس هو، من طرأ عليه التبدل بعد دخول الانسة ليتش العاصف في حياتها الخاصة. منذ ذلك الحين، وخلال أكثر من عشرين سنة، تابعت رؤيته بعينين أكثر اشفاقاً. وفي ليلة السهر على زوجها الميت لم يبد لها وجوده هناك أمراً مفهوماً وحسب، بل رأت فيه النهاية الطبيعية للاحقاد: تصرف ينم عن العفو والنسيان. ولهذا لم تكن تتوقع إعادة المساوية لعرض حب لم تشعر بوجوده يوماً، وفي سن لم يبق لفلوريتينو إريثا ولها فيها من شيء ينتظرانه من الحياة.

بقي غضب الوهلة الأولى القاتل بكامل زخمه بعد الاحراق الرمزي للزوج، وراح ينمو ويتشعب أكثر فأكثر كلما شعرت بانها أقل قدرة في السيطرة عليه. بل وأكثر من ذلك: ففراغات الذاكرة التي تمكن من اخلائها باقصاء ذكرى الميت منها، كان يحتلها شيئاً فشيئاً، ولكن باصرار، مرج البرقوق الذي كانت ذكرى فلوريتينو إريثا مدفونة فيه. وهكذا كانت تفكر فيه دون أن تحبه، وكلما فكرت فيه أكثر ازداد غضبها عليه، وكلما ازداد غضبها منه كانت تفكر فيه أكثر، إلى أن أصبح شيئاً لا يطاق وطفح به ذهنها. حيث جلت إلى طاولة زوجها الميت، وكتبت إلى فلوريتينو إريثا رسالة من ثلاث صفحات متهورة ومشحونة بالسباب والاستفزازات الشنيعة، التي هدأت من روعها لاقتراحها بذلك أحط فعلة في حياتها الطويلة.

لقد كانت تلك الأسابيع الثلاثة بالنسبة لفلوريتينو إريثا أيضاً أسابيع احتضار. ففي الليلة التي كرر فيها عرض حبه على فيرمينا داثا هام على غير هدى في الشوارع المخربة بطوفان المساء، متسائلاً بفرع ما الذي سيفعله بجلد النمر الذي انتهى من قتله بعد أن قاوم حصاره لأكثر من نصف قرن. كانت المدينة تعيش حالة طوارئ بسبب عنف الأمطار. وفي بعض البيوت كان ثمة رجال ونساء شبه عراة يحاولون انقاذ ما يشاره الله من وسط الطوفان، وأحس فلوريتينو إريثا بأن لتلك الكارثة الجماعية علاقة ما بكارثته الشخصية. لكن الهواء كان وديعاً وكانت نجوم الكاربي ساكنة في مواقعها. وفجأة، كما في سكون أزمنة أخرى، تعرف فلوريتينو إريثا على صوت الرجل الذي كان قد سمعه وليونا كاسياني يغني مرات كثيرة، في مثل هذه الساعة وعند الناصية نفسها: من الجسر رجعت ببللاً بالدموع. أغنية كان لها، بالنسبة له فقط، علاقة ما بالموت في تلك الليلة.

لم يشعر يوماً بالحاجة إلى ترانسيو إريثا كما شعر يومئذ، كان بحاجة لكلمتها الحكيمة، ورأسها كملكة سخرية متوجة بأزهار ورقية. ولم يستطع الخيلولة دون ذلك: فكلمها وجد نفسه في خضم الكارثة، أحس بحاجته إلى الانزواء في كنف امرأة. وهكذا مر من أمام مدرسة

المعلمات بحثاً - ممن هن في متناول يده، ورأى نوراً ينبعث من نافذة اميركا فيكونيا. وقد اضطر للقيام بمجهود كبير كي لا يقدم على حماقة جدّ هرم باخراجها في الساعة الثانية فجراً، وهي دافئة بالحلم بين اقمطتها، ورائحة المهد ماتزال تفوح منها.

في الطرف الآخر من المدينة كانت ليونا كاسياني، وحيدة وحرّة. ومستعدة دون ريب لان تقدم له الحناز الذي يحتاجه سواء أكانت الساعة الثانية، أو الثالثة فجراً، أو أي ساعة اخرى. ولم تكن المرة الاولى التي يدق بابها في ارقه المقفر، لكنه أحس بانها ذكية إلى حد بعيد، وانها يجبان. بعضهما كثيراً، بحيث لا يمكنه الذهاب للبكاء في حضنها دون ان يفضي لها بالسبب. وبعد تفكير طويل، سار مسرعاً في المدينة المقفرة، وخطر له بانه لن يجد بينهن خيراً من بروديثيا بيترا: أرملة الرب. كانت أصغر منه بعشر سنوات. وكانا قد تعارفا في القرن الماضي، وادا كانا لا يلتقيان منذ زمن فلأنها أصرت ألا تسمح لأحد بان يراها وهي في الحال الذي صارت اليه: شبه عمياء، وعلى حافة الشيخوخة فعلاً. وما ان تذكرها فلوريتينو اريشا حتى عاد إلى شارع لاس فينتاناس، ودس في حقيبة المشتريات زجاجتي نبيذ وقطرميز مخلل، ومضى لزيارتها دون ان يدري ان كانت ما تزال في بيتها نفسه، أو اذا كانت وحدها، أو اذا كانت ما تزال على قيد الحياة.

لم تكن بروديثيا بيترا قد نسيت اشارة الخمش على الباب، التي كان يُعرف بها على نفسه حين كانا يظنان انها ما يزالان شايين رغم انها لم يكونا كذلك، وفتحت له دون اسئلة. كان الشارع مظلماً ولم يكن هو مرثياً ببذله السوداء وقبعته القائمة ومظلة الخفّاش المعلقة بذراعه، كما لم تكن لعينيها القدرة على رؤيته إلا في وضوح الضوء، لكنها تعرفت عليه من انعكاس وميض عمود النور على اطار نظارته المعدني. كان يبدو كقاتل مازالت يدها ملطختين بالدم. قال :

- الماوى ليتيم بائس.

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع قوله. وفوجيء بكم هرمت مذراها لآخر مرة، وكان مدركاً بانها تراه كذلك. ولكنه عزى نفسه بالتفكير بانها بعد دقيقة، وحينها يستعيدان انفاسهما من اثر الوهلة الأولى، سيلاحظ كل منهما اقل فأقل اثار السن في الآخر، وسيعودان ليريا بعضهما اكثر شباباً، كما كان كل منهما بالنسبة للآخر عندما تعرفا. قالت له :

- تبدو وكأنك ذاهب إلى جنازة.

ولقد كان كذلك. كما انها وقفت هي أيضاً إلى النافذة منذ الساعة الحادية عشرة، مثلما فعل جميع أهل المدينة تقريباً لرؤية مرور اكثر المواكب حشداً وفخامة منذ موت الاسقف دي

لونا. لقد ايقظتها من النوم أصوات المدافع التي كانت تهز الأرض، واختلاط فرق الموسيقى العسكرية، وفوضى الاغاني الجنائزية التي تعلو على ضجة نواقيس جميع الكنائس المدوية دون توقف منذ اليوم السابق. وقد رأت من شرفتها العسكريين وهم يمرون على صهوات جيادهم بزي المراسم، والهيئات الدينية، وتلامذة المدارس، وسيارات السلطات اللامرئية الطويلة السوداء، وعربة الدفن الفاخرة التي تجرها خيول رؤوسها مزينة بالريش وسروجها بالذهب، والتابوت الاصفر المغطى بالعلم فوق عربة مدفع تاريخية، واخيراً مجموعة عربات الفيكتوريا القديمة المكشوفة والتي ما زالت على قيد الحياة لحمل اكاليل المآتم. وبعد حوالي نصف ساعة من مرورهم أمام شرفة بروديتشا بيترا، انهمر المطر طوفاناً، وتفرق الموكب في كل الانحاء.

قالت :

- يالها من طريقة سخيفة في الموت.

فقال :

- ليس في الموت ما هو مضحك - ثم أضاف بحزن - : وخصوصاً في مثل سننا.

كانا يجلسان على المصطبة، مقابل البحر الفسيح، يتأملان القمر المحاط بهالة تحتل نصف السماء، ويرنوان إلى الاضواء الملونة المنبعثة من السفن في الافق، وينعمان بالنسيم الدافئ والعطر بعد العاصفة. كانا يشربان النبيذ ويأكلان المخلل مع قطع من الخبز القروي الذي اقتطعته بروديتشا بيترا من رغيف في المطبخ. لقد امضيا معاً ليالي كثيرة مثل هذه الليلة بعد ان أصبحت أرملة وبلا أولاد وهي في الخامسة والثلاثين من العمر. لقد التقاها فلوريتينو اريشا في حقبة كانت مستعدة فيها لاستقبال أي رجل يرغب بمرافقتها، حتى لو استأجرته بالساعة، وتمكنا من اقامة علاقة اكثر جدية وأطول أمداً مما بدا ممكناً.

ورغم انها لم تلمح للأمر أبداً، إلا انها كانت مستعدة لأن تبيع روحها للشيطان في سبيل الزواج منه في زفاف ثان. كانت تعلم ان الخضوع لشحه ليس سهلاً، وكذلك الاذعان لحاجاته كشيخ مبكر، وأوامره المخبولة، وجشعه في طلب كل شيء دون اعطاء أي شيء. ولكنها لم تكن تجد بالمقابل رجلاً يمكن العيش معه في هذه الدنيا خيراً منه، لانه لا وجود في الدنيا لرجل آخر فقير مثله الى الحب لهذا الحد. ولكن لم يكن هناك في الوقت ذاته من هو اكثر تقلباً منه، اذ لم يكن يمكن للحب ان يصل إلى ابعد مما كان يصل اليه : الى حيث لا يؤثر في قراره بالاحتفاظ بحريته من اجل فيرمينا داثا. ومع ذلك، استمرت علاقتهما لسنوات طويلة، حتى بعد ان رتب أمير زواج بروديتشا بيترا ثانية من وكيل تجاري كان يستقر ثلاثة شهور في المدينة ثم يقضي ثلاثة شهور اخرى مرتحلاً، وانجبت منه ابنة واحدة وابنة ابناء،

كان أحدهم، حسب زعمها، من فلوريتينو اريثا.

تحدثا دون احساس بالوقت، لانهما كانا معتادين على مشاطرة بعضهما سهاد شبابهما، وكان ما سيخسرانه في سهاد الشيخوخة أقل بكثير. ورغم ان فلوريتينو اريثا ما كان يتجاوز الكأس الثانية حين يشرب، إلا انه لم يستعد انفاسه يومها رغم تناوله الكأس الثالثة. كان يتعرق بغزارة، وقالت له أرملة الرب ان يخلع سترته، ان يخلع صدريته، بنطاله، ان يخلع كل ما يشاء، اللعنة، فهما في نهاية المطاف يعرفان بعضهما عاريين خيراً من معرفتهما بالملابس. وقال انه سيفعل ذلك ان هي فعلت، لكنها لم تقبل: لقد رأت نفسها منذ زمن في مرآة الخزانة، وأدركت فجأة بأن الشجاعة لن تواتيها للظهور عارية أمامه أو أمام سواه.

وفي حالة الهيجان التي لم يستطع فلوريتينو اريثا تهدئتها بأربع كؤوس من النبيذ، تابع الحديث عن الماضي، عن ذكريات الماضي الطيبة موضوع حديثه الوحيد منذ زمن بعيد، لكنه كان يتشوق للعشور على طريق سري في الماضي ليغرق نفسه فيه. كان هذا هو ما يحتاجه: ان يقدف روحه من فمه. وحين أحس بأول بريق في الأفق حاول الاقتراب من الموضوع مداورة، فسألها بطريقة بدت عرضية: «ماذا تفعلين اذا ما عرض أحدهم عليك الزواج، هكذا كما أنت، أرملة وفي هذه السن؟». ضحكت ضحكة مجمدة كعجوز، وسألت بدورها:

- أتعني بهذا أرملة اوربينو؟

كان فلوريتينو اريثا ينسى دائماً، حين لا يحب النسيان، ان النساء يفكرن بالمعنى الخفي للاسئلة اكثر من تفكيرهن بالاسئلة ذاتها، وتفعل بروديشياً بيترا ذلك اكثر من سواها. قال لها وقد احس بأنه وقع ضحية ربيع مباغته نتيجة تسديده الطائش: «انني اعنيك انت بهذا». فعادت تضحك: «اذهب واسخر من العاهرة أمك، ليرحمها الله». ثم الحت عليه ليصارحها بما يريد ان يقوله، لانهما تعلم انه لا يمكن له ولا لأي رجل آخر ان يوقظها في الثالثة فجراً، بعد الانقطاع عنها كل هذه السنوات، ليشرب النبيذ ويأكل الخبز القروي مع المخلل فقط. قالت: «لا يحدث هذا إلا لمن يبحث عن يود البكاء معه». ارتعش فلوريتينو اريثا ثانية، وقال لها:

- انك مخطئة هذه المرة. فاسباب مجيئي الليلة يناسبها الغناء.

فقلت:

- فلنغن اذن.

بدأ يدندن بصوت لا بأس به الاغنية الدارجة: رامونا، لا أستطيع العيش بدونك. وكان في ذلك نهاية ثلاث الليلة، اذ انه لم يعد يجرؤ على لعب ألعاب محرمة مع امرأة قدمت له أدلة

كافية في معرفة الوجه الآخر للقمر. خرج الى مدينة مختلفة تعبق برائحة ازهار الداليا الاخيرة لشهر حزيران، وسار في شارع من شوارع شبابه حيث تمر الأرامل في العتمة ومن خارجات من صلاة الساعة الخامسة. وكان هو الذي انتقل الى الرصيف الآخر هذه المرة، وليس هن، كي لا يرين دموعه التي ما عاد يطيق حبسها، ليس منذ منتصف الليل، كما كان يظن، لان هذه الدموع كانت دموعاً أخرى: انها التي غص بها منذ حوالي احدى وخمسين سنة وتسعة شهور وأربعين يوماً.

كان قد فقد الاحساس بالزمن حين استيقظ دون أن يدري المكان الذي هو فيه، مقابل نافذة مضيئة. ونقله الى الواقع صوت اميركا فيكونيا التي كانت تلعب بالكرة مع الخادومات في الحديقة. . انه في سرير امه التي ما زالت حجرة نومها على حالها، حيث اعتاد النوم كي لا يشعر بالوحدة في المناسبات القليلة التي اقلقته فيها العزلة. وكانت تنتصب مقابل السرير مرآة مطعم دون سانتشو الضخمة، والتي كانت رؤيتها عند استيقاظه كافية لجعله يرى فيرمينا دائماً مرسومة فيها. عرف ان اليوم هو السبت، لانه اليوم الذي يُحضر فيه السائق اميركا فيكونيا من المدرسة الداخلية، ويأتي بها الى بيته. وانتبه الى انه قد نام دون ان يدري، حالما انه غير قادر على النوم، في حلم يعذب فيه وجه فيرمينا دائماً الغاضب. استحم وهو يفكر كيف ستكون الخطوة التالية، وارتدى أفضل ملابسه على مهل، وتعطروصمغ شاربيه الابيض ذا الطرفين المديين، ولدى خروجه من حجرة النوم، رأى من ممر الطابق الثاني البنية الجميلة ذات الزي المدرسي وهي تمسك الكرة في الهواء بالسحر الذي بعث فيه القشعريرة لآحاد كثيرة، لكنها لم تبعث فيه هذا الصباح أي قلق. أشار لها بأن تأتي معه، وقبل ان يصعدا الى السيارة قال لها دون داعٍ للقول: «لن نفعل أشياء هذا اليوم». ورافقها الى المقهى الاميركي للمثلجات، الذي كان ينص في مثل هذه الساعة بأباء يتناولون البوظة مع اطفالهم تحت المراوح ذات الرياش الكبيرة المعلقة بالسقف. طلبت اميركا فيكونيا بوظة من عدة طبقات متنوعة الألوان في كأس كبير، وهو النوع الذي تفضله، والذي يلقي رواجاً شديداً لان بخاراً سحرياً كان ينبعث منه. تناول فلورنتينواريثا قهوة قوية، وهو يتأمل الطفلة دون ان يتكلم، فيما هي تتناول البوظة بملعقة طويلة جداً، تصل الى قاع الكأس. ثم قال لها فجأة، دون ان يتوقف عن مراقبتها:

- سأتزوج.

نظرت الى عينيه نظرة مرتابة، وهي ترفع الملعة في الفضاء، لكنها استعادت انفاسها فوراً، وابتسمت قائلة:

- انها خدعة. فالشيوخ لا يتزوجون.

أوصلها مساء هذا اليوم الى المدرسة الداخلية عند موعد صلاة الانجيلوس، تحت وابل من المطر العنيد، بعد ان رأيا معاً دمي الحديقة، وتناولوا الغداء في اكشاك السمك المقلي عند ملطم الامواج، وبعد ان رأيا أقفاص الحيوانات المفترسة التابعة لسيرك وصل يومئذ الى المدينة، واشترى من الأزقة كل انواع الحلوى لتحملها معها الى المدرسة الداخلية، وبعد ان جابا المدينة عدة مرات بالسيارة المكشوفة لتبدأ الاعتياد عليه باعتباره ولي امرها، وليس عشيقاً لها. وفي يوم الأحد التالي بعث اليها السيارة لتقوم اذا كانت ترغب بتزهة مع صديقاتها، لكنه لم يشأ رؤيتها، لانه وعى منذ الاسبوع الفائت وعياً كاملاً فارق السن بينهما. وفي هذه الليلة بالذات قرر ان يكتب الى فيرمينا داثا رسالة اعتذار، حتى ولو كان ذلك لمجرد عدم الاستسلام، لكنه أجل الأمر لليوم التالي. وفي يوم الاثنين، بعد ثلاثة اسابيع كاملة من الآلام، دخل الى بيته مبلاً بالمطر، ووجد رسالتها.

كانت الساعة الثامنة ليلاً. وكانت فتاتا الخدمة قد نامتا، تاركتين الضوء الوحيد الذي يبقى مضاء في الممر ليتمكن فلورنتينواريثا من الوصول الى حجرة نومه. كان يعلم ان عشاءه البسيط موجود على طاولة حجرة الطعام، لكن الجوع الذي كان يشعر به بعد كل هذه الايام من الأكل العشوائي تلاشى بانفعال الرسالة. ووجد صعوبة في اضاءة نور حجرة النوم الرئيسي لارتعاش يديه. وضع الرسالة المبللة على السرير، واضاء مصباح الكوميدينو، ثم خلع سترته المبللة بهدوء مصطنع، هو من اساليبه في طمأننة نفسه، وعلقها على مسند الكرسي، ثم نزع الصدرية ووضعها بعد طيها جيداً فوق السترة، وحل شريط العنق الحريري الازرق والياقة القاسية التي ما عادت تستعمل في العالم، وفك ازرار القميص حتى انحصرت حل الحزام ليتنفس براحة، ونزع القبعة اخيراً ووضعها الى جوار النافذة لتجف، ارتعش فجأة لانه لم يدر أين هي الرسالة، ووصل به الانفعال حداً جعله يفاجأ حين وجدها، فهو لا يذكر بأنه وضعها على السرير. وقبل ان يفتحها جفف المغلف بمنديل، محاذراً ألا يسمح الخبر المكتوب به اسمه، وفيما هو يفعل ذلك انتبه الى ان ذلك السر لم يعد مشتركاً بين اثنين فقط، وانما بين ثلاثة على الاقل، فلا بد ان حامل الرسالة، كائناً من كان، قد انتبه الى ان ارملة اوريينو تكتب لشخص من خارج عالمها ولما تمض على وفاة زوجها سوى ثلاثة اسابيع، وانها تفعل ذلك بتسرع لم يتح لها ارسال الرسالة بالبريد، وبتكتم شديد جعلها تطلب عدم تسليمها باليد، وانما دسها من تحت الباب كما لو كانت رسالة من مجهول. لم يكن بحاجة الى تمزيق المغلف، لان الماء حلل صمغه، لكن الرسالة كانت جافة: ثلاث ورقات، دون ترويسه، موقعة بالحروف الأولى من اسمها كمتزوجة.

قرأها أول مرة بسرعة وهو جالس على السرير، مستسلماً للهجتها أكثر من تمنعه بمضمونها، وقبل أن يتقل إلى الصفحة الثانية كان متأكداً من عدالة الشئام التي انتظر تلقيها. وضعها مفتوحة تحت ضوء مصباح الكوميدينو، ونزع حذاءه والجوربين المبللين، ثم أطفأ نور الحجرة الرئيسي بمفتاح الكهرباء المجاور للباب، ووضع على وجهه غطاء الشوارب المصنوع من الشمواة واستلقى دون أن يخلع بنطاله والقميص، مسنداً رأسه إلى وسادتين كبيرتين كان يستخدمهما كمسند حين يقرأ. وهكذا أعاد قراءة الرسالة حرفاً حرفاً، مدققاً في كل حرف كي لا تبقى أية نية من نواياها الخفية دون حل. ثم قرأها أربع مرات أخرى، إلى أن تشبع بها وأصبحت الكلمات المكتوبة تفقد معناها. بعد ذلك خبا الرسالة دون المغلف في درج الكوميدينو، واستلقى شابكا يديه على عنقه، وثبت نظره لأربع ساعات في المرآة حيث كانت هي، دون أن يرمش، ودون أن يتنفس تقريباً، وكان أكثر موتاً من ميت. وعند منتصف الليل تماماً خرج إلى المطبخ، فأعد ترمس قهوة كثيفة كالبتروول الخام، وحمله إلى حجرة نومه، وألقى بأسنانه الاصطناعية في كأس الماء الممزوج بمظهر البورون الذي كان يجده بانتظاره دوماً فوق الكوميدينو، وعاد ليستلقي بوضعية تمثال المرمر السابقة مع حركة محدودة بين وقت وآخر لارتشاف بعض القهوة، وبقي على هذا الحال إلى أن دخلت الخادمة في الساعة السادسة وهي تحمل ترمساً آخر مليئاً بالقهوة.

في هذه الساعة كان فلوريتينو أريثا قد عرف تماماً كل خطوة من خطواته التالية. الحقيقة أن الشئام لم تسبب له الألم كما لم تقلقه الاتهامات الجائرة، التي كان يمكن لها أن تكون أقسى نظراً لمعرفته طبع فيرمينا دائماً وخطورة السبب. الشيء الوحيد الذي كان يهيمه هو الرسالة ذاتها لأنها تتيح له الفرصة وتعترف له بحق الزد عليها. بل وتتطلب ذلك منه. وهكذا وصلت الحياة إلى الحد الذي أراد إيصالها إليه. وكل ما سوى ذلك يعتمد عليه الآن. كان مقتنعاً قناعة راسخة أن جحيمه الخاص المستمر منذ نصف قرن سيقدم له مزيداً من التجارب القاتلة الكثيرة التي أصبح مستعداً لمواجهة بحماسة أشد ومعاناة أصعب وحب أقوى من كل ما فات، لأنها ستكون التجارب الأخيرة.

بعد خمسة أيام من تلقيه رسالة فيرمينا دائماً، ولدى وصوله إلى مكاتب شركته، أحس بأنه يطفو في الفراغ الوعور وغير المؤلف لآلات الكتابة، إذا ان ضجيجها المطري لم يكن ملحوظاً كصمتها. كانت وقفة قصيرة. وحين عاد الضجيج من جديد أطل فلوريتينو أريثا إلى مكتب ليونا كاسياني وتأملها وهي جالسة وراء التها الكاتبة، التي تستجيب لرؤوس أصابعها وكأنها أداة بشرية. فأحست هي بأنها مراقبة، ونظرت نحو الباب بابتسامتها الشمسية المذهلة، لكنها لم تتوقف عن الكتابة حتى نهاية الفقرة.

سألها فلورينتينا اريثا :

- اخبريني يا لبوة روجي . بماذا ستشعرين اذا تلقيت رسالة حب مكتوبة على هذه الاداة ؟
وبدت عليها ، هي التي لم تفاجأ بشيء ، علائم مفاجأة حقيقية ، وهتفت :
- يا للرجل ! لم يحدث لي شيء من هذا القبيل .

لم تجد جواباً آخر على الاقل . ولم يكن فلورينتينا اريثا قد فكر بالأمر حتى ذلك الحين ، لكنه قرر المضي بالمغامرة الى نهايتها . نقل الى بيته احدى آلات المكتب وسط سخرية مرؤوسيه المتوددة : « لا يمكن لبيغاء عجوز ان تتعلم الكلام » . وعرضت عليه ليونا كاسياني ، المتحمسة لكل جديد ، ان تعطيه دروساً بالكتابة على الآلة في البيت . لكنه كان ضد التعليم المنهجي مذ أراد لوتاريو توغوت تعليمه عزف البيت عزف الكمان على النوتة ، متوعداً بأنه سيحتاج لسنة على الأقل كي يبدأ ، وخمس سنوات ليُقبل في فرقة اوركسترا محترفة ، وحياته كلها ، بمعدل ست ساعات يومياً لعزف بشكل جيد . ولكنه استطاع رغم ذلك اقناع امه بأن تشتري له كمان عميان ، ومن خلال القواعد الاساسية الخمس التي علمه اياها لوتاريو توغوت ، تجرباً على العزف ضمن كورال الكتدرائية قبل مضي أقل من سنة وعلى عزف السيرانادات لفيرمينا داثا من مقبرة الفقراء حسب اتجاه الريح . فاذا كان قد فعل ذلك وهو في العشرين بآلة صعبة كالكمان ، فلماذا لا يستطيعه أيضاً وهو في السادسة والستين بآلة تحتاج إلا لاصبع واحد كآلة الكتابة .

وهذا ما فعله . احتاج لثلاثة أيام كي يتعرف على مواقع الحروف على لوحة الملامس ، وستة أيام ليتعلم التفكير في الوقت الذي يكتب فيه ، ثم ثلاثة أيام اخرى لينهي الرسالة الأولى دون أخطاء ، بعد أن مزق نصف ماعون من الورق . بدأ الرسالة بمطلع وقور : سيد تي . ووقعها بالحروف الأولى من اسمه ، كما اعتاد ان يفعل في رسائل الحب المعطرة في شبابه . وبعثها بالبريد ، في مغلف خاص برسائل التعزية كما هو محتم في رسالة مرسلة الى أرملة حديثة الترميل ، وبدون كتابة اسم المرسل على الوجه الآخر للمغلف . كانت رسالة في ست ورقات لا علاقة لها بأي رسالة من رسائله السابقة . لم تكن لها النبرة ، ولا الاسلوب ولا النفس الخطابية الذي كان يتمتع به في سنوات الحب الأولى ، بل كانت معالجة عقلانية ومنتقنة التأمل ، لوخالطتها رائحة زهرة ياسمين لبدت غير لائقة . لقد كانت ، الى حد ما ، اقتراباً من الرسائل التجارية التي لم يستطع كتابتها أبداً .

ان رسالة شخصية مكتوبة بوسائل آلية ستعتبر أمراً مهيناً بعد سنوات ، أما في ذلك الحين ، فكانت الآلة الكاتبة ما تزال مجرد حيوان مكتبي ، بلا فلسفة خاصة بها ، ولم يكن تدجينها للاستخدامات الخاصة وارداً في مناهج التمدن . وكانت تبدو كصرعة جريئة ، ولا بد ان

فيرمينا دائماً قد فهمت الأمر كذلك ، لأنها حين كتبت رسالتها الثانية الى فلورنتينواريثا ، بعد ان تلقت منه ما يزيد عن الاربعين رسالة ، بدأت بالاعتذار لعترات خطها ، لكونها لا تملك وسائل كتابة أحدث من قلم الحبر ذي الريشة الفولاذية .

لم يشرفلوريتينواريثا مجرد اشارة الى الرسالة الرهيبة التي بعثها اليه ، بل جرب منذ البداية منهجاً مختلفاً في الغواية ، دون أية إشارة الى غراميات الماضي ، أو الماضي بحد ذاته : شطب كل ما سبق وفتح صفحة جديدة . كانت الرسالة أشبه بتأمل مسهب في الحياة ، يستند الى أفكار وتجارب في العلاقات بين الرجل والمرأة ، التي فكر بكتابتها يوماً كملحق متمم لسكرتير العاشقين . ولم يفعل حينئذ سوى صياغة تلك التأملات بأسلوب بطريكي ، لذكريات شيخ ، كي لا تظهر بوضوح حقيقة كونها رسالة حب . لقد كتب قبل ذلك عدة مسودات على الطريقة القديمة ، قد تتأخر في قراءتها ببرودة أعصاب أكثر مما تتأخر في القاءها الى النار . كان يعلم ان اي زلة في الاشارة الى الماضي ، أو اي طيش في الحنين قد يثير في قلبها ترسبات قديمة ، ومع انه كان يشعر بانها ستعيد اليه مئة رسالة قبل ان تتجراً على فتح الرسالة الأولى ، إلا انه تمنى ألا يحدث ذلك ولو مرة واحدة . وهكذا وضع مخططه بكل تفاصيله كما في معركة حاسمة : كل شيء يجب ان يكون مختلفاً ليعث فضولات جديدة ، ووساوس جديدة وآمالاً جديدة ، في امرأة عاشت حياة كاملة على اتساعها . لا بد له من جعل الأمر حلماً لا معقولاً ، قادراً على منحها الشجاعة الكافية لتلقي الى القمامة باعراف طبقة لم تكن هي طبقتها الاصلية ، ولكنها انتهت الى الاندماج فيها وجعلها طبقتها اكثر من أي طبقة أخرى . كان عليه ان يعلمها التفكير بالحب على انه حالة غير وسيطة لأي شيء ، بل هو منشأ ومستقر بحد ذاته .

لقد كان من القناعة بحيث انه لم يعد ينتظر رداً فورياً ، بل اكتفى بالاعتاد اليه الرسالة . ولم تعد ، كما لم تعد الرسالة التالية . وكلما مرت الأيام كانت اشواقه تتأجج ، وكلما ازدادت الايام التي غمر كانت آماله بالرد تزداد . كان تواتر رسائله مشروطاً بمهارة أصابعه : بدأ برسالة واحدة في الاسبوع اول الأمر ، ثم رسالتين ، الى ان تمكن اخيراً من كتابة رسالة في كل يوم . ولقد اثلج صدره التطور الذي حققه البريد بالمقارنة مع زمانه ، حين كان يعمل رافع أعلام ، لانه لم يكن مستعداً للمغامرة بالظهور في مكتب البريد كل يوم كي يبعث رسالته الى الشخص ذاته ، ولا لارسالها مع أحد قد يحصيها عليه . أما الآن ، فمن السهل ارسال موظف ليشتري الطوابع البريدية لشهر بكامله ، ثم القاء الرسالة في واحد من صناديق جمع الرسائل الثلاثة الموزعة في المدينة القديمة . وسرعان ما ادخل تلك المهمة في روتينه اليومي : كان يتنزه ساعات ارقه ليكتب ، واثناء ذهابه الى المكتب في اليوم التالي ، يطلب من السائق التوقف للحظة أمام

صندوق بريد معلق عند ناصية أحد الشوارع ، فيتزل بنفسه ويلقي الرسالة فيه . لم يسمح للسائق أبداً القيام بهذا العمل بدلا منه ، رغم انه طلب ذلك في صباح يوم ماطر . وصار يحتاط أحيانا فيرسل مجموعة رسائل في الوقت ذاته بدلا من رسالة واحدة ، كي يبدو الأمر أكثر طبيعية . ولم يكن السائق يعلم بكل تأكيد ، ان الرسائل الاخرى ليست إلا اوراق بيضاء يبعثها فلورنتينوارثا بنفسه لنفسه ، لانه لم يكن يرتبط بمراسلة خاصة مع أحد ، باستثناء تقريره الذي يبعثه كوصي في اواخر كل شهر الى والدي اميركا فيكونيا ويضمنه انطباعات الشخصية حول سلوك الصغيرة ، ومعنوياتها وصحتها ، وتقدمها المطرد في الدراسة .

أخذ يرقم الرسائل منذ الشهر الأول ، وصار يبدأها بملخص للرسائل السابقة كما هو الحال في روايات الصحف المسلسلة ، خشية ألا تتبه فيرمينا داتا إلى ان الرسائل مترابطة ببعضها إلى حد ما . وحين أصبحت الرسائل يومية ، استبدل مغلفات الحداد التي كان يستخدمها بمغلفات بيضاء وطويلة ، مما منحها مظهر الرسائل التجارية الغامض والمتواطيء . حين بدأ يبعث رسائله كان مستعداً لاختضاع صبره لتجربة اكبر ، الى ان يجد على الأقل دليلاً قاطعاً بانه يضيع وقته بهذا الاسلوب الوحيد الذي استطاع تصوره . وانتظر فعلاً دون الاحساس بالقلق الذي كان يسببه له الانتظار في شبابه . . . انتظر بعناد شيخ اسمنتي ليس لديه ما يفكر فيه ولا ما يفعله في شركة ملاحه نهريه كانت تبهر وحدها في ذلك الحين مدفوعة برياح مواتية ، اضافة الى يقينه بانه سيكون حياً في الغد ، آجلاً أو أبداً ، حين تقتنع فيرمينا داتا اخيراً بانه لا علاج لجزعها كأرملة متوحدة إلا بانزال جسور حصنها له .

وتابع اثناء ذلك حياته المعتادة . متهيئاً لتلقي رد ايجابي . بدأ بأعمال ترميم جديدة في البيت ليكون جديراً بمن يمكن اعتبارها صاحبة وسيدته منذ تم شراؤه . وتردد عدة مرات على بروديشيا بيترا ، كما وعددها ، ليثبت لها بانه يحبها رغم اثار السن ، في وضوح النهار ، وليس في ليالي خذلانه فقط . وتابع المرور مقابل بيت اندريه بارون الى ان وجد نور الجهم مطلقاً ، وحاول تخدير نفسه في حماقة من حماقات السرير كي لا يفقد قدرته على الحب ، لحسب خرافة اخرى من خرافاته التي لم يجد ما ينقضها حتى ذلك الحين ، والقائلة بأن الجسد يستمر ما دام صاحبه مواظباً .

كانت علاقته باميركا فيكونيا هي العائق الوحيد . لقد ثابر على ارسال السائق لاجتماعها من المدرسة الداخلية في الساعة العاشرة من صباح أيام الاحاد ، لكنه لم يكن يدري ما الذي يفعله بها خلال عطلة نهاية الاسبوع . ولقد أحست بالتغير حين لم يبذل اهتماماً بها في المرة الأولى . كان يعهد بها للخدمات كي يرافقنها الى السينما المسائية ، ولمشاهدة الدمى المتحركة في حديقة الأطفال ، وإلى اليانصيبات الخيرية ، او يدعوها الى برامج اتحاد احتفالية مع

زميلات اخريات لها من المدرسة كي لا يضطر لمرافقتها الى اللجنة السرية وراء المكاتب، حيث كانت تود الذهاب دوماً مذ أخذها هناك أول مرة. ولم يتبه وهو في غيبوبة حلمه الجديد، الى ان النساء قد يصبحن راشدات في ثلاثة أيام، بينما انقضت ثلاث سنوات منذ استقبلها في بوستوبادري حين جاءت في السفينة الشراعية المزودة بمحرك. ورغم كل محاولاته لاضفاء الخلاوة على الوضع الجديد، إلا ان التبدل الذي طرأ كان قاسياً بالنسبة لها، لكنها لم تستطع تصور سبب هذا التبدل. يوم قال لها في مقهى الثلجات انه سيتزوج، كاشفاً لها بذلك عن الحقيقة، عانت صدمة دُعر عابرة، لكن الأمر بدا لها بعد ذلك احتمالاً لا معقولاً ما لبثت ان نسيت تماماً. لكنها سرعان ما أيقنت انه يتصرف كما لو كان ذلك صحيحاً، بمراوغة لا تفسير لها، وكما لو لم يكن اكبر منها بستين سنة، وانما أصغر منها بستين سنة.

وفي مساء أحد أيام السبت، وجدها فلورنتينو اريثا وهي تحاول الكتابة على الآلة الكاتبة في غرفة نومه، وكانت تفعل ذلك بشكل لا بأس به، اذ انها تتلقى في المدرسة دروساً في الضرب على الآلة الكاتبة. كانت قد كتبت ما يزيد على نصف صفحة، وكان من السهل افراز عبارة من بعض الفقرات تكشف عن حالتها المعنوية. انحنى فلورنتينو اريثا فوق كتفها ليقراً ما تكتبه، فاختلجت بحرارة الرجولية، ونفسه المتقطع، وعطر ملابسه، الذي هو عطر وسادته ذاته. لم تعد تلك الطفلة حديثة الوصول التي كان يعربها من ثيابها قطعة قطعة بخدع أطفال: هذا الحذاء أولاً للذب، ثم هذه البلوزة للكلب، ثم هذا السروال الداخلي المزين بالازهار للأرنب. . . والآن قبلة حلوة سيطبعها البابا على هذه الحماة الصغيرة. لا : انها الآن امرأة مكتملة الانوثة تحب ان تمسك زمام المبادرة. واصلت الكتابة باصبع واحدة من يدها اليمنى، وبحثت باليد اليسرى عن ساقه باللمس. . . استكشفت، ووجدته، وأحست به ينبعث، ينمو، يتهد بشوق، فتعشرت نفسه كشيخ وصار ثقيلًا. كانت تعرفه: فمنذ هذه اللحظة سيفقد السيطرة على نفسه. . . ستفكك مفاصله. . . سيصبح تحت رحمتها، ولن يجد سبيلاً للرجوع قبل ان يصل الى النهاية. قادت من يده الى السرير، كما تقود ضريراً بائساً في الشارع، وعرفته من ثيابه قطعة قطعة برق خبيثة، رشت ملحاً لذوقه، وهاراً ذا رائحة، وفص ثوم، وبصلة مفرومة، وعصير ليمونة، وورقة غار، الى ان تبلته تماماً في الصينية وجهزت الفرن بدرجة الحرارة المناسبة. لم يكن في البيت أحد. فالخدمات خرجن، وعمال البناء والنجارين الذين كانوا يرممون البيت لا يشتغلون أيام السبت: كان العالم بأسره لها. لكنه خرج من غيبوته وهو على شفير الهاوية، فلزاح يدها ونهض قائلاً بصوت مرتعش: - حذار، لا توجد هنا موانع للحمل.

بقيت مستلقية في الفراش لوقت طويل ، وهي غارقة في التأمل ، وحين رجعت الى المدرسة الداخلية ، قبل ساعة من الموعد ، كانت قد تجاوزت الرغبة بالبكاء ، وركزت حاسة سمها وشحذت اظافرها لتجد اثار الأرنبة البرية المخفية التي قلبت لها حياتها رأساً على عقب . اما فلورنتينواريشا ، فقد أقدم بالمقابل على ارتكاب خطأ آخر من أخطاء الرجال : ظن باشا قد اقتنعت بعدم جدوى نواياها وقررت نسيانه .

كان غارقاً في شؤونيه . وحين لم يتلق أية إشارة ، بعد مرور ستة شهور ، وجد نفسه يتقلب في السرير حتى الفجر ، تائهاً في صحراء أرق مختلف . كان يفكر بان فيرمينا دائماً قد فتحت الرسالة الأولى لمظهرها البريء ، وتمكنت من رؤية المطلع المعروف لها من رسائل اخرى غابرة ، وألقت بها في محرقة القمامة دون ان تتكلف مشقة تمزيقها . وكان يكفيها ان ترى مغلف الرسائل التالية لتحكم عليها بالمصير نفسه دون ان تفتحها ، وهكذا حتى نهاية الازمان ، فيما هو يصل الى نهاية تأملاته المكتوبة . لم يكن يصدق بان هناك امرأة قادرة على مقاومة فضول نصف سنة من الرسائل دون ان تعرف حتى لون الخبر الذي كتبت به . ولكن اذا كان من وجود لامرأة من هذا النوع ، فلا يمكن إلا أن تكون هي وحدها .

بدأ فلورنتينواريشا يشعر بان زمن الشيخوخة ليس تياراً أفقياً ، وانما خزاناً مثقوب القعر تتسرب منه الذاكرة . كانت قريحته تستنفد . وبعد عدة أيام من التجوال في حي لامانغا ، ادرك ان ذلك الاسلوب الشبابي لن يتمكن من تحطيم الابواب المحكومة بالحديد . وفي صباح أحد الأيام ، وبينما هو يبحث عن رقم في دليل الهاتف ، وجد مصادفة رقمها . اتصل بها . ورن الجرس مرات كثيرة ، واخيراً تعرف على الصوت ، جدياً وأبع : « من ؟ » . أعاد وضع السماعه دون ان يتكلم ، لكن البعد اللانهائي لذلك الصوت الغائم اعاد التماسك لمعنوياته . في أحد هذه الايام ، احتفلت ليونا كاسياني بعيد ميلادها ، ودعت مجموعة محدودة من الاصدقاء الى بيتها . كان هوساهياً فلوث ملابسه بصلصة الدجاج . غمست طرف الفوطة في كأس الماء ومسحت طية سترته ، ثم وضعت له الفوطة كمريلة لتحول دون وقوع حادث اكبر : فبدا كرضيع هرم . ولاحظت انه نزع نظارته عدة مرات خلال تناول الطعام ليمسحها بالمنديل ، لان عينيه كانتا تدمعان . وعند تناول القهوة ، غفاً وهو يحمل الفنجان بيده ، فحاولت انتزاع الفنجان دون أيقاظه ، لكنه افاق خجلاً : « كنت اريح بصري فقط » . وقد نامت ليونا كاسياني تلك الليلة مذهولة وهي تفكر كيف ان الشيخوخة أخذت تبدو عليه بوضوح .

في الذكرى الأولى لموت خوفينال اورينيو ، بعثت اسرته ببطاقات دعوة لصلاة على ذكراه في الكاتدرائية . كان فلورنتينواريشا قد بعث في ذلك الحين الرسالة رقم مئة واثنين وثلاثين دون

ان يتلقى اي رد، وهذا ما دفعه الى اتخاذ القرار الطائش بحضور الصلاة رغم انه لم يكن مدعواً. لقد كان حدثاً اجتماعياً باذخاً اكثر من كونه ذكرى مؤثرة. كانت مقاعد الصفوف الأولى محجوزة لورثة الألقاب الكبيرة، وكانت على قفا كل مقعد لوحة نحاسية تحمل اسم صاحبه. حضر فلورنتينواريثا مع أول الضيوف ليجلس في مكان لا يمكن لفيرميناداثا ان تمر دون ان تراه. وفكر بان أفضل المقاعد، بعد الاماكن المحجوزة، هي مقاعد القسم الأوسط، لكن عدد الحضور كان كبيراً لدرجة انه لم يجد مكاناً هناك ايضاً، فاضطر للجلوس في الصف المخصص للاخوة الفقراء. ومن هناك رأى فيرميناداثا تدخل ممسكة بذراع ابنها. كانت ترتدي ثوباً غملياً أسود يصل الى معصميه، ولا وجود فيه لأية حلية سوى مجموعة من الازرار المتتالية من العنق وحتى القدمين، فكان يبدو أشبه برداء قسيس، وكانت تضع ياقة ذات تخريجات قشالية بدلا من القبة ذات الخمار التي تستخدمها الارامل، وكثير من السيدات اللواتي يأملن بان يصبحن ارامل. كان لوجهها السافر بريق المرمر المعرق، وكانت عيناها الرعيجتان تعيشان حياة خاصة تحت الثريات الضخمة في عمر الكتدرائية الأوسط، وكانت تمشي باستقامة، وكبرياء، وسيطرة تامة على نفسها، حتى انها لم تكن لتبدو اكبر سناً من ابنها. استند فلورنتينواريثا، الواقف، بأطراف أصابعه على المقعد الذي امامه الى ان مرت الاغماء التي احس بها مرور الكرام، فقد شعر بأن المسافة الفاصلة بينهما ليست ست خطوات كما هي في الواقع، وانما هما في يومين مختلفين.

اجتمعت فيرميناداثا طقوس الحفل في المقعد العائلي مقابل المذبح الكبير، ممضية معظم الوقت وهي واقفة، مثلما كانت تفعل عند حضورها حفلات الاوبرا. لكنها حطمت طقوس المراسم الدينية في النهاية، ولم تبق في مكانها لتتلقى تجديد العزاء، كما هي التقاليد السائدة، وانما شقت طريقها لتشكر كل واحد من المدعوين: انها لفئة تجديدية تتفق تماماً مع اسلوبها في الحياة. صافحت الموجودين هنا وهناك الى ان وصلت الى مقاعد الاقارب الفقراء، ثم التفتت اخيراً فيها حولها لتؤكد من انها لم تنس أحداً تعرفه. أحس فلورنتينواريثا حينئذ ان ربحاً غير مألوف قد أخرجته من جوه: لقد رآته. وفعلاً، ابتعدت فيرميناداثا عن مرافقيها بطلاقتها التي تتصرف بها في المجتمع، ومدت له يدها، وقالت بابتسامة شديدة الرقة: - شكراً لحضورك.

لم تكن قد تلقت الرسائل وحسب، بل انها قرأتها كذلك باهتمام بالغ، ووجدت فيها اسباباً جديدة للتأمل والاستمرار في الحياة. كانت تجلس الى المائدة لتناول الفطور مع ابنتها حين تلقت الرسالة الأولى. فتحتها بفضول لكونها مكتوبة على الآلة الكاتبة، واتقدت وجتها بتورد سريع حين تعرفت على الحروف الأولى من اسم صاحب التوقيع. لكنها سيطرت على

نفسها في الحال وخبات الرسالة في جيب مريلتها. قالت: « انها رسالة تعزية من الحكومة ». فوجئت الابنة: « ولكنها وصلت كلها ». فلم تتأثر هي: « وهذه واحدة اخرى ». كانت تنوي احراق الرسالة فيما بعد، بعيداً عن أسئلة ابنتها، لكنها لم تستطع مقاومة اغراء القاء نظرة عليها قبل ذلك. كانت تتوقع رداً جديراً برسالتها المليئة بالاهانات، والتي سببت لها ضيقاً منذ لحظة ارسالها، ولكنها حين رأت مطلع الرسالة التوفيري ونوايا الفقرة الاولى، ادركت ان شيئاً قد تبدل في الدنيا. سيطر عليها الذهول للدرجة انها حبست نفسها في حجرة النوم لتقرأها بهدوء قبل احراقها، وقرأتها ثلاث مرات دون ان تلتقط انفاسها.

كانت الرسالة تتضمن تأملات حول الحياة، والحب، والشيخوخة، والموت: أفكار طالما مرت مرفرفة كعصافير ليلية فوق رأسها، لكنها كانت تقذفها بنشارة ريش كلما حاولت امساكها. وما هي الآن واضحة، بسيطة، تماماً كما كانت تحب ان تقولها. وتألّت مجدداً لان زوجها ليس حياً لتناقشها معه، كما اعتادا ان يناقشا بعض الامور اليومية قبل النوم. وهكذا تكشف لها فلورنتينواريشا مجهولاً، ذا بصيرة لا تتفق مع رسائل الحب المحمومة في شبابه ولا مع سلوكه الغامض طوال حياته. كانت اقرب الى كلمات الرجل الذي بدا للعمة اسكولاستيكا بأنه ملهم بالروح القدس، فعاد هذا الخاطر ليفزعها كما أفزعها في المرة الاولى. وكان اكثر ما ساعد في تهدئتها على أي حال هو يقينها بأن رسالة الشيخ الحكيم تلك ليست محاولة لتكرار سفاهة ليلة الماتم، وانما طريقة جد نبيلة لمحو الماضي.

وجاءت الرسائل التالية لتبعث فيها الطمأنينة. لكنها أحرقتها على أي حال بعد ان قرأتها باهتمام متزايد، رغم انها كلما أحرقت الرسائل كانت تشعر برواسب احساس بالذنب ما تلبث ان تزيجها. وحين بدأت تتلقى الرسائل مرقمة، وجدت ذريعة أخلاقية لرغبتها في وقف اتلافها. لقد كانت نيتها الاولى، على أي حال، عدم الاحتفال بالرسائل لذاتها، وانما لانتظار ان تسنح فرصة لاعادتها الى فلورنتينواريشا كي لا يفقد شيئاً يبدو لها انه ذا قيمة انسانية. ولكن الوقت كان يمضي والرسائل تتوالى، واحدة كل ثلاثة او اربعة أيام خلال سنة كاملة، ولم تعرف كيف تعيدها دون ان يبدو ذلك على انه صد من جانبها ما عادت ترغب في القيام به، ودون ان تجد نفسها مضطرة لشرح الامر في رسالة يمنعها كبرياؤها من كتابتها. كانت تلك السنة كافية لان تعتاد على حياتها كأرملة. ولم تعد ذكرى الزوج النقية تشكل عائقاً أمام أعمالها اليومية، وتحول حضوره في افكارها الحميمة، وفي أبسط نواياها إلى حضور حارس، يراقبها دون ان يزعجها. وكانت تجده أحياناً، ليس كرويا، وانما بلحمه وعظمه، حيث تحتاج اليه حقاً. كان اليقين يلهمها بانه هنا، ما يزال حياً، انها دون نزواته كرجل، دون طلباته البطريركية، دون الحاجة المفضية لأن تحبه بنفس طقوس القبيلات غير المناسبة

والكلمات الرقيقة التي يجربها بها . كانت تفهمه حيثئذ أفضل مما فهمته وهو حي ، فهمت قلق حبه ، واستعجاله للعشور فيها على الأمن الذي كان يبدو أنه ركيزة حياته العامة ، والذي لم يحصل عليه في الواقع أبداً . ففي أحد الايام ، صرخت به وهي في قمة يأسها : « ألا تشعر كم أنا تعيسة » . فنزع نظارته بحركة من صميم حركاته ، دون ان يتأثر ، وأغرقها بهاء عينيه الصبيانيتين الصافي ، وألقى على كاهلها ثقل حكمته الذي لا يطاق بعبارة واحدة : « تذكر دائماً ان أهم شيء في زواج جيد ليس هو السعادة وانما الاستقرار » . ومنذ أيام عزلتها الأولى كأرملة أدركت ان تلك العبارة لا تخفي التهديد المسكين الذي نسبته اليها يوم قالها ، وانما هي الحجر القمري الذي خصص لها معاً ساعات طويلة من السعادة .

كانت فيرميناداثا ، في رحلاتها الكثيرة عبر العالم ، تشتري كل جديد يلفت نظرها . كانت ترغب الاشياء لانطباعها الأولي وكان زوجها يشاركها منطقتها . ولقد كانت تلك الاشياء جميلة ونافعة ما دامت في بلدتها المنشأ ، في واجهات روما ، وباريس ، ولندن ، أو في نيويورك ذلك الزمان المهترء بالشارلستون ، حيث بدأت ناطحات السحاب بالنمو ، لكنها لا تحمل تجربة فالسات شتراوس مع شحم الخنزير القاسي ومعارك الزهور في درجة حرارة تصل الى الاربعين في الظل . وهكذا كانت ترجع من رحلاتها ومعها نصف دسسته من الصناديق المعدنية البراقة ، المزودة بأقفال وزوايا نحاسية ، تشبه نعوشاً خيالية . فتجد نفسها صاحبة وسيدة آخر عجائب الدنيا التي لم تكن مع ذلك تساوي ثمنها ذهباً إلا في اللحظة السريعة التي يراها فيها أحد من عالمها المحلي لمرة واحدة . اذ انها مشتراه لهذا الغرض : كي يراها الآخرون مرة واحدة . لقد وعت لا جدوى صورتها العامة قبل ان تبدأ بالشيخوخة بزمان طويل ، وكثيراً ما سُمعت تقول في البيت : « لا بد من التخلي عن كل هذه التفاهات التي لا تترك مكاناً للمعيشة » . وكان الدكتور اوربينويسخر من نواياها العقيمة ، لانه يعرف ان الاماكن الشاغرة لن تفيدها إلا المثلثا من جديد . لكنها كانت تصر على موقفها ، لانه لم يكن يوجد في الواقع مكان لأي شيء جديد ، ولم يكن يوجد في أي مكان شيء صالح لشيء ، كالمقصان المعلقة على مقابض الأبواب أو المعاطف الشتوية الأوروبية المدسوسة كيفما اتفق في خزائن المطبخ . وهكذا فانها كانت تنهض في صباح أحد الأيام بمعنويات عالية لتلقي إلى الأرض كل ما في الخزائن ، وتفرغ الصناديق ، وتجرد غرف المهملات ، وتعلنها حرباً على اكوام الملابس التي شوهدت بها يكفي ، والقبعات التي لم تلبسها أبداً لانها لم تجد فرصة مناسبة اثناء شيوخ موضتها ، والاحذية التي كان يحاكي بها فنانو اوروبا احذية الامبراطورات في حفلات تسويجهن ، والتي كانت تقابل هنا باحتقار الأنسات النييلات لانها تشبه تماماً الاحذية التي تشتريها الزنجيات من السوق لاستخدامها في البيت . وتبقى الشرفة الداخلية للبيت في حالة

طوارئء خلال فترة الصباح كلها، ويصبح التنفس في البيت امرأ شاقاً بفعل الرائحة الحادة لكرات النفطالين . لكن الهدوء ما يلبث ان يعم بعد ساعات قليلة، اذ انها ترقى لكل هذا الحريرالمبعرعلى الأرض، وكل هذا البروكارالفائض مع بقايا الحريرالمحرم، وكل ذبول الثعالب الزرقاء هذه المحكومة بالحرقة .

وكانت تقول :

.. ان احراقها، بينما هناك اناس كثيرون لا يجدون ما يأكلونه، هوخطيئة .

وهكذا كانت عملية الاحراق تتأجل . . لقد تأجلت دوماً، وكل ما في الأمر هو ان اماكن الاشياء كانت تتبدل، فتنتقل من مواقع الامتياز إلى الحظائر القديمة التي تحولت إلى مستودع للتصفيات، بينما تبدأ الاماكن التي أخليت بالامتلاء من جديد، كما كان يقول هو بالضبط، إلى أن تفيض باشياء تعيش للحظة زهو ثم تمضي لتموت في الخزائن، ريشما يحين موعد التصفية التالية . كانت تقول : «يجب ابتداء ما يمكن عمله بالاشياء التي لم تعد نافعة لشيء والتي لا يمكن الالقاء بها كذلك» . انها هكذا : ترتعد للنهم الذي تغزوبه الاشياء اماكن المعيشة، محتلة مكان البشر، وزاجة بهم في الزاويا، إلى ان تضعها فيرمينا داثا حيث لا تبدو للعيان . لم تكن امرأة مرتبة اذن كما يشاع عنها، وانما كان لديها منهج خاص ويائس لتبدو كذلك : انها تخفي الفوضى . ولقد اضطروا يوم وفاة خوفينال اورينوا إلى افراغ نصف محتويات المكتب، وتكويم الاشياء في غرف النوم ليجدوا مكاناً يسهرون فيه على الميت .

مرور الموت من البيت جاء بالحل . فما ان احترقت فيرمينا داثا ملابس زوجها، حتى لاحظت ان نبضها لم يرتعش، فتابعته بالنبض ذاته ايقاد المحرقة بين فترة واخرى، ملقية اليها بكل شيء، القديم والجديد، دون ان تفكر بجسد الأغنياء ولا بالأم الفقراء الذين يموتون جوعاً . ثم أمرت اخيراً بقطع شجرة المانغا من جذورها حتى لا يبقى أي أثر من اثار المحنة، وأهدت البيغاء حية إلى متحف المدينة الجديد . وعندئذ فقط تنفست حسب رغبتها في بيت كالبيت الذي حلمت به دوماً: فسيح وبسيط ولها وحدها .

أقامت ابنتها اوفيليا معها لثلاثة شهور ثم رجعت إلى نيواورليانز . وكان الابن يأتي مع اسرته لتناول غداء عائلي أيام الاحاد، وكلما اتيح له ذلك خلال أيام الاسبوع . وبدأت صديقات فيرمينا داثا المقربات يزرنها بعد اجتيازها ازمة الحداد، ويلعبن معها الورق مقابل الفناء المقفر، ويجربن اعداد اصناف جديدة من الطعام، ويطلعنها على اخبار الحياة الخفية للعالم الجشع الذي ما زال قائماً من دونها . ومن اكثرهن مواظبة على زيارتها كانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو، وهي ارستقراطية على الطريقة القديمة، كانت تربطها بها صداقة متينة

من قبل ، وقد تقربت منها اكثر بعد وفاة خوفينال اورينو . ولم تكن لوكرثيا دل ريال المخدرة بالتهاب المفاصل والساخطة على حياتها السيئة ، خير رفيقة لها وحسب ، بل انها كانت تستشيرها حول المشاريع التمدنية والدنيوية التي يجري الاعداد لها في المدينة ، مما يجعلها تشعر بقيمتها لنفسها وليس لظل زوجها الحامي ، رغم انها لم ترتبط به أبداً كارتباطها به حينئذ ، فقد نزعوا عنها اسمها الذي كانوا ينادونها به دوماً ، لتصبح أرملة اورينو .

لم تكن فيرمينا دائماً قادرة على تصور الأمر ، لكنها كلما اقتربت من الذكرى الأولى لوفاة زوجها ، كانت تشعر بانها تلج عالماً ظليلاً ورطباً وساكناً : انها الابكة التي لا مخرج منها . لم تكن واعية حينئذ ، كما لن تعي لعدة سنوات ، كم ساعدتها التأملات التي كان يكتبها فلوريتينو اريثا على استعادة سلامها الروحي . فالرسائل ، بمطابقتها مع تجاربها ، هي التي اتاحت لها فهم حياتها بالذات ، واعانتها على انتظار تقدم الشيخوخة وباطمئنان وهدوء . وقد كان اللقاء في ذكرى وفاة الزوج فرصة دبرتها العناية الالهية لفهام فلوريتينو اريثا بانها هي أيضاً وبفضل رسائله المشجعة ، كانت مستعدة لمحو الماضي .

بعد يومين من ذلك ، تلقت منه رسالة مختلفة : مكتوبة بخط اليد على ورق مسطر ، واسمه الكامل موضح على المغلف . كان الخط هو خط رسائل الشباب الأولى نفسه ، والعبارات الغنائية نفسها ، مسبوكه في مقطع شكر بسيط لاهتمامها بمصافحته في الكتدرائية . وقيت فيرمينا دائماً تفكر بها بحنين قلق بعد عدة أيام من قراءتها ، حتى انها سألت لوكرثيا دل ريال دل اوييسبو ، دون اي مناسبة ، اذا ما كانت تعرف فلوريتينو اريثا ، صاحب السفن النهرية . وأجابت لوكرثيا ان نعم : « يبدو انه شاذ ضائع » . وأعادت سرد الرواية المتداولة بانه لم يعرف امرأة أبداً رغم انطلاقته الطيبة ، وان له مكتباً سرياً يأخذ اليه الصبية الذين يلاحقهم ليلاً على أرصفة الميناء . كانت فيرمينا دائماً قد سمعت هذه الاسطورة منذ أمد بعيد ، ولكنها لم تصدقها يوماً ولم تولها اي اهتمام . اما حين سمعت لوكرثيا دل ريال دل اوييسبو ، التي اشيع عنها يوماً انها ذات امزجة غريبة ، ترددها بهذه القناعة ، لم تستطع مقاومة رغبتها بوضع الأمور في نصابها . فروت لها بانها كانت تعرف فلوريتينو اريثا منذ الصغر . وذكرت بان امه كانت تملك دكان خردوات في شارع لاس فيتساناس ، وانها كانت تشتري كذلك القمصان والشراشف القديمة لتنسل خيوطها وتبيعها كقن طوارئ اثناء الحروب الاهلية . وختمت حديثها بقول صحيح : « انه رجل شريف ، كون نفسه بنفسه » . كانت محتدة حدادفع لوكرثيا لان تسحب ما قالت : « ثم انهم في آخر المطاف يقولون عني أنا أشياء مشابهة » . لم يكن لدى فيرمينا دائماً فضول لتسألها عن تلك الاشياء لانها كانت تقوم بدفاع مؤثر عن رجل لم يكن اكثر من ظل في حياتها . تابعت التفكير فيه ، وخصوصاً حين كانت تصلها رسالة منه وبعد مضي

اسبوعين من الصمت، أيقظتها إحدى الخادمت من قيلولتها لتهمس لها منذرة :
- سيدتي، ها هودون فلورينتينا هنا.

ها هو هنا. كانت ردة فعل فيرمينا داثا الأولى صدمة ذعر. وفكرت ان لا، فليرجع في يوم آخر، وانها ليست قادرة على استقباله، وانه ليس لديها ما تتحدث وياه به. لكنها استردت انفاسها في الحال وأمرت بادخاله إلى الصالة وتقديم القهوة له ريثما تستعد لمقابلته. كان فلورينتينا واريشا ينتظر عند الباب الخارجي، متقدماً تحت شمس الساعة الثالثة الجهنمية، ولكنه كان مسيطراً تماماً على اعصابه وممسكاً بالاعنة بقبضته. فهو موقن من انها ستعذر اعتذاراً لطيفاً عن استقباله، وكان يقينه هذا يمنحه الطمأنينة. لكن القرار الذي نُقل اليه هذه حتى النخاع، وعند دخوله الى عتمة الصالة الرطبة، لم يتسع له الوقت للتفكير بالمعجزة التي يعيشها، لان أحشاءه امتلأت فجأة بانفجار رغبة مؤلمة. جلس جالساً أنفاسه، تحاصره ذكرى ذرق العصفور، اشؤوم على رسالته الغرامية الأولى، وبقي متجمداً في العتمة ريثما تفارقه القشعريرة، مستعداً لتقبل أي نكبة قد تلحق به في هذه اللحظة، باستثناء تلك المحنة الظالمة.

لقد كان يعرف نفسه جيداً: ويعلم انه رغم اصابته بالامساك المزمن، إلا ان امعاءه قد خائته في اماكن عامة ثلاث أو أربع مرات خلال حياته الطويلة، ولم يجد بداً من الاستسلام لجسده في تلك المرات الثلاث أو الأربع. وكان يرى في هذه المناسبات فقط، وفي مناسبات أخرى شديدة الحرج، حقيقة العبارة التي يحب ترديدها مازحاً: «انا لا أومن بالرب، ولكنني أخشاه». ولم يكن له حينئذ متسع للشك، فحاول تلاوة أي صلاة يذكرها، لكنه لم يجد شيئاً في ذاكرته. لقد علمه زميل له، حين كان طفلاً، بضع كلمات سحرية لاصابة العصافير بحجر «تك تاك تاك». ان لم اصبك سأدوئك» وقد جربها حين ذهب إلى الجبل لأول مرة حاملاً مقلاعاً جديداً، فهوى العصفور مصعوقاً. وأعاد العبارة بحرارة كحرارة الصلاة، لكنه لم يصل إلى النتيجة ذاتها. ثارت احشاؤه بحركة ملتوية وكأن فيها محوراً محلزناً رفعه عن مقعده، وانبعثت قرقرة من رغبة بطنه المتعاطمة الكثافة والألم، تركته مغطى بعرق مثلج. ارتعدت الخادمة التي حملت اليه القهوة لسياء الميت التي بدت عليه. فتنهد قائلاً: «انه الحر». فتحت النافذة معتقدة انها تسعده بذلك، لكن شمس الأصيل لفحت وجهه، مما اضطرها لاغلاقها من جديد. احس بانه عاجز عن الاحتمال لدقيقة أخرى، حين ظهرت فيرمينا داثا وهي لا تكاد ترى في العتمة، وارتعدت لرؤيته على هذا الحال، فقالت له:
- يمكنك خلع السترة.

لكن ما كان يؤلمه اثر من التواءات المغص القاتلة هو خوفه من ان تتمكن من سماع قرقرة

أحشائه . واستطاع الصمود للحظة قال فيها ان لا ، وانه انما جاء ليسأل متى يمكنها استقباله فقط . فقالت وهي ما تزال واقفة وقد اصابها الدهول : « هأنذا هنا » . ودعته للدخول إلى شرفة الفناء حيث الحرأقل . فرفض بصوت بدا لها وكأنه تنهدة أسف :
- ارجوك ان تؤجلي اللقاء ليوم غد .

تذكرت ان يوم غد هو الخميس ، يوم الزيارة المنتظمة للوكريثيا دل ريال دل اوييسبو ، لكنها عرضت له حلاً نهائياً : « بعد غد الساعة الخامسة » . شكرها فلوريتتينواريثا ، وأشار لها بحركة وداع متعجلة بقبعته ، وانصرف دون ان يتذوق القهوة . بقيت حائرة في وسط الصالة ، دون ان تفهم ما الذي حدث ، إلى ان سمعت فرقة السيارة في الشارع . بحث فلوريتتينواريثا حينئذ عن الوضع الأقل المأ في مقعد السيارة الخلفي ، وأغمض عينيه وأرخى عضلاته ، واستسلم لمشية الجسد . وأحس حينئذ وكأنه يولد من جديد . أما السائق ، الذي لم يعد يفاجأ بشيء بعد عمله لسنوات طويلة في خدمته ، فقد حافظ على عدم تأثره . لكنه حين فتح باب السيارة أمام البيت ، قال له :

- حذار يا دون فلورو ، قد تكون الكوليرا .

لكن الأمر كان كالمعتاد . ولقد حمد فلوريتتينواريثا الله يوم الجمعة في الساعة الخامسة تماماً ، حين قادته الخادمة عبر الصالة المظلمة إلى شرفة الفناء ، ووجد فيرمينا داثا جالسة وراء طاولة معدة لشخصين . عرضت عليه ان يتناول الشاي أو الشوكولاته أو القهوة ، فطلب فلوريتتينواريثا قهوة ، ساخنة جداً وقوية جداً . وأمرت هي الخادمة قائلة : « ولي الشراب المعتاد » . الشراب المعتاد هو شراب قوي محضر من تشكيلة متنوعة من الشاي الشرقي ، يساعدها في رفع معنوياتها بعد القيلولة . حين انتهت من تناول ابريق الشاي ، وانتهى هو من ابريق القهوة ، كانا قد خاضا واجتازا عدة موضوعات ، ليس لانهما كانت تهماهما كثيراً ، وانما لتجنب الدخول في المسائل الاخرى التي لم يكن أي منهما ليتجرأ على ملامستها . كلاهما كان مرتعداً ، لا يعرف ما الذي يفعلانه بعيداً عن شبابهما ، على شرفة بلاطها كرقعة الشطرنج في بيت ليس ملكهما ولا يزال يعبق برائحة ازهار الميث . انهما يجلسان معاً للمرة الأولى ، لا تفصل بينهما سوى هذه المسافة الضيقة ، ولديهما فائض من الوقت ليريا بعضهما بهدوء بعد نصف قرن من الانتظار . ولقد رأى كل منهما الآخر كما هما : عجوزان يترصدهما الموت ، لا يجمعهما شيء سوى ذكرى ماض غابر لم يعد ملكاً لهما وانما لشابين غتفيين كان يمكن أن يكونا حفيديهما . وفكرت بانه سيقتنع اخيراً بعدم واقعية حلمه ، وهذا سيخلصه من سفاوته .

وللحيلولة دون لحظات صمت غير مريحة أو أحاديث غير مرغوبة ، وجهت اليه اسئلة محددة حول السفن النهرية . ولم تكذ تصدق انه هو ، صاحب السفن ، لم يسافر فيها إلا مرة

واحدة، منذ سنوات بعيدة، حين لم تكن له أية علاقة بالشركة. ولم تكن هي تعرف النهر أيضاً. اذ ان زوجها كان يمقت الالهواء الانديزية، ويعلل ذلك بذرائع متنوعة: مخاطر الارتفاعات على القلب، المخاطرة بالاصابة بذات الرئة، نفاق الناس. وهكذا كانا يعرفان نصف العالم ولكنها! بعرفان بلدهما. كانت هناك يومئذ طائرة مائية من نوع جنكيز تنطلق من قرية إلى قرية في حوض نهر مجدلينا، كجريدة من الألمنيوم، تتسع لطاقمها المؤلف من شخصين، ولسته مسافرين اضافة إلى اكياس البريد. وقد علق فلورينتينو اريشا قائلاً: «انها اشبه بتابوت طائر في الجو». وكانت هي قد شاركت في الرحلة الأولى بالمنطاد، ولم تعان أية صعوبة، ولكنها لا تكاد تصدق اليوم انها هي نفسها التي تجرأت على تلك المغامرة، وقالت: «الامر مختلف». تعني بذلك انها هي التي تغيرت، وليس أساليب السفر.

كان أزيز الطائرات يفاجئها أحياناً. فمع انها رأتها تمر على ارتفاع منخفض، وتقوم بمناورات بهلوانية، في الاحتفال بالذكرى المثوية لموت بطل التحرير، ورغم انها رأت احدي تلك الطائرات، سوداء مثل طائر رخمة عظيم، وهي تلامس اسطح بيوت لامانغا، مخلقة جزءاً من جناحها عالقاً بشجرة مجاورة، قبل ان يبقى هيكلها معلقاً بأسلاك الكهرباء، إلا ان فيرمينا دائماً لم تستوعب مع ذلك حقيقة وجود الطائرات. بل انها لم تشعر بالفضول في السنوات الاخيرة للذهاب إلى خليج مانتانيو، حيث كانت تطير الطائرات المائية بعد ان تقوم زوارق خفر السواحل بإبعاد مراكب الصيادين وزوارق اللهو، التي كانت اعدادها في ازدياد. وقد اختاروها وهي عجوز بهذه الحالة لاستقبال تشالز ليندبيرغ بياقة زهور حين جاء بطائرته في رحلة نوايا حميدة، ولم تستطع ان تفهم كيف كان لرجل بهذه الضخامة، وهذه الشقرة، وهذا الجمال ان يرتفع في الجوبجهاز يبدو وكأنه من الصفيح المجعد، يقوم ميكانيكيان بدفعه من ذيله لمساعدته على الصعود. ولم يكن رأسها ليتسع لفكرة وجود طائرات اكبر من تلك بقليل تتسع لثمانية أشخاص. بينما سمعت بالمقابل ان السفن النهرية هي متعته خالصة لانها لا تتأرجح كسفن البحر. ولكن لهذه السفن مخاطرهما الاقوى، كاصطدامها بالمصاطب الرملية في قاع النهر، وتعرضها لهجمات قطاع الطرق.

وبين لها فلورينتينو اريشا ان هذه ليست إلا اساطير من ازمة غابرة: ففي السفن الحالية صالة رقص، وقمرات واسعة وفخمة كأنها غرف الفنادق مزودة بحمامات خاصة ومراوح كهربائية، كما انه لم يحدث أي هجوم مسلح على السفن النهرية منذ انتهاء الحرب الأهلية الأخيرة. وبين لها كذلك، بسعادة من حقق نصراً شخصياً، ان هذا التقدم يعود قبل كل شيء إلى حرية الملاحة التي دعا اليها هو، مما شجع المنافسة: فبدلاً من شركة واحدة وحيدة، كما كان الحال من قبل، أصبحت هناك ثلاث شركات نشيطة ومزدهرة. ومع ذلك

فان تقدم الطيران السريع يشكل خطراً حقيقياً على الجميع . حاولت مراسلاته : فانه من ستبقى دائماً ، لان المجانين المستعدين لحشر أنفسهم في جهاز يبدو مناقضاً للطبيعة ليسوا بالكثيرين . واخيراً تحدث فلوريتينواريثا عن التقدم الذي احرزه البريد ، سواء في اساليب نقله أو توزيعه ، آملاً بذلك ان تحدثه عن رسائله . لكنه لم يتوصل لما أراد .

وجاءت الفرصة بعد قليل وحدها . كانا قد ابتعدا كثيراً عن الموضوع ، حين قاطعتهما إحدى الخادمت لتسلم فيرمينا داثا رسالة نقلتها حيثئذ من البريد المديني الخاص ، الذي انشئ مؤخراً ، وكان يستخدم في توزيع الرسائل اسلوب توزيع البرقيات ذاته . ولم نجد هي نظارة القراءة ، كما يحدث معها دائماً . فقال لها فلوريتينواريثا برزانه :
- لا لزوم لذلك . فهذه الرسالة مني .

وكانت كذلك فعلاً . لقد كتبها في اليوم السابق ، وهو يعاني حالة انقباض رهيبة لانه لم يستطع تناسي خجله من زيارته الأولى الفاشلة . وكان يعتذر في تلك الرسالة عن سفاهته بالاقدام على زيارتها دون اذن مسبق ، ويبيدي تخليه عن نية العودة لزيارتها . لقد القاها في صندوق البريد دون ان يفكر مرتين ، وحين تروى بالامر كان الوقت قد فات لاستردادها . لكن هذه الشروحات كلها لم تبد له ضرورة ، فاكفى بالطلب إلى فيرمينا داثا ان تفضل بعدم قراءة الرسالة .

فقالت :

- طبعاً . فالرسائل في نهاية المطاف هي ملك لمن كتبها . أليس كذلك ؟

فخطا خطوة واثقة بقوله :

- أجل . ولذا فانها أول شيء يعاد عند وقوع القطيعة .

مرت على اشارته دون اهتمام ، وأعادت له الرسالة قائلة : « من المؤسف انني لن أستطيع قراءتها ، فقد كانت الرسائل الاخرى ذات نفع كبير لي » . اخذ نفساً عميقاً عندما فوجيء بانها قالت بشكل عفوي اكثر بكثير مما كان ينتظره منها ، وقال لها : « لا يمكنك ان تتصورى مدى سعادتي لمعرفة ذلك » . لكنها غيرت الموضوع ، ولم يتمكن من العودة اليه ثانية في بقية المساء . ودعها بعد الساعة السادسة ، حين بدأوا يضيئون أنوار البيت . كان يشعر بثقة اكبر ، ولكنها ثقة بلا أوهام ، لانه لم ينس طبع فيرمينا داثا المتقلب وردود فعلها المفاجئة حين كانت في العشرين ، ولم يكن لديه من الاسباب ما يدفعه للتفكير بانها قد تغيرت . ولهذا تجرأ على سؤالها بمذلة صريحة ان كان يستطيع العودة في يوم آخر ، وجاء الجواب ليفاجئه مجدداً .

قالت :

- عد متى شئت . فأنا وحيدة في اغلب الاحيان .

بعد أربعة أيام ، أي يوم الثلاثاء ، عاد دون ابلاغ مسبق ، ولم تنتظر هي ان يقدموا لها الشاي لتحديثه عن مدى النفع الذي اصابته من رسائله . فقال لها بانها ليست رسائل بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما هي أوراق متفرقة من كتاب كان يتمنى تأليفه . وكانت هي قد فهمت الرسائل على هذا النحو أيضاً ، لدرجة انها فكرت باعادتها اليه ، اذا هو لم ير ذلك على انه صد من جانبيها ، كي يحمل تلك الرسائل إلى مصير أفضل . تابعت الحديث عن الدور الطيب الذي قدمته اليها الرسائل في لحظة قاسية من حياتها ، وكانت تقول ذلك باندفاع شديد ، وعرفان بالجميل شديد ، وربما بعاطفة شديدة أيضاً ، مما جعل فلوريتينو اريثا يتجراً على التقدم باكثر من خطوة واثقة : اذ انه قفز قفزة قاتلة بقوله :

- لقد كنا نتخاطب دون كلفة من قبل .

كانت كلمة من قبل كلمة محرمة . وأحست بمرور ملاك الماضي الوهمي ، وحاولت تفاديه . لكنه توغل اكثر : « أعني في رسائلنا التي تبادلناها من قبل » . استاءت ، وكان عليها القيام بمجهود جدي كي تخفي استياءها . لكنه انتبه للأمر ، وأدرك ان عليه التقدم بحذر ، وتلمس مواقع اقدامه جيداً ، رغم ان العثرة اطلعته على انها مازالت على شراستها التي كانت عليها في شبابها ، لكنها تعلمت ان تكون شرسة برقة .

قال :

- أعني ان هذه الرسائل هي شيء آخر مختلف تماماً .

فقالت :

- كل شيء في الدنيا يتغير .

قال :

أنا لم أتغير . وحضرتك ؟

أوقفت فنجان الشاي في منتصف الطريق الى فمها ، وزجرته بعينين استمرتتا تلمعان بالحياة رغم القسوة . وقالت :

- لقد صار الأمر سيان . فقد اكملت اثنتين وسبعين سنة .

تلقى فلوريتينو اريثا الطعنة في القلب . وودّ العثور على جواب سريع كسرعة السهم وتلقائيته ، لكن ثقل السن هزمه : لم يشعر أبداً بمثل هذا الارهاق في محادثة قصيرة كهذه . كان قلبه يؤلمه ، وكانت كل ضربة منه ترتد دويّاً معدنياً في شرايينه . أحس بأنه شيخ ، حزين ، عديم النفع ، وراودته رغبة ملحة في البكاء حتى لم يعد قادراً على البكاء . تناولوا فنجان الشاي الثاني بصمت ثلثته الخواطر المنذرة ، وحين عادت هي للتكلم ، فعلت ذلك بان

توجهت إلى إحدى الخادمت طالبته منها احضار حقيبة الرسائل . كاد ان يطلب منها الاحتفاظ بالرسائل ، لان لديه نسخة كربون منها ، لكنه فكر بان كشفه عن اتخاذه مثل هذا الاحتياط سيبدو عملاً غير نبيل . ولم يعد لديها ما يتحدثان فيه . وقبل ان يودعها ، اقترح ان يعود يوم الثلاثاء التالي في نفس الساعة . فسألته لماذا عليه ان يكون متلفظاً إلى هذا الحد . وقالت :

- لا أرى من معنى لهذه الزيارات .

فقال :

- أنا لم أفكر بان يكون لها أي معنى .

وعاد على أي حال في يوم الثلاثاء التالي ، في الساعة الخامسة ، ثم في جميع أيام الثلاثاء التالية ، دون اعلان مسبق ، لان الزيارة الاسبوعية دخلت في روتين كل منها اعتباراً من نهاية الشهر الثاني . كان فلورينتينو اريثا يأتي حاملاً معه البسكوت الانكليزي لتناوله مع الشاي ، والكستناء الملبس بالسكر ، والزيتون اليوناني ، وغيرها من لذائذ الصالونات الصغيرة التي يجدها في عابرات المحيطات التي تتوقف في الميناء . وفي أحد أيام الثلاثاء جاءها بصورتها الفوتوغرافية مع هيلديبراندا ، التي التقطها لهما مصور بلجيكي منذ اكثر من نصف قرن ، وكان قد اشترىها بخمسة عشر سنتافون من مزاد بطاقات بريدية في بوابة الكتبة العموميين . لم تستطع فيرمينا داثا ان تفهم كيف وصلت الصورة إلى هناك ، كما لم يستطع هو فهم الأمر إلا على انه معجزة غرامية . وفي أحد الأيام ، وبينما كان فلورينتينو اريثا يقطف وروداً من حديقته ، لم يستطع مقاومة اغراء حمل وردة اليها في زيارته التالية . وكانت تلك مشكلة عويصة في لغة الزهور ، لانها تتعلق بأرملة حديثة الترميل . فوردة حمراء ، ترمز إلى العاطفة المتأججة ، قد تعتبر اهانة لحدادها . أما الورود الصفراء التي ترى فيها إحدى لغات الزهور رمزاً لحسن الطالع ، فهي في العرف الشائع تعبير عن الغيرة . ورغم انه سمع يوماً عن ورود تركيا السوداء ، التي قد تكون الاكثر ملاءمة ، إلا انه لم يستطع الحصول عليها ليأقلمها مع الجوفي حديقة بيته . لكنه غامر بعد تفكير طويل بحمل وردة بيضاء ، كان اعجابه بها أقل من اعجابه بالزهور الاخرى ، لانها بكاء لا تعني شيئاً . ولخوفه من أن يجد خبثاً فيرمينا داثا معنى لها ، قام بتقليم اشواكها في اللحظة الاخيرة .

وجدت الوردة لديها صدى طيباً ، على انها هدية بلا أية نوايا خفية . مما اثرى تقليد الثلاثاء بطقس جديد ، حتى انه أصبح يجد مزهرية مملوءة بالماء في وسط طاولة الشاي الصغيرة لدى وصوله حاملاً الوردة البيضاء . وفي أحد أيام الثلاثاء ، وفيما هو يضع الوردة ، قال بطريقة بدت عرضية :

- لم يكن أحد يهدي وروداً في زماننا، بل كانوا يتبادلون ازهار الياسمين .
فقالت :

- هذا صحيح ، ولكن الغرض منها كان مختلفاً كما تعلم حضرتك .
هذا ما كان يحدث دوماً : فكلما حاول التقدم خطوة قطعت عليه الطريق . لكنه في هذه المناسبة ، ورغم الجواب الدقيق ، أدرك انه قد أصاب الهدف ، لأنها اضطرت للالتفات جانباً كي تخفي تورّد خديها . كان تورداً متقدماً ، فتياً ، له حياته الخاصة ، مما اثار سخطها ضد نفسها . وقد احسن فلوريتينو اريثا صنعاً بالانصراف إلى موضوعات أقل فظاظة ، لكن شهامته كانت بينة بحيث انها انتبهت اليها ، وضاعف هذا من سخطها . كان يوم الثلاثاء منحوساً . فقد كادت ان تطلب منه عدم الرجوع لزيارتها ، ولكن فكرة الخوض في خصام كخصومات فترة الخطوبة بدت لها مضحكة وهما في هذه السن وهذا الوضع ، مما سبب لها نوبة ضحك . وبينما كان فلوريتينو اريثا يضع الوردة في المزهريّة يوم الثلاثاء التالي ، أمعنت التأمل في وعيها وتأكدت وهي سعيدة بانه لم يبق لديها ادنى اثر للغضب الذي اعترأها في الاسبوع السابق .

وسرعان ما بدأت الزيارات تتخذ بعداً عائلياً غير مريح ، اذ كان الدكتور اوريينودا ثا وزوجته يحضران أحياناً بشكل يبدو كأنه مصادفة ، ويبقيان هناك للعب الورق ، لكن فيرمينا داثا علمته ذلك خلال زيارة واحدة ؛ وبعثا كلاهما إلى الزوجين اوريينودا ثا بتحديد مكتوب للقاء في لعبة ورق يوم الثلاثاء التالي . كانت لقاءات مفرحة للجميع ، سرعان ما اتخذت طابعاً منتظماً كالزيارات ، وأقرت لها أعراف بان يأتي كل منهم بشيء معه في كل لقاء . فالدكتور اوريينودا ثا وزوجته التي كانت حلوانية بارعة ، يساهمان باحضاء قوالب حلوى متقنة ، وذات طعم مختلف في كل مرة ، أما فلوريتينو اريثا فتابع احضار طرائف مشيرة للفضول كان يجدها في السفن الاوروبية ، بينما كانت فيرمينا داثا تبتدع لهم كل اسبوع مفاجئة جديدة . وكانت مباريات لعب الورق هذه تجري في الثلاثاء الثالث من كل شهر ، ورغم انهم ما كانوا يتراهنون على نقود ، إلا انه كان يُفرض على الخاسر المساهمة باحضار شيء خاص للمباراة التالية .

كانت طبيعة الدكتور اوريينودا ثا منسجمة مع صورته الاجتماعية : فهو رجل ذو امكانيات ضئيلة ، واساليب مضطربة يعاني من نوبات قلق مفاجئة ، مبعثها السعادة أو السخط على حد سواء ، كما كان وجهه يتورد بلا مناسبة مما يثير المخاوف حول متانته الذهنية . لكنه كان بلا شك ، وكما يبدو عليه من النظرة الأولى ، رجلاً طيباً . وقد كان فلوريتينو اريثا يخشى ان يعتبره الدكتور كذلك أيضاً . أما زوجته فكانت ذكية وفيها شرارة امرأة لعوب ، كما كانت تقدم

بانسجامها وتوافقها لمسة اكثر انسانية إلى سعادتها . ولم يكن فلوريتينو اريثا ان يتمنى زوجين أفضل منها للعب الورق، ثم ان حاجته للحب التي لا ترقوي، توجت اخيراً باحساس انه في وسط عائلي .

في احدى الليالي ، وعند خروجها معاً من البيت، دعاه الدكتور اوريينودا ثا لتناول الغداء معه : «غداً، الساعة الثانية عشرة والنصف، في النادي الاجتماعي» . وكانت وليمة لذيذة مع نبيذ فاخر . كان النادي الاجتماعي يحتفظ لنفسه بحق عدم السماح بالدخول لاسباب متنوعة ، وأحد أهم هذه الاسباب هو حالة الابن الطبيعي الذي لا أب له . ولقد كانت للعم ليون الثاني عشر تجربة مثيرة في هذا المجال، كما عانى فلوريتينو اريثا نفسه عار اخراجه من النادي يوماً بعد جلوسه إلى الطاولة بدعوة من أحد الاعضاء المؤسسين، كان فلوريتينو اريثا قد قدم له خدمات كبيرة في مجال التجارة النهرية، وما كان من الداعي إلا ان اصطحبه لتناول الطعام في مكان آخر، قائلاً له :

- علينا نحن الذين نضع الانظمة، ان نكون أول من يطبقها .

لكن فلوريتينو اريثا غامر رغم ذلك بالذهاب مع الدكتور اوريينودا ثا، وقد استقبل هناك استقبالاً خاصاً، رغم انهم لم يطلبوا منه التوقيع في السجل الذهبي المخصص للمدعوين البارزين . كانت دعوة محدودة، اقتصرت عليهما فقط، ودار الحديث بينهما بصوت منخفض . والمخاوف التي ساورت فلوريتينو اريثا منذ مساء اليوم السابق بشأن ذلك اللقاء، تلاشت مع تناولهما كأس الاوبورتو الفاتح للشهية . كان الدكتور اوريينودا ثا يود الحديث عن امه . ولكثرة ما تحدث، انتبه فلوريتينو اريثا إلى انها قد حدثت عنه . كما انتبه إلى شيء اكثر اثاراً : لقد كذبت على ابنها لصالحه، اذ اخبرته بانها كانا صديقين منذ الطفولة، وكانا يلعبان معاً منذ قدومها من سان خوان دي لايناغا، وانه هو الذي شجعها على قراءتها الأولى، ولذا فهي مدينة له بجميل قديم . وقالت له كذلك انها كثيراً ما كانت تذهب بعد خروجها من المدرسة لقضاء ساعات طويلة مع ترانسيثواريشا البارة، التي كانت تطرز أعمالاً رائعة في دكان الخردوات . واذا كانت لم تعد تلتقي بفلوريتينو اريثا كما كانت تلتقيه في السابق، فليس لانها غير راغبة في ذلك، وانما لافتراق حياتيهما .

وقبل ان يصل إلى عمق اغراضه، جال الدكتور اوريينودا ثا حول موضوع الشيخوخة . كان يرى ان العالم سيتقدم بسرعة اكبر لو انه تخلص من عرقلة الشيوخ . قال : «ان الانسانية كالجيوش في المعركة، تقدمها مرتبطت بسرعة أبطأ افرادها» . وكان يأمل بمستقبل اكثر انسانية، وبالتالي اكثر تحضراً، تعزل فيه الكائنات البشرية التي لم تعد قادرة على الاعتماد على نفسها في مدن هامشية، كي تتجنب عار وآلام وعزلة الشيخوخة المخيفة . وقال ان حد السن

المناسب لذلك من وجهة نظره يمكن ان يكون متين عاماً.. ولكن ريثما يتم الوصول الى هذا المستوى من الاحسان، فان الحل الوحيد هو الملاجىء، حيث يتسنى للشيخ ان يتسلوا مع بعضهم البعض، وان يتفقوا فيما يحبون ويمقتون، وفي عاداتهم واحزانهم، بعيداً عن الخلافات الطبيعية مع الاجيال التالية. وقال: ان اجتماع الشيخ مع الشيخ يجعلهم أقل شيخوخة». حسناً اذن: كان الدكتور اورينودا يود شكر فلوريتينو اريثا على مرافقته الطيبة لأمه في وحدة الترميل، ورجاء الاستمرار في ذلك لمصلحتهم معاً ولراحة الجميع، وطلب منه الصبر على مزاجها الشيخوخى. أحس فلوريتينو اريثا بالراحة لنتائج اللقاء، وقال له: «كن مطمئناً. فأنا اكبر منها بأربع سنوات، وهذا ليس الآن فقط، وانما من قبل. قبل مولدك بكثير». ثم استسلم لاغراء التخفيف عن نفسه بضربة تهكم، فاختتم قائلاً: - في مجتمع المستقبل، عليك ان تذهب إلى المقبرة، لتحمل اليها وإلي باقة من الانتوريو من اجل الغداء.

لم يكن الدكتور اورينودا قد لاحظ حتى ذلك الحين عدم لياقة نبوءته عن المستقبل، فدخل في متاهة من الشروحات لم تزد إلا تخبطاً. لكن فلوريتينو اريثا ساعده للخروج من ورطته. كان مشعاً، لأنه كان يعلم بأن عليه أن يلتقي عاجلاً أو آجلاً مع الدكتور اورينودا في لقاء كهذا، لاستكمال شرط اجتماعي لا يمكن تجاوزه: طلب يد أمه رسمياً وقد كان جو الغداء مشجعاً، اذ بين له سهولة ذلك الطلب وحتمية الترحيب به. ولم تكن هناك فرصة أفضل من هذه، لو انه كان حاصلاً على موافقة فيرمينا داثا. بل ان رسميات الطلب، بعد حديثها خلال ذلك الغداء التاريخي، كانت تبدو فائضة عن الحاجة.

لقد اعتاد فلوريتينو اريثا صعود الادراج ونزولها بحذر خاص، حتى حين كان شاباً، فقد كان يفكر دوماً بان الشيخوخة انما تبدأ بزلة قدم أولى لا أهمية لها، ثم يتلوها الموت في الزلة الثانية. وكان يرى ان أخطر الادراج هو درج مكتبه، لانه ضيق وشبه منتصب. وقد اعتاد منذ زمن طويل، قبل ان يبدأ بجرق قدميه بصعوبة على صعوده متفحصاً كل درجة من درجاته جيداً وممسكاً الدرابزين بكلتا يديه. ورغم انهم كثيراً ما اقترحوا عليه استبداله بدرج اقل خطورة، الا ان قراره كان يتأجل إلى الشهر التالي دائماً، لان استبداله كان يبدو له كإقرار بشيخوخته. وكان يحتاج لوقت أطول في الصعود كلما تقدمت به السن، ليس لانه كان يتكلف مشقة أكبر، كما يدعي هو باصرار، بل لانه كان يضاعف من حذره في كل مرة. ومع ذلك، فانه بعد عودته من الغداء مع الدكتور اورينودا، وبعد كأس الاوبورتو الذي تناوله قبل الطعام ونصف كأس النبيذ الاحمر مع الطعام، وبعد تلك المحادثة الظافرة خصوصاً، حاول الوصول إلى الدرجة الثالثة بخطوة كخطوات راقص شاب مما لوى كاحله الايسر وجعله

يهوي على ظهره، وينجم من الموت باعجوبة. لقد كان يتمتع في لحظة وقوعه بوعي كافٍ ليفكر بأنه لن يموت في تلك العثرة، لأن منطق الحياة لا يسمح لرجلين قد لها لسنوات طويلة في حب المرأة ذاتها، بأن يموتا بالطريقة نفسها ويفارق سنة واحدة بينهما. وكان محقاً. لفوا ساقه من القدم وحتى ريلة الساق واجبروه على البقاء في السرير دون حراك، لكنه كان حياً أكثر مما كان عليه قبل الوقوع. وعندما أمره الطبيب بالبقاء ثابتاً لمدة ستين يوماً، لم يستطع أن يصدق كل هذه التعاسة، فقال له متوسلاً:

- لا تفعل بي هذا يا دكتور. ان شهرين من حياتي هما كعشر سنوات من حياتك أنت. وحاول ان ينهض عدة مرات، حاملاً ساقه التي كالتمثال بكلتا يديه، فكان الواقع يهزمه دوماً. لكنه حين عاد للمشي أخيراً وكاحله ما يزال يؤلمه، وظهره مسلوخ من النوم الطويل في الفراش، كانت لديه اسباب كافية للاعتقاد بأن القدر قد كافأ اصراره بزلة من العناية الالهية. أسوأ أيام مرضه كان يوم الاثنين الأول. كان الألم قد تراجع، وكان التشخيص الطبي مشجعاً، إلا أنه كان يرفض الرضوخ لنكبة عدم رؤية فيرمينا داثا مساء اليوم التالي، لأول مرة منذ اربعة أشهر. ولكنه بعد قيلولة اذعان، أخضع نفسه للواقع وكتب لها بطاقة اعتذار. كتبها بخط يده على ورق معطر وبحبر فوسفوري لتقرأها في الظلام، وبالح في مأساويته حيال خطورة الحادث دون خجل، محاولاً استنهاض عطفها. وردت عليه بعد يومين، متأثرة جداً، ولطيفة جداً ولكن دون كلمة واحدة خارج الحدود، مثلما كانت في أيام الحب العظيمة. وتشبث بالفرصة فوراً ليكتب اليها ثانية. وحين ردت عليه للمرة الثانية، قرر الماضي أبعد مما كانت عليه احاديثهما الملغزة أيام الثلاثاء، فأمر بوضع هاتف إلى جوار السرير بحجة أنه يريد متابعة سير العمل اليومي في الشركة. وطلب من مقسم الهاتف المركزي ان يصلوه بالرقم الثلاثي الذي حفظه في ذاكرته منذ اتصل بها لأول مرة. سمع صوت الجرس الخافت، المتوتر بغموض البعد، ثم الصوت المحبوب يرد، وتعرفت هي على الصوت الآخر فودعته بعد ثلاث عبارات عادية حول الصحة. أحسن فلورينتينواريثا بالغم لهذه اللامبالاة، ورأى انه يعود إلى نقطة البداية من جديد.

لكنه تلقى بعد يومين رسالة من فيرمينا ترجوه فيها الا يتصل بالهاتف ثانية. وكانت اسبابها وجيهة. فقد كان عدد الهواتف في المدينة محدوداً جداً، وكانت المكالمات تتم عبر عاملة مقسم تعرف جميع المشتركين، وحياتهم ومعجزاتهم، وليس مهما اذا هم كانوا خارج البيت: فهي تجدهم حيث يكونون. ومقابل هذه الفعالية، كانت تنصت الى المحادثات، وتكتشف اسرار الحياة الخاصة، والمآسي المحفوظة بتكتم، ولم يكن غريباً عليها ان تتدخل في حوار دائر لتدلي

بوجهة نظرها اولتخفف من حدة الغضب . كما كانت قد تأسست في تلك الايام أيضا جريدة العدالة ، وهي صحيفة مسائية هدفها الوحيد انتقاد العائلات ذات الالقاب الكبيرة ، بالاسم انصريح وبلا أية اعتبارات ، كرد من صاحب الجريدة على عدم قبول ابنائه كاعضاء في النادي الاجتماعي . ورغم نظافة حياتها ، فقد كانت فيرمينا دائما تلتزم جانب الحذر حينئذ اكثر من أي وقت مضى في كل ما تقوله أو تفعله ، حتى مع اصدقائها المقربين . وهكذا بقيت مرتبطة مع فلوريتينو اريشا بخيط الرسائل البائد . واصبح تبادل الرسائل ما بينها كثيفا الى حد جعله ينسى ساقه المصابة ، وعقوبة البقاء في السرير ، وكل شيء اخر ، ويكرس نفسه تماما لكتابة على طاولة متحركة كتلك المستخدمة في المشافي لتقديم الطعام للمرضى .

رفعا الكلفة بينهما من جديد ، وعادا لتبادل الاراء حول حياتهما كما كانا يفعلان في رسائلهما السابقة ، لكن فلوريتينو اريشا حاول المضي ثانية بسرعة : كتب اسمها بوخز دبوس على وريقات زهرة كاميليا ، وبعثها في رسالة ، وبعد يومين أعيدت اليه دون أي تعليق . لم تستطع فيرمينا دائما منع ذلك : فالأمر كله كان يبدو لها كلعبة أطفال . وحين أصر فلوريتينو اريشا على استعادة ذكرى امسيات الاشعار الكثيرة في حديقة البشارة ، ونحابيء الرسائل في الطريق الى المدرسة ، ودروس التطريز تحت أشجار اللوز . وضعته في مكانه الطبيعي ، وروحها تتألم ، يسؤال بدا عرضيا وسط مجموعة اخرى من الاحاديث المطروقة : «لماذا تصر على الحديث في أمر لا وجود له ؟» . ثم أنبت فيما بعد عناده العقيم في عدم الرضوخ لشيخوخة طبيعية . وهذا هو حسب رأيها ، سبب سقوطه واحباطاته الدائمة في تذكر الماضي . لم تكن تفهم كيف يمكن لرجل قادر على صياغة الافكار التي ساعدتها على تجاوز الترميل ، ان يورط نفسه بتلك انطريقة الصبيانية حين يحاول تطبيق افكاره على حياته بالذات . فانقلبت الادوار ، واصبحت هي حينئذ من حاولت تشجيعه ليرى المستقبل بعبارات لم يستطع فهمها في تسرعه الطائش : دع الزمن يمضِ وسرني ما الذي يحمله ، اذ لم يكن في يوم من الايام تلميذاً نجيباً كما كانت هي . ان قعوده الاجباري ، وبقينه الذي كان يتضح اكثر فأكثر بتسرب الزمن ، ورغبته المجنونة لرؤيتها ، اكدت له ان مخاوفه من الزلل كانت اكثر اصابة ومأساوية مما توقعه . وبدأ يفكر لأول مرة بحقيقة الموت تفكيراً عقلانياً .

كانت ليونا كاسياني تساعد في الاستحمام واستبدال البيجاما مرة كل يومين ، وتضع له الحقن الشرجية ، والمبولة ، وكهادات البابونج على قروح ظهره ، وتجري له المساجات بارشاد الطبيب كي لا يسبب له انعدام الحركة مشاكل اخرى اسوأ . وكانت تحل محلها في هذه المهمات يومي السبت والأحد اميركا فيكونيا ، التي كانت ستنتهي دراستها كمعلمة في شهر كانون الاول من تلك السنة . وقد وعدا بايفادها في دورة عليا الى الاباما على نفقة الشركة

النهرية ، وذلك ليكمّ فم ضميره من جهة ، وليتخلص من مواجهة تعنيفاتها التي لا تجد مناسبة لقولها ، والتفسيرات التي يتوجب عليه ان يقدمها اليها من جهة اخرى . لم يتصور يوماً مدى معاناتها في ساعات ارقها في المدرسة الداخلية ، وفي نهايات الاسبوع التي تقضيها بعيداً عنه ، وفي حياتها من دونه ، لانه لم يتصور أبداً كم كانت تحبه . وعلم من رسالة بعثتها إليه المدرسة ان الموقع الاول الذي كانت تحتله دوماً قد اصبح الاخير ، وانها على وشك الرسوب في الامتحانات النهائية . لكنه تناسى واجبه كوصي ولم يبلغ والدي اميركا فيكونيا بالأمر ، يمنعه احساس بالذنب يحاول التخلص منه . كما انه لم يبحث الامر معها . وذلك لمخاوفه الراسخة بانها ستحاول القاء جريرة فشلها عليه . وهكذا ترك الامور على حالها . وأخذ يؤجل مشاكلها دون ان يدري ، على أمل ان يتكفل الموت بحلها .

لم تصب المفاجأة المرأتين اللتين كانتا تسهران على العناية به فقط ، بل ان فلورينتينواريثا نفسه فوجيء بالتبدل الذي طرأ عليه . فمئذ أقل من عشر سنوات ، كان قد هاجم احدي خادماته وراء السلم الرئيسي في بيته ، وهي بملابسها وواقفة على قدميها ، وتركها حبلى في وقت أقصر مما يحتاجه ديك فيليبيني ، وكان عليه ان يهديها بيتا مفروشا لتقسم ان الفاعل الذي لطخ شرفها هو صديق لها تخرج معه أيام الاحاد ، لم يكن في الواقع قد قبلها مجرد قبلة ، فقام أبوها وأعمامها ، وهم من أمهر قاطعي القصب بالسيوف في موسم الحصاد ، باجباره على الزواج منها . ولم يكن يبدو على فلورينتينواريثا انه الرجل نفسه الذي تقلبه ظهراً وبطناً امرأتان كانتا حتى زمن لا يتجاوز بضعة شهور تجعلانه يرتعش حبا ، فتدعكانه بالصابون من فوق ومن تحت ، وتنشفانه بمناشف من قطن مصري وتدلكانه في كل اجزاء جسده ، دون ان تفلت منه تنهدة نشوة . وكان لكل منها تفسيرها لفقدانه الرغبة . فليونا كاسياني تظن بانها مقدمات الموت ، بينما تعزوه اميركا فيكونيا الى منشأ خفي لاتستطيع إدراك كنهه . وكان هو وحده يعرف الحقيقة ، ويعرف ان لها اسماً محددًا . لكن ذلك كان ظلماً على أي حال : فقد كانتا تعانيان وهما تخدمانه اكثر من معاناته هو الذي يتلقى أحسن الخدمات .

ان ثلاثة أيام ثلاثاء فقط كانت كافية لتدرك فيرمينا دائماً مدى الفراغ الذي تركته زيارات فلورينتينواريثا . كانت تقضي تلك الايام مع صديقاتها المواظبات على زياراتها . وكانت لوكريثيا دل ريال دل اوبيسبو قد ذهبت الى بناما لتتظر في أمر ألم اصاب سمعها ولم يعد يتوقف باي ثمن ، وعادت وهي مطمئنة جداً بعد شهر ، لكن سمعها كان أخف مما كان عليه قبلاً بيبوق تضعه في اذنها . وكانت فيرمينا دائماً هي الصديقة الأكثر احتمالاً لاختلاط اسئلتها واجاباتها ، مما شجع لوكريثيا على زيارتها يومياً ، وفي أي وقت يخطر لها . لكن فيرمينا دائماً لم تجد في أحد تعويضاً عن امسيات فلورينتينواريثا المسكّنة .

لم تكن ذكرى الماضي لتعوض عن المستقبل ، كما كان يظن . بل انها على العكس من ذلك ، كانت ترسخ قناعة فيرمينا دائما الدائمة في ان ذلك الهياج المحموم في العشرين من العمر انها كان شيئا نبيلًا وجميلًا جدًا ، لكنه ليس بالحلب . ورغم صراحتها الفجة ، فانها لم تشأ ان تكشف له ذلك سواء بالبريد او شخصيا ، كما لم تجد في قلبها متسعًا لتقول له كم هوزائف رنين العواطف في رسائله بعد ان عرفت آية تأملاته المكتوبة ، وكيف تخفض اكاذيبه الغنائية من قيمته ، وكم يضربه إصراره المجنون على استعادة الماضي . لا . . . لم يكن بإمكان اي سطر من سطور رسائله القديمة ولا أية لحظة من لحظات شبابه المضجر اشعارها بان امسيات الثلاثاء ستكون بهذه الرحابة ، كما هي في الواقع ، من دونه ، وبهذا التوحد والخواء .

كانت قد بعثت الى مستودع المهملات في الاصطبل خلال احدى نوباتها المفاجئة بمذياع اهداها اياه زوجها في ذكرى زواجهما لأحد الاغوام ، وقد فكرا كلاهما بتقديمه الى المتحف باعتباره اول مذياع وصل الى المدينة . وكانت قد قررت وهي في عتمة حدادها عدم استخدامه ، لأن أرملة لها ألقابها لا يمكن لها الاستماع الى أية موسيقى دون ان تسيء الى ذكرى زوجها الميت ، حتى ولو فعلت ذلك في مخدعها . ولكنها بعد يوم الثلاثاء الثالث للوحدة أمرت باعادته ثانية الى الصالة ، لالتستمع باغنيات اذاعة ريوبامبا العاطفية ، كما كانت من قبل ، وانما لتشغل ساعات فراغها بالاستماع الى روايات الدموع التي تبثها اذاعة سننثياغودي كوبا . وكان ذلك قرارا صائبًا ، لأنها بدأت تفقد منذ ميلاد ابنتها عادة المطالعة التي اكسبها اياها زوجها باجتهاد منذ رحلة الزفاف ، وفقدت تلك العادة تماما مع ما اصاب بصبرها من ضعف متزايد ، الى ان أصبحت تمضي بضعة شهور أحيانا دون ان تعرف أين هي نظارتها . لقد استهوتها الروايات الاذاعية من اذاعة سننثياغودي كوبا ، حتى صارت تنتظر بجزع الحلقات اليومية المتسلسلة . وكانت تستمع بين الحين والآخر الى الاخبار لتعرف ما الذي يحدث في الدنيا ، وفي بعض المناسبات النادرة ، حين تبقى وحدها في البيت ، كانت تستمع بصوت منخفض جدًا ، الى موسيقى الميرينغي من اذاعة سانتودومينغو وموسيقى بلينا من اذاعة بورتوريكو النائيتين والواضحتين . وفي احدى الليالي ، سمعت خبرا مؤثرا من محطة اذاعة مجهولة انطلقت فجأة بقوة ووضوح كما لو كانت تبث من البيت المجاور ، وجاء في الخبر ان عجوزين اعتادا ان يكررا شهر عسلهما في نفس المكان منذ اربعين سنة ، قد قُتلا بضربات مجدف على يد صاحب الزورق الذي كان يحملهما في نزهة ، وذلك ليسرق ما معها من مال : أربعة عشر دولاراً . وكان تأثرها أشد حين روت لها لوكريثيادل ربال القصة الكاملة كما نشرتها احدى الصحف المحلية . فقد اكتشفت الشرطة ان العجوزين المقتولين - المرأة في الثامنة والسبعين والرجل في الرابعة والثمانين - هما عاشقان سريان ، يقضيان اجازتهما معاً منذ اربعين

سنة، لكن كل منها متزوج زواجاً محترماً ومستقراً وسعيداً، ولكل منها عائلة كبيرة. وفيرمينا داڤا التي لم تبك يوماً بسبب المسلسلات الاذاعية، جاهدت بصعوبة لقهر عقدة الدموع التي علقت في حلقها، حين بحث اليها فلوريتينو ارشا في رسالته التالية قصاصة الجريدة التي تحمل الخبر بلا أي تعليق منه.

لم تكن تلك الدموع هي آخر دموع تضطر فيرمينا داڤا لقهرها. فقبل ان يكمل فلوريتينو ارشا ايام اعتكافه الستين، كشفت صحيفة العدالة على صدر صفحتها الاولى مع صور المعنيين، عن غراميات سرية مزعومة للدكتور خوفينال اوربينو ولوكريشيا دل ريال دل اوييسبو. واسهبت الجريدة في تفصيل العلاقة، ومداهها واسلوها، وكذلك حول تواطؤ الزوج، المستسلم لانحرافاتة السدوفية مع الزنوج العاملين في مصنعه لتكرير السكر. وكان للقصة المنشورة بحروف بارزة وبحبر له لون الدم دويماً كدوي رعد الكارثة في اوساط الطبقة الارستقراطية الاخذة بالتفسخ. ومع ذلك لم يكن فيها سطر واحد يحمل الحقيقة : صحيح ان خوفينال اوربينو ولوكريشيا دل ريال كانا صديقين حميمين مذ كانا عازبين وبقيا صديقين بعد زواجهما، لكنهما لم يكونا عاشقين في يوم من الايام. ولم يكن هنالك ما يشير على كل حال الى ان المقال المنشور كان يريد التشهير باسم الدكتور خوفينال اوربينو، الذي تتمتع ذكره باحترام مجمع عليه، وانما كان المقصود هو زوج لوكريشيا دل ريال، الذي اختير رئيساً للنادي الاجتماعي في الاسبوع السابق. وقد تم اخماد الفضيحة خلال ساعات قليلة. لكن لوكريشيا دل ريال لم تعد لزيارة فيرمينا داڤا، واعتبرت هذه الامر على انه اعتراف بالذنب.

وقد اتضح بعد وقت قصير جداً ان فيرمينا داڤا نفسها لم تكن كذلك بمنحجى من مخاطر طبقتها. فقد حملت عليها جريدة العدالة مستغلة نقطة ضعفها الوحيدة : أعمال أبيها التجارية. فعندما اذعن هذا للنفي الاجباري، كانت تعرف حادثة واحدة من اعماله الغامضة، كئاروتها لها غالا بلاثيديا. وفيما بعد، حين أكد لها الدكتور اوربينو الأمر بعد مقابلته للحاكم، أيقنت ان أباه كان ضحية مكيدة مدبرة. والمسألة هي ان اثنين من رجال الشرطة الحكوميين حضرا ومعهما أمر بتفتيش بيت حديقة البشارة، وقد فتشا البيت كله دون أن يجدا ما يبحثان عنه، ثم أمرا أخيراً بفتح خزانة الملابس ذات الابواب المغطاة بمرايا والموجودة في حجرة نوم فيرمينا داڤا سابقاً. كانت غالا بلاثيديا وحدها في المنزل حينئذ، ولم يكن لديها من وسيلة لانداز أحد، فرفضت فتح الخزانة متذرة بانها لا تملك المفتاح. عندئذ حطم أحد الشرطيين مرايا الابواب بعقب مسدسه، واكتشف وجود فراغ ما بين الزجاج والخشب مملؤ بأوراق نقدية مزيفة من فئة المئة دولار. كانت هذه هي ذروة سلسلة من الابحاث التي قادت الى لوريشو داڤا على انه الحلقة الاخيرة من عملية دولية واسعة. وكان

التزوير متقناً جداً، فالأوراق النقدية المزيفة تتمتع بجميع مواصفات ورق النقود الأصلي : اذ انهم محوا الكتابة والرسوم عن أوراق من فئة دولار واحد باستخدام مادة كيميائية تشبه السحر، ثم طبعوا على الورق ذاته نقوداً من فئة المئة دولار. وادعى لوريتشودا ان انه اشترى الخزنة بعد زمن طويل من زواج ابنته، وان الخزنة وصلت الى البيت دون شك والاوراق النقدية مخبأة فيها، لكن الشرطة اثبتت ان الخزنة موجودة في البيت مذ كانت فيريمنادانا تذهب الى المدرسة. وانه لا يمكن لأحد سواه اخفاء الثروة الزائفة وراء المرايا. هذا هو الشيء الوحيد الذي رواه الدكتور اورينولزوجته يوم تعهد أمام الحاكم باعادة حماه الى موطنه للتغطية على القضية. أما الجريدة فروت أموراً كثيرة أخرى.

روت ان لوريتشودا توسط خلال احدي الحروب الاهلية الكثيرة في القرن الماضي، بين حكومة الرئيس الليبرالي اكيلوبارا وشخص بولوني الاصل، يدعى جوزيف ك. كورزينوفسكي، أقام هنا عدة شهور مع طاقم السفينة التجارية سانت انطون، التي ترفع العلم الفرنسي، في محاولة لتصريف صفقة سلاح معقدة، ولم يعرف احد كيف اتصل كورزينوفسكي، الذي ذاع صيته للعالم فيما بعد باسم جوزيف كونراد، مع لوريتشودا، الذي اشترى منه شحنة الاسلحة لحساب الحكومة، بوثائق وايصالات نظامية، ودفع الثمن ذهباً حقيقياً. وحسب رواية الجريدة، فقد ادعى لوريتشودا ضياع الاسلحة في هجوم مباغت، ثم انه أعاد بيعها بضعف الثمن الحقيقي الى المحافظين الذين يخوضون حرباً ضد الحكومة.

وروت العدالة أيضاً ان لوريتشودا اشترى بثمان زهيد جداً شحنة احذية عسكرية فائضة لدى الجيش الانكليزي، في الزمن الذي أسس فيه الجنرال رافائيل ريس البحرية الحربية، وانه ضاعف في هذه العملية وحدها ثروته خلال ستة شهور. وحسبما جاء في الصحيفة، فانه لدى وصول الشحنة الى هذا الميناء، رفض لوريتشودا استلامها لان الاحذية التي وصلت كانت جميعها للقدم اليمنى فقط، ولكنه كان المشارك الوحيد في المزايدة التي اعلتها الجمارك حسب القوانين النافذة، واشترى الشحنة بمبلغ رمزي هو مئة بيزو. وفي اثناء ذلك، اشترى شريك له في ظروف مشابهة شحنة احذية للقدم اليسرى، كانت قد وصلت الى جمارك ريوهايتشا. وما ان انتظمت الاحذية مع بعضها حتى باعها لوريتشودا، مستفيداً من نسبه مع ال اورينودي لا كايي، للبحرية الحربية الناشئة بأرباح بلغت الفين بالمئة.

وانتهت رواية العدالة الى القول ان لوريتشودا لم يغادر سان خوان دي لايناغا في اواخر القرن الماضي بحثاً عن مكان أفضل لمستقبل ابنته، كما كان يدعي، وانما لانكشاف أمره في مزج التبغ المستورد مع ورق مفروم، وهي الصناعة المزدهرة التي مارسها بمهارة فائقة، حتى

انها كانت تنطلي على المدخنين المحترفين . كما كشفت علاقاته بشركة سرية دولية ، كان نشاطها الرائج في اواخر القرن الماضي يتمثل في تهريب الصينيين من بناما الى البلاد بأساليب غير مشروعة . أما تجارة البغال المشبوهة ، والتي أساءت كثيرا الى سمعته ، فيبدو انها التجارة الشريفة الوحيدة التي مارسها في حياته .

عندما غادر فلوريتينو اريثا الفيراش ، وظهره ملتهب بالقروح ، مستخدما لأول مرة في حياته عكازا بدلا من المظلة ، كان خروجه الاول الى بيت فيرمينا داثا . وجدها وقد تبدلت تماما ، بفعل آثار السنين على بشرتها ، وبحقد أفقدها الرغبة في الحياة . وفي الزيارتين اللتين قام بهما الدكتور اوربينوداثا لفلوريتينو اريثا اثناء مرضه ، حدثه عن الاسى الذي سببته لأمه مقالاته العدالة . فالمقالة الاولى اثار فيها غضبا مجنونا لخيانة زوجها وغدر صديقتها ، مما جعلها تتوقف عن زيارتها لضريح زوجها التي كانت تقوم بها في يوم من أيام الاحد كل شهر ، وذلك لسخطها من انه لن يستطيع وهو في تابوته سماع اللعنات التي تريد ان تكيلها له : لقد اختلفت مع الميت . وبعثت الى لوكريثيا دل ريال ، مع كل من يريد ان يوصل الكلام اليها ، تقول لها بان تقنع بالعزاء . لانها وجدت على الاقل رجلا بين جميع من مروا في فراشها . أما في المقالة عن لوريشوداثا لم يكن معروفا ما هو الذي يؤلمها اكثر : أهى المقالة ، ام اكتشافها المتأخر لهوية ابيها الحقيقية . لكن أحد الاحتمالين ، أو كلاهما معا ، قصم ظهرها . فالشعر ذو اللون الفولاذي الذي كان يزيد من نبل وجهها ، صار يبدو وكأنه نسلات الذرة الصفراء ، وعينا الفهدة الحميلتان ماعادتتا تلمعان ببريقهما القديم رغم روعة الغضب فيهما . وكان قرارها برفض الاستمرار في الحياة يظهر في كل حركة من حركاتها . ورغم اقلاعها منذ سنوات طويلة عن عادة التدخين ، سواء وهي محبوسة في الحمام او في أي مكان آخر ، فقد عادت اليه مجددا بشكل علني وبشراهة لا كابح لها . وبدأت أول الامر بتدخين سجائر تلفها بنفسها ، كما كانت تحب ان تفعل من قبل ، ثم أخذت تدخن الانواع العادية التي تجدها في المتجر ، لانها لم تعد تجد متسعا من الوقت والصبر لللف السجائر .

لوان أي رجل آخر كان في موقع فلوريتينو اريثا لتساءل ما الذي سيقدمه المستقبل لشيخ مثله ، اعرج ومكوي الظهر بقروح كقروح حمار ، ولا امرأة لا تتوق لسعادة اخرى سوى الموت . أما هو فلم يتساءل . بل وجد بصيصاً من الأمل مابين انقراض الكارثة ، وبداله ان نكبة فيرمينا داثا تجعلها أعظم شأناً ، والغضب يجعلها أجمل ، والحقد على العالم قد أعاد اليها طبعها الجموح الذي كانت عليه وهي في العشرين من العمر .

كان لديها الان سبب آخر للاعتراف بجميل فلوريتينو اريثا . فقد بعث على اثر المقالات الشنيعة برسالة نموذجية الى العدالة حول مسؤولية الصحافة الاخلاقية ودورها في احترام

شرف الآخرين . لم تنشر الصحيفة الرسالة ، لكن الكاتب بعث بنسخة منها الى ديار يودل كوميرثو، أقدم صحف ساحل الكاريبي واكثرها جدية ، فأبرزتها هذه على صفحتها الاولى . كانت الرسالة تحمل توقيع جويتر ، وكانت عقلانية ولاذعة ومتقنة ، مما حمل البعض لنسبتها الى بعض ابرز كتاب لمقاطعة . كانت صوتاً منفرداً وسط الاقيانوس ، لكنه سمع بعمق ووصل بعيداً جداً . وعرفت فيرمينا دائماً هوية الكاتب دون ان يخبرها أحد بذلك ، لانها تعرفت على بعض الافكار، بل وعلى جملة حرفية ، من تأملات فلورينتينو اريثا الاخلاقية . ولذا ، فقد استقبلته بحيوية في فوضى يأسها . وفي هذه الفترة بالذات ، وجدت اميركا فيكونيا نفسها وحيدة في مساء احد الايام في غرفة النوم بيت شارع لاس فينتاناس ، واكتشفت دون أي بحث ، وبمحض الصدفة ، في خزانة بلا مفاتيح ، نسخاً من تأملات فلورينتينو اريثا المطبوعة على الالة الكاتبة ، ورسائل فيرمينا دائماً المكتوبة بخط اليد .

ابتهج الدكتور اوربينودا لتجدد الزيارات التي ترفع كثيراً من معنويات امه . وكان بذلك على عكس اخته اوفيليا ، التي رجعت في أول سفينة فواكه قادمة من نيو اورليانز فور سماعها باخبار الصداقة الغريبة التي تقيمها فيرمينا دائماً مع رجل ، سمعته الاخلاقية ليست على ما يرام . وقد تسبب هياجها بنشوب أزمة منذ الاسبوع الاول ، حين لاحظت درجة الالفة والسلطة التي يدخل بها فلورينتينو اريثا الى البيت ، والوشوشات والنزاعات العابرة الشبيهة بوشوشات ونزاعات خطيين وذلك اثناء زيارته التي تمتد حتى ساعة متأخرة من الليل . وما كان يراه الدكتور اوربينودا تألفاً صحيحاً بين عجوزين متوحدين ، كانت ترى فيه أسلوباً مريباً في اتخاذ خليل سري . هكذا كانت اوفيليا اوربينودوماً ، اقرب شبها بدونيا بلانكا جدتها لابيها ، منها لامها . فهي مترفة مثل جدتها ، ومتعجرفة مثلها ، وتعيش مثلها على الاوهام . ما كانت قادرة على تصور صداقة بريئة تجمع بين رجل وامرأة حتى ولو كانا في الخامسة من العمر ، فكيف اذا كانا في الثمانين . وفي احدى نزاعاتها المعتادة مع اخيها ، قالت ان الشيء الوحيد المتبقي لكي يواسي فلورينتينو اريثا به امها هو ان ينام معها في سريرها كأرملة . ولم تكن لدى الدكتور اوربينودا الشجاعة لمواجهة ، لانه لم يكن يمتلك الشجاعة امامها يوماً ، لكن زوجته تدخلت بتبرير جدي حول الحب في أي سن كان . ففقدت اوفيليا صوابها وصرخت بها :

- ان الحب في سنا شيء مضحك ، أما في سنها فهو قذارة خنازير .

وقررت في حدة اندفاعها ان تطرد فلورينتينو اريثا من البيت ، ووصل هذا الى سمع فيرمينا دائماً . فاستدعتها الى حجرة النوم ، كما تفعل كلما ارادت الحديث في أمر لا تريد ان تسمعه الخادومات ، وطلبت منها ان تعيد أمامها ما قالته من شتائم . ولم تحاول اوفيليا ان تخفف

من قسوتها : كانت موقنة ان فلورينتينو ارثا ، بسمعته الفاسدة التي لا تخفى على أحد ، انها يريد الوصول إلى علاقة آثمة ، ستشوه اسم العائلة الطيب اكثر مما شوهته اساءات لورينتو داثا ومغامرات خوفينال اوريننو الغبية . استمعت اليها فيرمينا داثا دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بل ودون ان ترمش ، ولكنها حين انتهت من الاستماع كانت قد تحولت إلى امرأة اخرى . . كانت قد عادت إلى الحياة ، فقالت لها :

- الشيء الوحيد الذي يؤلمني هو انني لا أملك القوى لضربك الضرب الذي تستحقين ، لوقاحتك وخيبت نيتك . ولكنك ستخرجين الآن من هذا البيت ، وأقسم لك برفات أمي انك لن تدخله ما دمت على قيد الحياة .

لم تكن هنالك من قوة قادرة على ثنيها عن قرارها . فذهبت اوفيليا للإقامة في بيت اخيها ، وبعثت من هناك بكل انواع التوسلات عبر وسطاء من الاعيان . ولكن دون جدوى . فلا وساطة الابن ولا تدخل الصديقات استطاع ثنيها . ثم انها أطلقت اخيراً أمام كنتها التي كانت تربطها بها دائماً علاقة بعيدة عن الرسميات ، سرّاً باحت به بطلاقة كطلاقتها في سنوات شبابها : « منذ قرن من الزمان أفسدوا حياتي مع هذا الرجل المسكين لاننا كنا ما نزال صغيرين ، وها هم يريدون افسادها الآن ثانية لاننا أصبحنا عجوزين » . ثم أشعلت سيجارة من عقب الأخرى ، ونفثت السم الذي كان ينخر جوفها قائلة :

- فليذهبوا الى الخراء . ان كان لنا نحن معشر الأرامل من مكسب ، انه لم يعد هناك من يأمرنا .

لم يكن للصلح من مكان . وحين اقتنعت اوفيليا اخيراً بعدم جدوى جميع المحاولات ، رجعت إلى نيواورليانز . والشيء الوحيد الذي استطاعت التوصل اليه مع امها هو ان تودعها . ووافقت فيرمينا داثا على ذلك بعد توسلات كثيرة ، لكنها لم تسمح لها بالدخول إلى البيت : لقد أقسمت على ذلك بعظام أمها ، التي كانت بالنسبة لها ، في تلك الايام الغائمة ، الشيء الوحيد الذي بقي طاهراً .

في إحدى زياراته الأولى ، واثناء الحديث عن سفنه ، وجه فلورينتينو ارثا دعوة رسمية لفيرمينا داثا لتقوم برحلة استجمام عبر النهر . حيث يمكنها من هناك الوصول ، بعد يوم واحد في القطار ، إلى عاصمة الجمهورية ، التي ما زال ، مثلهم كمثل معظم الكاريبيين من ابناء جيلهم ، يطلقون عليها الاسم الذي كانت تحمله حتى القرن الماضي : سانتافي . لكنها كانت تحتفظ بوجهة نظر زوجها ولا تريد معرفة مدينة باردة وقائمة حيث النساء لا يخرجن من بيوتهن إلا إلى صلاة الخامسة ، ولا يستطعن الدخول إلى مقاهي بيع المشروبات ولا إلى الدوائر العامة ، كما قيل لها ، وحيث توجد في كل وقت زحمة جنازات في الشوارع ومطر خفيف متواصل

منذ سنوات البغلة ذات الحدوات . . انها أسوأ من باريس . ولكنها كانت تشعر بالمقابل بميل شديد إلى النهر، فهي تريد رؤية التماسيح تتشمس على الضفاف، وتريد الاستيقاظ في منتصف الليل على نواح الأطم الذي يشبه بكاء النساء، لكن فكرة القيام برحلة شاقة في هذه السن، اضافة إلى كونها أرملة ووحيدة، كانت تبدو لها امراً لا واقعياً.

كرر فلوريتينو اريثا الدعوة لها فيما بعد، حين كانت قد قررت الاستمرار في الحياة بدون زوجها، فبدت لها الفكرة حيثثا اكثر احتمالاً . ولكن بعد خلافها مع ابنتها، واحساسها بالمرارة للاهانات الموجهة الى ابيها، وحقدتها على زوجها الميت، وغضبها من تملاقات لوكريشيا دل ريال المنافقا، والتي اعتبرت لسنوات طويلة أفضل صديقاتها، أخذت تشعر بانها مجرد شيء زائد عن الحاجة في بيتها . وفي مساء أحد الأيام، وفيما هي تشرب شرابها الخاص المحضر من أوراق شاي كونية، نظرت إلى مستنقع الفناء، حيث لم تعد تبرعم شجرة نكبتها، وقالت:

- ما أريده هو هجر هذا البيت، والانطلاق قدماً، قدماً قدماً، وعدم العودة اليه أبداً.

فقال فلوريتينو اريثا:

- اذهبي في سفينة نهرية.

نظرت اليه فيرمين داثا وهي ساهمة وقالت:

- يمكنك الاعتقاد بأن هذا وارد.

لم تكن قد فكرت بذلك لحظة واحدة قبل ان تنطق به، ولكن مجرد ورود الاحتمال كان كافياً لاعتبار الامر ناجزاً . وقد سر الابن والكنة حين علما بالخبر . وسارع فلوريتينو اريثا ليؤكد ان فيرمينا داثا ستكون ضيفة شرف على سفنه، وستجد تحت تصرفها قمرة مجهزة بكل شيء وكأنها في بيتها، وستكون الخدمة على اكمل وجه، وسيكلف القبطان بالذات حمايتها والسهر على راحتها . وجاء بخرائط تبين خط سير الرحلة ليشجعها، وبطاقات بريدية لمناظر غروب هائلة، وقصائد شعرية عن جنة نهر مجدلينا البدائية كتبها رحالة مشهورون، أو انهم أصبحوا مشهورين لروعة القصيدة . فكانت تلقي عليها نظرة عابرة حين يكون مزاجها رائقاً وتقول له:

- ليس عليك ان تخدعني كما لو انني طفلة . اذا كنت أريد الذهاب فلانني قررت ذلك،

وليس اهتماماً بالمناظر العليعية .

وحين اقترح ابنها باز، تذهب زوجته معها لمراقبتها، قاطعته بلهجة مسالمة : «لقد كبرت ولم أعد بحاجة لمن يرعاني» . وربت بنفسها تفاصيل الرحلة . وكانت تشعر براحة كبيرة لفكرة انها ستمضي ثمانية أيام في صعود النهر وخمسة أيام في نزوله دون ان تحمل معها شيئاً باستثناء

الحاجات التي لا غنى عنها : نصف دزينة من الفساتين القطنية ، وادوات زينتها ونظافتها ، وزوج من الاحذية للضعود به إلى السفينة وللنزول إلى البر ، ونعال بيتي لاستخدامه اثناء الرحلة ، ولا شيء آخر... انه حلم حياتها.

في شهر كانون الثاني لعام ١٨٢٤ ، قام الريان خوان برناردو البيرس ، مؤسس الملاحة النهرية ، برفع راية السفينة البخارية الأولى التي نخرت مياه نهر مجلينا ، وقد كانت آلة بدائية بقوة اربعين حصاناً ، تدعى وفاء . وبعد مرور اكثر من قرن ، في السابع من تموز ، وفي الساعة السادسة مساء ، رافق الدكتور اورينودا داثا وزوجته ، فيرمينا داثا لتركب السفينة التي ستحملها في رحلتها الأولى عبر النهر . وكانت تلك السفينة هي الاولى التي جرى بناؤها في احواض بناء السفن المحلية ، وقد عمدتها فلوريتينو اريثا باسم وفاء الجديدة تخليداً للذكرى سلفتها المجيدة . ولم تستطع فيرمينا داثا ان تصدق ابداً بان ذلك الاسم ذا المغزى الشديد هو مجرد مصادفة تاريخية حقاً ، وليس ظرافة اخرى من ظرافات فلوريتينو اريثا ، الرومنسي الزمن .

وعلى خلاف جميع السفن النهرية الاخرى ، القنديمة منها والحديثة ، كان في وفاء الجديدة ، والى جانب قمرة القبطان ، قمرة اضافية واسعة ومريحة ، مكونة من صالة استقبال مؤثثة بمفروشات من البامبو الملون بألوان احتفالية ، ومخدع زوجي مزخرف بكامله بزخارف صينية ، وحمام فيه حوض بانيوودوش ، وشرفة مغلقة وفسحة جداً ، فيها نباتات زينة معلقة وتسمح بالرؤية إلى أمام السفينة وجانبيها ، ومزودة باجهزة تبريد صامتة تحافظ على الجوفي ربيع دائم بعيداً عن القيظ المتقد في الخارج . كان هذا الجناح الفاخر يعرف باسم قمرة الرئاسة ، لان ثلاثة من رؤساء الجمهورية سافروا فيه حتى ذلك الحين ، ولم يكن لهذه القمرة اي غرض تجاري ، بل كانت مخصصة للسلطات العليا والضيوف الخاصين جداً . وقد بناها فلوريتينو اريثا لهذا الغرض المعلن فور تعيينه رئيساً لشركة الكاريبي للملاحة النهرية ، لكنه كان متأكداً في دخيلته من انها ستكون عاجلاً أو آجلاً الملجأ السعيد لرحلة زفافه مع فيرمينا داثا .

وفعلاً جاء اليوم المنتظر ، واتخذت موقعها في القمرة الرئاسة كربة وسيدة للمكان . وقدم القبطان فروض التشريف للدكتور اورينودا داثا وزوجته ولفلوريتينو اريثا بالشمبانيا والسلمون المدخن . كان اسمه ديغوساماريتانو ، وكان يرتدي بدلة من الكتان الابيض ، محكمة على مقاسه تماماً ، من الخذاء وحتى القبعة التي تحمل شعارش . ك . م . ن مطرزاً بخيوط ذهبية ، وكان يشبه غيره من قباطنة السفن النهرية بضخامته التي كضخامة اشجار الشيا ، وبصوته الحازم وحركاته التي كحركات كردينال فلورنسي .

في الساعة السابعة ليلاً أطلقت أولى اشارات الابحار، واحست بها فيزمينا داثا تدوي بالم حاد في اذنها اليسرى. لقد حلمت في الليلة السابقة أحلاماً مثلمة ذات نذر مشؤومة لم تتجراً على تفسيرها. ومنذ الصباح الباكر ذهبت إلى مدفن المجمع الاكليريكي الذي صار يعرف باسم مقبرة لامانغا، وصالحت زوجها الميت، وهي واقفة أمام قبره، وذلك بمنولوج أطلقت فيه العنان للومها العادل الذي كانت تغص به. ثم روت له تفاصيل الرحلة، وودعته متمنية اللقاء به قريباً. لم تشأ ان تخبر أحداً آخر بانها ذاهبة، وذلك ما كانت تفعله كلما سافرت إلى اوروبا، لتحول دون الوداعات المنهكة. ورغم رحلاتها الكثيرة، فقد أحست وكأن هذه هي رحلتها الاولى، وكان قلقها يتزايد كلما تقدم النهار واقترب الموعد. وحين أصبحت على متن السفينة، أحست بالهجران والكآبة، ورغبت بالبقاء وحيدة لتبكي.

عند انطلاق اشارة الابحار الاخيرة، ودعها الدكتور اوربينوداثا وزوجته دون دراماتيكية، ورافقهما فلوريتتينواريثا إلى جسر النزول إلى البر. حاول الدكتور اوربينوداثا ان يفسح له الطريق ليمشي وراء زوجته، ولكنه انتبه حينئذ فقط إلى ان فلوريتتينواريثا ذاهب في الرحلة أيضاً. ولم يستطع الدكتور اوربينوداثا السيطرة على حيرته، فقال:

.. ولكننا لم نتحدث في هذا من قبل.

اراه فلوريتتينواريثا، مفتاح قمرته كدليل كاف على حسن نواياه: قمرة عادية في جناح المسافرين العاديين. ولكن الدكتور اوربينوداثا لم يرف في ذلك دليلاً كافياً على البراءة. فاتجه الى زوجته بنظرة غريق، باحثاً عن نقطة استناد لحيرته، ولكنه التقى بعينين ثلجيتين. وقالت له بصوت خافت جداً، وحازم في الوقت ذاته: «وأنت أيضاً؟» أجل. هو أيضاً، مثل اخته اوفيليا، يفكر ان للحب سناً معيناً يصبح بعده امراً غير لائق. لكنه استطاع السيطرة على نفسه في الوقت المناسب، وودع فلوريتتينواريثا شاداً على يده بحركة فيها من الاذعان اكثر مما فيها من الشكر.

رأهما فلوريتتينواريثا ينزلان من السفينة وهو واقف عند درابزين الصالة. تماماً كما كان ينتظر ويأمل، والتفت الدكتور اوربينوداثا وزوجته بنظرهما اليه قبل ان يدخلوا السيارة، فودعهما ملوحاً بيده. وردا عليه بتحية مماثلة. وبقي عند الدرابزين إلى ان اختفت السيارة وسط غبار باحة الشحن، ثم مضى إلى قمرته ليرتدي ملابس اكثر ملائمة للعشاء الأول على متن السفينة، في صالة الطعام الخاصة بالقبطان.

كانت ليلة رائعة، تبليها القبطان ديغوساماريتانو بحكايات لذيذة عن سنواته الاربعين في النهر، لكن فيرمينا داثا اضطرت للقيام بمجهود كبير لتبدو سعيدة. ورغم انطلاق صفارة التنبيه الاخيرة في الساعة الثامنة، ورغم انزال الزائرين ورفع جسر النزول في هذه الساعة

أيضاً، فإن السفينة لم تنطلق إلى أن انتهى القبطان من تناول طعامه وصعد إلى مركز القيادة ليشرف على مناورة الخروج من الميناء. بقيت فيرمينا داثا وفلوريتينو اريثا يتطلعان من فوق درابزين الصالة العامة، مختلطين مع المسافرين الصاخحين الذين كانوا يلعبون لعبة تميز أضواء المدينة، إلى أن خرجت السفينة من الميناء، وولجت قنوات لامرئية ومستنقعات مبرقة بانوار متموجة تنبعث من زوارق الصيادين، وشجرت أخيراً ملء رئتها في الهواء الطلق لنهر مجدلينا العظيم. حينئذ انطلق الفرقة الموسيقية في عزف مقطوعة شعبية دارجة، وهيمنت على المسافرين موجة من المرح، وبدأ الرقص الصاخب.

فضلت فيرمينا داثا اللجوء إلى القمرة. لم تكن قد نطقت بأية كلمة خلال الليل، وقد تركها فلوريتينو اريثا تتيه في تأملاتها، ولم يقاطعها إلا ليودعها أمام قمرتها. لكنها لم تكن تشعر بالنعاس، وإنما بشيء من البرد فقط، واقترحت أن يجلسا قليلاً ليراقبا النهر معاً من الشرفة الخاصة. فسحب فلوريتينو اريثا كرسيين خيزرانيين إلى الشرفة، وأطفأ الأنوار، ووضع لها بطانية صوفية على كتفها، وجلس إلى جانبها. لفت سيجارة من العلبة التي أهداها إياها. لفتها بمهارة مذهلة، ودخنتها ببطء واضعة الجمر في فمها، دون أن تتكلم، ثم لفت سيجارتين أخريين متتاليتين وخدنتهما دون توقف. وشرب فلوريتينو اريثا ترمسين من القهوة المرة رشفة بعد أخرى.

كانت أضواء المدينة قد اختفت في الأفق. ومن خلال الشرفة المظلمة كان النهر المنبسط الساكن، ومرباع العشب على ضفتيه تبدو تحت ضوء القمر المكتمل بديراً وكأنها سهوب فوسفورية. وبين الحين والحين كان يظهر كوخ من القش إلى جانب محارق كبيرة يعلنون بها أنهم يبيعون هناك حطباً لمراجل السفن. كان فلوريتينو اريثا يحتفظ بذكريات غائمة عن رحلته النهرية في شبابه، ولكن مرأى النهر جعله يستعيد في دقائق مبهرة كما لو أنها حدثت بالأمس. روى بعضاً من تلك الذكريات لفيرمينا داثا معتقداً أن ذلك قد يثبت فيها الحماس، لكنها كانت تدخن في عالم آخر. فتخلّى فلوريتينو اريثا عن ذكرياته وتركها وحيدة مع أفكارها، وكانت أثناء ذلك تلف السجائر وتشعلها إلى أن نفدت العلبة. توقفت الموسيقى بعد منتصف الليل، وتلاشى صخب المسافرين، ثم تحول إلى همسات هاجعة، وبقي القلبان وحدهما في الشرفة المظلمة يعيشان إيقاع أنفاس السفينة.

بعد مرور بعض الوقت، نظر فلوريتينو اريثا إلى فيرمينا داثا من خلال بريق النهر، فرآها طيفية، ورأى بروفيل وجهها الذي كتمثال يصبح أكثر حلاوة تحت البريق الأزرق الخفيف، وانتبه إلى أنها كانت تبكي بصمت. ولكنه بدلاً من مواساتها، أو الانتظار إلى أن تنفد دموعها، كما كانت ترغب هي، سمح للقلق بأن يداهم، فسأها:

- اتودين البقاء وحدك ؟

قالت :

- لو كنت اريد ذلك لما طلبت منك الدخول.

عندئذ مد أصابعه الباردة في الظلام، ويبحث باللمس عن اليد الاخرى، ووجدتها بانتظاره. لقد كانا يتمتعان، في اللحظة السريعة ذاتها بما يكفي من الصحو ليدركا أن أياً من أيديهم لم تكن هي اليد التي تخيلاهما قبل ان يلمساها، وانما كانتا يدين هرمتين معروقتين. ولكنها ما لبثتا ان أصبحتا كما أرادا في اللحظة التالية. بدأت تحدث في الزمن الحاضر، عن زوجها الميت، وكأنه ما يزال حياً، وعرف فلوريتينو اريثا انه قد ازفت بالنسبة لها أيضاً لحظة انتساؤل بوقار وعظمة، ورغبة جامحة في الحياة، ما الذي تفعله بالحب الذي بقي لديها دون سيد.

توقفت فيرمينا داثا عن التدخين كي لا تفلت يدها التي كان يمسكها بيده. كانت تائهة في قلق البحث عن الوعي. ما كانت قادرة على تصور زوج أفضل من ذاك الذي كان زوجها، ولكنها كانت تجد العراقيل بدلاً من السهولة في استحضار حياته، كانت تجد كثيراً من سوء الفهم المتبادل والتزاعات الجوفاء، والاحقاد التي فضت على غير ما يرام. وتنهدت فجأة : «لا أستطيع ان أصدق كيف يمكن للانسان ان يكون سعيداً خلال سنوات طويلة، وسط كل هذه الخلافات، وكل هذه المشاكل، اللعنه، وكل ذلك دون ان نعرف ان كان هذا حباً أم لا». وعندما انتهت من التفريغ عن قلبها، أطفأ أحد القمر. كانت السفينة تتقدم بخطواتها المحسوبة، واضحة قدماً قبل ان ترفع الاخرى: كحيوان ضخم يترصد. وكانت فيرمينا داثا قد افاقت من ذهولها. فقالت :

- انصرف الآن.

ضغط فلوريتينو اريثا على يدها، ومال نحوها، محاولاً تقبيل وجنتها. لكنها أعرضت عنه قائلة بصوت أبح ورقيق :

- لا، ما عاد هذا ممكناً. ان لي رائحة عجوز.

أحست به يخرج في الظلام، وأحست بوقع خطواته على الادراج، وأحست باختفائه عن الوجود حتى اليوم التالي. أشعلت فيرمينا داثا سيجارة اخرى، وفيما هي تدخنها رأت الدكتور خوفينال اورينسوبملا بسه الكتانية الناصعة، وصرامته المهنية، ولطفه المبهر، وحبه الرسمي، وأشار لها مودعاً بقبعته البيضاء من سفينة اخرى من الماضي. «لسنا نحن معشر الرجال سوى عبيد مساكين للوهم. أما حين تقرر امرأة مضاجعة أحد الرجال، فليس هناك من حاجز إلا وتجتازه، لا حصن إلا وتحطمه، ولا اعتبار أخلاقي إلا وتكون مستعدة لخرقه من اساسه :

وليس ثمة رب ينفع . « هذا ما قاله لها في احد الأيام . وبقيت فيرمينا د ثا جامدة حتى الفجر، تفكر بفلوريتتينواريثا، ليس كحارس كتيب في حديقة البشارة لا تثير ذكرها فيها أي حين، وانما كما هو حينئذ، عجوز وأعرج، ولكنه واقعي : انه الرجل الذي كان رهن اشارتها دوماً ولم تستطع التعرف اليه . وفيما السفينة اللاهثة تسحبها نحو بريق الازهار البدائي ، كانت تدعو الله ان يلهم فلوريتتينواريثا ليعرف كيف يبدأ ثانية في اليوم التالي .

وقد عرف . كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للجرسون بان يتركها نائمة إلى ان تستيقظ من تلقاء نفسها . وحين استيقظت وجدت على الكوميدينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة ، ما تزال مضمخة بالندى ، ومعها رسالة من فلوريتتينواريثا مؤلفة من الصفحات التي استطاع كتابتها مذ ودعها . كان رسالة هادئة ، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي عاشها منذ الليلة الماضية . . وكانت شديدة الغنائية كرسائله الاخرى ، وخطابية مثلها جميعها ، ولكنها مستندة الى الواقع . قرأتها فيرمينا داثا ببعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة . وكانت الرسالة تنتهي بالطلب اليها ان تخبر الجرسون حين تكون جاهزة ، لان القبطان ينتظرهما في مركز القيادة لشرح لهم سير العمل في السفينة .

في الساعة الحادية عشر كانت جاهزة ، مستحمة ومنتعشة بالصابون الذي له رائحة ازهار، ومرتدية فستان ارملة رمادي اللون وشديد البساطة ، موفرة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية . طلبت فطوراً بسيطاً من الجرسون الذي يرتدي ملابس ببضاء ناصعة ، ويعمل في خدمة القبطان شخصياً ، لكنها لم تبعث اليهم كي يحضروا لمرافقتها . صعدت وحدها ، مبهورة بالسما الصافية ، ووجدت فلوريتتينواريثا يتحدث إلى القبطان في مركز القيادة . بدا لها مختلفاً ، ليس لانها رأتها بعينين اخريين حينئذ ، وانما لانه كان مختلفاً بالفعل . فبدلاً من الملابس الجنائزية الي ارتداها طوال حياته ، كان يتعل حذاء ابيض ويرتدي بنطالاً وقميصاً من الكتان مفتوحاً عند العنق واكمامه قصيرة وعلى جيبه الذي فونى الصدر نقش الحروف الأولى من اسمه . وكان يعتمر قبعة اسكتلندية ، ببضاء اللون يضاً ، ويضع نظارة ذات عدسات قائمة فوق نظارة قصر النظر الازلية . وبما لاشك فيه ان كل ذلك كان يستخدم للمرة الأولى ، وانه اشتراه من اجل الرحلة ، باستثناء حزام الجلد البني العتيق ، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الأولى وكأنه ذبابة في طبق الحساء . حين رآته على هذا الحال ، مرتديا ملابس متميزة من أجلها ، لم تستطع منع تورد ناري من الصعود إلى وجنتيها . وانبهرت عند مصافحته ، وانبهروا اكثر لانبهارها . وادراكها بانها يتصرفان كخطيبين زاد من انبهارهما ، ووعيهما بانها منبهرين كليهما أبهرهما إلى الحد الذي جعل القبطان ساماريتانو يلاحظ ذلك بارتعاشة حب . وأخرجهما من الحرج بان شرح لهما مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة

خلال ساعتين . كانوا يحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف ، يتبدد بين كثبان رملية قاحلة حتى الافق . وعلى عكس مياه المصب العكرة ، كانت تلك المياه بطيئة وصافية ، ولها بريق معدني تحت الشمس الحارقة . وأحست فيرمينا داثا بان المكان هو دلتا تتخللها جزر رملية . فقال لها القبطان :

- هذا ما تبقى لنا من النهر .

لقد فوجيء فلوريتينواريثا حقاً بالتبدل الذي أصاب النهر ، وازدادت مفاجأته في اليوم التالي ، حين أصبح الابهجار أصعب ، ورأى ان النهر الأب ، نهر مجدلتنا ، أحد الأنهار الكبرى في العالم ، ليس إلا وهماً من اوهام الذاكرة . واخبرهما القبطان ساماريتانوان عمليات قطع الغابات اللاعقلانية قد قضت على النهر خلال خمسين سنة : فمراجل السفن التهمت غابات الاشجار الضخمة المتشابكة التي أحسها فلوريتينواريثا تثقل على انفاسه في رحلته الاولى . وأفنى صيادو جلود الدباغة القادمين من نيواورليانز التماسيح التي كانت تتظاهر بالموت واشداقها مفتوحة لساعات وساعات فوق رمال الضفاف لتقتنص الفراشات ، بينما راحت تموت البيغاوات ذات الرطانة الغريبة والقروود ذات الصرخات المجنونة كلما تناقصت الغابات ، بينما كانت الاطم التي ترضع صغارها من اثدائها الامومية وتبكي بأصوات كأصوات النساء الثكالى على الضفاف هي الصنف المفضل لرصاص صيادي المتعة .

كان القبطان ساماريتانويشعر نحو الاطم بعاطفة شبه امومية ، لانه كان يرى فيها سيدات مسخن لخطيئة حب اقترفنها ، وكان يؤمن بصحة الاسطورة القائلة بانها الاناث الوحيدة التي لا ذكور لها في مملكة الحيوان . وكان يعارض دوماً اطلاق النار عليها من سفينته ، كما هي العادة ، رغم وجود قوانين تحظر ذلك . وقد رفض صياد من كارولينا الشمالية ، يحمل وثائق نظامية ، الرضوخ لتعليماته يوماً ، وهشم رأس أطومة أم بطلقة صائبة من إنسدقيته السبرينغفيلد ، وبقي الوليد الذي أطار الألم صوابه يبكي صارخاً فوق جثة امه الممددة فحمل القبطان الأطوم اليتيم ليتدبر له مخرجاً ، وترك الصياد مهجوراً على الشاطئ المقفر إلى جوار جثة الأم المقتولة . وقد أمضى ستة اشهر في السجن ، بفعل الاحتجاجات الدبلوماسية ، وكاد يفقد تصريح عمله كبشار ، لكنه خرج من السجن وهو مستعد لتكرار ما فعله كلما اقتضى الأمر منه ذلك . وقد كان ذلك الحادث حدثاً تاريخياً : فالأطوم اليتيم ، الذي رُعي وعاش لسنوات طويلة في حديقة الحيوانات النادرة في سان نيكولا دي لاس بارانكاس ، كان الأطوم الاخير الذي شوهد في النهر .

قال القبطان :

- كلما مررت من هذا الشاطئ ، أدعو الله ان يعود ذلك الامريكي للابهجار في سفينتي ،

كي اتركه وحيداً من جديد .

فيرمينا داثا، التي لم تكن تستلطفه أول الأمر، أحست بعيل شديد نحو ذلك المارد الرقيق، وانزلته منذ ذلك الصباح في مترلة متميزة من قبلها . وقد أحسنت صنعاً بذلك : فالرحلة لم تكد تبدأ بعد، وستجد مناسبات كثيرة لتأكد من انها لم تكن مخطئة .

بقيت فيرمينا داثا مع فلوريتينو اريثا في مركز القيادة حتى موعد الغداء، بعد قليل من مرورهما قبالة بلدة كالامار، التي كانت تعيش منذ بضع سنوات في عيد دائم، ولم تعد الآن سوى اطلال ميناء شوارعها مقفرة . الكائن الوحيد الذي رأوه من السفينة، هو امرأة متشحة بالبياض تلوح بمنديل في يدها . ولم تفهم فيرمينا داثا لماذا لم يحملوها في السفينة، مع انها كانت تبدو مغمومة جداً، ولكن القبطان أوضح لها بانها شبح امرة غارقة تلوح للمراكب باشارات مخادعة لتحرفها نحو الدوامات المائية الخطرة عند الضفة الاخرى . ولقد مروا قريباً جداً منها حتى ان فيرمينا داثا رأتها بكل تقاطيعها، واضحة تماماً تحت الشمس، ولم ترتب في انها غير موجودة حقاً، لكن وجهها بدا لها مألوفاً .

كان يوماً طويلاً وقائظاً . وقد رجعت فيرمينا داثا إلى القمرة بعد الغداء، لتنام قيلولتها المعتادة، لكنها لم تنم نوماً مريحاً بسبب ألم اذنها، الذي اشتد بعد ان تبادلت السفينة تحية قوية مع سفينة اخرى تابعة لشركة الكاريبي للملاحة النهرية التقت بها على بعد عدة فراسخ من بارانكا بيبخا . قطع فلوريتينو اريثا حليماً عابراً وهو جالس في الصالون الرئيسي، حيث ينام معظم المسافرين كما لو كان الوقت منتصف الليل . حلم بروسالبا، قريباً جداً من المكان الذي رآها تنزل فيه من السفينة إلى البر . رآها في حلمه تسافر وحدها، بملايس من القرن الماضي، وكانت هي، وليس الطفل، تنام القيلولة في قفص الخيزران المعلق على حافة جانب السفينة . كان حليماً غامضاً ومسلماً في الوقت ذاته، وبقي يعيش متعته طوال ما بعد الظهر، حين كان يلعب الدومينو مع القبطان واثنين من المسافرين .

كان الحر يحمد مع غروب الشمس، فتنبعث الحياة في السفينة يخرج المسافرون كما لو كانوا يخرجون من سبات طويل، وقد استحموا وارتدوا ملايس نظيفة، ويحتلون مقاعد الخيزران في الصالة بانتظار العشاء، الذي يعلن عنه في الخامسة تماماً جرسون يذرع السفينة من طرف إلى آخر وهو يقرع وسط التصفيق الساخر جرس شماس . وفيما هم يأكلون، تبدأ الفرقة بعزف موسيقى فاندانغو الراقصة، ويستمر الرقص بعد ذلك حتى منتصف الليل .

لم تشأ فيرمينا داثا العشاء بسبب ألم اذنها، وتفرجت على تحميل شحنة الخطب الأولى للمراجل، وذلك في وهدة جرداء حيث لاشيء سوى جذوع مكومة، ورجل عجوز جداً يشرف على تلك التجارة . لم يكن يبدو ان هناك أحداً على مدى فراسخ كثيرة . ولقد كان

التوقف بالنسبة لفيرمينا داثا بطيئاً ومملاً ، وغير وارد في عابرات المحيط الاوروبية ، وكان الحر شديداً حتى داخل الشرفة المبردة . ولكن حين انطلقت السفينة من جديد ، تحركت ريح باردة محملة بروائح بطن الغابة ، وأصبحت الموسيقى اكثر مرحاً . وفي بلدة سيتيونويغو ، كان ثمة ضوء وحيد ينبعث من نافذة وحيدة في بيت وحيد ، ولم يعط مكتب الميناء الاشارة الاصطلاحية بوجود بضائع أو مسافرين لحملهم في السفينة ، لذلك تابعت السفينة قدماً دون ان تطلق صفارة تحية .

كانت فيرمينا داثا قد أمضت طوال ما بعد الظهر متسائلة عن الذرائع التي سيلجأ اليها فلوريتينو اريثا ليراها دون أن يقرع باب القمرة ، ولم تعد عند حلول الليل قادرة على احتمال شوقها للقاءه . فخرجت إلى الممر على أمل اللقاء به بشكل يبدو عرضياً ، ولم يكن عليها ان تمشي كثيراً : كان فلوريتينو اريثا يجلس على أحد مقاعد الممر ، صامتاً وحزيناً كما كان يجلس في حديقة البشارة ، وكان يسائل نفسه منذ اكثر من ساعتين ما الذي سيفعله ليراها . وابدى كلاهما سيئاً الدهشة والمفاجأة التي يتقنان تصنعها على حد سواء ، ومضيا معاً إلى القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى من سطح المركب ، وكان يغص بمسافرين شبان معظمهم من الطلبة الصاخبين الذين ينهكون انفسهم مع بعض القلق في الحفلة الاخيرة من الاجازة . وتناول فلوريتينو اريثا وفيرمينا داثا من الكانتين زجاجتي مرطبات وهما جالسان كالطلاب مقابل البار ، ورأت نفسها فجأة في موقف مخيف . وقالت : «يا للهول !» . وسألها فلوريتينو اريثا ما الذي تفكر به ويسبب لها هذا الانطباع . فقالت :

- بالعجوزين المسكينين ، اللذين قتلوا بضربات المجداف في القارب .

ومضيا للنوم عندما توقفت الموسيقى ، بعد محادثة طويلة دون عثرات في الشرفة المظلمة . لم يكن هناك قمر ، وكانت السماء ملبدة ، وفي الافق تلمح بروق بلا رعود فتضيئها لهيئة . لف فلوريتينو اريثا لها السجائر ، لكنها لم تدخن منها سوى اربع ، وهي تتعذب بالألم الذي كان يهدأ للحظات ثم ما يلبث ان يشتد حين تجار السفينة لدى لقاءها بسفينة اخرى ، أو مرورها مقابل قرية هاجعة ، أو حين تمضي ببطء لتسبر عمق النهر . روى لها كيف أنه كان يراها بشوق في مهرجانات الربيع ، وفي رحلة المنطاد ، وعلى الدراجة الاكروباتية ، وحدثها عن الشوق الذي كان ينتظر به الاحتفالات العامة طوال السنة ، وذلك ليراها فقط . وكانت هي تراه أيضاً في مناسبات كثيرة ، ولم تتصور يوماً بأنه موجود ليراها فقط . ومع ذلك ، فقد تساءلت فجأة حين قرأت رسائله قبل أقل من سنة ، كيف امكن له ألا يشارك أبداً في مسابقات مهرجان الزهور ، لانه كان سيفوز دون ريب . وكذب فلوريتينو اريثا عليها : لم يكن يكتب إلا لها ، جميع أشعاره لها ، ولم يكن يقرأها أحد سواه . حيثئذ بحثت هي عن يده في

الظلام ، ولم تجدها في انتظارها كما انتظرت هي يده في الليلة السابقة ، وانما امسكت بها بغتة .
فتجمد قلب فلوريتينو اريثا ، وقال :
- يا لغرابة النساء .

أفلتت ضحكة عميقة ، ضحكة يمامة فتية ، وعادت تفكر بشيخي القارب . لقد كان ذلك مقدرأ : وستلاحقها تلك الصورة دوماً . لكنها قادرة على احتماها هذه الليلة ، لانها تشعر بالطمأنينة والراحة ، كما شعرت مرات قليلة في حياتها : احست انها مطهرة من أي خطيئة . وكانت قادرة على ابقاء هكذا حتى الفجر ، صامته ، ويده تتعرق في يدها ، لكنها لم تستطع احتمال ألم اذننها . فحين انطفأت الموسيقى ، وتوقفت حركة مسافري الدرجة العادية الذين كانوا يعلقون اراجيح نومهم في الصالة ، أدركت ان ألمها أقوى من رغبتها في البقاء معه . كانت تعلم ان مجرد اخباره بألمها سيخفف عنها لكنها لم تفعل كي لا تقلقه . اذ كانت تشعر حينئذ بانها تعرفه كما لو انها عاشت معه حياتها كلها ، وكانت ترى انه لن يتورع عن اعطاء الامر بعودة السفينة إلى الميناء اذا كان هذا يخلصها من الألم .

أحس فلوريتينو اريثا ان الامور ستمضي هذه الليلة على هذا الحال ، فانسحب . وفيما هو عند باب القمرة ، حاول توديعها بقبلة ، لكنها وضعت له خدها الايسر . فاصر ، وقد تهدجت انفاسه ، فقدمت له خدها الآخر بغنج لم يعرفه في تلميذة مدرسة . وعندئذ أصر للمرة الثانية ، فتلقته بشفتيها ، وضمته برعشة عميقة حاولت خنقها بضحكة منسية منذ ليلة زفافها وقالت :

- رباه ، كم أنا مجنونة في السفن !

ارتعش فلوريتينو اريثا : فقد كانت تنبعث منها حقاً ، كما قالت ، رائحة الشيخوخة . ولكنه فيما كان يتقدم نحو قمرته شاقاً طريقه وسط متاهة اراجيح النائمين ، عزى نفسه بان له رائحة كتلك ، إلا انها اكبر بأربع سنوات ، ولا بد انها قد احستها بالانفعال نفسه . انها رائحة الخبائر البشرية التي أحسها في عشيقاته القديسات وأحسنها فيه . لقد قالت له أرملة ناثاريت ، التي لا تخفي شيئاً ، بطريقة فجأة يوماً : « ان رائحتنا أصبحت كرائحة طيور الرخمة » . وكان كلاهما يحتمل رائحة الآخر ، لانها كانا متساويين : رائحتي مقابل رائحتك . لكنه كان شديد الحذر مع اميركا فيكونيا ، فرائحة الاقمطة التي تنبعث منها كانت توظف غرائزه الامومية ، لكنه كان يتعذب لفكرة انها لا تستطيع احتمال رائحته : رائحة الشيخ المتصابي . غير أن هذا كله أصبح من الماضي . والمهم الآن هو ان فلوريتينو اريثا لم يشعر بسعادة كسعادته هذه الليلة منذ ذلك المساء الذي تركت فيه العمة اسكولاستيكا كتاب الصلوات على طاولة مكتب التلغراف . . . انها سعادة غامرة إلى حد يبعث فيه الخوف .

كان قد بدأ يغفو، حين ايقظه مراسل السفينة في الساعة الخامسة عند ميناء ثامبرانو ليسلمه برقية مستعجلة. كانت البرقية تحمل توقيع ليونا كسياني، وتاريخ اليوم السابق، وكل رعبها ضمته في سطر واحد: اميركا فيكونيا ماتت أمس. الاسباب غير معروفة. وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً عرف التفاصيل من خلال اتصال تلغرافي مع ليونا كاسياني، وقام هو نفسه بالعمل على جهاز الارسال كما لم يفعل منذ سنواته كعامل تلغراف. وعلم ان اميركا فيكونيا، التي وقعت ضحية احباط قاتل لرسوها في الامتحانات النهائية، شربت قنينة لودانوم سرقها من مستوصف المدرسة. كان فلوريتينو اريثا يعلم في اعماق روحه ان ذلك الخبر غير مكتمل. ولكن لا: فاميركا فيكونيا لم تترك اية ملاحظة تتيح القاء مسؤولية قرارها على أحد. كان أفراد عائلتها قد وصلوا من بويرتوبادري، بعد ان أعلمتهم ليونا كاسياني بالأمر، وسيتم الدفن في الخامسة مساءً. تنفس فلوريتينو اريثا الصعداء. فالشيء الوحيد الذي يستطيع عمله كي يستمر في الحياة هو ألا يسمح لنفسه بالعذاب في تلك الذكرى. يحا الأمر من ذاكرته، رغم انه سيشعر به ينبعث على نحو مفاجيء بين الحين والآخر في سنوات حياته الباقية. دون أي داع، وكأنه وخزة عابرة في جرح قديم مندمل.

كانت الأيام التالية حارة لا تطاق. وأصبح النهر عكراً وأخذ يضيق شيئاً فشيئاً، وبدلاً من الأشجار الضخمة المتشابكة التي أذهلت فلوريتينو اريثا في رحلته الأولى، كانت هناك بطاح كلسية، وبقايا غابات التهمت مراجل السفن؛ وانقاض قرى مهجورة لرحمة الله، ما زالت شوارعها غارقة في أزمنة الجفاف القاسية. ولم تكن توقظهم في الليل اغنيات عرائس الماء التي تغنيها الأطم على الضفاف، وانما روائح التناثنة المنبعثة من الجثث التي تمرطافية صوب البحر. لم تكن ثمة حروب ولا اوبئة، لكن الجثث المتفخة ما زالت تمرطافية. وقد كان القبطان متواضعاً لمرة واحدة: «لدينا اوامربان نقول للمسافرين بانها جثث غرقى». وبدلاً من رطانة البيغاوات وصخب القروء اللامرئية التي كانت تفاقم من احتدام حر الظهيرة في أزمنة اخرى، لم يبق سوى صمت الأرض الخراب.

كانت أماكن التحطيب المتبقية قليلة جداً، ومتباعدة أحدها عن الآخر، مما ابقى وفاء الجديدة بلا وقود بعد أربعة أيام من بدء الرحلة. وurst لمدة اسبوع تقريباً، إلى ان توغل أفراد الطاقم في المستنقعات الرمادية بحثاً عن آخر الاشجار المبعثرة. لم تكن هنالك أشجار اخرى: فالخطابون هجروا عملهم هرباً من قسوة ملاكي الاراضي، وهرباً من الكوليرا اللامرئية، وهرباً من الحروب الخفية التي تحاول الحكومات التستر عليها بمراسيم تشغل الناس عنها. واثناء ذلك، نظم المسافرون الضجرون مسابقات في السباحة، وحملات صيد، كانوا يعودون منها بعظاءات ضخمة حية يشقون صدورها ويعيدون خياطتها ثانية بابر تنجيد

بعد ان يستخرجوا منها عناقيد البيض البراقة الطرية، التي يعلقونها في سلاسل لتجف على حواف السفينة. واقتفت عاهرات القرى المجاورة البائسات أثر حملات الصيد، فنصبن خياماً مرتجلة عند ضفة النهر، وجئن بالموسيقى والخمر، وأقمن مهرجاناً مقابل السفينة المتوقفة.

قبل ان يصبح رئيساً لشركة الكاريبي النهرية بوقت طويل، كان فلوريتينو اريثا يتلقى تقارير مفزعة عن حالة النهر، لكنه لم يكن ليهتم بقراءتها. وكان يطمئن شركاءه: «لا تقلقوا، فحين ينتهي الخطب ستكون قد بنيت سفن تعمل بالترول». ولم يكلف نفسه يوماً مشقة التفكير بالأمر، لانه كان مبهوراً بهوى فيرمينا داثا، وحين وعى الحقيقة كان الوقت قد فات ولم يعد بإمكانه عمل شيء، اللهم إلا شق نهر جديد. في الليل وحتى في مواسم ارتفاع منسوب الماء، كان لابد من ربط السفن للنوم، وحيث يصعب مجرد كون المرء حياً أمراً لا يطاق. فيغادر معظم المسافرين، والاوربيين منهم بشكل خاص، عفونة القمرات ويقضون الليل سائرين على سطح السفينة، وهم يهشون جميع أنواع الهوام بالمناشف ذاتها التي يمسحون بها عرقهم المتواصل، ويدركهم الصباح وهم منهكون ومتورمون بلسع الحشرات. لقد كتب رحالة انكليزي في اوائل القرن التاسع عشر، مشيراً إلى الرحلة التي كانت تتم في الزوارق أولاً ثم على متن البغال، والتي كانت تدوم حتى خمسين يوماً، يقول: «انها من أسوأ الأسفار التي يمكن لانسان ان يقوم بها واكثرها مشقة». ولكن هذا التقدير لم يعد صحيحاً خلال ثمانين السنة الأولى من الملاحة البخارية، ثم عاد ليصبح كذلك وإلى الأبد، حين أكلت التماسيح آخر الفراشات، وانقرضت الأطم الامومية، واختفت البيغاوات، والقروود، والقرى: وانتهى كل شيء.

كان القبطان يقول ضاحكاً:

«لا وجود لأي مشكلة، فخلال بضع سنوات سندرع مجرى النهر الجاف في سيارات فاخرة.

احتمت فيرمينا داثا وفلوريتينو اريثا خلال الايام الثلاثة الأولى في كنف الشرفة المغلقة ذات الجواربيعي، ولكن جهاز التبريد بدأ يتوقف حين جرى تقنين الخطب، فتحولت القمرة الرئاسية إلى ما يشبه طنجرة الضغط. وكان الفضل في بقاء فيرمينا داثا على قيد الحياة خلال الليل يعود إلى الهواء النهرى الذي يدخل من النوافذ المفتوحة، فيما هي مهش البعوض بالمنشفة، لان مضخة المبيد الحشري كانت بلا جدوى اثناء توقف السفينة. وأصبح ألم اذنها لا يطاق، لكنه توقف تماماً عند استيقاظها في صباح أحد الايام فجأة، كما يتوقف غناء زيز منفجر. ولكنها لم تدرك حتى حلول الليل انها فقدت السمع باذنها اليسرى، وذلك حين كلمها فلوريتينو اريثا من هذه الجهة، فاضطرت لان تلتفت برأسها كي تسمع ما يقوله. لم

تخبر أحداً بذلك، مؤمنة بان الأمر ليس سوى نقيصة أخرى لامناص منها من نقائص التقدم في السن.

لكن تأخر السفينة كان بالنسبة لهما محنة مباركة رغم كل شيء ولقد قرأ فلوريتينو اريثا ذلك يوماً : «ان الحب يصبح أعظم وأنبل في المحن». كانت رطوبة القمرة الرأسية تغرقهما في سبات لا واقعي يصعب الحب فيه دون اسئلة. كانا يعيشان ساعات لا يمكن تخيلها وهما يمسكان أحدهما بيد الآخر اثناء جلوسهما على مقاعد الشرفة، يتبادلان قبلاً بطيئة، وينعمان بنشوة المداعبات دون عراقيل الغضب. وفي ليلة السبات الثالثة، انتظرتة وقد هيأت زجاجة من خمر اليانسون، الذي كانت تشرب منه خفية مع عصبة ابنة خالها هيلديبراندا، ثم مع صديقات عالمها المستعار فيما بعد، حين تزوجت وصارت أمّاً. لقد كانت تحتاج لبعض النشوة كي لا تفكر في مصيرها بوعي تام، ولكن فلوريتينو اريثا ظن انها تريد بذلك الحصول على الشجاعة للاقدام على الخطوة الأخيرة، ومدفوعاً بهذا الوهم، تجرأ على التقدم برؤوس اصابعه لاستكشاف عنقها الداوي، وصدرها المصفح بأسياخ معدنية وردفيها العظميين المتآكلين، وفخذي الغزالة الهرمة. وتقبلت ذلك منتشية، بعينين مغمضتين، ولكن دون ان ترتعش، فيما هي تدخن وتشرب رشقات متباعدة من الخمر. واخيراً حين نزلت المداعبات إلى بطنها وأصبحت كمية الخمر في قلبها كافية، قالت :

- اذا كنا سنمارس المحامقات، فلنفعل؛ على ان يكون ذلك كأناس طاعنين في السن. قادتة إلى المخدع، وراحت تتعري دون خفر زائف تحت الانوار المضاءة. واستلقى فلوريتينو اريثا على ظهره فوق السرير، محاولاً استعادة السيطرة على نفسه، دون ان يدري ثانية ما الذي يفعله بجلد النمر الذي قتله. قالت له : «لاتنظر». فسألها لماذا دون ان يرفع نظره عن السقف الأملس.

فقالت :

- لانني لن أعجبك.

عندئذ نظر اليها، وراها عارية حتى وسطها، تماماً كما تخيلها. كان كتفاها مجعدين وثدياها متهدلين، وأضلاعها مغطاة بجلد شاحب وبارد كجلد ضفدع. غطت صدرها ببلوزتها التي انتهت من خلعها، وأطفأت النور. حيثئذ اعتدل في السرير وبدأ بخلع ملابسه في الظلام، قاذفا اياها بكل قطعة يخلعها من ثيابه، وكانت تعيد قذفه بها وهي غارقة في الضحك.

بقيا مستلقيين على ظهرهما لوقت طويل، وكان يزداد ذهولاً كلما فارقتة النشوة، فيما هي هادئة، وشبه هامدة، لكنها كانت تدعو الله ألا يجعلها تنفجر بالضحك دون سبب، مثلما يحدث لها كلما فقدت السيطرة على نفسها بفعل خمر اليانسون. تحدثا لشغل الوقت. تكلمتا

عن نفسيهما ، وعن حياتيهما المختلفتين ، وعن المصادفة التي لا تصدق في كونهما عارين داخل قمرة مظلمة في سفينة متوقفة ، في الوقت الذي كان عليهما ان يفكرا بانه لم يبق لدهما متسع من الوقت إلا لانتظار الموت . لم تكن قد سمعت يوماً بانه كان على علاقة بامرأة ، ولو بامرأة واحدة ، في مدينة يشيع فيها كل شيء قبل حدوثه . قالت له ذلك عرضاً ، فرد عليها مباشرة ودون أية ارتعاشة في صوته :

ـ لقد احتفظت بعذريتي من اجلك .

ما كانت ستصدق ذلك على أية حال ، حتى ولو كان صحيحاً ، لان رسائله الغرامية كانت مصنوعة من عبارات كتلك التي لا تكمن قيمتها في معناها ، وانما في قدرتها على الابهار . لكنها أعجبت الشجاعة التي قال فيها ذلك . وتساءل فلوريتينو اريثا بدوره بغتة حول الأمر الذي ما كان يتجرأ على التفكير فيه : أي نوع من الحياة السرية مارست على هامش حياتها الزوجية . ولم يكن ليفاجأ بأي شيء ، لانه كان يعلم ان النساء مثل الرجال في مغامراتهن السرية : يلجأن إلى الخيل ذاتها ، والمكائد المبالغتة ذاتها ، والخianات بلا وازع من ضمير ذاتها . ولكنه أحسن صنعا بعدم توجيه السؤال إليها . ففي حقبة كانت علاقاتها بالكنيسة متردية إلى حد بعيد ، سألهما كاهن الاعتراف دون أي مبرر اذا ما كانت غير وفية لزوجها يوماً ، فنهضت دون ان تجيب ، ودون ان تنتهي ، ودون ان تودع ، ولم تعد منذ ذلك الحين للاعتراف سواء مع هذا الكاهن أو مع اي كاهن آخر . أما فطنة فلوريتينو اريثا فقد جاءت بمردود غير منتظر : مدت يدها في الظلام ، وداعبت بطنه ، وخاصرته ، وعانته شبه المرداء ، وقالت : « ان لك بشرة طفل رضيع » . ثم قامت بخطوة اخيرة : بحثت عنه حيث لم يكن ، وعادت تبحث دون أوهام ، فوجدته أعزل .

قالت :

ـ انه ميت .

لقد كان يحدث له ذلك دوماً في المرة الأولى ، معهن جميعاً ، ودائماً إلى ان تعلم التعايش مع ذلك الوهم : في كل مرة عليه ان يتعلم من جديد ، كما لو كانت المرة الأولى . أمسك يدها ووضعها على صدره ، فأحست فيرمينا دائماً عند سطح الجلد تقريباً بالقلب الهرم الذي لا يكل وهو يخفق بقوة ، وسرعة وعدم انتظام قلب مراهق . فقال : « ان حباً فائضاً له من التأثير على القلب كما لقلّة الحب » . لكنه قال ذلك دون قناعة : كان خجلاً وغاضباً من نفسه ، يتلهف إلى مبرر يتيح له اتهامها باخفاقه . وكانت تعرف ذلك ، فأخذت تستفز الجسد الأعزل بمداعبات ساخرة ، كقطعة ناعمة تتلذذ بالقسوة ، إلى ان فقد القدرة على احتمال مزيد من العذاب ومضى إلى قمرته ، تابعت التفكير فيه حتى الفجر ، مقتنعة اخيراً من حبها له ،

ولكنما كان الخمر يفارقها بموجات بطيئة، كان القلق يهاجمها بانه قد غضب منها ولن يعود أبداً.

لكنه عاد في اليوم ذاته، في الساعة الحادية عشرة غير المألوفة، وكان منتعشاً ومرمماً، ووقف يتعري امامها بشيء من المباهاة. وابتهجت وهي تراه تحت الضوء الغامر كما تخيلته في الظلام: رجلاً بلا سن محدد، ذا بشرة قائمة، ومشدودة كمظلة مفتوحة، دون أي شعر سوى بعض الزغب السبط تحت الابطين وفي العانة. سلاحه عامراً، وانتبعت إلى انه لا يُظهره مصادفة وانما هو يعرضه كنصب حربي ليثبت الشجاعة في نفسه. لم يتح لها الفرصة لخلع قميص نومها الذي لبسته حين بدأ يهب نسيم الفجر وسبب لها تسرعه كمبتدىء ارتعاشة عطف، لكنها لم تزعجها، اذ لم يكن من السهل عليها في حالات كتلك التمييز بين العطف والحب. ومع ذلك فقد أحست آخر الأمر بالخواء.

كانت المرة الأولى التي تمارس فيها الحب منذ اكثر من عشرين سنة، وقد مارسته مدفوعة بفضول التعرف إلى كنهه في سنها وبعد عطالة طويلة الأمد. لكنه لم يتح لها الوقت الكافي لتعرف ما اذا كان جسدها يحبه أيضاً. لقد كان سريعاً وحزيناً، وفكرت: «هأنحن ذا قد افسدنا كل شيء الآن». لكنها كانت مخطئة: فرغم خيبة املهما، ورغم ندمه لبلادته وتأنيبها نفسها لجنون اليانسون، لم يفترقا عن بعضهما للحظة واحدة خلال الأيام التالية. ولم يغادرا القمرة إلا قليلاً لتناول الطعام. وكان القبطان ساماريتانو، الذي يكتشف بالغريزة أي سر مخبأ في سفينته، يبعث اليهما بالوردة البيضاء كل صباح، ويأمر بعزف موسيقى من زمنهما، ويعد لهما أصنافاً من الطعام بطريقة لا تخلو من مزاح، وذلك بان يضيف اليها مواد مهيجة. ولم يحاولا ممارسة الحب إلا بعد وقت طويل، حين جاءهما الالهام دون ان يسعيا في طلبه. لقد كانا يكتفيان بسعادة وجودهما معاً.

لم يفكرا بالخروج من القمرة لولا ان القبطان بعث اليهما يخبرهما بان السفينة ستصل بعد الغداء إلى ميناء لادورادا، الميناء الاخير، بعد احد عشر يوماً من السفر. ورأت فيرمينا داثا وفلورينتينو اريثا من القمرة رابية البيوت المضاعة بشمس شاحبة، وظنا بانها توصلا لمعرفة سبب تسمية البلدة بهذا الاسم، لكن الأمر ما لبث ان بدا لهما أقل وضوحاً حين أحسا بالحر الذي يلهمث مثل مراجل السفينة، ورأيا اسفلت الشوارع وهو يفور. ثم ان السفينة لم تتوقف هناك، وانما رست عند الضفة المقابلة، حيث المحطة النهائية لقطار سانتافي.

غادرا مخبأهما فور نزول المسافرين إلى البر. وتنفتت فيرمينا داثا هواء الخلاص الطيب في الصالون الخاوي، وراقب كلاهما من حافة السفينة الحشود الصاخبة التي كانت تبحث عن أمتعتها في عربات القطار الذي بدا أشبه بدمية. كان يمكن الاعتقاد بانهم قادمون من

اوروبا، وخصوصاً النساء اللواتي كن يرتدين المعاطف الشمالية وقبعات القرن الماضي التي كانت تشكل نقيضاً للقيظ الاغبر. وكانت بعض النسوة يزين شعورهن بازهار بطاطا ذابلة بفعل الحر. انهن قادمات من السهل الانديزي بعد رحلة في القطار عبر سهوب حاملة، ولم تسنح لهن الفرصة بعد لاستبدال ملابسهن بما يتلائم مع جو الكاريبي.

وسط صخب السوق، كان ثمة رجل عجوز يخرج صيصاناً من جيوب معطفه الذي كمعطف متسول. لقد ظهر فجأة، شاقاً طريقه وسط الحشود بمعطف مرقع لا بد انه كان لشخص اكثر منه طولاً وبدانة. خلع قبعته ووضعها على الرصيف ليلقي بها نقوداً من يشاء الالقاء، وراح يُخرج من جيوبه حفلات من صيصان لينة وباهتة بدت وكأنها تتكاثر بين اصابعه. وبدأ رصيف الميناء خلال لحظة وكأنه مفروش بالصيصان المرتعدة التي ترقزق في كل مكان، بين المسافرين المتعجلين الذين يدوسونها دون ان يشعروا بها. وفيما فيرمينا داثا مسحورة بالمشهد الرائع الذي بدا وكأنه يجري على شرفها، لانها الوحيدة التي كانت تراقبه، لم تنتبه متى بدأ المسافرون في رحلة العودة يصعدون الى السفينة. لقد انتهت حفلتها: اذ رأت بين القادمين عدداً كبيراً من الوجوه المعروفة، منهم بعض الاصدقاء الذين رافقوها في حدادها منذ وقت قريب، فسارعت إلى اللجوء مجدداً في القمرة. وجدها فلوريتينواريثا مدعورة: كانت تفضل الموت على ان يكتشفها جماعتها وهي في رحلة متعة، ولما يمض على موت زوجها سوى هذا الوقت القليل. وقد تأثر فلوريتينواريثا شديد التأثر لجزعها، مما جعله يعدها بالتفكير في وسيلة لحمايتها غير السجن في القمرة.

لقد خطرت له الفكرة فجأة اثناء تناولهم العشاء في صالة الطعام الخاصة. كان القبطان قلقاً لمشكلة يريد ان يناقشها منذ زمن طويل مع فلوريتينواريثا، الذي كان يتجنب الخوض في هذا الحديث دوماً بذريعة عادية: «بامكان ليونا كاسياني تدبر هذه الامور خيراً مني». ولكنه استمع اليه هذه المرة. المسألة هي ان السفن تشحن البضائع في صعودها، ولكنها تعود فارغة في رحلة العودة، بينما يكاد يحدث العكس بالنسبة للمسافرين، وقال: «هذا مع افضلية البضائع، لان أجور شحنها اعلى اضافة إلى انها لا تأكل». كانت فيرمينا داثا تتناول العشاء بلا شهية، ضجرة من المناقشة الخافتة بين الرجلين حول ضرورة اقرار فروق في التعرفة. استمع فلوريتينواريثا حتى النهاية، وحيث فقط وجهه سؤلاً بدأ للقبطان على انه فكرة الخلاص، اذ قال:

- ايمكننا، نظرياً، القيام برحلة مباشرة بلاحولة ولا مسافرين، ودون التوقف في أي ميناء، ودون أي شيء؟

وقال القبطان ان ذلك ممكن نظرياً فقط، لان لدى ش.ك.م.ن. التزامات عمل يعرفها

فلورينتينو اريثا افضل من سواه، وهي ملتزمة بعقود لشحن البضائع والركاب والبريد وأشياء أخرى كثيرة لا يمكن تجنب معظمها. والسبيل الوحيد الذي يتيح القفز فوق كل شيء هو وجود مصاب بالوباء على متن السفينة. لان السفينة ستعتبر حينئذ محجورة صحيا، وسترفع الراية الصفراء وتبحر في حالة طواريء. لقد اضطر القبطان ساماريتانو لعمل ذلك عدة مرات بسبب اصابات الكوليرا الكثيرة في قرى النهر، رغم ان السلطات الصحية كانت تجبر الاطباء فيما بعد على اصدار وثائق تثبت ان الحالة ليست الا ديزنطاريا عادية. ثم ان راية الوباء الصفراء رفعت كثيرا عبر تاريخ النهر للتهرب من الضرائب، أوللتخلص من مسافر غير مرغوب فيه، أوللحيولة دون عمليات التفتيش غير الملائمة. وجد فلورينتينو اريثا يد فيرمينا دائما تحت المائدة، وقال:

حسنًا. فلنفعل هذا.

فوجيء القبطان، ولكنه بغريزة الثعلب العجوز التي يتمتع بها، رأى كل شيء واضحًا في الحال. فقال:

- أنا أمر في هذه السفينة، ولكنك تأمر علينا، فاذا كنت تتكلم بجحد، اعطني الامر مكتوبا، وستنتقل الان في الحال.

كان جديا بالطبع، ووقع فلورينتينو اريثا الامر. فالجميع يعلمون في نهاية المطاف ان الكوليرا لم تنته بعد، رغم احصائيات السلطات الصحية المتفائلة. أما بالنسبة للسفينة فلا وجود لاية مشكلة. تم تحويل البضائع القليلة لنقلها في سفينة أخرى، وقيل للمسافرين ان عطلا طرأ على المحركات، وانهم سينقلونهم في سفينة تابعة لشركة أخرى في الصباح. ولم يجد فلورينتينو اريثا ما يمنع من اقتراف هذه الامور في سبيل الحب، اذا كانت تقترب لاسباب كثيرة غير اخلاقية، وغير وقورة احيانا. والرجاء الوحيد الذي تقدم به القبطان هو التوقف في ميناء بوپرتوناريه، لاصطحاب من ترافقه في الرحلة: فقد كان له قلبه المخبأ أيضا.

وهكذا أبحرت وفاء الجديدة عند فجر اليوم التالي، بلا بضائع ولا مسافرين، فيما راية الكوليرا الصفراء تحقق طربا على صاريها الاكبر. وعند الظهر التقطوا من ميناء بوپرتوناريه امرأة أطول من القبطان وأضخم منه، ذات جمال فظيع، لاتنقصها سوى اللحية كي تتعاقد للعمل في سيرك. زينايدا ينفيس، لكن القبطان كان يدعوها محسوستي: انها صديقة قديمة، اعتاد حملها من أحد الموانئ وتركها في ميناء آخر، وما ان صعدت الى السفينة حتى هبت ريح شديدة مواتية. وفي ذلك الحجر الكثيب، استعاد فلورينتينو اريثا الحنين لذكرى روسالبا وهو يرى قطار انفيغا دويصعد بمشقة على الطريق القديم الذي كانت تسلكه البغال، وهطل وابل من المطر الامازوني، سيستمر طوال الرحلة تتخلله انقطاعات قصيرة. ولكن احدا لم

يهتم لذلك : اذ ان للحفلة العائمة سقفها الخاص . في تلك الليلة ، وكمساهمة شخصية في الحفلة ، نزلت فيرمينا داثا الى المطابخ ، وسط تشجيع طاقم السفينة ، وأعدت طبقاً مبتكراً للجميع ، عمده فلوريتينو اريثا باسم : باذنجان الحب .

كانوا يلعبون الورق خلال النهار ، ويأكلون حتى التخمّة ، وينامون قيلولات غرائبية تستنفد قواهم ، وما ان تغيب الشمس حتى يطلقون الموسيقى ويشربون خمر اليانسون مع السلمون الى ما بعد الارتواء . لقد كانت رحلة سريعة ، في السفينة الخفيفة والمياه الطيبة ، التي تحسنت بالفياضانات الرافدة من الجبال ، حيث هطل مطر غزير في ذلك الاسبوع كالمنطق الذي هطل على طول مجرى النهر . وكانوا يطلقون لهم في بعض القرى مدافع الرحمة لافزع الكوليرا ، فيردون شاكرين بجوار حزين . وكلما التقوا بسفينة تابعة لاية شركة نهريّة ، كانت تبادلهم اشارات المواساة . وفي بلدة ماغانغيه ، حيث ولدت ناديا ، حملوا خطبا لبقية الرحلة .

فزعت فيرمينا داثا حين بدأت تحس بصفارة السفينة تدوي في اذنها السليمة ، ولكنها في اليوم الثاني من تناول خمر اليانسون ، أصبحت تسمع جيداً بكلمات اذنيها . واكتشفت ان للازهار رائحة اقوى بكثير من رائحتها السابقة ، وان العصافير تغرد في الصباح افضل بكثير من تغريدها السابق ، وان الله خلق اطومة ووضعها عند ضفة تامالاميكي لتوقظها فقط .

سمعها القبطان ، فحرف السفينة عن مسارها ، ورأوا اخيراً الام الضخمة وهي تُرضع صغيرها على ذراعيها . لم تتبه فيرمينا كما لم يتبه فلوريتينو كيف اندجما معا الى هذا الحد : كانت تساعده في ارتداء سترته ، وتستيقظ قبله لتنظف بالفرشاة اسنانه الاصطناعية التي يتركها في كأس الماء حين ينام ، وحلت مشكلة النظارات ، لان نظارته كانت تناسبها تماماً للقراءة ورفو الجوارب . وعند استيقاظها في صباح أحد الايام ، رأت في الظلمة يجيئ زراً لقميمصه ، فسارعت لتفعل ذلك بنفسها ، قبل ان يكرر العبارة الروتينية عن حاجته لزوجتين .

والشيء الوحيد الذي طلبته هي منه كان ان يضع لها كأس حجامه لآلم أصاب ظهرها .

ومن جهة اخرى ، كان فلوريتينو اريثا يتحرق شوقاً للعزف على كمان الفرقة الموسيقية ، وقد استطاع ان يعزف لها فالس الربة المتوجة بعد ان تدرب عليه في نصف نهار ، وعزفه خلال ساعات وساعات ، الى ان اوقفوه مكرها . وفي احدى الليالي ، استيقظت فيرمينا داثا للمرة الاولى في حياتها مخنقة ببكاء لم يكن وليد غضب وانها بكاء حزن ، لذكرى العجوزين اللذين ماتا بضربات مجذاف صاحب القارب الذي كانا فيه . أما المطر المتواصل فلم يكن يؤثر فيها ، وفكرت متأخرة بان باريس قد لا تكون كثيفة الى الحد الذي تصورته من قبل ، وان سانتافي ليست مدينة جنازات كثيرة تجوب الشوارع فقط . ووسع من افاقها الحلم برحلات اخرى مع فلوريتينو اريثا في المستقبل : رحلات مجنونة ، بلا صناديق كثيرة ، وبلا التزامات اجتماعية :

رحلات حب .

أقاموا عشية الوصول حفلة كبيرة، وعلقوا اكاليل ورقية ومصابيح ملونة . كان المطر قد توقف عن الهطول عند المغيب . ورقص القبطان وزينايدا متلاصقين رقصة البولير والتي كانت تخلب القلوب في تلك السنوات . وتجراً فلوريتتينواريثا، فاقترح على فيرمينا داثا ان يرقصا فالس الانسجام، لكنها رفضت . ومع ذلك، فقد أمضت الليل وهي تضبط الايقاع بحركة من رأسها وكعبي حذائها، ووصل بها الامر في بعض اللحظات الى الرقص وهي جالسة دون ان تنتبه الى ذلك، بينما القبطان يتيه مع ممسوسته في عتمة البولير و . شربت كثيرا من الخمر مما اضطرهم لمساعدتها في ارتقاء السلام، واجتاحتها نوبة ضحك صاحب مترافقة مع دموع أثارت قلقهم جميعا . لكنها حين سيطرت على نفسها في سكون القمرة المعطرة، مارست مع فلوريتتينو حبه هادئا وصحياً . . حب جدين ملوثين، سيستقر في ذاكرتها كأفضل ذكرى من تلك الرحلة العسلية . ما عادا يشعران بنفسيهما كخطيبين حديثين، على خلاف ما كان يفترضه القبطان وزينايدا، ولا كعاشقين متأخرين . كانا يشعران وكأنهما قد اجتازا جلجلة الحياة الزوجية انصعبة، ووصلا دون لف ولا دوران الى جوهر الحب . كانا ينسابان بصمت كزوجين قديمين كوتها الحياة، الى ما وراء خدع العاطفة، الى ما وراء حيل الاوهام القاسية وسراب خيبة الأمن : الى ما وراء الحب . لقد عاشا معا ما يكفي ليعرفا ان الحب هو ان نحب في أي وقت وفي أي مكان، وان الحب يكون اكثر زخما كلما كان أقرب الى الموت . استيقظا في الساعة السادسة . كانت تعاني وجع رأس مضمخ باليانسون، وكان قلبها مذهولا لاحساسها بان الدكتور خوفينال اورينوقد رجع، اكثر بدانة وشبابا مما كان عليه حين انزلق عن الشجرة، وانه يجلس بانتظارها على الكرسي الهزاز أمام باب البيت . ولكنها كانت «باحية بما يكفي لتدرك ان ذلك لم يكن بتأثير خمر اليانسون، وانما بفعل الوصول الوشيك . قالت :

- سيكون هذا الرجوع كانه الموت .

- فوجيء فلوريتتينواريثا، لانها عبرت بما قالته عن فكرة لم تتح له العيش منذ بدأت رحلة العودة . لم يكن بإمكانه ولا بإمكانها تصور نفسيهما يعيشان في بيت آخر سوى القمرة، أو يأكلان بطريقة غير طريقة الاكل في السفينة، أو يندمجان في حياة ستكون غريبة عليهما الى الابد . لقد كان ذلك كانه الموت حقا . ولم يستطع العودة الى النوم . بقي مستلقيا في السرير، ويداه متقاطعتين وراء رقبته . وفي لحظة معينة، وخزته ذكرى اميركا فيكونيا وجعلته يتلوى ألما، فلم يستطع تأجيل الحقيقة اكثر: حبس نفسه في الحمام وبكى ماشاء له البكاء، دون تسرع، الى ان جفت دمعته الاخيرة . وحيث فقط واثته الشجاعة ليعترف لنفسه كم أحبها .

عندما استيقظا وارتديا ملابسهما للتزول الى البر ، كانت السفينة قد خلفت وراءها مجاري ومستنقعات القنال الاسباني القديم ، وكانوا يبحرون وسط انقاض السفن وبقع الزيت الميت في الخليج . وكان يوم خميس مشع يعلو قباب مدينة الفيريس المذهبة ، لكن فيرمينا دانا التي كانت تنظر الى المدينة من الشرفة ، لم تستطع احتمال عفونة امجادها ، ولا غطرسة حصونها التي تنتهكها السحالي . . لقد كانت تشعر بالرعب من الحياة الواقعية . لم يشعر هوكما لم تشعر هي ، دون ان يقول احدهما ذلك للآخر ، بالرغبة في الاستسلام بمثل هذه السهولة .

وجدا القبطان في صالة الطعام ، في حالة اضطراب لا تتفق مع عاداته المهذبة : كانت ذقنه غير حلقة ، وزيئاه محتقتين بالأرق ، وعلى جسده مازالت ملابس الليلة الماضية المضمخة بالعرق ، وكانت كلماته المضطربة تخرج مختلطة بتجشؤات خمر اليانسون . أما زينايدا فكانت ما تزال نائمة . بدأوا بتناول الفطور صامتين ، حين اقترب زورق يسير بالبرول تابع لسلطات الميناء الصحية وأمر السفينة بالتوقف .

ورد القبطان صارخا من فوق مركز القيادة على أسئلة الدورية المسلحة . كانوا يريدون معرفة نوع الوباء الذي يحملونه ، وعدد المسافرين في السفينة ، وعدد المرضى بينهم ، وما هي احتمالات انتقال العدوى الى آخرين . ورد القبطان بان السفينة تحمل ثلاثة مسافرين فقط ، وجميعهم مصابين بالكوليرا ، ولكنهم معزولون بشكل صارم ، وأن احدا لم يتصل بهم ، سواء من المسافرين الذين كانوا يصعدون الى السفينة في لادورادا او من رجال الطاقم . لكن قائد الدورية لم يطمئن ، فأمرهم بالخروج من الميناء والانتظار في مستنقع لاس ميرثيدس حتى الثانية بعد الظهر ، ريثما يجهزون لهم اجراءات الحجر الصحي على السفينة . اطلق القبطان فرقة حوذي من فمه ، وأمر عامل الدفة بإشارة من يده للدوران والعودة الى المستنقعات .

سمع كل من فيرمينا دانا وفلوريتينو اريثا مآدار من حديث وهما على المائدة ، ولكن لم يبد على القبطان انه مهتم بالامر . تابع تناول طعامه بصمت ، وكان تعكر المزاج يبدو حتى في خرقه لقوانين التمدن التي ترسخ سمعة قباطنة النهر العريقة . وخز برأس السكين البيضاء الاربع المقلية ، وحركها في الطبق مع شرائح من الموز الاخضر كان يدهسها كاملة في فمه ويمضغها بلذة متوحشة . نظرت فيرمينا دانا وفلوريتينو اريثا اليه دون كلام ، وكانها بانتظار الامتحان النهائي على مقعد مدرسي . لم يتبادلا اي كلمة خلال حوارهم مع الدورية الصحية ، ولم تخطر لهما ادنى فكرة عما سيصيب حياتيهما ، لكنهما كانا يسرفان ان القبطان يفكر من اجلهما : كان ذلك يبدو في نبض صدغيه .

وفيما هويلتهم وجبة البيض ، وصحن الموز الاخضر ، وفنجان القهوة مع الحليب ، خرجت السفينة ومراجلهما مطفأة من الميناء ، وشقت طريقها في المجاري المائية عبر مفارش الطحالب ،

ونباتات اللوتس الطافية ذات الازهار البنفسجية والاوراق الكبيرة التي لها شكل قلوب،
وعادت الى المستنقعات. كان الماء براقا بفعل عالم الاسماك الطافية على جنوبها، مينة
بديناميت الصيادين، وكنت طيور الارض والماء تحوم فوقها مطلقة صرخات معدنية. ونفذت
ريح الكاريبي من النوافذ محملة بصخب العصافير، فأحست فيرمينا داثا في دمائها خفقات
حررتها القلقة. والى اليمين، كان مصب نهر مجدلينا العظيم المعكرو والرصين يمتد حتى
الجانب الاخر من الدنيا.

عندما لم يبق في الاضباق شيء يؤكل، مسح القبطان شففيه بطرف شرشف الطاولة،
وتكلم برطانة قوضت الى الابد سمعة حسن التحدث التي عرف بها قباطنة النهر. لم يتكلم
عنها ولا عن أحد، وانما كان يحاول التوافق مع غضبه. والنتيجة التي وصل اليها بعد سلسلة
من الشتائم البربرية. هي انه لا يجد سبيلا للخروج من ورطة راية الكوليرا التي ادخلوا
انفسهم فيها.

استمع اليه فلوريتينو اريثا دون ان يطرف له رمش. ثم نظر عبر النافذة الى دائرة ساعة
لجهاز الملاحة، والى الافق الرائق، والى سماء كانون الاول التي لاتشوها غيمة، والى المياد
المواتية للابحار الى الابد، وقال:

- فلتابع قدما، قدما، قدما، ونرجع الى لاذوراد اثنائية. ارتعشت فيرمينا داثا، لانها
تصرفت على الصوت القديم المضاء بنعمة الروح القدس، ونظرت الى القبطان: كان هو
القدر. لكن القبطان لم يرها، لانه كان غارقا في قدرة فلوريتينو اريثا الرهيبه على الالهام.
وسأله:

- اتقول هذا جادا؟

فقال فلوريتينو اريثا:

- منذ ولدت لم أقل كلمة واحدة غير جدية.

نظر القبطان الى فيرمينا داثا ورأى في رموشها البريق الاول لصقيع شتوي. ثم نظر الى
فلوريتينو اريثا، بتناسكه الذي لا يقهر، وجهه الراسخ، وأرعبه ارتياحه المتأخر بان الحياة، اكثر
من الموت، هي التي بلا حدود.

سأل:

- والى متى تظن باننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والاياب الملعون؟

كان الجواب جاهزا لدى فلوريتينو اريثا منذ ثلاث وخمسين سنة وستة شهور وأحد عشر .
يوماً بلياليها . فقال :
- مدى الحياة .



Bibliotheca Alexandrina



0664711